



مجلة

جامعة الطائف

للعلوم الإنسانية

مجلة علمية محكمة



المجلد الرابع - العدد السادس عشر
جمادى الآخر ١٤٣٩ هـ - مارس ٢٠١٨ م

رقم الإيداع : ٤٧٤٣ / ١٤٣٠

ردمء : ٤٧٦٧ / ١٦٥٨

الآراء الواردة في المجلة
لا تمثل بالضرورة وجهة نظر الجامعة ولا أسرة تحرير المجلة
بل تمثل وجهة نظر الباحثين



هيئة التحرير

رئيس هيئة التحرير

أ.د. ناصر بن سعود القثامي <<

أمين التحرير

د. نايف بن سعد البراق <<

أعضاء هيئة التحرير

د. مازن بن محمد الحارثي <<

د. شدى بنت إبراهيم فرج <<

سكرتارية المجلة

أ.خالد الزهراني <<

أ.عدي السليمانى <<

ضوابط الكتابة

- البحث المستلم يجب أن يكون مدققاً إملائياً ولغوياً.
- تشمل الصفحة الأولى من البحث على عنوان البحث كاملاً، واسم الباحث او الباحثين، وصفته العلمية.
- يطبق على قائمة المراجع العربية والأجنبية نظام التوثيق بحسب (APA)
- يطبع البحث بواسطة الحاسب الآلي ببرنامج (Microsoft Word) ، ويكون على ورقة مقاس (A4) ، على وجه واحد فقط، مع ترك (٥, ٢ سم) لكل هامش.
- تكون الكتابة بالخط [Traditional Arabic] ، : العناوين الرئيسة بحجم (١٨) أسود، والمتن بحجم (١٦) عادي، والحواشي بحجم (١٢) عادي.
- يقدم الباحث ملخصاً للبحث باللغتين العربية والإنجليزية، بحيث لا تزيد كلماته عن (٢٠٠) كلمة أو صفحة واحدة.
- يتم توثيق المصادر والمراجع بذكر المصدر أو المرجع في الحاشية، بوضع رقم للحاشية في المكان المناسب.
- تكتب المراجع في قائمة منفصلة في نهاية البحث مرتبة هجائياً وفق إحدى الطرق العلمية المعتمدة، مع إيراد كامل معلومات النشر المتعلقة بالمصادر والمراجع.
- في حال استخدام الباحث برمجيات أو أدوات قياس كالاختبارات والاستبانات، أو غيرها من أدوات، فعلى الباحث أن يقدم نسخة كاملة من الأدوات التي استخدمها إذا لم ترد في متن الدراسة أو لم ترفق مع ملاحظه، وأن يشير إلى الإجراءات الرسمية التي تسمح له باستخدامها في بحثه.

شروط النشر

- أن يكون البحث المقدم أصيلاً، ومتسماً بالأصالة والابتكار، والمنهجية العلمية، وسلامة الاتجاه، وصحة اللغة، خالياً من المخالفات العقدية والفكرية.
- أن يلتزم الباحث بالأصول العلمية في العرض والتوثيق والاقتباس، والرسوم التوضيحية، والجداول والنماذج .
- أن يكون موضوع البحث ضمن مجالات المجلة وتخصصاتها.
- أن يقدم الباحث إقراراً بأن البحث لم يُنشر ولم يُقدم إلى جهات أخرى للنشر، ولن يُقدم إلى أي مجلة أخرى في حالة قبوله للنشر.
- أن لا يكون البحث مستلاً من رسالة علمية، أو كتاب، أو بحث سابق، أو متدياً على ملكية علمية.
- تخضع البحوث بعد مراجعتها من قبل هيئة التحرير إلى التحكيم العلمي من متخصصين، ويطلع الباحث على خلاصة تقارير المحكمين ليصلح بحثه وفقها أو يبين رأيه فيما لا يؤخذ منها، وتحسم الهيئة الخلاف في ذلك.
- يتحمل الباحث مسؤولية تصحيح بحثه وسلامته من الأخطاء الطباعية، والإملائية، والنحوية، وأخطاء الترقيم.
- عندما يقبل البحث للنشر تؤول حقوق النشر للمجلة، ولا يحق للباحث أن يطلب عدم نشره بعد إرساله للمحكمين.
- لا تلتزم المجلة رد البحوث التي لا تقبل للنشر.
- لا تقدم المجلة مكافآت مالية لما يُنشر فيها.
- الآراء في البحوث المقدمة للمجلة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير.

إجراءات طلب النشر:

- يتم إرسال أصل البحث على شكل ملف وورد (Word) ،، وملف (pdf) : عبر إيميل المجلة) : HSJ@tu.edu.sa، منسّقاً حسب شروط وضوابط الكتابة في المجلة. (المرفقة).
- يتم تعبئة نموذج طلب النشر مع إقرار بأن البحث لم يسبق نشره (النموذج رقم (١) .
- يتم إخطار الباحث باستلام بحثه وإحالاته لهيئة التحرير.
- لهيئة تحرير المجلة حق الفحص الأولي للبحث، وتقرير أهليته للتحكيم، أو رفضه.
- تخضع جميع البحوث، بعد إجازتها من هيئة التحرير، للتحكيم العلمي على نحو سري.
- في حال قبول البحث للنشر يتم إرسال خطاب يفيد بقبول البحث للنشر، وعند رفض نشر البحث يتم إرسال خطاب اعتذار عن قبول النشر.

- تعطى الأولوية في النشر لاعتبارات منها الأسبقية الزمنية، والضرورات التنسيقية للموضوعات.
- تُرتَّب البحوث عند النشر في أعداد المجلة وفق الاعتبارات الفنية، وليس لأي اعتبارات أخرى أي دور في هذا الترتيب.
- يتم تنسيق البحث حسب نمط المجلة المعتمد في ضوابط النشر من قبل الباحث.
- المكونات الرئيسية للبحوث العلمية المقبولة للنشر:
- لا تعتمد مجلة الجامعة نمطاً واحداً في منهجية البحث العلمي، نظراً للتنوع في طبيعة البحوث الانسانية من الكمي إلى النوعي، ومن التجريبي الميداني إلى الوصفي، إلا أن العناصر الرئيسية المشتركة بينها تتمثل في:
 - عنوان البحث، واسم الباحث/ين، والمسمى الوظيفي باللغتين العربية والأجنبية.
 - لا يرد اسم الباحث، أو الباحثين، في متن البحث أو هوامشه أو قائمة مراجعه، صراحة، أو بأي إشارة تكشف عن هويته، أو هوياتهم، وتستخدم بدلاً من ذلك كلمة "الباحث" أو "الباحثين".
 - ملخص الدراسة (باللغتين العربية والأجنبية) بحيث يجب أن يحتوي على الهدف العام للدراسة بالإضافة إلى العينة والأدوات المستخدمة، وأبرز النتائج التي توصل إليها، وأهم التوصيات بما لا يزيد عن عشرة أسطر.
 - المقدمة أو خلفية الدراسة.
 - مشكلة الدراسة وتحديد عناصرها وأسئلتها.
 - أهمية الدراسة وأهدافها.
 - الدراسات السابقة التي تقيّد موضوع الدراسة وتساعد الباحث في مناقشة نتائجه، ويلتزم الباحث بعرض الدراسات السابقة بحسب التسلسل الزمني من الأقدم للأحدث، أو العكس كل منها في فقرة واحدة توضح الهدف الرئيس لها وعينتها وأدواتها وأهم نتائجها.
 - توضيح منهجية الدراسة المناسبة لطبيعة المشكلة البحثية وتتضمن الإجراءات والبيانات الكمية أو النوعية التي مكّنت الباحث من معالجة المشكلة البحثية.
 - تحديد مجتمع الدراسة وعينتها بشكل دقيق.
 - تحديد الأدوات المستخدمة في الدراسة وتوضيح خصائصها السيكمترية.
 - توضيح نتائج الدراسة بطريقة علمية.
 - مناقشة النتائج مناقشة علمية مبنية على الإطار النظري والدراسات السابقة، بحيث تعكس تفاعل الباحث مع موضوع الدراسة من خلال ما تم التوصل إليه من استنتاجات وتوصيات مستندة إلى تلك النتائج.

المحتويات

• كلمة العدد	
١٣	الأستاذ الدكتور / ناصر بن سعود القثامي - جامعة الطائف
• قادمة رجوع الشاهد عن شهادته وأثرها في رد الشهادة" دراسة فقهية مذيبة بالتطبيقات القضائية .	
١٥	الدكتور / محمد بن فوزي عبدالله الحادر - جامعة القصيم
• مداولة الحيوان ، الأحكام والأثر - دراسة فقهية مقارنة .	
٥١	الدكتور / محمد أمين عبد الرزاق بارودي - جامعة الطائف
• أثر تداخل حروف الصفات في توجيه الموهوم من الآيات ، دراسة في كتاب مجاز القرآن - لأبي عبدة معمر بن المنني	
١٠٣	الدكتور / فادي بن محمود الرياحنة - جامعة طيبة بالمدينة المنورة
• نصوص أصولية من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ) ، جمعا ودراسة	
١٦٣	الدكتور / فهد بن عبدالله المنيع - جامعة المجمعة
• الأحاديث الواردة في التائي الممنوع ، جمع ودراسة ، من خلال كتب السنة.	
٢٣٣	الدكتور / بدر بن حمود بن ربيع الرويلي - جامعة الحدود الشمالية
• القضاء والقضاة في المدينة المنورة خلال العصر العباسي في الفترة (١٣٢هـ - ٧٥٠م) إلى (٣٣٠هـ - ٩٤١م).	
٢٧٣	الدكتور / عذاري بنت إبراهيم الشعبي - جامعة الملك فيصل بالاحساء
• المسائل النحوية التي حكم عليها سيبويه بالقلّة عرضاً ودراسة .	
٣١٥	الدكتور / مشعان بن نازل الجابري - جامعة طيبة بالمدينة المنورة
• جماليات الوصف - في شعر سحيم عبد بني الحسحاس.	
٣٦٩	الدكتور / حمد فهد محمد جنبان القحطاني - جامعة الطائف
• اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو دور التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم .	
٤١٩	الدكتور / خالد عواض عبدالله الشبتي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
• المقارنة بين النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية في معالجة أثر التخمين عند تقدير المؤشرات الإحصائية للفقرات والأفراد في اختبار الصواب والخطأ	
٤٦٥	الدكتور / محمد موسى الشمراني - جامعة الطائف

كلمة العدد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أما بعد .
فإن جامعة الطائف وهي تفاخر بمنجزاتها وتتطلع بعطائها المستمر ورؤيتها
الطموحة لتحقيق الريادة والتميز لتولي مجال البحث العلمي اهتمامها البالغ ودعمها
المتواصل إذ هو طريق الابتكار وسبيل الإبداع .

ويأتي في ذلك ما تقدمه مجلة جامعة الطائف للعلوم الإنسانية من مساهمة بحثية
فاعلة أتت ثمارها خلال أعوام متتالية في دعم عجلة البحث العلمي والنشر المتميز
خدمة للباحثين والباحثات .

ويسعدني اليوم أن أقدم للإصدار السادس عشر من المجلد الرابع لمجلة
جامعة الطائف للعلوم الإنسانية والذي حرصنا فيه على تنوع موضوعاته البحثية
واختلاف تخصصاته العلمية فقد شمل العدد (علوم الشريعة والأنظمة واللغة
العربية والأدب والتاريخ والتربية) في بحوث رصينة في محتواها قيمة في مادتها
لعدد من الباحثين المتميزين من أعضاء هيئة التدريس في عدد من جامعات المملكة
(جامعة الطائف - جامعة القصيم - جامعة المجمعة - جامعة طيبة - جامعة
الحدود الشمالية - جامعة الاحساء - وجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض)
مما يعطي المجلة توسعا كبيرا سيكون له الأثر بإذن الله في تحقيق رؤية المجلة وطموحها
وقد خضعت البحوث المقدمة للتحكيم العلمي وفق سياسة المجلة وقوانينها والتي تمت
إجازتها من قبل أعضاء هيئة التحرير .

ولا يسعني في نهاية هذه الكلمة إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير لمعالي مدير
الجامعة أ د حسام بن عبد الوهاب زمان على دعمه واهتمامه البالغ بالمجلة ومتابعته
الحيثية والشكر بعد لوكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي على اهتمامه
ودعمه للمتواصل .

كما أخص بالشكر زملائي أعضاء هيئة التحرير على مساهمتهم الفاعلة والعلمية في خدمة المجلة وبحوثها، كما أشكر الفريق الإداري بالمجلة على جهوده المبذولة في ترتيب وإخراج هذا العدد المتميز .

كما أشكر الباحثين على ثقتهم في مجلة جامعة الطائف للعلوم الإنسانية سائلًا الله عز وجل أن يكمل الجهود بالتوفيق والنجاح .

أعضاء هيئة التحرير
عنهم رئيس هيئة تحرير المجلة
أ.د. ناصر بن سعود القثامي

قادة رجوع الشاهد عن شهادته وأثرها في ردّ الشهادة

دراسة فقهية مذيبة بالتطبيقات القضائية^(١)

الدكتور/ محمد بن فوزي عبدالله الحادر

أستاذ الفقه المشارك بكلية الشريعة والدارسات الإسلامية

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

جامعة القصيم

(١) يشكر الباحث جامعة القصيم على دعمها لهذا البحث ممثلة بعمادة البحث العلمي.

الملخص:

تعتني هذه الدراسة بجانب من الجوانب التي تقدر في الشهادة، والتي كانت مثاراً للخلاف بين الفقهاء في بعض جوانبها دون بعض، ألا وهي رجوع الشاهد عن شهادته، وأثرها في ردّ الشهادة. وتظهر أهميتها من خلال ما انتشر في عصرنا الحاضر - وفي المحاكم بشكل أخص - في تجرؤ الشاهد في أداء الشهادة، الأمر الذي قد يؤدي به الأمر إلى رجوعه عن شهادته، فكان لزاماً على الباحث بحث هذه المسألة والوقوف على الآثار التي تنتج عن رجوعه، ومعرفة أحوال رجوعه عن شهادته، والوقوف على الآثار المترتبة على رجوعه عن شهادته بعد صدور الحكم، مع الجانب التطبيقي من خلال الرجوع لبعض التطبيقات القضائية في محاكم المملكة العربية السعودية.

Summary:

This study takes care of aspects of the martyrdom in the testimony, which was a source of disagreement between the jurists in some aspects without some, namely the return of the witness on his testimony, and its impact in the response to the certificate. And show their importance through what has spread in our time - and in the courts in particular - in the daring witness in the performance of the certificate, which may lead to the return of his testimony, was required to research the researcher and the issue and to identify the effects that result from his return, and know the conditions To review the implications of his return from his testimony before the verdict, and to examine the implications of his return from his testimony after the verdict, along with the practical aspect through recourse to some judicial applications in the courts of the Kingdom of Saudi Arabia.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد :

تعتبر الشهادة من أهم طرق الإثبات وأقدمها في المجتمعات، ولقد كثر في زماننا الحاضر من يتجرأ على أداء الشهادة، الأمر الذي قد يؤدي به إلى رجوعه عن شهادته.

فعمد الباحث إلى بحث جانب من جوانب الشهادة، وهي قادحة رجوع الشاهد عن شهادته وأثرها في ردّ الشهادة، والوقوف على الآثار التي تنتج عن رجوعه وأحوال رجوعه، إما إن كان الرجوع قبل الحكم أو بعد الحكم قبل الاستيفاء، أو بعد الحكم بعد الاستيفاء، وسواء كان الرجوع في الحدود والقصاص أم في الأموال.

وهذا البحث يعتني ببيان جانب من الجوانب التي تقدح في الشهادة، والتي كانت مثاراً للخلاف بين الفقهاء في بعض جوانبها دون بعض، ألا وهي رجوع الشاهد عن شهادته، وأثرها في ردّ الشهادة.

مشكلة الدراسة :

تكمن مشكلة الدراسة في الإجابة على الأسئلة الآتية :

١. هل رجوع الشاهد عن شهادته مؤثراً في ردها ؟
٢. ما أثر رجوع الشاهد عن شهادته ردّ الشهادة ؟

أهمية الدراسة :

تظهر أهمية هذه الدراسة من خلال ما انتشر في عصرنا الحاضر وفي المحاكم بشكل أخص في تجرؤ الشاهد في أداء الشهادة، الأمر الذي قد يؤدي به الأمر إلى رجوعه عن شهادته، وقد يكون قبل صدور الحكم، وقد يكون بعد صدور الحكم، فكان لزاماً على الباحث بحث هذه المسألة والوقوف على الآثار التي تنتج عن رجوعه، للمساهمة ولو بشكل بسيط في حل مشكلة من المشاكل التي يعاني منها القضاة في المحاكم في عصرنا الحاضر.

الدراسات السابقة :

تناول الفقهاء المتقدمون من أصحاب المذاهب المعتبرة مسألة رجوع الشاهد عن شهادته، وأثر ذلك، ونصّوا عليها في كتاب الشهادة، وقد وجدت - بعد البحث - بعض من أفرد هذه المسألة من المعاصرين ببحث مستقل:

١. رسالة ماجستير بعنوان: القدح في البيئة في القضاء، محمد محمد مختار الشنقيطي، الجامعة الإسلامية، غير منشورة.
٢. بحث منشور بعنوان: الرجوع عن الشهادة وأحكامه في الفقه الإسلامي، عبدالرحمن ابن عثمان الجلعود، مجلة جامعة الملك سعود، م١٧، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية، ١٤٢٥هـ.
٣. رسالة ماجستير بعنوان: أثر الرجوع عن الشهادة على الأحكام الجنائية في ضوء الفقه الإسلامي وتطبيقاته من واقع القضايا بمحاكم الرياض، محمد بن عبدالله البعيث، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية، ١٤٢٤هـ.

وما يميز هذه الدراسة عن سابقتها بأنها بينت القادحة التي نتجت من رجوع الشاهد عن شهادته ومدى تأثيرها على بنية الشهادة، من منع قبولها، وبناء الحكم عليها، أو عدم اعتبارها، سواء أكانت شهادة، أم يميناً، أم إقراراً.

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي :

١. معرفة أحوال رجوع الشاهد عن شهادته.
٢. الوقوف على الآثار المترتبة على رجوع الشاهد عن شهادته قبل صدور الحكم وبعده.
٣. الجانب التطبيقي من خلال الرجوع لبعض التطبيقات القضائية في محاكم المملكة العربية السعودية.

منهج البحث :

يقوم البحث على المنهج العلمي القائم على :

١. المنهج الاستقرائي؛ وهو المنهج الرئيس في هذا البحث؛ لأنّ استخلاص أثر رجوع الشاهد عن شهادته يقتضي استقراء ما جاءت به النصوص الشرعية،

وما أورده الفقهاء في هذا الباب.

٢. المنهج الاستنباطي؛ وقد اعتمدت عليه في تحليل وتعليل ما تمّ استقراؤه.

٣. الاستنتاج القائم على اختزال معاني النصوص للتوصل لبيان أثر رجوع الشاهد عن شهادته.

خطة البحث:

اقتضى البحث في هذه القضية أن يكون في مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة، على النحو الآتي:

المبحث الأول: التعريف بمفردات العنوان

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: تعريف القاعدة
- المطلب الثاني: تعريف الشهادة
- المطلب الثالث: تعريف الرجوع عن الشهادة

المبحث الثاني: مشروعية القدح في الشهادة إذا رجع الشاهد عن شهادته وركنه وشرطه
وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: مشروعية القدح في الشهادة إذا رجع الشاهد عن شهادته
- المطلب الثاني: ركن رجوع الشاهد عن شهادته وشرطه

المبحث الثالث: أحوال الرجوع عن الشهادة، وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: الرجوع عن الشهادة قبل الحكم
- المطلب الثاني: الرجوع عن الشهادة بعد الحكم

المبحث الرابع: التطبيقات القضائية لرجوع الشاهد عن شهادته

الخاتمة: وتتضمن أبرز النتائج

والله من وراء القصد، وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم،
موجباً لرضوانه، والله أعلم.

المبحث الأول

التعريف بمفردات العنوان

يتضمن هذا المبحث تعريفاً بأهم المصطلحات الواردة في البحث، وهي: القادحة، الشهادة، الرجوع عن الشهاد، وبيان ذلك في ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول

تعريف القادحة

أولاً: القادحة في اللغة:

قَدَحَ يَقْدَحُ قَدْحًا إِذَا مَا غَرَفَ. وَيُقَالُ: أَعْطَنِي قُدْحَةً مِنْ مَرَقَتِكَ أَيْ غُرْفَةٍ. وَالْمَقْدَحُ: مَا يُعْرَفُ بِهِ، وَأَنْشُد. لَنَا مَقْدَحٌ مِنْهَا وَلِلْجَارِ مَقْدَحٌ. وَيُقَالُ: هُوَ يَبْدُلُ قَدِيحٌ قَدْرَهُ يَعْنِي مَا غُرِفَ مِنْهَا، قَالَ: وَالْمَقْدَحَةُ: الْمَغْرِفَةُ. قَالَ: وَيُقَالُ: قَدَحَ فِي الْقَدْحِ يَقْدَحُ وَذَلِكَ إِذَا خَزَقَ فِي السُّهْمِ بِسِنِّ النَّصْلِ. (١)

وَالْقَدْحُ: فِعْلٌ الْقَادِحُ بِالزَّنْدِ وَبِالْقَدْحِ لِيُورِي. وَالْقَدْحُ: أَكَالٌ يَقَعُ فِي الشَّجَرِ وَيَفِي الْأَسْنَانَ. وَالْقَادِحَةُ: الدُّودَةُ الَّتِي تَأْكُلُ الشَّجَرَةَ وَالسِّنَّ. (٢)

وَالْقَدْح: مصدر قدحت النار أقدحها قدحا من الزند وغيره. وقدحت في نسب الرجل إذا طعنت فيه، وقدحت العظم إذا نقرته بجديدة لتخرج ما فيه من فساد. (٣)

- (١) ، محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٢٧٠هـ)، تهذيب اللغة تحقيق عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١١م ٢٢/٤، ، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٢٩٢هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ٢٩٤/١
- (٢) ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، كتاب العين تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ٤٠/٣
- (٣) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٢٢١هـ)، جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ م ٥٠٤/١

وقدح الماء من أسفل البئر، ويقال: هذا ماء لا ينام قادحة إذا وصفه بالقلّة، وبئر قدوح: لا يوجد ماؤها إلا غرفة غرفة، وقدح القداح العين: أخرج ماءها الفاسد^(١).

ثانياً: القادحة في الاصطلاح:

القادحة اصطلاحاً لا يخرج معناها عن المعنى اللغوي، فهي ما تكون سبباً في التأثير على البينة، ومدعاة إلى عدم قبولها، وعدم بناء الحكم عليها.

ويشهد لهذا المعنى استعمال الفقهاء لمصطلح القادحة، ومن ذلك:

- جاء في نهاية المطالب: بينة المدعي عليه في مسلك بعض الأئمة مثبتة له ملكاً، وعلى هذا الوجه انتهى التفريع إلى سماع بينته ألوا، وهي عند بعض الأئمة قادحة في بينة المدعي المعارضة^(٢). أي مؤثرة في البينة

وجاء في لسان الحكام شهادة العدو على عدوه هل تقبل أو لا تقبل، والصحيح أنها تقبل سواء كانت العداوة دينية أو دنيوية فإنها لا تقدح بالعدالة^(٣). أي لا تؤثر فيها

وجاء في المحرر في الفقه: "وقال ابن عقيل: التهم إنما تقدح إذا كانت تهمة قادحة لفرط الإشفاق في الأبوة"^(٤).

وقد اشتهر أيضاً هذا المصطلح عند المحدثين وعرفوها: بأنه كالإرسال الخفي، فتؤدي بوجودها الصحة الظاهرة، وتمنع معها الحكم والعمل معا^(٥).

(١) الزمخشري، أبو القاسم، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ، ج ٢، ص ٥٥، الزبيدي، مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، ج ٧، ص ٤٣. صاحب بن عباد، المحيط باللغة، ج ١، ص ١٦٣.

(٢) - الجويني، نهاية المطالب في دراية المذهب، دار المنهاج، ١٩/٩٦، ١٤٢٨هـ.

(٣) - الحلبي، أحمد بن محمد لسان الحكام في معرفة الأحكام، الطبعة الثانية، ١/٢٤٣.

(٤) - ابن تيمية، عبد السلام بن عبد الله، المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٤هـ، ج ٢، ص ٣٠٠.

(٥) أبي الخير الشافعي، شمس الدين، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، تحقيق عبد الكريم فهيد، ص ٢٩، وللإستزادة يمكن الرجوع إلى مفهوم الحديث الصحيح عند المحدثين لبيان معنى العلة القادحة.

المطلب الثاني

تعريف الشهادة

أولاً: الشهادة في اللغة:

(شَهِدَ) الشَّيْنُ وَالْهَاءُ وَالذَّالُّ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ، لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ فُرُوعِهِ عَنِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ. مِنْ ذَلِكَ الشَّهَادَةُ، يَجْمَعُ الْأَصُولُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مِنَ الْحُضُورِ، وَالْعِلْمِ، وَالْإِعْلَامِ. قَالَ تَعَالَى ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) يُقَالُ شَهِدَ يَشْهَدُ شَهَادَةً. وَالْمَشْهَدُ: مَحْضَرُ النَّاسِ.^(٢)

الشَّهَادَةُ أَنْ تَقُولَ: أَسْتَشْهَدُ فَلَانٌ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَقَدْ شَهِدَ عَلَيَّ فَلَانٌ بِكَذَا شَهَادَةً، وَهُوَ: شَاهِدٌ وَشَهِيدٌ. وَالْتَشْهُدُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ قَوْلِكَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَفَلَانٌ يَشْهَدُ بِالْخُطْبَةِ. مِنْهُ. وَالْمَشْهَدُ: مَجْمَعُ النَّاسِ، وَالْجَمْعُ: مَشَاهِدٌ. وَمَشَاهِدُ مَكَّةَ: مَوَاضِعُ الْمَنَاسِكِ، وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَشَهِدِ وَمَشْهُودٌ^(٣)

وَالشَّهَادَةُ: خَبْرٌ قَاطِعٌ. تَقُولُ مِنْهُ: شَهِدَ الرَّجُلُ عَلَى كَذَا، وَرَبِمَا قَالُوا شَهِدَ الرَّجُلُ، بِسُكُونِ الْهَاءِ لِلتَّخْفِيفِ، عَنِ الْإِخْفِشِ. وَقَوْلُهُمْ: أَشْهَدُ بِكَذَا، أَيِ احْتَفَافٍ قَالِ تَعَالَى ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(٤)،

وَالْمَشَاهِدَةُ: الْمَعَايِنَةُ. وَشَهِدَهُ شُهُودًا: أَيِ حَضَرَهُ، فَهُوَ شَهِيدٌ. وَقَوْمٌ شُهِدُوا، أَيِ حُضُورٌ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ، وَشُهِدٌ أَيْضًا مِثْلُ رَاكِعٍ وَرُكْعٍ. وَشَهِدَ لَهُ بِكَذَا شَهَادَةً، أَيِ أَدَّى مَا عِنْدَهُ مِنَ الشَّهَادَةِ، فَهُوَ شَهِيدٌ، وَالْجَمْعُ شَهِيدٌ، مِثْلُ صَاحِبٍ وَصَحْبٍ وَسَافِرٍ وَسَفْرٍ. وَبَعْضُهُمْ يَنْكُرُهُ. وَجَمَعَ الشَّهِيدَ شُهِودًا وَأَشْهَادًا. وَالشَّهِيدُ: الشَّاهِدُ، وَالْجَمْعُ الشُّهَدَاءُ. وَأَشْهَدْتُهُ عَلَى كَذَا فَشَهِدَ عَلَيْهِ، أَيِ صَارَ شَهِيدًا عَلَيْهِ.^(٥)

(١) سورة النور، آية ٢

(٢) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)،

تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. (٣/ ٢٢١)

(٣) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، كتاب العين ٣/ ٣٩٨

(٤) سورة البقرة، آية ١٨٥

(٥) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ٢/ ٤٩٤

والشاهد: العسل في شمعها، ويجمع على الشهاد. (١)

ثانياً: الشهادة في الاصطلاح:

اختلفت عبارة الفقهاء في بيان تعريفها في المذاهب الفقهية المشهورة على النحو الآتي:

١- تعريف الحنفية:

عرفها الحنفية: بأنها إخبار بحق لشخص على غيره عن مشاهدة القضية التي يشهد بها بالتحقيق وعن عيان، أي عن معاينة لتلك القضية والإشارة إليه (٢)، وقيل: هي الإخبار عن كون ما يد غيره لغيره. (٣)

وقيل إخبار عن صدق بلفظ الشهادة في مجلس القضاء والحكم وسببها في حق التحمل الشهادة، وفي حق الأداء طلب المدعي (٤)

٢- تعريف المالكية:

عرفها المالكية بقولهم هي: إخبار حاكم عن علم ليقضي بمقتضاه (٥)، قال ابن

(١) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي مجمل اللغة لابن فارس، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ص ٥١٤، الفيروزبآدي، مجد الدين بن يعقوب، القاموس المحيط، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧ هـ، ص ٣٧٢. الرازي، محمد بن عبد القادر، مختار الصحاح، كتبة لبنان، بيروت، ١٤٠٧ هـ ص ١٤٧، المقرئ، المصباح المنير، ٢٤٨/١

(٢) عثمان بن علي بن محجن البارع، فخر الدين الزيلعي الحنفي (المتوفى: ٧٤٣ هـ)، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي، الحاشية: شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يونس بن إسماعيل بن يونس الشلبي (المتوفى: ١٠٢١ هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية - بولاق، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣١٣ هـ ٢٠٦/٤

(٣) علاء الدين، أبوبكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، (المتوفى: ٥٨٧ هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ٢٦٦/٦

(٤) أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥ هـ)، البناية شرح الهداية دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ١٠٠/٩، ينظر أيضاً، أبوبكر بن علي بن محمد الحدادي العبادي الزبيدي اليمني الحنفي (المتوفى: ٨٠٠ هـ)، الجوهرة النيرة المطبعة الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٣٢٢ هـ، ٢٢٤/٢

(٥) محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، (المتوفى: ١٢٣٠ هـ)، دار الفكر ١٦٤/٤ الخرشي، محمد بن عبد الله، شرح الخرشي على مختصر خليل، تحقيق زكريا عميرات، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧ هـ، ج ٨، ص ٤. الصاوي، أحمد بن محمد، بلغة السالك لأقرب المسالك، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٤٢٨ هـ، ج ٤، ص ٦٨٢.

عرفة: هي قول بحيث يوجب على الحاكم سماعه الحكم بمقتضاه إن عدل قائله مع تعدده أو حلف طالبه.^(١)

وعرفوها أيضاً: إخبار عدل حاكما بما علم ولو بأمر عام ليقضى بمقتضاه^(٢).

- تعريف الشافعية:

عرفها الشافعية بقولهم: هي أن يخبر بها المرء صادقا بما شاهد أو سمع^(٣)، وقالوا أيضا: هي إخبار الشخص بحث على غيره بلفظ خاص، والأصل فيها الإجماع^(٤) قوله تعالى: " (وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ) ^(٥) (وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ) ^(٦)، وقيل: الشهادة خبر قاطع والشاهد حامل الشهادة ومؤديها، لأنه مشاهد لما غاب عن غيره، وقيل: مأخوذ من الإعلام^(٧)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ^(٨)

- (١) أحمد بن غانم الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، (أو غنيم) بن سالم ابن مهنا، شهاب الدين النفراوي الأزهرى المالكي (المتوفى: ١١٢٦هـ)، دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ٢/٢١٩، أبو العباس أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي المالكي بلغة السالك لأقرب المسالك المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير (الشرح الصغير هو شرح الشيخ الدردير لكتابه المسمى أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك)، (المتوفى: ١٢٤١هـ)، دار المعارف، ٤/٢٣٨
- (٢) الخلوني، أبو العباس أحمد، بلغة السالك لأقرب المسالك، المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير، دار المعارف، ج٤، ص٢٣٨.
- (٣) أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي المجموع شرح المذهب ((مع تكملة السبكي والمطيعي))، (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار الفكر، ٢٠/٢٨٦
- (٤) أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي تحفة المحتاج في شرح المنهاج، على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء، المكتبة التجارية الكبرى بمصر لصاحبها مصطفى محمد، ١٠/٢١١
- (٥) سورة [البقرة: ٢٨٢]
- (٦) سورة [البقرة: ٢٨٢]
- (٧) شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، (المتوفى: ٩٧٧هـ) دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ٦/٢٣٩ القليوبي، شهاب الدين أحمد بن سلامة، حاشيتا قليوبي وعميرة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧، ج٤، ص٤٨٤. الجمل، سليمان بن عمر العجلي، حاشية الجمل على شرح المنهج، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ، ج٨، ص٤٢٨. البكري، أبو بكر عثمان الدمياطي، حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ المعين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، ج٤، ص٤٥٢. الرملي، شهاب الدين محمد بن أبي العباس، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ، ج٨، ص٢٩٢.
- (٨) سورة [آل عمران: ١٨]

ويرد عليه: أنه لم يحدد مكان الشهادة؛ حيث إن موقعها مجلس القضاء أو مجلس الحكمين، ولم يذكر صدق الخبر، ولا المقصد من الشهادة.

٤- تعريف الحنابلة:

عرفها الحنابلة بقولهم: رهي الإخبار عما شوهد أو علم، ويلزم من ذلك اعتقاد ذلك^(١)

وذكر ابن عثيمين بقوله هي: إخبار الإنسان بما على غيره لغيره بلفظ أشهد ونحوها، فيرون أنه لا بد من إخبار بلفظ أشهد، وقد يكون الإخبار بما علمه مطلقاً، كشاهد الهلال - مثلاً - بلفظ أشهد.

وقيل: إن الشهادة إخبار الإنسان بما يعلمه مطلقاً، سواء بلفظ أشهد أو بدونه؛ ولهذا لما قيل للإمام أحمد رحمه الله: إن علي بن المديني - فيما أظن - يقول: أقول: إن العشرة بالجنة ولا أشهد، قال: إذا قال ذلك فقد شهد، فالصحيح أن الشهادة أن يخبر الإنسان بما يعلمه، سواء بلفظ أشهد أو بغيره.

والشهادة أمرها عظيم وخطرها جسيم؛ ولهذا لما قال النبي - عليه الصلاة والسلام: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» فذكر الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئاً

(١) شمس الدين محمد بن عبد الله الزركشي المصري الحنبلي شرح الزركشي، (المتوفى: ٧٧٢هـ)، دار العبيكان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، ٢٩٩/٧. إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين المبدع في شرح المقنع، (المتوفى: ٨٨٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، ٢٨١/٨. موسى بن أحمد بن موسى بن سالم بن عيسى بن سالم الحجواي المقدسي، ثم الصالحي، شرف الدين، أبو النجا الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، (المتوفى: ٩٦٨هـ) عبد اللطيف محمد موسى السبكي، دار المعرفة بيروت - لبنان، ٤٣٠/٤ الروض المربع شرح زاد المستقنع، منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (المتوفى: ١٠٥١هـ)، معه: حاشية الشيخ العثيمين وتعليقات الشيخ السعودي، ص ٧١٩. كشف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (المتوفى: ١٠٥١هـ)، دار الكتب العلمية، ٤٠٤/٦ الحجواي، شرف الدين موسى بن سالم، الإقناع لطالب الإنتفاع، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط ١، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١٨هـ، ج ٤، ص ٣٩٣. النجدي، عبد الرحمن بن قاسم، حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، ط ٢، ٥١٤٠٢هـ، ج ٧، ص ٥٨٠. الفتوحي، تقي الدين محمد بن أحمد الحنبلي، معونة أولي النهى شرح منتهى الإرادات، تحقيق عبد الملك بن دهيش، ط ١، دار خضر، بيروت، ١٤٢٦هـ، ج ٩، ص ٢١٦.

فجلس، فقال: «الأ وقول الزور، ألا وشهادة الزور»، وكررها حتى قالوا: لبيته سكت، وهي خطيرة في التحمل وفي الأداء، أما التحمل^(١)

والذي أرجحه تعريف الشيخ ابن عثيمين، فهو أشمل هذه التعريفات وأدقها.

المطلب الثالث

تعريف الرجوع عن الشهادة

أولاً: الرجوع في اللغة:

(رَجَعَ) الرَّاءُ وَالْجِيمُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ كَبِيرٌ مُطْرَدٌ مُنْقَاسٌ، يَدُلُّ عَلَى رَدِّ وَتَكَرَّرِ. تَقُولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا، إِذَا عَادَ. وَرَجَعَ الرَّجُلُ أَمْرَاتِهِ، وَهِيَ الرَّجْعَةُ وَالرَّجْعَةُ. وَالرُّجُوعُ: الرَّجُوعُ. وَالرَّاجِعَةُ: النَّاقَةُ تَبَاعُ وَيَشْتَرَى بِمَنْهَا مِثْلَهَا، وَالثَّانِيَةُ هِيَ الرَّاجِعَةُ. وَقَدْ ارْتَجَعَتْ^(٢)

رَجَعَ بِنَفْسِهِ رُجُوعًا، وَرَجَعَهُ غَيْرُهُ رَجْعًا. وَهَذَيْلٌ تَقُولُ: أَرْجَعُهُ غَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضِ الْقَوْلِ)، أَي يَتْلَاوَمُونَ. وَالرُّجُوعُ: الرَّجُوعُ. تَقُولُ: أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ فَمَا جَاءَنِي رُجُوعِي رَسُولَتِي، أَي مَرْجُوعُهَا. وَكَذَلِكَ الْمَرْجِعُ^(٣)

ثانياً: الرجوع عن الشهادة في الاصطلاح:

للفقهاء في بيان المقصود من الرجوع عن الشهادة معان كثيرة، منها: الرجوع عن الشهادة بأن يكذب نفسه ويدخله الشك^(٤). وعند البعض: هو أن يقول كنت مبطلاً فيها،

(١) محمد بن صالح بن محمد العثيمين الشرح المتمتع على زاد المستقنع، (المتوفى: ١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ - ١٤٢٨ هـ، ٣٨٩/١٥

(٢) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين معجم مقاييس اللغة، (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ٢/٤٩٠

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ٣/١٢١٦، مجمل اللغة لابن فارس المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ص ٤٢١، الزبيدي، تاج العروس، ج ٢١، ص ٦٤. المقري، المصباح المنير، ص ٢٢٠

(٤) أفندي، محمد علاء الدين، حاشية قرة عيون الأخبار تكملة رد المحتار على الدر المختار، ط ٢، دار

أي الشهادة^(١) وقيل هي: نفي ما أثبتته^(٢)، أو يقول: رجعت عما شهدت به^(٣)

وللرجوع عن الشهادة أفاضل دالة عليه، نحو:

١. قوله: شهدت شهادة زور، فإذا أقر الشاهد على نفسه بأنه قد شهد زورا وكذب في شهادته، فكان دليلا على رجوعه عن شهادته.
٢. ادعاء الشاهد الخطأ والغلط في شهادته، فإذا أدى الإنسان شهادة وبعد ذلك ادعى أنه أخطأ أو غلط في شهادته، فإن هذا يعتبر رجوعا صريحا عن شهادته^(٤).
٣. منافية الشهادة الأولى بشهادة أخرى، كمن شهد بشهادة، ثم شهد بشهادة أخرى تنافي ما شهد به بالأولى، وهذه تكون في ثلاثة أمور:
 - المشهود به: كأن يشهد على رجل بقرض، ويحكم بشهاته، ثم يشهد الشاهد نفسه بأنه قد وفاه من قبل، فهذا يأخذ حكم الرجوع عن الشهادة الأولى.
 - المشهود عليه: كأن يشهد على فلان بحق، ثم يشهد على آخر بالحق نفسه.
 - المشهود له: كأن يشهد لزيد على عمرو بحق، ثم يشهد لآخر على عمرو بالحق عينه^(٥).
٤. الزيادة أو النقصان عن الشهادة التي أدلى بها: كمن شهد على فلان بألف، ثم عاد وقال بل خمسمائة، أو ألف وخمسمائة.

الفكر، بيروت، ١٣٨٦هـ، ج٧، ص٢٤٠. الرضاع، أبو عبد الله الأنصاري، شرح حدود ابن عرفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٣هـ، ج٢، ص٦٠٢.

(١) محمد بن فرامرز بن علي الشهير بملا - أو منلا أو المولى - خسرو درر الحكام شرح غرر الأحكام (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار إحياء الكتب العربية، ٣٩١/٢

(٢) زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري البحر الرائق شرح كنز الدقائق، (المتوفى: ٩٧٠هـ)، وفي آخره: تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري (ت بعد ١١٢٨ هـ)، وبالhashية: منحة الخالق لابن عابدين، دار الكتاب الإسلامي، ١٢٧/٧

(٣) ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي رد المحتار على الدر المختار، (المتوفى: ١٢٥٢هـ) دار الفكر-بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ٥٤/٥

(٤) أفندي، حاشية قرة عيون الأخبار، ج٧، ص٢٤٠. الرمل، نهاية المحتاج، ج٨، ص٣٢٨، البيهوتي، كشف القناع، ج٦، ص٤٤٦.

(٥) البعيث، محمد، أثر الرجوع عن الشهادة على الأحكام الجنائية في ضوء الفقه الإسلامي، ص٥٣.

٥. وقد يصدر عن الشاهد بعض التصرفات غير الصريحة تشهر برجوعه عن الشهادة، نحو امتناع الشاهد عن الابتداء برجم الزاني في جريمة حد الزنا - عند من يقول بوجوب بدء الشاهد بالرجم^(١).
٦. أن يدعي الشاهد بعد الادلاء بشهادته أن بينه وبين المشهود عليه خصومة وتهديد وشتم ورمي بالمكروه، فكل ذلك يدل على العدوان بين الشاهد والمشهود عليه، فهو دلالة على رجوعه، لأن العداوة سببا في عدم قبول الشهادة^(٢).
- وأصرحها قول الشاهد: رجعت عن شهادتي^(٣).

(١) الزيلعي، تبين الحقائق، ج٢، ص١٦٨. ابن الهمام، فتح القدير، ج٥، ص١٤. الشربيني، مغني المحتاج، ج٤، ص٤٢٣. شيخه زاده، عبدالرحمن بن محمد، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، دار إحياء التراث العربي، ط. الأولى، ١٤٢٦هـ، ج٢، ص٢٩٨، الخطاب، مواهب الجليل، ج٦، ص١٩٩، الخرشي، محمد عبد الله، شرح الخرشي على مختصر خليل، دار الفكر، بيروت، ط. الثانية، ١٤٢٨هـ، ج٥، ص٢٢٠، الرملي، محمد بن أبي العباس، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار الفكر، بيروت، ط. الثالثة، ١٤٠٤هـ، ج٨، ص٢١٠، البهوتي، منصور بن يونس، شرح منتهى الإرادات، دار عالم الكتب، ط. الأولى، ١٤١٤هـ، ج٤، ص٢١٥.

(٢) ابن فرحون، إبراهيم بن محمد، تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص٢٠٨.

(٣) - الرملي، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، ج٨، ص٢١٠. القليوبي، حاشيتا القليوبي وعميرة، ج٤، ص٢٢٢. البهوتي، كشف القناع عن متن الاقتناع، ج٦، ص٤٤٢.

المبحث الثاني

مشروعية القدح في الشهادة إذا رجع الشاهد عن شهادته وركنه وشرطه

المطلب الأول

مشروعية القدح في الشهادة إذا رجع الشاهد عن شهادته

يمكننا الاستدلال على مشروعية الرجوع عن الشهادة ما ورد في الأثر عن كتاب أرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" إلى عامله على البصرة أبي موسى الأشعري "رضي الله عنه" في القضاء، تضمن فصولاً كثيرة يستند عليها القضاء الإسلامي، منه: "ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل"^(١).

ويقاس ذلك على رجوع الشاهد عن شهادته الباطلة، لأن الرجوع عن الشهادة الباطلة رجوع عن الباطل إلى الحق.

لقد دلّ العقل على مشروعية القدح في الشهادة إذا رجع الشاهد عن شهادته من ثلاثة وجوه، وبيانها على النحو الآتي^(٢):

الوجه الأول: أن الحكم بالشهادة والقضاء بها يستدعي حجيتها، وبالرجوع لا تكون كذلك، وعندها يشرع القدح فيها.

الوجه الثاني: أن الرجوع عن الشهادة بمثابة طريان ما يمنع من قبول الشهادة قبل الحكم، وذلك قادح في الشهادة، وهو هنا كذلك.

الوجه الثالث: أن رجوع الشاهد قبل الحكم بالشهادة موجب لعدم اعتبار شهادته؛ لأنه إما أن يكون كاذباً في شهادته فيجب ردّها وقبول رجوعه، وإما أن يكون كاذباً في رجوعه، فهو غير عدل، فينبغي ردّ شهادته.

وإما أن يكون واحماً وذلك يوجب سقوط شهادته؛ لخفة ضبطه، وتهمته فيها.

(١) الدارقطني، علي بن عمر، سنن الدارقطني، ط٢، بيروت، عالم الكتب، ٥١٤٠٣، ج٤، ص٢٠٦.

(٢) محمد محمد المختار، الشنقيطي، القدح في البينة في القضاء، رسالة ماجستير غير مطبوعة، ص٢٥٠.

المطلب الثاني

ركن رجوع الشاهد عن شهادته وشرطه

أولاً: ركن رجوع الشاهد عن شهادته:

إن ركن رجوع الشاهد عن شهادته: "الصيغة" بأن يتلفظ الشاهد بلفظ صريح يدل على رجوعه، ولا يوجد فيه غموض. ، فمتى ثبت للقاضي أن الشاهد قد رجع عن شهادته، بأن يقول: رجعت عما شهدت به، أو شهدت زورا، أو كذبت أو أخطأت أو أي لفظ صريح يدل على رجوعه، دل ذلك على رجوعه، وترد ويحكم عليه بعدم اعتبار شهادته.^(١)

ثانياً: شرط رجوع الشاهد عن شهادته:

حتى يثبت رجوع الشاهد عن شهادته، واعتباره قادحاً في الشهادة، وسبباً لردّها، وعدم اعتبارها، لا بد من قيام شرط لذلك، ألا وهو وقوع ذلك في مجلس القضاء، لأنها فسخ للشهادة التي أداها، فإذا اختصت الشهادة بمجلس القضاء، فالرجوع عنها كذلك. وكما أن أداء الشهادة لا بد من أن تكون في مجلس القضاء؛ لاعتبارها وبناء الحكم عليها في إثبات الحقوق، وفصل الخصومة بناءً عليها، فكذا في الرجوع عنها لا بد أن يكون ذلك في مجلس القضاء^(٢)؛ ليتحقق القاضي من ذلك، ويبني عليه القدر في الشهادة وردّها.

وهذا لأن التوبة بحسب الجريمة، فإذا كانت جريمته في مجلس القضاء جهراً، فلتكن توبته بالرجوع كذلك، ولا يمنعه الاستحياء من الناس وخوف اللائمة من إظهار الرجوع في مجلس القضاء.

(١) - ابن نجيم، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ج ٧، ص ١٢٧ أبو المعالي برهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مازة البخاري الحنفي، المحيط البرهاني في الفقه النعماني فقه الإمام أبي حنيفة، (المتوفى: ٦١٦هـ)، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م. ٥٣٩/٨، محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرناطي، أبو عبد الله المواق المالكي التاج والإكليل لمختصر خليل، (المتوفى: ٨٩٧هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٤م، ٢٤٤/٨، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري المحلى بالأثار، (المتوفى: ٤٥٦هـ)، دار الفكر - بيروت، ٥٢٧/٨، الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، وحاشية الشلبي، ٢٤٣/٤، السرخسي، المبسوط، ١٧٧/١٦.

(٢) - أبو البركات، مجد الدين، المحرر في المذهب على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٢، ص ٢٥٤. السرخسي، المبسوط، ج ١٥، ص ١٧٧. محمد ملا، درر الحكام شرح غرر الأحكام، ٢/٢٩١. ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار وحاشية ابن عابدين، ٥/٥٠٤، شيخ زاده، مجمع الأنهر شرح ملقى الأبحر، ٢/٢١٥.

المبحث الثالث

أحوال الرجوع عن الشهادة

يتضمن هذا المبحث بياناً لأحوال الرجوع الشهادة، وبيان ذلك في مطلبين على النحو الآتي:

المطلب الأول

الرجوع عن الشهادة قبل الحكم بها

هذه الصورة الأولى من صور رجوع الشاهد عن شهادته، وهي أن يرجع عن شهادته قبل الحكم بمقتضاها والبناء عليها، وبيان هذه المسألة فيما يلي:

اختلف الفقهاء في بيان حكم الشهادة إذا كان هناك رجوع من الشاهد عن كل أو بعض شهادتهم بعد أداء الشهادة وقبل الحكم في مجلس القضاء إلى قولين:

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء من حنفية^(١) ومالكية^(٢) وشافعية^(٣) وحنابلة^(٤) وظاهرية^(٥) إلى القول بأن الشهادة في هذه الحالة كأنها لم تكن، ولا يصح الحكم بموجب شهادتهم، ولأن الحق يثبت بالقضاء، والقاضي لا يقضي بكلام متناقض، ولا

(١) شيخه زاده، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، ٢/٢١٥، ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، حاشية ابن عابدين، ٥/٤٠٥. مجلة الأحكام العدلية، ١/٢٥١

(٢) المواق، التاج والإكليل لمختصر خليل، ٨/٢٤٠، القرافي، الذخيرة، ١/١٤٣، الدردير، الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي، ٤/٢٠٦.

(٣) زكريا الأنصار، أسنى المطالب شرح روض الطالب، ٤/٣٨١، الشيرازي، المهذب في فقه الإمام الشافعي، ٢/٤٦٤. ابن الملن، التذكرة في الفقه الشافعي، ١/١٥٣، زكريا الأنصاري، فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب، ٢/٢٨٠، إمام الحرمين، نهاية المطلب في دراية المذهب، ١٩/٥٦.

(٤) ابن قدامة، المغني، ١٠/٢٦١، السمناني، علي بن محمد، روضة القضاة وطريق النجاة، مؤسسة الرسالة، ط. الثانية، ١٤٠٤هـ، ١/٢٩٩.

(٥) ابن حزم، علين بن أحمد، المحلى بالآثار، ٨/٥٢٧، ابن مفلح، المبدع في شرح المقنع، ٨/٢٤٤.

ضمان عليهما، لأنهما ما أتلفا شيئاً لا على المدعي ولا على المشهود عليه^(١)، ولأن عدم ثبوت حقه لا يضاف إلى رجوعهما، بل باق على أصل العدم^(٢). ويعزر الشاهدان ويحكم بعدم عد التهما^(٣).

فقد ذكر صاحب كتاب مجمع الأنهر من الحنفية: فإن رجعا الشاهدان عن الشهادة قبل الحكم، لا يحكم القاضي بشهادتهما، إذ لا قضاء بكلام متناقض، ولا ضمان عليهما لعدم الاتلاف، لكن يعزر الشاهد^(٤).

وقال ابن القاسم من المالكية: إن شهدا على رجل بحق، ثمن قلا قبل الحكم بل هو هذا الآخر، وقد وهمنا، لم يقبلنا في الأولى ولا الآخرة، لأنهما قد حد العدالة بإقرارهم أنهم شهدوا على الوهم والشك^(٥).

وقال صاحب كتاب أسنى المطالب من الشافعية: فإذا رجع الشهود عن الشهادة قبل الحكم بها، لم يحكم بها وإن أعادوها، سواء أكانت في عقوبة أم غيرها، لأن الحاكم لا يدري أصدقوا في الأولى أو في الثانية، ولا يفسقون برجوعهم، إلا أن قالوا تعمدنا شهادة الزور، فيفسقون^(٦).

وقال ابن قدامة في كتابه: وإن رجع أحد الشاهدين وحده، فالحكم بيه كالحكم في رجوعهما، في أن الحاكم لا يحكم بشهادتهما إذا كان رجوعه قبل الحكم، وفي أنه لا يستوفي العقوبة إذا رجع قبل استيفائها، لأن الشرط بختل برجوعه^(٧).

وقال ابن حزم: إذا رجع الشاهد عن شهادته قبل أن يحكم بها، فسخ ما حكم بها فيه^(٨).

- (١) المرغنياني، الهداية شرح بداية المبتدئ، ١٢٢/٢، البابرني، العناية شرح الهداية، ٤٧٨/٧.
- (٢) الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي، ٢٤٤/٤، شيخي زاده، مجمع الأنهر شرح منتهى الأبحر، ٢١٥/٢.
- (٣) الدردير، الشرح الكبير، ٢٠٦/٤، مجموعة من العلماء، مجلة الأحكام العدلية، المادة ١٧٢٨، ٢٥١/١.
- (٤) شيخي زادة، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأنهر، ٢١٥/٢.
- (٥) المواق، التاج والإكليل لمختصر خليل، ٢٤٠/٨، القرافي، الذخيرة، ١٤٣/١٠.
- (٦) زكريا الأنصاري، أسنى المطالب شرح روض الطالب، ٢٨١/٤.
- (٧) ابن قدامة، المغني، ٢٢١/١٠.
- (٨) ابن حزم، المحلى بالآثار، ٥٢٧/٨.

القول الثاني: حكى عن أبي ثور أنه قال يحكم بقبول الشهادة لأنها قد اديت، فلا تبطل برجوع من شهد بها، كما لو رجع الشاهد بعد الحكم^(١).

والذي يترجح في نظري -والله أعلم- قول جمهور الفقهاء وذلك بعدم قبول شهادة الشاهد إذا رجع عن شهادته قبل الحكم وذلك لعدم بناء حكم على بينة غير متحقق وجودها، ولكون رأي أبي ثور مرجوح لأنه يحتمل أن الشاهد صادق في الشهادة كاذبا في الرجوع، ويجوز أن يكون صادقا في الرجوع كاذبا في الشهادة.

المطلب الثاني

الرجوع عن الشهادة بعد الحكم بها

إذا رجع الشهود عن شهادتهم بعد الحكم، يندرج تحتها عدة مسائل: إن كان الرجوع قبل استيفاء الحكم أم بعده، ولفقهاء في هذه المسألة رأي، وأيضا فرقوا بين إن كان الرجوع في حد أو قصاص، وبين إن كان الرجوع في الأموال والعقود.

المسألة الأولى: رجوع الشهود عن شهادتهم بعد الحكم وقبل استيفاء العقوبة في حد أو قصاص:

ذهب جمهور الفقهاء حنفية^(٢) ومالكية^(٣) وشافعية^(٤) وحنابلة^(٥) إلى أنه إذا رجع الشهود بعد الحكم وقبل استيفاء الحكم، وكان المحكوم به عقوبة كحد أو قصاص، لم

(١) - ابن قدامة، المغني، ج ٩، ص ٢٤٥

(٢) المرغنياني، العناية شرح الهداية، ٤٩٢/٧، الزيلعي، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي، ٢٤٤/٤، شيخ زاده، مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر، ٢١٩/٢، ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، وحاشية ابن عابدين، ٥٠٨/٥.

(٣) ابن رشد القرطبي، البيان والتحصيل، ٥٦/١٠، القرافي، الذخيرة، ١٤٣/١٠، المواق، التاج والإكليل لمختصر خليل، ٢٤٠/٨.

(٤) زكريا الأنصاري، أسنى المطالب في شرح روض الطالب، ٢٨٤/٤، ابن حجر الهيتمي، تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والصاوي، ٢١٣/١٠.

(٥) البهوتي، كشف القناع، ٤٤٢/٦، ابن مفلح، المبدع في شرح المنع، ٤٢٨/٨، عبدالرحمن النجدي، حاشية الروض المربع، ٦٢٢/٧.

يجز استيفاؤه، وعليه إذا رجع الشهود الذين شهدوا على القتل العمد بعد الحكم وقبل إنفاذه، فلا ينفذ ولا يجري الحكم، لأن الحدود تدرأ بالشبهات، ورجوع الشهود من أعظم الشبهات، ولأن المحكوم به عقوبة، ولم يتعين استحقاقها، ولا سبيل لجبرها، فلم يجز استيفاؤها كما لو رجع الشهود قبل الحكم.

المسألة الثانية: رجوع الشهود عن شهادتهم بعد الحكم وبعد استيفاء العقوبة في حد أو قصاص.

ذهب جمهور الفقهاء من حنفية^(١) ومالكية^(٢) والشافعية في قول^(٣) والحنابلة^(٤) إلى أنه إذا شهد الشهود على رجل بحد أو قصاص ونفذ الحكم ثم رجعوا، ضمنوا الدية في مالهما، ولا يقتص منهم.

فقد قالوا: وفي القصاص يضمن الدية فقط، يعني إذا شهدا أن زيدا قتل بكرا، فاقتص زيد، ثم رجعا، تجب الدية لا القصاص، لأن القل وجد باختيار الولي، ولأنه ليس بمضطر فيه لاقتداره على العفو أيضا، ولم يكونا سببا بالقتل، فلرائحة السببية وقعت الشبهة، وهي مانعة من القود لا عن الدية، ولأنه المال يثبت مع الشبهة.

وذهب الشافعي^(٥) إلى الاقتصاص من الشهود إذا رجعوا بعد تنفيذ الحكم، فهو يوجب القصاص على الشهود إذا رجعوا بعدما قتله الولي.

وعند المالكية والشافعية: إذا تعمد الزور في شهادتهما ثم رجعا، قال ابن القاسم وأشهب يقتص منهما في العمد، لأنهما قتلا نفسا بغير شبهة، وقول آخر عند

- (١) الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، ٢٤٤/٤، المرغنياني، العناية شرح الهداية، ٤٩٢/٧
- (٢) الدردير، الشرح الكبير وحاشية الدسوقي، ٢٠٧/٤، الصاوي، حاشية الصاوي على الشرح الصغير، بلغة السالك لأقرب المسالك، ٢٩٤/٤.
- (٣) زكريا الأنصاري، أسنى المطالب في شرح روض الطالب، ٣٨٤/٤، ابن حجر الهيتمي، تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والساوي، ٢١٣/١٠.
- (٤) البهوتي، كشف القناع، ٤٤٢/٦، ابن مفلح، المبدع في شرح المقنع، ٤٢٨/٨، عبد الرحمن النجدي، حاشية الروض المربع، ٦٢٢/٧.
- (٥) الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، ٢٤٤/٤، المرغنياني، العناية شرح الهداية، ٤٩٢/٧

ابن القاسم: يوجعان ضربا ويطال في سجنهما، ويغرم الدية من ماليهما^(١).

ذكر في المذهب: وإن شهدوا بما يوجب القتل، ثم رجعوا، نظر، فإن قالوا: تعمدنا ليقتل بشهادتنا، وجب عليهم القود، لما روي عن الشعبي أن رجلين شهدا عند علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على رجل أنه سرق، فقطعه، ثم أتياه رجل آخر فقالا: إنا أخطأنا بالأول، وهذا السارق، فأبطل شهادتهما على الآخر، وضمنهما دية يد الأول، وقال: لو أعلم أنكما تعمدتما لقطعتكما.

وإن قالوا: تعمدنا الشهادة ولم نعلم أنه يقتل، وهم يجهلون قتله، وجبت عليهم دية مغلظة لما فيه من العمد، وإن قالوا أخطأنا، وجبت عليه دية مخففة، لأنه خطأ، ولا تحمله العاقلة، لأنها وجبت باعترافهم^(٢).

والراجح مخالفة قول الإمام الشافعي في الاقتصاص من الشاهد الذي رجع عن شهادته دون تعمد، لأن الرجوع شبهة، ويسقط بالشبهة، مع أن الشافعي يسقط المال في الرجوع عن الشهادة، وأمر الدم أعظم وأولى بالاسقاط.

المسألة الثالثة: رجوع الشهود عن شهادتهم بعد الحكم وقبل استيفاء العقوبة أو بعدها في الأموال، ففي هذه الحالة اختلف الفقهاء إلى قولين:

القول الأول: فقد ذهب جمهور الفقهاء من حنيفة^(٣) ومالكية^(٤) وشافعية^(٥)

(١) الدردير، الشرح الكبير وحاشية الدسوقي، ٢٠٧/٤، الصاوي، حاشية الصاوي على الشرح الصغير، بلغه السالك لأقرب المسالك، ٢٩٤/٤، ابن رشد القرطبي، البيان والتحصيل، ٥٦/١٠، المواق، التاج والإكليل لمختصر خليل، ٢٤٠/٨.

(٢) الشيرازي، المذهب في فقه الإمام الشافعي، ٤٦٤/٣.

(٣) شيخه زاده، مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر، ٢١٥/٢، الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ٢٨٢/٦، البلدحي، الاختيار والتعليل، ١١٢/٤. الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي، محمد ملا، درر الحكام شرح غرر الأحكام، ٣٩٤/٢.

(٤) المواق، التاج والإكليل لمختصر خليل، ٢٤٤/٨، الخرشي، شرح مختصر خليل، ٢٢٦/٧، الدردير والدسوقي، الشرح الكبير وحاشية الدسوقي، ٢٠٦/٤.

(٥) زكريا الأنصاري، أسنى المطالب في شرح روض الطالب، ٢٨٤/٤، ابن حجر الهيتمي، تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والصاوي، ٢١٢/١٠.

وحنابلة^(١) إلى أنه في حال رجوع الشهود عن شهادتهم وكان المحكوم به مالا، فينفذ الحكم ويستوفى المال، ولا ينقض الحكم، لأن الكلام الأول تأكد بالقضاء، فلا يناقضه الثاني، لأنه لما كان الحكم بالكلام المتناقض غير جائز، فلا يجوز أيضا نقض الحكم به، ولأن الكلامين المتناقضين متساويان في الدلالة على الحقيقة، والمرجوح لا يعارض الراجح، فلا يختل الحكم ولا ينقض، وبغرض إذا رجعا عن شهادتهم في مجلس القضاء بعد القضاء بشهادتهم، ضمنوا المشهود به مالا أتلّفاه بشهادتهم، لأن الشهادة في مجلس القضاء صدرت منهم، فكان التلف مضافا إليهم. ولو قالوا غلطنا، لأن العمد والخطأ في أموال الناس سواء.^(٢)

ذكر المرغنياني: إذا شهد شاهدان بما، فحكم الحاكم به، وقبض المدعي المال، دينا كان أو عينا، ثم رجعا، ضمننا المال المشهود عليه، لأن التسبب على وجه التعدي سبب للضمان، وإن رجع أحدهما ضمن النصف، والأصل أن المعتبر في هذا بقاء ما بقي^(٣).

القول الثاني: ذهب ابن حزم الظاهري والأوزاعي وسعيد بن المسيب^(٤) إلى أنه في حال رجوع الشهود عن شهادتهم سواء كان الرجوع في عقوبة أو مال فإن الرجوع يوثر في الشهادة.

فقد قال ابن حزم في كتابه المحلى بالآثار: إذا رجع الشاهد عن شهادته بعد أن حكم بها أو قبل أن يحكم بها، فسخ ما حكم بها فيه^(٥).

وذلك أن شهادة الإنسان على نفسه بالكذب أو الغفلة، أثبت عليه من شهادة غيره عليه^(٦).

(١) لبهوتي، كشاف القناع، ٤٤٢/٦، ابن مفلح، المبدع في شرح المقنع، ٤٢٨/٨، عبدالرحمن النجدي، حاشية

الروض المربع، ٦٢٢/٧، ابن رشد القرطبي، البيان والتحصيل، ٢٠/١٠

(٢) بدر الدين العيني، البنائة شرح الهداية، ٢١٢/٩، شيخي زاده، مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر، ٢١٥/٢، مجلة الأحكام العدلية، ٢٥١/١، ابن نجيم، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ١٣٦/٧، القراي، الذخيرة، ٣٢٢/١٠، الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ٢٨٢/٦، البلدي، الاختيار والتعليل، ٢١٢/٤

(٣) المرغنياني، الهداية شرح بداية المبتدي، ١٣٢/٢.

(٤) ابن جزى، القوانين الفقهية، ص ٢٠٦

(٥) ابن حزم الظاهري، المحلى بالآثار، ٥٢٧/٨.

(٦) ابن حزم، المحلى، ٥٢٧/٨.

الترجيح:

الذي يترجح في نظري - والله أعلم - ما ذهب إليه جمهور الفقهاء بقولهم ردّ الشهادة بالرجوع عنها إذا كانت بحد، أو قصاص، وعدم ردّها إذا كانت بالمال، وذلك لما يلي:

أولاً: لصحة ما ذكره أصحاب هذا القول في تعليلهم.

ثانياً: أنّ المحكوم به عقوبة في القصاص أو الحد لم يتعين استحقاقها، ولا سبيل إلى جبرها فلم يجز استيفاؤها، كما لو رجع الشهود قبل الحكم؛ إذ لا فرق بينهما، وأمّ إذا كان المحكوم به مالا فيستوفى ولا ينقض حكم القاضي؛ لإمكان الجبر بالضمان.

ثالثاً: أنّ حق المشهود له في الأموال قد وجب له بالحكم، فلا يسقط بقولهما، كما أنّهما لو ادعياه لأنفسهما لم يثبت لهما.

رابعاً: أنّ الشهود يجوز أن يكونا عدلين صادقين في شهادتهما، وإنّما كذبا في الرجوع، فيثبت بذلك المال.^(١)

(١) الشنقيطي، القدر في البينة في القضاء، ٢٥٧.

المبحث الرابع

التطبيقات القضائية لرجوع الشاهد عن شهادته.

من خلال الرجوع لبعض التطبيقات القضائية التي حصلت في المحاكم الشرعية بمدينة الرياض، بالمملكة العربية السعودية، المتعلقة برجوع الشاهد عن شهادته، ومدى تأثيرها على مجريات القضية. أذكر من ذلك:

القضية الأولى:

نوع القضية: قتل.

رقم القضية: ٥٣١/٤.

تاريخ القضية: ١٤٢١/١١/٥هـ.

مجريات القضية:

قيام بدعوى ضد (أ) بقتل (ب) من خلال ضربه بعصا غليظة على رأسه، نتج عنها فقدان وعي المجني عليه ودخوله في غيبوبة توفية على أثرها.

وبعد التحقيق مع الجاني، أنكر قيامه بضرب المجني عليه، أو حتى معرفته، أو التشاجر معه، وطلب إسقاط الدعوى عنه.

وعند سؤال الشهود، شهد الشاهد الأول: أنه في تمام الساعة العاشرة والنصف مساءً كان هو والمجني عليه في موقف سيارات الأجرة، وحضر إليهم المدعى عليه ليوصلهم إلى الوجهة التي يريدون، وأخبروه أنهم يريدون الذهاب إلى المنطقة الصناعية، واتفقا على أربعة ريالات أجرة النقل، لكن عند وصولهم إلى المنطقة الصناعية، طلب المدعى عليه زيادة ريالين، وذلك لأن الوقت قد تأخر، فرفض المجني عليه متشاجرا، فقام المدعى عليه على أثر ذلك بضربه بعصا غليظة على مؤخرة رأسه، ومن ثم تم نقله إلى المستشفى ودخوله في غيبوبة توفية على أثرها.

وعند عرض المدعى عليه على الشاهد مع عدد من الأشخاص كانوا موقوفين عند الشرطة نفى التهمة عن المدعى عليه، ثم عاد وشهد باتهام المدعى عليه، وقد بررنفيه للتهمة بالخوف من المدعى عليه.

الحكم:

حكم القاضي في القضية ببراءة المدعى عليه، وأمر بصرف النظر عن الدعوى، لأن الدعوى قائمة على الشهادة، ولم يحكم القاضي بالشهادة، لأن رجوع الشاهد عن شهادته كانت أحد الأسباب التي دعت القاضي إلى عدم اعتبار شهادته، وكون الشاهد تناقض في شهادته، وغير كلامه، يعتبر ذلك رجوعاً عن الشهادة، ورجوعه لم يعتد به، لأنه شبهة عظيمة، خاصة وأن دعاوى القصاص مما يدرأ بالشبهات^(١).

القضية الثانية:

نوع القضية: سرقة.

رقم القضية: ٩/٤١٧/ن.

تاريخها: ٣/١/١٤١٠هـ.

مجريات القضية:

القيام برفع دعوى ضد (أ) للقيام بسرقة عددا من الأغنام من أحد الأحواش، وبمواجهة المدعى عليه بالدعوى، أنكر ما نسب إليه، وبسبب إنكاره طالب القاضي من المدعي العام البينة، فأحضر شاهدين وجرى سؤالهما عما شاهدا، فذكرا أنهما شاهدا شخصاً يشبه المدعى عليه يوقف سيارته نوع داتسون بشبك غنم أحد المواطنين " وذكرا اسمه " وهو يخرج الغنم من الشبك مع الباب، ويضعها في السيادة، ويبلغ عددها حوالي سبة أغنام.

وذكر الشاهدان أنهما سبق وأن ذكرا في شهادتهما في جهة التحقيق أن هذا الشخص هو المدعى عليه، ولكنهما رجعا عن ذلك وقالوا إنه يشبه المدعى عليه، لأنهما غير متأكدين فالوقت كان ليلاً.

(١) محمد البعيث، أثر الرجوع عن الشهادة على الأحكام الجنائية في ضوء الفقه الإسلامي. ص ١٩٩.

الحكم:

وبعد الاطلاع على الادلة وسماع شهادة الشهود، حكم القاضي بإخلاء سبيل المدعى عليه وصرف النظر عن القضية، وذلك نظرا لأن الشهادة المستند عليها قد رجعت عنها، فالشهود غيروا كلامهم فشهدوا بداية أن المدعى عليه هو الشخص الذي رأياه، ورجعوا عن ذلك بقولهم أنه يشبه المدعى عليه.

فمن خلال ما سبق أن رجوع الشهود بهذه الطريقة قد أثر على الحكم، فلم يصدر حكم بحق المجني عليه، وتم صرف النظر عن القضية^(١).

(١) محمد البعيث، أثر الرجوع عن الشهادة على الأحكام الجنائية في ضوء الفقه الإسلامي. ص ١٩٩.

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث توصلت إلى النتائج الآتية :

أولاً : ركن رجوع الشاهد عن شهادته القول: رجعت عما شهدت به، أو شهدت بزور فيما شهدت به.

ثانياً : يشترط لقبول رجوع الشاهد عن شهادته أن تكون الشهادة في مجلس القضاء، ولا يصح الرجوع في أي مكان غير مجلس القضاء.

ثالثاً : لا يلزم الشاهد أي شيء إذا رجع عن شهادته في غير مجلس القضاء.

رابعاً : في حال رجع الشهود عن شهادتهم قبل الحكم بها، كانت كأن لم تكن، ولا يصح الحكم بشهادتهم، ولا يثبت عليهم أي شيء.

خامساً : إذا رجع الشهود بعد الحكم وقبل استيفائه في حد أو قصاص، لا ينفذ ولا يجري الحكم، ويسقط الحكم.

سادساً : إذا رجع الشهود بعد الحكم وقبل استيفاء الحكم في الأموال، ينفذ الحكم ويضمن الشهود ما اتلفوه.

سابعاً : إذا رجع الشهود بعد الحكم ولاستيفاء في الحدود والقصاص، لم يقتص منهم وعليهم الدية ما لم يتعمدوا الشهادة لأجل القتل.

قائمة المراجع

١. ابن الحاجب، خليل بن اسحق بن موسى، التوضيح شرح المختصر القري، تحقيق أحمد نجيب، ط١، ١٤٢٩هـ.
٢. ابن الرصاع، محمد قاسم الأنصاري، شرح حدود ابن عرفة، المكتبة العلمية، ط١. الأولى، ١٤٢٢هـ.
٣. ابن الشحنة، أحمد بن محمد بن محمد، لسان الحكام في معرفة الأحكام، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط١. الثانية، ١٣٩٣هـ.
٤. ابن القطاع، علي بن جعفر، كتاب الأفعال، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١. الأولى، ١٣٦٠هـ.
٥. ابن المنذر، محمد بن إبراهيم، الإجماع، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط١. الأولى، ١٤٢٥هـ.
٦. ابن الهمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، شرح فتح القدير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.
٧. ابن تيميّة، عبد السلام بن عبد الله، المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٤هـ.
٨. ابن جزري، محمد بن أحمد، القوانين الفقهية، دار الكتب العلمية، ط١. الأولى، ٢٠١٠م.
٩. ابن حزم، علي بن أحمد، المحلى بالآثار، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة وتاريخ.
١٠. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الكافي في فقه أهل المدينة، مكتبة الرياض الحديثة، ط١. الثانية، ١٤٠٠هـ.
١١. ابن فرحون، إبراهيم بن محمد، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد، المغني، دار عالم الكتب، ط١. الثالثة، ١٤١٧هـ.

١٣. ابن مفلح، برهان الدين أبو إسحاق بن محمد بن عبد الله، المبدع شرح المقنع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، ١٤٠٨هـ.
١٤. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ،
١٥. ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، دار الكتاب الإسلامي، ط. الثانية، ١٤١٨هـ.
١٦. أبو البركات، مجد الدين، المحرر في المفق على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٧. أبو بكر الأذني، جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير البعلبكي، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م،
١٨. أبي الخير الشافعي، شمس الدين، فتح المغيث بشرح الفية الحديث، تحقيق عبد الكريم فheid.
١٩. أفندي، محمد علاء الدين، حاشية قررة عيون الأخبار تكملة رد المحتار على الدر المختار، ط ٢، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٦هـ.
٢٠. البجيرمي، سليمان محمد عمر، حاشية البجيرمي على شرح المنهج، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢١. البيهت، محمد، أثر الرجوع عن الشهادة على الأحكام الجنائية في ضوء الفقه الإسلامي.
٢٢. البكري، أبو بكر عثمان الدمياطي، حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ المعين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.
٢٣. البهوتي، منصور بن يونس بن إدريس، كشف القناع عن متن الإقناع، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢م.
٢٤. البهوتي، منصور بن يونس، شرح منتهى الإرادات، دار عالم الكتب، ط. الأولى، ١٤١٤هـ.
٢٥. الجمل، سليمان بن عمر العجلي، حاشية الجمل على شرح المنهج، تحقيق عبدالرزاق المهدي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.
٢٦. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح " تاج اللغة وصحاح العربية "، المطبعة

- الكبرى العامرة، مصر، ط. الثالثة، ١٢٩٢هـ.
٢٧. الجويني، عبد الملك، نهاية المطلب في دراية المذهب، دار المنهاج، ط١، ١٤٢٨هـ.
٢٨. الحجاوي، شرف الدين موسى بن سالم، الإقناع لطالب الإنتفاع، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط١، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١٨هـ.
٢٩. الحصكفي، محمد بن علي، الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤٢٣هـ.
٣٠. الحطاب، محمد بن عبد الرحمن المغربي، مواهب الجليل شرح مختصر خليل، دار الفكر، بيروت، ط. الثانية، ١٩٧٨م.
٣١. الخرشبي، محمد بن عبدالله، شرح الخرشبي على مختصر خليل، تحقيق زكريا عميرات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.
٣٢. الخلوئي، أبو العباس أحمد، بلغة السالك لأقرب المسالك، المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير، دار المعارف.
٣٣. الدارقطني، علي بن عمر، سنن الدارقطني، ط٢، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٣هـ.
٣٤. الدردير، أحمد بن محمد بن أحمد، الشرح الكبير، مطبوع بهامش حاشية الدسوقي، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.
٣٥. الدسوقي، محمد عرفة، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، مكتبة عيسى البابي الحلبي، ط. الثانية، ١٤١٥هـ.
٣٦. الرازي، زين الدين محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، المكتبة العصرية، بيروت، ط. الخامسة، ١٤٢٠هـ.
٣٧. الرصاع، أبو عبدالله الأنصاري، شرح حدود ابن عرفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٣هـ.
٣٨. الرملي، شهاب الدين محمد بن أبي العباس، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ.
٣٩. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، الطبعة الثانية ١٩٩٥م.
٤٠. الزرقاني، عبد الباقي، شرح الزرقاني على مختصر خليل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،

- ١٤٢٢هـ .
٤١. الزمخشري، أبو القاسم، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ
٤٢. الزيات، إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، تركيا، دت.
٤٣. الزيلعي، عثمان بن علي، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، المطبعة الأميرية الكبرى، ط. الأولى، ١٣١٤هـ.
٤٤. السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، المبسوط، دار المعرفة، بيروت، ط. الثانية، ١٤١٤هـ.
٤٥. السمناني، علي بن محمد، روضة القضاة وطريق النجاة، مؤسسة الرسالة، ط. الثانية، ١٤٠٤هـ.
٤٦. الشربيني، محمد بن محمد، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤٧. الشرقاوي، عبد الله بن إبراهيم، حاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٩٩٧م.
٤٨. شихي زاده، عبدالرحمن بن محمد، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، دار إحياء التراث العربي، ط. الأولى، ١٤٢٦هـ.
٤٩. الصاوي، أحمد بن محمد، بلغة السالك لأقرب المسالك، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٤٢٨هـ.
٥٠. الصدر الشهيد، عمر بن عبدالعزيز ابن مازة، شرح أدب القاضي، وزارة المعارف العراقية، مطبعة الإرشاد، ط. الأولى، ١٣٧٩هـ.
٥١. الفتوحي، تقي الدين محمد بن أحمد الحنبلي، معونة أولي النهى شرح منتهى الإرادات، تحقيق عبد الملك بن دهيش، ط١، دار خضر، بيروت، ١٤٢٦هـ.
٥٢. الفيروزآبادي، مجد الدين بن يعقوب، القاموس المحيط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ.
٥٣. القليوبي، شهاب الدين أحمد بن سلامة، حاشيتا قليوبي وعميرة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.

٥٤. الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.
٥٥. مجموعة من العلماء برئاسة نظام الدين البلخي، الفتاوى الهندية، وبهامشه فتاوى قاضيخان والفتاوى البزازية، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط. الثالثة، ١٩٨١م.
٥٦. الناصحي، عبد الله بن الحسين، تهذيب أدب القاضي، دار الفكر، ط. الأولى، ١٤١٨هـ.
٥٧. النجدي، عبدالرحمن بن قاسم، حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، ط٢، ١٤٠٣هـ.
٥٨. النسفي، أبو البركات، كنز الدقائق، تحقيق سائد بكداش، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤٣٢هـ.
٥٩. النووي، محي الدين، المجموع شرح المهذب، دار الفكر، .

مداواة الحيوان

الأحكام والأثر - دراسة فقهية مقارنة

الدكتور / محمد أمين عبد الرزاق بارودي

الأستاذ المشارك بجامعة الطائف

كلية الشريعة والأنظمة

قسم الشريعة

الملخص :

مداواة الحيوان وعلاجه بما فيه منفعة له، قضية نالت جانباً وحيزاً من البحث والتأصيل في شرعنا الإسلامي، فلم يغفل قضية هامة كهذه بل وضع لها الأحكام والضوابط، سواء ضوابط لما يداوى به الحيوان أو ضوابط لطريقة المداواة، بل ورتب الآثار وبين موجبات الضمان وأحواله في قضية مداواة الحيوان .

كل ذلك في فترة من تاريخ البشرية يتهم فيها الإسلام بالقسوة والوحشية التي تطال من نظر أعدائه حتى الحيوان .

فكان هذا البحث رداً علمياً بالدليل والتأصيل لدحض تلك الدعوى الباطلة، وليبين للمسلم أولاً موقف الإسلام من رعاية ومداواة الحيوان والاعتناء به، وليقدم ذلك كله لغير المسلم ثانياً ليستبصر هدي وأحكام الإسلام وإحسانه ورحمته بالحيوان .

Research Summary

The treatment and treatment of the animal, including the benefit of him, an issue that has received a part and a part of research and rooting in our Islamic law, has not overlooked such an important issue, but the provisions and controls, whether controls for the animal or controls the method of treatment, and even arrange the effects and the obligations of security and conditions in the case Animal medicine .

All this in a period of human history in which Islam is accused of cruelty and brutality that extends from the eyes of its enemies to the animal .

This research was a scientific response to the evidence and rooting to refute this false claim, and to show the Muslim first the position of Islam from the care and care of the animal and take care of it, and to submit all this to non-Muslim II to see the guidance and provisions of Islam and charity and mercy animal .

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، حمداً يوافي نعمه، ويدفع نقمه، ويكافئ مزيده، سبحانه ربي لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك .

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، عبدك ونبيك ومصطفاك سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

وبعد : فالإسلام نظام حياة شامل يستوعب كل جوانب معيشة الإنسان، وينظم علاقاته مع نفسه ومع خالقه ومع من حوله من المخلوقات، ومنها الحيوانات.

ولم يكن الإسلام وهو الدين الشامل ليغفل وجود الحيوان وحاجة الإنسان إليه وأهميته في حياته، قال تعالى : (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ × وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ × وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَنِيِّ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ × وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) الأنعام : ٥ - ٨، ولذلك جاءت النصوص منبهة على أهمية هذه النعم ولتضع الضوابط والأحكام للتعامل مع الحيوانات بل ومداواتها أيضاً، مع بيان الحدود التي ينبغي ألا يتجاوزها الإنسان في مداواته للحيوانات زيادة أو نقصاً حفاظاً على حق الحيوانات، وما يترتب على ذلك كله من آثار وأحكام .

أهمية البحث :

يمكن إيجاز أهمية البحث فيما يلي :

١. يأصل لفكرة مداواة الحيوان، ويضع الأحكام المنظمة والضابطة لعملية المداواة .
٢. يعالج قضايا معاصرة في مداواة الحيوان، كما يبرز صوراً هامة من اعتناء الإسلام، بمداواة الحيوان .
٣. كما تظهر أهمية البحث في أنه أبرز الآثار المترتبة على مداواة الحيوان والحالات التي يكون فيها الطبيب البيطري ضامناً، والحالات التي ينتهي فيها عنه الضمان، وبذلك يكون البحث قد انتقل بالقارئ إلى الحيز العملي التطبيقي في مسألة مداواة الحيوان .

أسباب اختيار البحث :

١. إظهار شمولية الإسلام " دين الرحمة والإحسان " الذي لم يكن له أن يغفل قضية هامة كقضية مداواة الحيوان من أحكام وضوابط تنظمها أفضل تنظيم.
٢. ما يتهم به دين الإسلام من قسوة ووحشية تطال من وجهة نظر أعدائه حتى الحيوان، فكان هذا البحث رداً علمياً مدللاً على تلك الدعوى الباطلة، لتبصير المسلم أولاً بموقف دينه من رعاية الحيوان ومداواته وعظيم اعتناؤه به، ولتقديم ذلك كله للعالم ثانياً ليستفيد من هدي وأحكام الإسلام وإحسانه ورحمته بالحيوان .
٣. ولعل من الأسباب الهامة في اختيار البحث أنه من البواكير التي جمعت بين دفتيها أبرز الأحكام المتعلقة بمداواة الحيوان جمعاً وترتيباً وتحليلاً ودراسة، وما يترتب على ذلك من آثار، وبذلك يكون البحث قد قدم رؤية شاملة مختصرة لموقف الإسلام من مداواة الحيوانات، في ظل غزو الأفكار ومحاوله سلخ المسلمين عن ثقافتهم الإسلامية وتصدير ثقافات مزعومة من محرم ومعيب لذبح الحيوان وأكل لحمه، إلى مفرط بالاعتناء بالحيوان إلى حد السرف والتبذير وغير ذلك .

سؤال البحث :

هل نظم الإسلام علاقة الإنسان بالحيوان، ووجه إلى مداواته ومعالجة أمراضه، وضبط ذلك كله بأحكام واضحة قابلة للتطبيق على أرض الواقع ورتب الآثار على ذلك كله ؟ .

الدراسات السابقة :

بعد التتبع والبحث لم أقف على كتابة أو دراسة جمعت بين دفتيها أحكام مداواة الحيوان والآثار المترتبة عليها كما جاء في هذا البحث، فيما استطعت الاطلاع عليه، ومن هنا جاءت جديده بحثي المعنون " مداواة الحيوان الأحكام والآثر - دراسة فقهية مقارنة " مع الإشارة إلى أن قدامى الفقهاء قد تناولوا بالبحث والبيان بعض الجزئيات

والتفصيلات المتعلقة بمداواة الحيوان في ثنايا كتبهم ومؤلفاتهم، كما سيأتي ذكره وبيانه .

منهج البحث وإجراءاته :

جريت في بحثي هذا أولاً على استقراء نصوص الفقهاء في جمع المادة العلمية ومفرداتها، ثم عمدت بعد ذلك إلى تحليلها واستنباط الأحكام منها لتكون الفائدة أدق وأعمق، ولم أكتف بظواهر النصوص والنقول .

ومن الإجراءات المتبعة في بحثي هذا ما يلي :

- ١ . حيث كان يرد الدليل كان من المهم جداً نسبته إلى مصدره، وحيث يذكر المرجع مباشرة دون أن يسبق بكلمة ينظر، فهذا معناه اقتباس ونقل حرفي من المرجع، وحيث كان يسبق بكلمة ينظر، فمعناه أن النقل والاقتباس كان للفكرة والمعنى دون الحرفية .
- ٢ . أما فيما يتعلق بطريقة عرض المسائل الفقهية فيكون أولاً بعرض أقوال الفقهاء من المذاهب الفقهية الأربعة، ثم أدلتهم ومناقشة الأدلة، ثم الراجع من الأقوال مع بيان وجه الترجيح .
- ٣ . عمدت إلى ذكر بطاقة كل مرجع كاملة عند ذكره والاعتماد عليه في المرة الأولى وبعد ذلك اكتفيت بذكر المرجع والمؤلف، ثم الجزء والصفحة .
- ٤ . حرصت على إيراد الآيات القرآنية مشكولةً، ثم السورة، ورقم الآية، أما حديث رسول الله ﷺ، فكان لا بد من بيان درجته والحكم عليه عند أهل الفن إن لم يكن في الصحيحين أو أحدهما .

خطة البحث :

- اشتملت خطة البحث على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، على الشكل التالي :
- مقدمة : وفيها .
 - أهمية البحث .
 - أسباب اختيار البحث .
 - سؤال البحث .

- الدراسات السابقة .
- منهج البحث وإجراءاته .

التمهيد : بيان لمصطلحات البحث، وفيه مطلبان :

- المطلب الأول : تعريف المداواة .
- المطلب الثاني : تعريف الحيوان .
- المطلب الثالث : مفهوم مداواة الحيوان .

المبحث الأول : أحكام مداواة الحيوان، وفيه ثمانية مطالب :

- المطلب الأول : مشروعية مداواة الحيوان، ووقف المال لذلك .
- المطلب الثاني : استعمال المحرمات في مداواة الحيوان .
- المطلب الثالث : مداواة الحيوان بما فيه تعذيب له .
- المطلب الرابع : مداواة الحيوان المصاب بالأمراض المعدية، وبيان حكم : بيعه وذبحه وأكله أو قتله .
- المطلب الخامس : حكم استعمال عقاقير في مداواة الحيوان يكون لها أثر على الإنسان .
- المطلب السادس : مداواة الحيوان بقصد الزينة .
- المطلب السابع : مداواة الحيوان بالرقى .
- المطلب الثامن : أخذ الأجرة على مداواة الحيوان، وقيمة الدواء .

المبحث الثاني : أثر مداواة الحيوان في ثبوت الضمان، وفيه أربعة مطالب .

- المطلب الأول : ضمان الطبيب البيطري فيما أذن له بمداواته .
- المطلب الثاني : ضمان المتلف بدعوى التطبيب (الطبيب الجاهل) .
- المطلب الثالث : جناية الطبيب البيطري فيما لم يؤذن له بمداواته .
- المطلب الرابع : خطأ الطبيب البيطري .

- الخاتمة : وفيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث .
- فهرس المصادر والمراجع .
- فهرس الموضوعات .

التمهيد

بيان لمصطلحات البحث، وفيه مطلبان

المطلب الأول

تعريف المداواة

أولاً - لغة : الدال والواو والحرف المعتل : باب تتقارب أصوله، والدَّوَاءُ واحد الأدوية، وقيل الدَّوَاءُ : مصدر داواه مداواة ودواءً، ودأوته مداواة، ولو قلت دواءً جاز : عالجتَه، ومنه داوى المريض، ونحوه مداواة ودواءً : عالجه^(١) .

ثانياً - اصطلاحاً : وبالعودة إلى نصوص الفقهاء فإننا لا نجد عندهم تعريفاً لمصطلح المداواة مع ثبوت استعمالهم له، ومن أمثلة ذلك :

ويقول صاحب البدائع : (إلا عند الضرورة : فلا بأس أن ينظر الرجل من الرجل إلى موضع الختان ليختنه ويداويه بعد الختن، وكذا إذا كان بموضع العورة من الرجل قرح أو جرح أو وقعت الحاجة إلى مداواة الرجل)^(٢) .

ويقول صاحب الشرح الكبير : (وجاز لمكلف قدح عين أي إخراج مائها للرؤية أي لعود بصره بلا وجع، وإلا جاز ولو أدى إلى استلقاء - أي في الصلاة - اتفاقاً، ولا مفهوم للعين بل مداواة سائر الأعضاء كذلك)^(٣) .

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة : لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، ت : عبد السلام هارون ، اتحاد الكتاب العرب ، ط - ٢٠٠٢/١٤٢٤ ، مادة : دوي ، ٢/٢٥٢ . مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، ت : محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط - ١٩٩٥/١٤١٥ ، مادة : دوي ، ١/٢١٨ . المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار ، ت : مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة ، مادة : داوى ، ١/٣٠٦ . تاج العروس : محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى الزبيدي ، ت : مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، مادة : دوي ، ٧٧/٣٨ .

(٢) بدائع الصنائع : علاء الدين الكاساني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ - ١٩٨٢ ، ٥/١٢٣ .

(٣) الشرح الكبير : أحمد الدردير أبو البركات ، ت : محمد عليش ، دار الفكر ، بيروت ، ١/٢٦١ .

ويقول صاحب المجموع في معرض كلامه عن مواضع جواز كشف العورة : (والجواب أن كشفها لا يجوز لكل مداواة، وإنما يجوز في موضع يقول أهل العرف إن المصلحة في المداواة راجحة على المصلحة في المحافظة على المروءة وصيانة العورة)^(١).

ويقول صاحب المبدع في معرض كلامه عن تلزمه نفقة العين المرهونة : (ولأنه ملك للراهن - أي العين المرهونة - فكان عليه الإنفاق كالطعام وهو شامل لما إذا احتاج إلى مداواة لمرض أو جرح)^(٢).

ويظهر بوضوح من مجموع ما سبق ثبوت استعمال مصطلح المداواة في كلام ونصوص الفقهاء، ليفهم من مجموع استعمالهم أن المداواة تعني : القيام بما يرجى منه إصلاح حال المريض .

ولم يقتصر استعمالهم لمصطلح المداواة في جانب معالجة الإنسان، بل كذلك استعمل في علاج الحيوان، ومن ذلك ما يقوله صاحب البهجة في شرح التحفة : (والحيوان وغيره في ذلك سواء، يعني يلزمه مداواة الدابة وغيرها)^(٣)، ويقول صاحب كشاف القناع : (وللمرتهن مداواة ماشية مرهونة لمصلحة لأن له فيها حق التوثيق)^(٤). وقد عرف بعض المعاصرين المداواة بأنها : (عمل ما يظن أنه سبيل الشفاء من المرض بإذن الله تعالى)^(٥).

(١) المجموع : محي الدين بن شرف النووي ، ت : محمود مطرحي ، دار الفكر ، بيروت ، ط١ - ١٤١٧ / ١٩٩٦ ، ٣٦٦ / ١ .

(٢) المبدع : إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح الحنبلي أبو إسحاق ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط - ١٤٠٠ ، ٢٢٦ / ٤ .

(٣) البهجة في شرح التحفة : أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي ، ت : محمد عبد القادر شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ - ١٤١٨ / ١٩٩٨ ، ٥٨٥ / ٢ .

(٤) كشاف القناع : منصور بن يونس البهوتي ، ت : هلال مصيلحي مصطفى هلال ، دار الفكر ، بيروت ، ط - ١٤٠٢ ، ٣٢٦ / ٣ .

(٥) معجم لغة الفقهاء : محمد روااس قلعة جي وحامد صادق قنبيسي ، دار النفائس الأردن ، ط٢ - ١٤٠٨ ، ٣١٩ .

المطلب الثاني

تعريف الحيوان

أولاً - لغة : الحاء والياء والحرف المعتل أصلان : أحدهما خلاف الموت^(١) ، والحيوان ضد الموتان^(٢) ، ويطلق على كل ذي روح ناطقاً كان أم غير ناطق، وبذلك يكون مأخوذاً من الحياة، ويستوي في لفظ الحيوان الواحد والجمع^(٣) .

ثانياً - اصطلاحاً : يذكر صاحب التعريفات حداً للحيوان فيقول : (الحيوان : الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة)^(٤) ، وبالنظر في التعريف فإنه يجمع بين البشر وغيره في جنس الحيوان، ولما كان موضوع البحث : مداواة الحيوان، وهو نوع العجاوات من جنس الحيوان، كان لا بد من قيد إضافي في التعريف، فيكون تعريف الحيوان : (الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة غير الآدمي) .

شرح التعريف :

- **الجسم :** وإنما عبر عن الحيوان بالجسم لأن الجسم ما قام بذاته بخلاف العرض فهو ما لا يقوم بذاته بل بغيره^(٥) .
- **النامي الحساس :** وبه يخرج كل ما لم يكن له نمواً أو حساً كالجماد .
- **المتحرك بالإرادة :** وبه يخرج النبات لثبوت عدم مقدرته على الحركة بإرادته المنفردة بل تكون حركته مرتبطة ارتباطاً كلياً بإرادة وفعل متحرك آخر .
- **غير الآدمي :** ولما كان المقصود من البحث مداواة العجاوات من الحيوان كان لزاماً إخراج الإنسان من هذا التعريف، فجاء قيد غير الآدمي في التعريف المختار للحيوان.

(١) معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ، مادة : حي ، ٩٧/٢ .

(٢) مختار الصحاح : الرازي ، مادة : حيا ، ١٦٧/١ .

(٣) ينظر : لسان العرب : لابن منظور ، مادة : حيا ، ١٠٧٧/٢ .

(٤) التعريفات : علي بن محمد بن علي الجرجاني ، ت : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العرب ، بيروت ، ط١-١٤٠٥ ، ١٢٧/١ .

(٥) الحدود الأنثيقة والتعريفات الدقيقة : زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى ، ت : مازن المبارك ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط١-١٤١١ ، ٧١/١ .

المطلب الثالث

مفهوم مداواة الحيوان

وبناء على ما تقدم يكون المراد من " مداواة الحيوان " : القيام بما يرجى منه شفاء الحيوان بما هو جائز شرعاً .

شرح التعريف :

- القيام بما يرجى منه شفاء الحيوان : ويكون ذلك من خلال استعمال عقار أو جراحة أو رقية أو علاج طبيعي أو غير ذلك مما يستحدث من وسائل وأدوات العلاج، بإشراف أهل الخبرة والاختصاص .
- بكل ما هو جائز : لتخرج المداواة بما لا يجوز شرعاً، كالخمر والميتة وغيره.

مع ملاحظة : أنه أحياناً قد يعبر عن مداواة الحيوان بالبيطرة، وهي مأخوذة من بَطَرَ الشيء إذا شقه، ومنه البيطار : وهو معالج الدواب، والبيطرة : معالجة الدواب^(١). ولعل هذا للتمييز بين مداواة الإنسان ومداواة الحيوان، فيعبر عن الثانية بالبيطرة، وقد ورد هذا الاستعمال في كلام ونصوص الفقهاء، يقول ابن عابدين في حاشيته : (قوله : أي بيطار، فهو خاص بالبهايم)^(٢).

وإنما آثرت استعمال مصطلح المداواة بدلاً عن البيطرة، لأنه الأكثر استعمالاً وشهرة بين الناس، وفي نصوص الفقهاء .

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ، مادة : بطر ، ٢٤٧/١ .

(٢) حاشية ابن عابدين : محمد أمين بن عابدين ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢-١٣٨٦ ، ٨٦/٦ .

وينظر استعمال الفقهاء لمصطلح البيطرة في كل من : المدونة الكبرى : مالك بن أنس ، دار صادر ، بيروت ، ٤٩٥/١١ . مغني المحتاج : محمد الخطيب الشربيني ، دار الفكر ، بيروت ، ١٦٧/٣ . الفروع : محمد بن مفلح المقدسي أبو عبد الله ، ت : أبو الزهراء حازم القاضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١-١٤١٨ ، ٣٣٧/٤ .

المبحث الأول

أحكام مداواة الحيوان، وفيه

المطلب الأول

مشروعية مداواة الحيوان، ووقف المال لذلك

أولاً مشروعية مداواة الحيوان .

مداواة الحيوان وعلاجه بما فيه منفعة له أمرٌ جائزٌ شرعاً، يقول صاحب رد المحتار (ويجوز فصد البهائم وكيها وكل علاج فيه منفعة لها) ^(١)، ويقول صاحب الآداب الشرعية والمنح المرعية: (وقال ابن عقيل: ولا يجوز إخصاء البهائم ولا كيها بالنار للوسم، وتجوز للمداواة حسب ما أجزنا في حق الناس....) ^(٢)، بل إن مداواة الحيوان أمر مطلوب شرعاً، وذلك لأسباب عدة أوجزها فيما يلي:

١ - مداواة الحيوان من الرحمة به والإحسان إليه :

يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنا القتل وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليجد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته) ^(٣)، وإذا كان المسلم مأموراً بالإحسان والرحمة للحيوان عند ذبحه الذي هو إزهاق لروحه، فإن الإحسان إليه في مداواته ومعالجته عند مرضه لتخفيف ألمه من باب أولى، بل ومقدم على غيره، لأن في مداواته إحياء له بإذن الله تعالى، يقول صاحب سبل السلام: (قوله: كتب

(١) الدر المختار: علاء الدين الحصكفي، دار الفكر، بيروت، ط٢- ١٣٨٦، ٦/٦٥٢.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية: محمد بن مفلح المقدسي، ت: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢- ١٤١٩/١٩٩٩، ٣/١٢٩.

(٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب: الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوانات، باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، رقم: ١٥٤٨/٣، ١٩٥٥.

الإحسان أي أوجهه كما قال تعالى: إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وهو فعل الحسن ضد القبيح (١).

ويقول صلى الله عليه وسلم: (إنه من لا يرحم لا يرحم) (٢)، يقول صاحب فتح الباري: (قال ابن بطال - أي في الحديث - فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق فيدخل المؤمن والكافر والبهائم المملوك وغيرها وغير المملوك ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدي بالضرب....) (٣)، ومن الرحمة بالحيوان مداواته ومعالجته من أمراضه، بل إن الرحمة بمداواته أظهر من غيرها حيث إن المرض والألم ضرر، والضرر يزال (٤)، فتكون المداواة مطلوبة شرعاً لما فيها من تحقيق أعظم وأظهر معاني الرحمة.

ويقول صلى الله عليه وسلم: (أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلج لسانه من العطش فتزعت له بموقعها - أي بخفها - فغفر لها) (٥)، وفي الحديث مطالبة بالرحمة والإحسان للحيوان وأنهما من أسباب المغفرة والعفو من الله تعالى، ومداواة الحيوان ومعالجته لتخفيف الآلام والأوجاع عنه شكل آخر من أشكال الرحمة به فكانت مطلوبة شرعاً، بل إن ترك مداواته إساءة له بإطالة أمد أوجاعه وآلامه، يقول صاحب الاستذكار: (وإذا كان في الإحسان إلى الكلب أجر ففي الإساءة إليه وزر والإساءة إليه أعظم من قتله) (٦)، وقد ثبت النهي عن الإساءة للحيوان، وأنه موجب للعذاب، فقال

- (١) سبل السلام: محمد بن إسماعيل الصنعاني الأمير، ت: محمد عبد العزيز الخولي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤- ١٣٧٩، ٩٠/٤.
- (٢) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، كتاب: الفضائل، باب: رحمته صلى الله عليه وسلم بالصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك رقم: ٢٣١٨، ١٨٠٧/٤.
- (٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ت: محمد فؤاد عبد الباقي ومحج الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ط - ١٣٧٩، ٤٤٠/١٠.
- (٤) مجلة الأحكام العدلية: جمعية المجلة، ت: نجيب هواويني، كارخانة تجارت كتب، ١٨/١.
- (٥) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، كتاب: قتل الحيات وغيرها، باب: فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، رقم: ٢٢٤٥، ١٧٦١/٤.
- (٦) الاستذكار: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، ت: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١- ١٤٢١/٢٠٠٠، ٤٩٨/٨.

عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت النار فيها، لاهي أطعمتها وسقنتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض (1).

ومن مجموع ما سبق يتبين أن الإنسان مطالب بالرحمة والإحسان للحيوان بجميع أشكاله ومداواة الحيوان شكل من أشكال الإحسان والرحمة .

٢ - مداواة الحيوان حفظ للمال .

حفظ المال مقصد شرعي كلي من المقاصد الضرورية التي لا بد منها لقيام مصالح الدين والدنيا (2)، يقول صاحب المستصفي : (ومقصود الشرع من الخلق خمسة : وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة (3)، والمقصود بالمال كل ما ينتفع به الناس انتفاعاً مشروعاً وله قيمة مادية بينهم، فيشمل الأعيان والمنافع والديون، ويستوعب النقود وثروات الأرض والطعام والمسكن واللباس والحيوان وجميع المتمولات، يقول صاحب الموافقات : (وأعني بالمال : ما يقع عليه الملك ويستبد به المالك عن غيره إذا أخذه من وجهه، ويستوي في ذلك الطعام والشراب واللباس على اختلافها وما يؤدي إليها من جميع المتمولات فلو ارتفع ذلك لم يكن بقاء، وهذا كله معلوم لا يرتاب فيه من عرف ترتيب أحوال الدنيا وأنها زاد الآخرة (4)، وإنما يكون الحفاظ على مصلحة المال بطريقتين ذكرهما صاحب الموافقات بقوله : (والحفظ لهما - أي للمصالح الخمس والمال أحدها - يكون بأمرين : أحدهما ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود، والثاني ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عن مراعاتها من جانب العدم (5).

(١) صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج ، كتاب قتل الحيات وغيرها ، باب : تحريم قتل الهرة ، رقم : ٢٢٤٢ ، ١٧٦٠/٤ .

(٢) ينظر : المستصفي : محمد بن محمد الغزالي أبو حامد ، ت : محمد عبد السلام عبد الشاي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١-١٤١٣ ، ١٧٤/١ . الإحكام في أصول الأحكام : علي بن محمد الأمدي أبو الحسن ، ت : سيد الجميلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١-١٤٠٤ ، ٣٠٠/٢ . الموافقات : إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي المعروف بالشاطبي ، ت : عبد الله دراز ، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٨/١ .

(٣) المستصفي : الغزالي ، ١٧٤/١ .

(٤) الموافقات : الشاطبي ، ١٧/٢ .

(٥) المرجع السابق : ١٧/٢ .

فجانب الوجود : ما به يتحقق وجود المال وزيادته واستثماره وتميمته، وجانب العدم: كل ما يمنع به إتلافه وتعطيله ودرء المفسد الواقعة أو المتوقعة، ومداواة الحيوان إحدى الوسائل التي تحفظه من المفسد الواقعة عليه، وتدرأ عنه خطر التلف .

ومن جميع ما سبق يتبين أن الحيوان أحد أنواع المال المعتبرة المنتفع بها انتفاعاً مشروعاً والمحافظة عليه تكون بكل وسيلة يتحقق بها وجوده وزيادته أو تدرأ عنه المفسد الواقعة والمتوقعة، ومداواته واحدة من هذه الوسائل فتكون لجميع ما سبق مداواة الحيوان مطلب شرعي أصيل .

مع الإشارة إلى أن مداواة الحيوان تعترها الأحكام التكليفية المختلفة، لاعتبارات عدة من جائزة إلى محرمة، وأوضح ذلك من خلال المثال الآتي :

فمن المسائل المستجدة التي قد ترد هنا في الكلام عن مشروعية مداواة الحيوان، بيان حكم : عمل الطبيب البيطري في مداواة الخنازير بالمزارع التي تعنى بتربية الخنازير تكثيراً وتسميناً وإنتاجاً .

والجواب : إن العمل في مداواة الخنازير والعناية بها لإنتاجها وتكاثرها في أمثال هذه المزارع وما في حكمها محرّم شرعاً، فمن المعلوم أن في هذا العمل إعانة على الإثم والعدوان، والله تعالى يقول : (وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) المائدة : ٢ ، حيث إن قصد تلك المزارع من تربية الخنزير بيعه ومشتقاته للاستهلاك البشري، وقد حرم الله تعالى لحم الخنزير، فقال : (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ) البقرة : ١٧٢ ، فكان كل ما يعين على إنتاج لحمه ومشتقاته من مداواة وعناية به بمثابة الوسيلة التي تحقق مقصد بيعه ومشتقاته للاستهلاك البشري، ومعلوم أن الوسيلة تأخذ حكم المقصد، يقول صاحب قواعد الأحكام : (وللوسائل أحكام المقاصد ، فالوسيلة إلى أفضل المقاصد هي أفضل الوسائل ، والوسيلة إلى أرذل المقاصد هي أرذل الوسائل)^(١) .

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام : أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي المعروف بالعزيز بن عبد السلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٤٦/١ .

ثانياً - وقف المال لمداواة الحيوان .

وسأبين بداية حكم الوقف على الحيوان، من حيث جواز الوقف عليه من عدمه، ثم أبين بعضاً من صور الوقف على مداواة الحيوان خصوصاً .

١ - حكم الوقف على الحيوان .

وصورته: كأن يقف شخص مبلغاً من المال لمداواة الحيوانات والعناية بهم وإطعامهم، أو يقف بستاناً مثلاً على الحيوانات ليكون لهم مرعى ومأوى ... إلخ .

اختلفت آراء الفقهاء في حكم ما سبق على النحو التالي :

الرأي الأول : منع الوقف على الحيوانات : وإليه ذهب الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة^(١)، حيث قالوا بعدم صحة الوقف على الحيوانات معللين ذلك بأسباب عدة، أوجزها فيما يلي :

١ . في الوقف على الحيوانات لا تتحقق قدرة الموقوف عليه على التملك حقيقة أو تقديراً فالحيوان يملك ولا يملك فلا يصح الوقف عليه، يقول صاحب المحرر : (ولا يصح الوقف على حربي ولا مرتد ولا حمل ولا بهيمة)^(٢)، ويقول صاحب روضة الطالبين : (فرع : وقف على بهيمة وأطلق، هل هو كالوقف على العبد حتى يكون على مالكها ؟، وجهان : أحدهما لا، لأنها ليست أهلاً بحال ولهذا لا تجوز الهبة لها والوصية)^(٣)، ومنه يتضح عدم صحة الوقف على الحيوان قياساً على العبد لعدم صحة تملكهما حتى لو أوقف عليهما وأطلق انصرف الوقف على مالكهما .

ويمكن مناقشة ما سبق : بأن الناظر في مال الوقف على الحيوان ليجد أنه ينتهي إلى خدمة الإنسان إما بشكل مباشر أو غير مباشر، من حيث إن الحيوان

(١) ينظر: أحكام الأوقاف: لأبي بكر أحمد بن عمر الشيباني المعروف بالخصاف، ت: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١: ١٤٢٠/١٩٩٩، ٢٧. حاشية الدسوقي: محمد عرفة الدسوقي، ت: محمد عليش، دار الفكر، بيروت، ٧٦/٤. روضة الطالبين: محي الدين بن شرف النووي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢-١٤٠٥، ٣١٨/٥. المحرر في الفقه: عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني، مكتبة المعارف، الرياض، ط ٢-١٤٠٤، ٣٦٩/١. المغني: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، دار الفكر، بيروت، ط ١-١٤٠٥، ٣٧٧/٥.

(٢) المحرر في الفقه: لابن تيمية، ٣٦٩/١.

(٣) روضة الطالبين: النووي، ٣١٨/٥.

في النهاية وسيلة تسهل العيش للإنسان، وعليه يقال: الوقف على الحيوان وإن كان من حيث الظاهر مستقلاً بالمنفعة على الحيوان إلا أن مآله في مصلحة وخدمة الإنسان والحفاظ على التوازن البيئي الذي يحفظ كلياته عموماً، ثم إن الناظر في كلام الفقهاء ليجد صحة الوقف على المدارس والمساجد وغيرها ولا يتحقق فيها الشرط السابق حتى لو عللوا كون المستفيد من ذلك هم جماعة المسلمين^(١)، فإن هذا المعنى متحقق في الوقف على الحيوان من حيث المآل، وما يتحقق بالوقف على الحيوان من مصالح مرتبطة بالحفاظ على الكليات الخمس، وإن لم يدركها الناس بطريقة مباشرة إلا أنها متحققة بطرق غير مباشرة.

٢. الحيوان لا يحتاج أن يوقف عليه لوجود بدائل ينفق عليه منها، فنفقة الحيوان تكون من غلته تارة وتكون مما حبس وأوقف عليه أو ممن حبسه وأوقفه تارة أخرى، وقد ينفق عليه من بيت مال المسلمين، ولذلك كله لا يصح الوقف عليه، يقول صاحب جامع مسائل الأحكام في نوازلها، وهو ينقل كلامه عن ابن رشد حين سئل عن نفقة فرس حبس للجهاد فأجاب: (لا يلزم المحبس على علفه إلا أن يشاء ويجبر المحبس عليه، فإن أبي من علفه رجع ملكاً للمحبس إن عين المحبس عليه.... وإن بتله في سبيل الله أخذ من الذي دفع إليه وأبى أن يعلفه ودفع لغيره ممن يلتزم علفه ليجاهد عليه)^(٢)، ويقول صاحب كشاف القناع: (وإن لم يعينه أي الإنفاق عليه واقف وكان الموقوف ذا روح كالرقيق والخيول فإنه ينفق عليه من غلته لأن الوقف يقتضي تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة ولا يحصل ذلك إلا بالإنفاق عليه فكان ذلك من ضرورته، فإن لم يكن لها أي الموقوفلة لضعف به ونحوه فنفقته على الموقوف عليه المعين لأنه ملكه، فإن

(١) ينظر: المغني: لابن قدامة، ٢٧٧/٥.

(٢) نوازل البرزلي المسمى بالجامع لمسائل الأحكام لما نزل من قضايا بالمفتين والحكام: لأبي القاسم بن أحمد البلوي المعروف بالبرزلي، ت: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١-٢٠٠٢، ٤٢٥/٥-٤٢٩.

تعذر الإنفاق من الموقوف عليه لعجزه أو غيبته ونحوهما بيع الموقوف وصرف ثمنه في عين أخرى....^(١).

ويمكن مناقشة ما سبق بأنه ورد في الحديث قوله ﷺ : (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك)^(٢)، والإنفاق على الحيوان يدخل ضمن دائرة المباح الذي ليس فيه ما يعارضه، بل قد يندرج ضمن دائرة المصالح التي يخضع تقديرها لأهل العلم من حيث درجة نفعها وقربها من درجة الحاجي المكمل للضروري أو التحسيني المكمل لهما معاً، ويقول ﷺ : (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة)^(٣)، ففي الحديث ترغيب على الزرع والغرس وعلى مشروعية الصدقة على الحيوان عموماً دون تخصيص، كما فيه دليل على أن الأجر محقق وإن لم يكن الحيوان مملوكاً، لما جاء في الحديث من صيغة النكرة في قوله طيرٌ أو بهيمةٌ فتفيد العموم، والوقف نوعٌ من الصدقات فجاز الوقف على الحيوان لطعامه وشرابه ومداواته والعناية به.... إلخ .

الرأي الثاني : جواز الوقف على الحيوان، وإليه ذهب بعض المالكية والحنابلة^(٤)، يقول صاحب جامع مسائل الأحكام : (وأما من بنى سبيلاً للحيوان غير الناطق وبعضه للحيوان الناطق وبنى لكل صنف سبيل، فسئلت هل يسوغ، فأجبت : بأنه يجوز جري بعضها في بعض لأنه ما فعل إلا لوجه التحجير ما لم يؤدي إلى ضيق ما فعل به أو تعذر لغيره ضرورة فيمنع حينئذ)^(٥).

واستدلوا بأن اشتراط الملك من الموقوف عليه للموقوف يتحقق بمعناه وبمقاصده لأن الواقف أراد من ذلك نفع الحيوان بالنفقة عليه^(٦).

(١) كشاف القناع : البهوتي ، ٢٦٦/٤ .

(٢) صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي ، ت : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير واليامة ، بيروت ط٣- ١٤٠٧/١٩٨٧ ، كتاب : الإيمان ، باب : ما جاء أن الأعمال بالنية ، رقم : ٥٦ ، ٣٠/١ .

(٣) المرجع السابق : كتاب : المساقاة ، باب : فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ، رقم : ٢١٩٥ ، ١١٧/٢ .

(٤) ينظر : نوازل البرزلي : البرزلي ، ٤٠٩/٥ . المبدع : لابن مفلح ، ٢٢٢/٥ .

(٥) نوازل البرزلي : البرزلي ، ٤٠٩/٥ .

(٦) ينظر : المبدع : لابن مفلح ، ٢٢٢/٥ .

وبعد عرض الأقوال في المسألة : يترجح القول بجواز الوقف على الحيوان لسلامة أدلته وعدم وجود ما يقوى من الأدلة على معارضته، ولما ورد من مناقشات على أدلة من قال بالمنع، ولأن الوقف على الحيوان أقرب لروح الشرع ومقاصده الداعية للترغيب بالصدقة على الإنسان والحيوان معاً، والوقف نوع من الصدقات فجاز الوقف على الحيوان لطعامه وشرابه ومداواته وغير ذلك^(١).

كما يمكن التوفيق بين الآراء خروجاً من الخلاف فمن قال لا يصح الوقف على الحيوان لأنه لا يملك، نقول له : يمكن القول بصحة الوقف على الجمعيات التي ترعى وتهتم بالحيوان، كما يصح الوقف على المدارس والمساجد والمشايخ، بجامع أن كلاهما جهة عامة تصب في مصلحة المسلمين .

٢ - صور من الوقف على مداواة الحيوان في الحضارة الإسلامية .

الحضارة الإسلامية أكثر حضارات العالم إنسانية، ولها السبق في الرفق بالحيوان، ليس باعتبار الرفق ممارسة اجتماعية من قبيل التقليد والعرف، بل باعتبار الرفق عبادة وطاعة يُتقرب بها إلى الله تعالى، فالرحمة بالحيوان قد تدخل صاحبها الجنة، والقسوة عليه قد تدخله النار، يقول ﷺ : (من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير)^(٢).

والناظر في أحكام وصور وقف المسلمين يجد أنها تعدت حاجة الإنسان لتفي بحاجة الحيوان، حيث وجد في الثابت من التاريخ الإسلامي أوقافاً خاصة بمداواة وتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافاً لرعي الحيوانات المسنة العاجزة كوقف أرض المرج الخضراء بدمشق، وكذلك وقفاً للقطط لإطعامها وسقيها والعناية بها في مدرسة القطار من حي القيمرية، وآخر للكلاب في حي العمارة، وكلاهما من أحياء دمشق^(٣)، وكذلك ما

(١) ينظر : مدى مشروعية الوقف على الحيوان في الفقه الإسلامي : عبد القادر بن عزوز ، مجلة أوقاف ، العدد : ١٦ ، السنة التاسعة ، جمادى الأولى : ١٤٣٠ ، مايو : ٢٠٠٩ ، ٦٦-٦٧ .

(٢) سنن الترمذي : محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمى ، ت : أحمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، كتاب : البر والصلة ، باب : ما جاء في الرفق ، رقم : ٢٠١٢ ، وقال عنه : حسن صحيح ، ٣٦٧/٤ .

(٣) ينظر : من روائع حضارتنا : مصطفى السباعي ، دار الوراق ، بيروت ، ط١ - ١٤٢٠ / ١٩٩٩ ، ١٨٤ .

كان عليه الأمر في المغرب في عهد الدولة المرينية حيث انتشرت المصحات الاستشفائية الوقفية التي تقدم العناية والمداواة للإنسان بالإضافة للعناية ومداواة بعض من أنواع الحيوان إذا انكسر وأصيب بأي أذى فإنه يحمل إلى تلك المصحات فيضمد ويعالج ويعتنى به^(١).

ولعل المقام لا يتسع لاستقصاء جميع ما ذكر من صور الوقف على مداواة الحيوان والعناية به في تاريخنا وحضارتنا الإسلامية .

ولكنني أقول : إن انتشار أمثال هذه الأوقاف في حواضر العالم الإسلامي كدمشق والمغرب وغيرها كثير من البلدان، إنما هو لدليل ناصع على مشروعية مداواة الحيوان والعناية به، وجواز الوقف عليه، إذ من غير المقبول أن يكون هذا النوع من الأوقاف منتشر في شرق وغرب حواضر عالمنا الإسلامي والفقهاء والعلماء سكتوا عنه لو كان ممنوعاً أو مخالفاً لأحكام شرعنا الحنيف .

المطلب الثاني

استعمال المحرمات في مداواة الحيوان

الأصل في مداواة الحيوان أن تكون بما يجوز التداوي به شرعاً، يقول صاحب الآداب الشرعية : (ولا يجوز إخصاء البهائم ولا كيهها بالنار للوسم، وتجوز المداواة حسب ما أجزنا في حق الناس)^(٢)، وعليه فلا تجوز مداواته بما هو محرم، يقول صاحب الهداية : (والانتفاع بالمحرم حرام، ولهذا لا يجوز أن يداوي به جرحاً أو دبر دابة ولا أن يسقي ذمياً ولا أن يسقي صبيلاً للتداوي، والوبال على من سقاه وكذا لا يسقيها الدواب)^(٣)، ويقول

(١) ينظر : درر الأوقاف المغربية في التكافل الاجتماعي عبر عصر بن مرين ٦٥٧ - ٨٦٩ / ١٢٥٩ - ١٤٦٥

محمد المنوني ، ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم الإسلامي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد / ١٤٠٢ ، ١٩٨٣ ، ٢١٣ .

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية : لابن مفلح ، ١٢٩/٣ .

(٣) الهداية شرح البداية : علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المرغيناني أبو الحسين ، المكتبة الإسلامية ، بيروت ، ١١٤/٤ .

وينظر : مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر : عبد الرحمن بن محمد بن سليمان الكليبولي المعروف

صاحب الفروع عند كلامه عن التداوي : (ويحرم بمحرم وفي الترياق والخمر ونقله المروذي في مداواة الدبر بالخمر، ونقله ابن منصور فيه وفي سقيه الدواب)^(١)، والقول بعدم جواز مداواة الحيوان بالمحرم لأن الشريعة تدعو إلى الإحسان له، يقول صلى الله عليه وسلم : (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلى وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته)^(٢)، وإذا كان المسلم مأموراً بالإحسان إلى الحيوان عند الذبح الذي هو إزهاق للروح، فإن الأمر بالإحسان إليه في عدم مداواته بما هو محرم مستقذر من باب أولى، لأن بالمداواة إحياء له بإذن الله تعالى .

أما لو تعذرت مداواة الحيوان بما يجوز التداوي به شرعاً، وتعينت المداواة بالمحرم بإخبار صاحب الخبرة الثقة جازت مداواته بالمحرم من باب الضرورة، لأن الضرورات تبيح المحظورات^(٣)، للحفاظ على حياته، وعلى المال إن كان من الأموال، مع ملاحظة أن الضرورات تقدر بقدرها^(٤)، فلا يتجاوز بالمداواة بالمحرم مكان الضرورة، وكذلك لأن المرض ضرر بالحيوان، والضرر يزال^(٥)، رحمة بالحيوان وتخفيفاً للألم عنه وحفظاً للمال .

- بشيخي زاده ، ت : خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط - ١٩٩٨/١٤١٩ ، ٢٥٢/٤ .
- (١) الفروع : لابن مفلح ، ١٢١/٢ . وينظر : الفواكه الدواني : أحمد بن غنيم بن سالم النفاوي ، دار الفكر ، بيروت ، ط - ١٤١٥ ، ٢٤٠/٢ . حواشي الشرواني : عبد الحميد الشرواني ، دار الفكر ، بيروت ، ١٧٠/٩ ، مع ملاحظة : تقيد الشافعية حرمة التداوي بالنجس والمحرم حالة كونه صرفاً ، أي غير مستهلك في غيره .
- (٢) سبق تخريج الحديث : الصفحة (١١) من البحث .
- (٣) مجلة لأحكام العدلية : جمعية المجلة ، ١٨/١ .
- (٤) المرجع السابق : ١٨/١ .
- (٥) المرجع السابق : ١٨/١ . وهنا أشير إلى أن ما صدر من رأي من الدكتور خالد بن علي المشيخ عضو هيئة التدريس بجامعة القصيم في جوابه عن جواز مداواة الحيوان بالخمر بأنه جائز فهذا لا يسلم ويحمل على حال الضرورة لا مع وجود الدواء الجائز التداوي به شرعاً .
- ينظر : موقع الإسلام اليوم - خزانة الفتاوى الأطعمة والأشربة والصيد والزكاة ، على الرابط : www.islamtoday.net بتاريخ : الثلاثاء ١٢ رجب ، الموافق ٩ سبتمبر ٢٠٠٣ .

المطلب الثالث

مداواة الحيوان بما فيه تعذيب له

إذا كانت مداواة الحيوان مطلوبة شرعاً للرحمة به، فإنها بما يكون فيه تعذيباً له مما يخالف قواعد الشرع المبنية على الرحمة بالحيوان والإحسان إليه، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه: (نهى عن إخساء الخيل والبهائم)^(١)، يقول صاحب نيل الأوطار: (وفيه دليل على تحريم خصي الحيوانات.... ولكن ليس كل ما كان جالباً لنفع يكون حلالاً، بل لا بد من عدم المانع، وإيلاء الحيوان ههنا مانع، لأنه لم يأذن به الشارع بل نهى عنه)^(٢).

فكل مداواة ينتج عنها ألم يكون سبباً في تعذيب الحيوان محرم بناءً على ما سبق، إلا أن تكون مصلحة مداواة الحيوان مقدمة على ما يلحقه من ألم وتعذيب بسبب المداواة، ومثال ذلك لو أصيب طرف من أطراف الحيوان وكان لا بد من بتره، فمما لا شك فيه أن بتر طرف الحيوان سيكون سبباً في حصول الألم والمشقة الدائمة له، ولكن عدم بتره وترك الداء حتى يسري قد يؤدي بحياة الحيوان، وقد يلحق به ألماً ومشقة أكبر من بتر عضوه المصاب، فكانت مصلحة المحافظة على حياة الحيوان مقدمة على مفسدة بتر أحد أعضائه وما يسببه من ألم وتعذيب له، والقاعدة تقول: الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف^(٣)، بمعنى أن الألم والعذاب ليس بدرجة واحدة وإنما يتفاوت في ذاته وآثاره، والألم يزال لأنه ضرر، والضرر يزال^(٤)، ولكن إذا لم يمكن إزالته نهائياً وكان بعضه أشد من بعض ولا بد من ارتكاب أحدهما فيزال الضرر الأشد بارتكاب الأخف.

- (١) مسند أحمد: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة، رقم: ٤٧٦٩، ٢٤/٢، وإسناده ضعيف، ينظر: تحفة الأحوذى: محمد عبد الرحيم المباركنفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، باب: ما جاء في النهي عن التبتل، ١٧٠/٤. ولكن الألباني حسنه بمجموع طرقه، ينظر: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢-١٤٠٥، ٢٨٠/١.
- (٢) نيل الأوطار: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الجيل، بيروت، ط-١٩٧٣، ٢٥٠/٨.
- (٣) مجلة الأحكام العدلية: جمعية المجلة، ١٨/١.
- (٤) المرجع السابق: ١٨/١.

المطلب الرابع

مداواة الحيوان المصاب بالأمراض المعدية، وبيان حكم : بيعه وذبحه
وأكله أو قتله

أولاً - مداواة الحيوان المصاب بالأمراض المعدية .

لا اختلاف من حيث الأصل في أن مداواة الحيوان مطلوبة شرعاً سواء أكان المرض الذي أصيب به الحيوان معدياً أم غير معدٍ، ولكن قد يضاف لما سبق اتخاذ بعض الخطوات والإجراءات في مداواة الحيوان المريض بمرض معدٍ، أيها فيما يلي :

١- عزل الحيوان المريض بمرض معدٍ لضمان عدم انتقال المرض للحيوانات

السليمة قدر الإمكان : وهذا من الإجراءات الوقائية في مداواة الحيوانات، يقول صلى الله عليه وسلم : (لا يورد ممرض على مصح)^(١)، حيث إن المرض ضرر، والضرر يدفع قدر الإمكان^(٢)، فكان في عزل الحيوان المريض دفع لضرر المرض عن الأصحاء، وهذا لا يتعارض مع قوله صلى الله عليه وسلم : (لا عدوى ولا بنو ولا هامة، فقال أعرابي : يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها ظباء فيجيء البعير الأجرى فيدخل فيها فيجر بها كلها، قال : فمن أعدى الأول)^(٣)، حيث جمع النووي بين النصين فقال : (قال جمهور العلماء يجب الجمع بين الحديثين وهما صحيحان، قالوا : وطريق الجمع أن حديث لا عدوى المراد به نفي ما كانت الجاهلية تزعمه وتعتقده أن المرض والعاهة تعدي بطبعها لا بفعل الله تعالى، وأما حديث لا يورد ممرض على مصح فأرشد فيه إلى مجانية ما يحصل الضرر عنه في العادة بفعل الله تعالى وقدره، فنفي في الحديث الأول العدوى بطبعها ولم ينف حصول الضرر ثم ذلك بقدر الله تعالى)^(٤).

(١) صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج ، باب : لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ، رقم : ٢٢٢١ ، ١٧٤٣/٤ .

(٢) مجلة الأحكام العدلية : جمعية المجلة ، ١٩/١ .

(٣) صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج ، باب : لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ، رقم : ٢٢٢٠ ، ١٧٤٢/٤ .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم : أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٢-١٣٩٢ ، ٢١٣/١٤ .

٢ - استعمال اللقاح كنوع من أنواع المداواة الوقائية : بمعنى دفع المرض قبل وقوعه بكل الوسائل والإمكانات المتاحة حسب الاستطاعة والقدرة، فإن أمكن دفع المرض بالكلية وإلا يدفع بحسب المستطاع، وهذا من باب أن الوقاية خيرٌ من العلاج، والقاعدة تقول : الضرر يدفع بقدر الإمكان^(١).

فالتحصين الصحي المبكر للحيوانات باللقاحات ضد الأمراض المتوقعة أمرٌ جائز شرعاً، ومما يدل على أهمية التحصين الوقائي الواقع المؤلم الناتج عن انتشار بعض الأمراض بين الفينة والأخرى من أمثال : أنفلونزا الطيور، والحمى القلاعية، وغير ذلك مما ينتج عنه موت أعداد هائلة من تلك الحيوانات، فهذه الأمراض وغيرها ضرر يلحق الحيوانات وأصحابها، يدفع بقدر الإمكان باللقاحات الوقائية والاستباقية .

ثانياً - حكم بيع الحيوان المصاب بالأمراض المعدية، وذبحه وأكله، أو قتله .

١ - بيع الحيوان المريض بمرض معدٍ : إما أن يكون البيع مع الإفصاح عن المرض والحيوان مما يجوز بيعه فلا خلاف في صحة البيع، يقول ﷺ : (المسلم أخو المسلم ولا يحل لمسلم باع من أخيه بيعاً فيه عيب إلا بينه)^(٢)، يقول صاحب المهذب : (ومن ملك عيناً بها عيباً لم يجز أن يبيعها حتى يبين عيبها)^(٣)، ويقول صاحب المغني : (من علم بسلعة عيباً لم يجز بيعها حتى يبينه للمشتري، فإن لم يبينه فهو آثم عاص والعمل عليه عند أهل العلم)^(٤) .

وإما أن يكون بيع الحيوان - الجائز بيعه - من دون إفصاح عن مرضه المؤثر في نقص قيمته أو فوات غرض صحيح مقصود من الحيوان، فيثبت للمشتري خيار العيب، لدفع الضرر الواقع عليه لأنه رضي بالمبادلة بطريق البيع، والبيع يقتضي سلامة المبيع

(١) مجلة الأحكام العدلية : جمعية المجلة ، ١٩/١ .

(٢) سنن ابن ماجه : محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، بيروت ، كتاب : الإجازات ، باب : من باع عيباً فليبينه ، رقم : ٢٢٤٦ ، ٧٥٥/٢ ، وقال عنه الشوكاني : إسناده حسن . نيل الأوطار : الشوكاني ، ٣٢٤/٥ .

(٣) المهذب : إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبو إسحاق ، دار الفكر ، بيروت ، ٢٨٢/١ .

(٤) المغني : لابن قدامة ، ١٠٨/٤ .

من العيوب المؤثرة، وهذه السلامة قد فاتت بوجود المرض المعد بالحيوان، وبذلك يثبت للمشتري التخيير بين الإمضاء والفسخ، لأن الرضا شرط صحة البيع^(١).

٢ - ذبح الحيوان المريض بمرض معد وأكله - إن كان الحيوان المريض بمرض معد مأكول اللحم وثبت أنه لا يترتب على أكل لحمه ضرراً محققاً أو راجحاً - ويرجع في معرفة ذلك إلى الأطباء الثقات أصحاب الاختصاص في هذا المجال - فلا مانع من أكل لحمه، وإن ثبت أن بأكله ضرر محقق فلا يجوز أكله لأن الإنسان ممنوع من أكل ما يضر بدنه عملاً بالقاعدة القائلة: لا ضرر ولا ضرار^(٢).

٣ - قتل الحيوان المريض بمرض معد - أما قتل الحيوان المريض سواء بذبحه أم بغير ذلك من وسائل إنهاء الحياة، فقد فرّق بعض الفقهاء بين مأكول اللحم وغيره، بينما لم يفرق البعض الآخر.

يقول صاحب التاج والإكليل: (سئل ابن القاسم عن الدابة التي يؤكل لحمها تعيا في أرض لا علف فيها، فقال: يدعها ولا يذبحها، قال ولو كانت لرجل دابة مريضة يئس من النفع بها على كل وجه فذبحها أحب إليّ من تركها.... لأن في ذلك إراحتها)^(٣)، وواضح مما سبق أن الدابة المريضة التي وصلت إلى حد اليأس من مداواتها والانتفاع بها، أنها تذبح بدعوى الإحسان إليها، وتخفيف الألم عنها وإراحتها بغض النظر عن كونها مأكولة اللحم أو غير مأكولة.

ويقول الشرواني: (يحرم ذبح الحيوان غير المأكول ولو لإراحتة، كالحمار الزمن مثلاً...)^(٤)، فمفهوم كلام الشرواني أنه لو كان بذبحها ينتفع بها بأن كانت مأكولة فلا مانع من ذبحها لإراحتها من جهة وللانتفاع بها من جهة ثانية، وإلا فيحرم ذبحها إن لم تكن مأكولة لوجود الألم والتعذيب للحيوان من جهة، ولعدم الانتفاع بها مذبوحة من جهة ثانية.

(١) ينظر: بدائع الصنائع: الكاساني، ٢٧٤/٥.

(٢) مجلة الأحكام العدلية: جمعية المجلة، ١٨/١.

(٣) التاج والإكليل: محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري المعروف بالمواق، دار الفكر، بيروت، ط٢- ١٣٩٨، ٢٢٢/٣.

(٤) حواشي الشرواني: الشرواني، ٢٢٢/٩.

وبغض النظر عن تفريق بعض الفقهاء بين مأكول اللحم وغيره في جواز قتل الحيوان المريض من عدمه، وهل في قتله إراحة أو تعذيباً له، فإن كان المرض مرضاً معدياً مع انعدام فرص علاجه، فقتله بالطريقة اللائقة أولى لأن في الإبقاء على حياته خشية من انتقال المرض للحيوانات السليمة فيعم بذلك الضرر ويزداد، والضرر يدفع بقدر الإمكان^(١).

المطلب الخامس

حكم استخدام عقاقير في مداواة الحيوان لها تأثير على صحة الإنسان

إذا كانت مداواة الحيوان وعلاجه بما فيه منفعة له أمراً جائزاً ومطلوباً شرعاً، فإن السؤال المهم هنا: ماذا عن الأثر المتبقي للعقاقير والمستحضرات الطبية في لحوم ومشتقات الحيوانات، وانعكاس ذلك على صحة الإنسان؟ .

في الإجابة عن السؤال السابق يمكن التفصيل بداية بين نوعين من العقاقير من حيث الإجمال^(٢).

١ - عقاقير يكون لبقائها في لحوم الحيوانات ومشتقاتها فترة زمنية محددة، وبعدها تخرج من جسمه أو تصل إلى نسبة ضئيلة لا يكون لها تأثير على الإنسان في حالة تناوله للحوم أو مشتقات الحيوان الذي تم إعطائه هذه العقاقير .

٢ - عقاقير تكون فترة بقائها في لحوم ومشتقات الحيوانات مدة زمنية طويلة ويكون لها تأثير مباشر على الإنسان أو تأثير على المدى البعيد .

وفي جميع الأحوال فإن بيع لحم الحيوان أو مشتقاته قبل زوال آثار العقار والمستحضرات الطبية، سواء في حالة كون العقار يبقى له آثاراً لفترة محدودة، أو في حالة كون العقار تبقى آثاره على المدى البعيد في لحم ومشتقات الحيوان، لا يجوز لما في

(١) مجلة الأحكام العدلية : جمعية المجلة ، ١٩/١ .

(٢) ينظر: إدارة الثروة الحيوانية - موقع الإرشاد الطبي، تحت عنوان: ماذا تعرف عن فترة التحريم للأدوية البيطرية، على الرابط التالي: www.irshadvetsu.com

ذلك من إلحاق الضرر بالإنسان، والقاعدة تقول: الإضرار بالناس حرام الاختيار^(١)، وكذلك: يدفع الضرر قبل وقوعه^(٢)، من باب الوقاية من الضرر قبل وقوعه ولا تكون الوقاية إلا بمنع بيع لحم ذلك الحيوان ومشتقاته للمستهلكين.

أما بيع الحيوان حياً فلا مانع مع الإفصاح من البائع عند إعطائه بعض العقاقير لاحتمال وجود منفعة للمشتري في الحيوان غير لحمه ومشتقاته.

المطلب السادس

مداواة الحيوان بقصد الزينة

أولاً - صورة المسألة: عندما يصبح اقتناء بعض أنواع الحيوانات جزءاً من الدلالة على الوضع والمكانة الاجتماعية لمالكه، عندها يلجأ البعض لطلب مواصفات معينة - يرونها أنها جمالية - لحيواناتهم لا تتوفر إلا من خلال اللجوء لعمليات جراحية تجميلية كأمثال شفط الدهون الزائدة بالحيوانات وتقصير الذيل أو الأذن وإزالة التجاعيد خاصة بوجوه بعض أنواع الكلاب.

وقد كشفت دراسة إحصائية حديثة أن عمليات التجميل للحيوانات الأليفة وخصوصاً الكلاب بإزالة الجلد الزائد - شفط الدهون - قد ارتفعت بنسبة أكثر من ٨٠٪ خلال السنوات الماضية ووفقاً للكلية الملكية للطب البيطري في بريطانيا فإن السبب الرئيس لهذا النوع من العمليات التجميلية للحيوانات هو الكلاب التي تتباهى بها النجمات المشهورات والتي تتميز بوجه مشدود خال من الطيات^(٣).

ثانياً - حكم مداواة الحيوان بقصد الزينة: تحرم مداواة الحيوانات إن كان مقصود التداوي الزينة، ويمكن الاستدلال على التحريم بما يلي.

- (١) الاختيار لتعليل المختار: عبد الله بن محمود بن مودود الحنفي الموصل، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٦/٥.
- (٢) معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية: منظمة التعاون الإسلامي - مجمع الفقه الإسلامي الدولي، ط١ - ١٤٣٤/١٢/٢٠، ٤٧٣/٧.
- (٣) العرب: صحيفة عربية يومية تأسست في لندن عام ١٩٧٧، مقال بعنوان: حمى عمليات التجميل تجتاح الحيوانات أيضاً، بتاريخ: ٢١٠٤/٩/١، العدد: ٩٦٦٦، صفحة ٢٤، على الرابط التالي: www.alarab.co.uk.

١ - مداواة الحيوان تقدر بقدر الحاجة، وما جاز لحاجة يقدر بقدرها^(١)، فلا يزداد في النفقة على الحيوان إلى حد الإسراف والتبذير، لأن ذلك من عمل إخوان الشياطين، قال تعالى: (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) (الإسراء: ٢٧)، ومداواة الحيوان بقصد التجميل تبذيراً لا فائدة مرجوة منه .

٢ - إن المداواة بقصد التجميل فيه تعذيب للحيوان من دون نفع يعود على الحيوان، وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه: (نهى عن إخصاء الخيل والبهاائم)^(٢)، يقول صاحب نيل الأوطار: (ليس كل ما كان جالباً لنفع يكون حلالاً بل لا بد من عدم المانع، وإيلام الحيوان هنا مانع لأنه لم يأذن به الشارع بل نهى عنه)^(٣) .

٣ - كما أن إجراء عمليات جراحية تجميلية للحيوانات من دون حاجة مداواة في تغيير خلق الله تعالى وتمثيلاً بالحيوان، وقد نهى عن ذلك سبحانه وتعالى وبين أنه من عمل الشيطان، فقال تعالى: (وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ أَدَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ) (النساء: ١١٩) .

المطلب السابع

مداواة الحيوان بالرقى

التداوي بالرقى أمر مشروع، وقد أجمع الفقهاء الأربعة على جوازه^(٤)، بشروط ذكرها صاحب فتح الباري، حيث قال: (وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند

(١) الفتاوى الفقهية الكبرى على مذهب الإمام الشافعي: أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، ت: عبد القادر الفاكهاني وعبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١- ١٩٨٧/١٤١٧، ٢٠٤/٧ .

(٢) سبق تخريج الحديث: الصفحة (١٧) من البحث .

(٣) نيل الأوطار: الشوكاني، ٢٥٠/٨ .

(٤) ينظر: حاشية ابن عابدين: لابن عابدين، ٣٦٢/٦ . الفواكه الدواني: النفاوي، ٢٤٠/٢ . فتح الباري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ط- ١٣٧٩، ١٩٥/١٠ . المغني: لابن قدامة، ١٦٠/٢ .

اجتماع شروط ثلاثة: أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بذات الله تعالى^(١).

أما عن مداواة الحيوان بالرقية، فيمكن الاستدلال على مشروعيتها بقوله ﷺ : (إذا رأى أحدكم من أخيه أو من نفسه أو من ماله ما يعجبه فليبركه فإن العين حق^(٢))، فالظاهر من الحديث عدم التفريق بين القراءة على الإنسان أو الحيوان، بل هو عام فيشمل الإنسان والحيوان، ولأن قوله ﷺ : (أو من ماله) يشمل الحيوان لأنه مال وكذلك غيره، فالسبب فيهما واحد والرقية واحدة أيضاً، فكما أن المرض يصيب الإنسان والرقية طريق من طرق علاجه فهو يصيب الحيوان كذلك، فتكون الرقية أيضاً طريق من طرق علاجه .

كما أن تأثر الدواب والجمادات بالقرآن وردت به أدلة كثيرة، ومن ذلك أن الله تعالى أخبر عن بعض الحجارة بقوله : (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَلْهَبُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) البقرة: ٧٤، ومنها تحرك الفرس واضطرابه لتنزل السكينة بتلاوة سورة الكهف، ففي الحديث: (كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطين فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: تلك السكينة تنزلت للقرآن)^(٣).

ولقد عنون ابن أبي شيبة في مصنفه، باب بعنوان: في الدابة يصيبها الشيء بأي شيء تتعوذ به^(٤)، ويؤيد مشروعية الدعاء للعجماءات ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (ثم إذا أفاد أحدكم الجارية أو المرأة أو الدابة فليأخذ بناصيتها وليدع بالبركة، وليقل:

(١) فتح الباري: لابن حجر، ١٠/١٩٥ .

(٢) مسند أحمد: أحمد بن حنبل، حديث عامر بن ربيعة رضي الله عنه، برقم: ١٥٧٢٨، ٤٤٧/٣. قال في مجمع الزوائد: رجال أحمد رجال الصحيح، مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي، القاهرة وبيروت، ط-١٤٠٧، ١٠٧/٥ .

(٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، باب: نزول السكينة لقراءة القرآن، رقم: ٥٤٧/١، ٧٩٥ .

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، ت: تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط-١٤٠٩، ٥٠/٦ .

اللهم إني أسالك خيرها وخير ما جبلت عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلت عليه، وإن كان بغيراً فليأخذ بذروة سنامه (١).

المطلب الثامن

أخذ الأجر على مداواة الحيوان وقيمة الدواء

حيث تقررت مشروعية مداواة الحيوان وأن مداواته من الإحسان إليه فلا مانع من أخذ الأجرة على ذلك، لأن مداواته كسائر الأعمال المشروعة المتعدية النفع، يقول صاحب المغني: (ويجوز الاستئجار على الختان والمداواة وقطع السلع لا نعلم فيه خلافاً، وأنه فعل يحتاج إليه مأذون فيه شرعاً، فجاز الاستئجار عليه كسائر الأفعال المباحة (٢)، ولا يقاس جواز أخذ أجرة المداواة على جواز بيع الحيوان من عدمه، لأنه ليس في معناه، لأن الأجرة في المداواة مقابل علاج تلك الحيوانات، والعوض في البيع مقابل ذواتها لا منافعها، ولذا فإن الإنسان الحر مع أنه يحرم بيعه وأكل ثمنه إلا أنه تجوز مداواته وأخذ الأجرة عليها .

أما أجرة الطبيب فهي مقدره بالمدة لا بالبرء والعمل، فإن تمت المدة وبرئ الحيوان أم لم يبرأ فله كامل الأجرة، وإن برئ قبل تمام المدة انفسخت الإجارة فيما بقي من المدة المحددة لتعذر استيفاء ما تم الاتفاق عليه، وكذلك لو سلم الطبيب نفسه ثم برئ الحيوان قبل مضي فترة من الزمن يمكن في مثلها مداواة الحيوان انفسخت الإجارة، وكذلك لو مات الحيوان قبل تمام المدة انفسخت (٣)، يقول صاحب مغني المحتاج: (وتقدر المداواة بالمدة لا بالبرء والعمل فإن برء قبل تمام المدة انفسخت الإجارة في الباقي) (٤).

(١) المستدرک علی الصحیحین: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١- ١٤١١/١٩٩٠، ٢/٢٠٢. وقال عنه صحيح على ما ذكرناه من رواية الأئمة الثقات عن عمر بن شعيب ولم يخرجاه عن عمرو في الكتابين .

(٢) المغني: لابن قدامة، ٥/٢١٣ .

(٣) ينظر: حاشية ابن عابدين: لابن عابدين، ٦/٨١. حاشية الدسوقي: الدسوقي، ٤/٣٠. مغني المحتاج: الشرييني، ٢/٣٤٠. كشف القناع: البهوتي، ٤/١٤ .

(٤) مغني المحتاج: الشرييني، ٢/٣٤٠ .

أما اشتراط الشفاء والبرء لدفع أجرة الطبيب فاختلف فيه الفقهاء على أقوال :
الأول - عدم جواز الاشتراط : وهو قول عند الحنابلة، يقول صاحب المغني :
 (ويحتاج إلى بيان قدر ما يكحله مرة في كل يوم أو مرتين، فأما إن قدرها بالبرء، فقال
 القاضي : لا يجوز) ^(١) .

الثاني - جواز اشتراط الشفاء والبرء للحيوان لدفع الأجرة للطبيب البيطري :
 وإليه ذهب المالكية وهو قول ثان عند الحنابلة : يقول صاحب المغني : (وقال ابن أبي
 موسى لا بأس بمشاركة الطبيب على البرء، لأن أبا سعيد الخدري حين رقى الرجل
 شارطه على البرء) ^(٢) .

والصحيح الراجح : عدم جواز المشاركة لأن الإجارة لا بد فيها من مدة معلومة أو
 عمل معلوم، يقول صاحب المهذب : (ولا تصح الإجارة إلا على منفعة معلومة القدر لأننا
 بينا أن الإجارة بيع ولا يصح إلا في معلوم القدر فكذلك الإجارة، ويعلم مقدار المنفعة
 بتقدير العمل أو بتقدير المدة) ^(٣) ، والمشاركة تجعل العمل مجهولاً لجهالة كم يحتاج
 الحيوان المريض من مداواة ليبراً، ولكن يمكن تصحيح ذلك بناءً على اعتبار مداواة
 الحيوان عقد جعالة حيث لا يشترط معلومية مدة العمل، يقول صاحب مغني المحتاج :
 (وتصح الجعالة على مجهول) ^(٤) ، فلا تؤثر جهالة المدة اللازمة لمداواة الحيوان حتى
 يبرأ في صحة العقد، يقول صاحب المغني : (لأن أبا سعيد الخدري حين رقى الرجل
 شارطه على البرء، والصحيح إن شاء الله تعالى أن هذا يجوز لكن بكونه جعالة لا
 إجارة) ^(٥) .

**وأما اشتراط كون الدواء على الطبيب البيطري أو أن يلزمه، فاختلقت فيه
 آراء الفقهاء على أقوال عدة :**

الأول - لا يلزم : وإليه ذهب المالكية في قول، وهو مذهب الحنابلة، يقول صاحب

(١) المغني : لابن قدامة ، ٣١٤/٥ .

(٢) المرجع السابق : ٣١٤/٥ . وينظر : الفواكه الدواني : النفاوي ، ١١٥/٢ .

(٣) المهذب : الشيرازي ، ٣٩٥/١ .

(٤) مغني المحتاج : الشريبي ، ٤٣٠/٢ . وينظر : الكافي في فقه ابن حنبل : لابن قدامة ، ٣٣٣/٢ .

(٥) المغني : لابن قدامة ، ٣١٤/٥ .

المغني : (ولا يجوز اشتراط الدواء على الطبيب)^(١) ، واستدلوا بأن الأصل أن يكون الدواء على المريض ومن الطبيب العمل ، وهو ما جرى به العرف^(٢) ، وأن اشتراط الدواء على الطبيب فيه اجتماع جعل وبيع وهذا لا يجوز^(٣) .

الثاني - يصح أن يشترط مالك الحيوان المريض الدواء على الطبيب البيطري :
فإن برئ الحيوان أخذ الطبيب أجرته وقيمة الدواء ، وإلا يأخذ قيمة الدواء فقط ، يقول صاحب الفواكه الدواني : (واتفقا على أن جميع الدواء من عند العليل ، لأنه يجوز كونه من عند الطبيب على أنه إن برئ العليل يدفع الأجرة وثمان الدواء ، وإن لم يبرأ يدفع له قيمة الدواء فقط)^(٤) .

والذي يظهر رجحان القول الثاني : لما فيه من التيسير وتحقيق المصلحة لمالك الحيوان المريض حيث إن الطبيب هو الأقدر على إحضار الدواء المناسب ، وكذلك للطبيب أيضاً حيث إن قيمة الدواء مضمونة وبذلك يحفظ ماله وحقوقه ، بالإضافة إلى أن دليل من منع مبناه جريان العرف ، والقاعدة تقول : لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان^(٥) .

وأما دعوى عدم جواز اشتراط الدواء على الطبيب لما فيه من اجتماع جعل وبيع وأن ذلك لا يجوز : فقد أجاز أشهب من المالكية اجتماع أكثر من عقد في عقد واحد لأنه لما شرع كل عقد على الانفراد صح عند الاجتماع^(٦) ، وأجاز الشافعية الجمع بين البيع والإجارة ، والجمع بين السلم والإجارة^(٧) ، كما أجاز الحنابلة اجتماع القرض مع الوكالة في عقد واحد ، يقول صاحب كشاف القناع : (أو قال : أسلف لي ألفاً في كر طعام واقبض الثمن عني من مالك أو اقبض الثمن من الدين الذي لي عليك صح ، لأنه وكله في الشراء والإسلاف وفي الاقتراض منه أو القبض من دينه والدفع عنه ، وكل منها

(١) المرجع السابق : ٢١٥/٥ . وينظر : الفواكه الدواني : النفراوي ، ١١٥/٢ .

(٢) المغني : لابن قدامة ، ٢١٥/٥ .

(٣) الفواكه الدواني : النفراوي ، ١١٥/٢ .

(٤) المرجع السابق : ١١٥/٢ .

(٥) مجلة الأحكام : جمعية المجلة ، ٢٠/١ .

(٦) ينظر : البهجة في شرح التحفة : التسولي ، ١٤/٢ .

(٧) مغني المحتاج : الشرييني ، ٤١/٢ وما بعدها .

صحيح مع الانفراد فكذا مع الاجتماع^(١)، وبذلك يجوز اجتماع عقود في عقد واحد عملاً بالأصل في العقود والشروط، يقول صاحب مجموع الفتاوى: (الأصل في العقود والشروط الجواز والصحة ولا يحرم منها إلا ما ورد الشرع على تحريمه وإبطاله نصاً أو قياساً)^(٢)، وأما حديث: (النهي عن بيعتين في بيعة)^(٣)، فقد فسره بعض العلماء بأن المراد به: النهي عن إيجاب البيع في سلعة بثمنين مختلفين إلى أجلين...، أو إيجاب البيع في سلعتين بثمنين مختلفين، ثم يقبل الطرف الآخر، ثم يفترقان على هذا دون تحديد لثمن معين وأجل معين أو سلعة معينة^(٤).

(١) كشف القناع: البهوتي، ٤٨٩/٣.

(٢) مجموع الفتاوى: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، ت: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ط- ١٤١٦/١٩٩٥، ١٣٢/٢٩.

(٣) سنن الترمذي: أبو عيسى الترمذي، باب: ما جاء في النهي عن بيعتين في بيعة، رقم: ١٢٢١، وقال عنه: حسن صحيح، ٥٣٣/٣.

(٤) نيل الأوطار: الشوكاني، ٢٤٩/٥.

المبحث الثاني

أثر مداواة الحيوان في ثبوت الضمان

المطلب الأول

ضمان الطبيب البيطري فيما أذن له بمداواته

اتفقت كلمة الفقهاء على عدم تضمين الطبيب البيطري إذا عرف منه حذق الصنعة ولم يفرض أو يتعدى في مداواة الحيوان^(١)، يقول صاحب رد المحتار: (ولا ضمان على حجام وبزاع أي بيطار وفصاد لم يجاوز الموضع المعتاد)^(٢).

ويقول صاحب روضة الطالبين: (والمذهب أنه لا ضمان مطلقاً إذا لم يفرض وكذا البيطار إذا بزغ الدابة فتلفت فلا ضمان)^(٣).

ويقول صاحب الإنصاف: (ولا ضمان على حجام ولا ختان ولا بزاع وهو البيطار، ولا طبيب إذا عرف منهم حذق الصنعة ولم تجن أيديهم، هذا المذهب وعليه الأصحاب وقطع به كثير منهم)^(٤).

ويرى الفقهاء أن العلة في إسقاط الضمان عن الطبيب ومثله الحجام والختان والبيطار هي أن العمل الطبي عمل مأذون فيه، وما دام كذلك فقد خرج عن أصل الضمان، لأنه لا يجمع بين الضمان والإذن، والقاعدة تقول: الجواز الشرعي ينافي الضمان^(٥)، وبما أن الفعل في أصله مأذون فيه وقام به صاحبه على الوجه الأكمل ولم

(١) ينظر: تحفة الفقهاء: محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ -

١٤٠٥، ٢٥٣/٢. الشرح الكبير: الدردير، ٢٨/٤. روضة الطالبين: النووي، ٢٢٩/٥. الإنصاف: علي

بن سليمان المرادوي أبو الحسين، ت: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٧٤/٦.

(٢) الدر المختار: الحصكفي، ٦٨/٦.

(٣) روضة الطالبين: النووي، ٢٢٩/٥.

(٤) الإنصاف: المرادوي، ٧٤/٦.

(٥) مجلة الأحكام العدلية: جمعية المجلة، ٢٧/١.

يترك طريقاً فيه إلا وسلكه واتخذ كل أسباب العناية والحيطه فلا ضمان عليه، أضف إلى ذلك أنه إذا ضمن المعالج مع عدم تجاوز الموضوع فإنه يعزف عن المداواة مع مساس حاجة الناس إليها^(١).

ومن جميع ما سبق يمكن أن نلاحظ أن شروط الفقهاء لعدم تضمين الطبيب البيطري تتلخص فيما يلي^(٢):

١. أن يكون الطبيب البيطري حاذقاً في صنغته .
٢. ألا تجني يده فيتجاوز أو يفرض .
٣. مباشرة المداواة بعد الإذن له فيها .

المطلب الثاني

ضمان المتلف بدعوى التطبيب (الطبيب الجاهل)

يقول صاحب الآداب الشرعية : (قال ابن عقيل في الفنون : جهال الأطباء هم الوباء في العالم وتسليم المرضى إلى الطبيعة أحب إلي من تسليمهم إلى جهال الطب)^(٣)، فشبّه الجاهل من الأطباء بالوباء الخطير الذي ينزل على مجتمع فيهلكه، والطبيب الجاهل من تعاطى الطب ولم تسبق له به تجربة أو ممارسة^(٤).

ولذلك نجد الفقهاء قد رتبوا على من مارس الطب وهو جاهل أموراً أربعة :
أولاً - ضمان ما أتلّف : يقول ﷺ : (من تطبّب ولم يعلم منه طب قبل ذلك فهو ضامن)^(٥)، يقول صاحب نيل الأوطار : (فيه دليل على أن متعاطي الطب يضمن ما

(١) ينظر : العناية في شرح الهداية : لأبي محمد محمود بن أحمد العيني ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢- ١٤١١/١٩٩٠ ، ٣٨٥/٩ .

(٢) ينظر : الدر المختار : الحصكفي ، ٦٨/٦ . تحفة الفقهاء : السمرقندي ، ٢٥٢/٢ . الشرح الكبير : الدردير ، ٢٨/٤ . روضة الطالبين : النووي ، ٢٢٩/٥ . الإنصاف : المرادوي ، ٧٤/٦ .

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية : لابن مفلح ، ٤٣٧/٢ .

(٤) ينظر : فيض القدير : لزين الدين عبد الرؤوف المناوي ، ت : أحمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١- ١٤١٥/١٩٩٤ ، ٢٦٧/٦ .

(٥) السنن الكبرى : أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي ، ت : عبد الغفار سليمان البداري وسيد

حصل من الجناية بسبب علاجه، وأما من علم منه أنه طبيب فلا ضمان عليه وهو من يعرف العلة ودواها وله مشايخ في هذه الصنعة وشهدوا له بالحدق فيها وأجازوا له المباشرة^(١).

وقد أجمع أهل العلم على تضمين الطبيب الجاهل وما تسبب في إتلافه بجهله، يقول صاحب بداية المجتهد : (ولا خلاف أنه إذا لم يكن من أهل الطب أنه يضمن لأنه متعد وقد ورد في ذلك الإجماع)^(٢).

لكن ماذا لو كان مالك الحيوان المريض يعلم أن الطبيب جاهل لا علم له بالمداواة ومعرفة المرض وتشخيص العلاج، ثم أذن له بالمداواة فهل يضمن الطبيب ما أتلفه ؟ .

يقول صاحب الآداب الشرعية : (ولو علم من استطبه جهله وأذن له في طبه فإنه يضمن لأنه لا تحل له المباشرة مع جهله ولو أذن له، وقال بعض أصحابنا في زماننا : لا يضمن هذا)^(٣)، إلا أن صاحب زاد المعاد جزم بعدم ضمانه، فقال : (متطبب جاهل باشرت يده من يطبه فتلف به فهذا إن علم المجني عليه أنه جاهل لا علم له وأذن له في طبه لم يضمن، ولا تخالف هذه الصورة ظاهر الحديث فإن السياق وقوة الكلام يدل على أنه غر العليل وأوهمه أنه طبيب وليس كذلك، وإن ظن المريض أنه طبيب وأذن له في طبه لأجل معرفة، ضمن الطبيب ما جنت يده وكذلك إن وصف له دواء يستعمله والعليل يظن أنه وصفه لمعرفة وحثقة فتلف به، ضمنه، والحديث ظاهر فيه أو صريح)^(٤).

كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١-١٤١١/١٩٩١، باب: ذكر دية أسنان الخطأ، رقم: ٧٠٣٤، ٢٤١/٤. يقول صاحب نيل الأوطار : (قال أبو داود بعد إخراجها هذا لم يروه إلا الوليد بن مسلم لا يدري هو صحيح أم لا وأخرجه النسائي مسنداً ومنقطعاً) نيل الأوطار : الشوكاني، ٣٦/٦. ويقول صاحب سبل السلام : (أخرجه الدارقطني وصححه الحاكم وهو ثم أبي داود والنسائي وغيرهما إلا أن من أرسله أقوى ممن وصله) سبل السلام : الصنعاني، ٢٥٠/٣.

(١) نيل الأوطار : الشوكاني، ٣٧/٦.

(٢) بداية المجتهد ونهاية المقتصد : محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي أبو الوليد، دار الفكر، ٢١٣/٢.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية : لابن مفلح، ٤٢٨/٢.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢-١٤٠٦/١٩٨٦، ١٤٠.

ثانياً - عقوبة التعزير : وانفرد بذكر هذا النوع من العقوبة صاحب تبصرة الحكام، حيث قال : (وإن كان الخائن غير معروف بالختن والإصابة فيه وعرض نفسه فهو ضامن لجميع ما وصفناه في ماله ولا تحمل العاقلة من ذلك شيئاً، وعليه من الإمام العدل العقوبة الموجعة يضرب ظهره وإطالة سجنه، والحجام والبيطار فيما أتى على أيديهم بسبيل ما وصفناه في الخائن)^(١).

ثالثاً - المنع من التطبيب بالحجر عليه : ومما ذكره الفقهاء في عقوبة الطبيب الجاهل الحجر عليه بمنعه من مزاوله مهنة الطب، يقول صاحب المبسوط : (وحكي عنه - الأمام أبو حنيفة - أنه كان يقول لا يجوز الحجر إلا على ثلاثة : على المفتي الماجن، وعلى المتطبب الجاهل، وعلى المكاري المفلس، لما فيه من الضرر الفاحش إذا لم يحجر عليهم)^(٢).

رابعاً - عدم استحقاق الأجر : يقول صاحب فتح المعين : (أما غير الماهر فلا يستحق أجره، ويرجع عليه بثمن الأدوية لتقصيره بمباشرته بما ليس هو له بأهل)^(٣)، وظاهر إسقاط الحق بالأجر، بل وفيه أيضاً ضمان لثمن الأدوية التي تم شراؤها .

المطلب الثالث

جناية الطبيب البيطري فيما لم يؤذن له بمداواته

إذا أقدم الطبيب البيطري على أي إجراء طبي دون إذن الجهة المخولة بالإذن، من مالك الحيوان أو من يقوم مقامه أو أي جهة أخرى، ونتج عن ذلك ضرر فقد اختلف الفقهاء في ضمان الطبيب البيطري على أقوال :

- (١) تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام : برهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن أبي عبد الله محمد بن فرحون ، ت : جمال مرعشلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ - ١٤١٦ / ١٩٩٥ ، ٢ / ٢٤٥ .
- (٢) المبسوط : محمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٦ - ١٤٠٦ ، ٢٤ / ١٥٧ .
- (٣) فتح المعين : زين الدين بن عبد السلام الملباري ، دار الفكر ، بيروت ، ٢ / ١٢٢ .

١ - الطبيب البيطري ضامن للضرر وإليه ذهب جمهور الفقهاء^(١) : يقول صاحب البحر الرائق : (اشترط عدم التجاوز والإذن لعدم وجوب الضمان حتى إذا عدم أحدهما أو كلاهما يجب الضمان)^(٢) ، معللين ذلك أن أي إجراء طبي دون إذن اعتداء وتجاوز، والمعتدي يلزمه الضمان^(٣) .

٢ - لا يلزم الطبيب البيطري الضمان وإليه ذهب بعض الحنابلة : يقول صاحب معونة أولي النهى : (واختار في كتاب الهدي : أنه لا يضمن سرية قطع السلعة مع عدم الإذن فيه)^(٤) وعلة ذلك أن الطبيب البيطري محسن في عمله للحيوان وهذا يناه في الضمان^(٥) .

ويترجح ما ذهب إليه جمهور الفقهاء لقوة أدلته، وبه جاء قرار مجمع الفقه الإسلامي، ونصه : يكون الطبيب ضامناً إذا ترتب ضرر بالمريض في الحالات الآتية، وعد منها :

- إذا أقدم على العمل دون إذن المريض أو من يقول مقامه^(٦) .

وكذلك لضعف ما علل به من قال بعدم الضمان، فذريعة الإحسان قد تكون مطية للاعتداء والإتلاف حيث لا ضابط دقيق لضبطها ومعرفتها .

-
- (١) ينظر : حاشية الدسوقي : الدسوقي ، ٣٥٥/٤ . مغني المحتاج : الشرييني ، ٢٠٢/٤ . كشاف القناع : البهوتي ، ٣٥/٤ .
 - (٢) البحر الرائق : زين الدين إبراهيم بن محمد بن محمد بن بكر المعروف بابن نجيم ، دار المعرفة ، بيروت ، ٣٣/٨ .
 - (٣) ينظر : كشاف القناع : البهوتي ، ٣٥/٤ .
 - (٤) معونة أولي النهى شرح المنتهى : محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوح الحنبلي المعروف بابن النجار ، ت : عبد الملك بن عبد الله دهيش ، مكتبة الأسدي ، مكة المكرمة ، ط ٥- ١٤٢٩ / ٢٠٠٨ ، ١٨٧/٦ .
 - (٥) المرجع السابق : ١٨٧/٦ .
 - (٦) قرار مجمع الفقه الإسلامي رقم : ١٤٢ (١٥/٨) في دورته الخامسة عشر ، والمنعقدة بمسقط من ١٤ - ١٩ محرم ١٤٢٥ الموافق ٦ - ١١ آذار ٢٠٠٤ .

المطلب الرابع خطأ الطبيب البيطري

والخطأ كما عرفه صاحب التعريفات : (هو ما ليس للإنسان فيه قصد)^(١) ، والخطأ في حقوق الله تعالى عذراً إذا اجتهد المخطئ، أما في حقوق العباد فيجب الضمان عند إتلاف أموال الآخرين، ولا يعتبر الخطأ عذراً لدفع ورفع الضمان، يقول صاحب التعريفات : (وهو عذرٌ صالحٌ لسقوط حق الله تعالى إذا حصل عن اجتهاد ويصير شبهة في العقوبة، حتى لا يؤثم الخاطئ ولا يؤخذ بحد ولا قصاص، ولم يجعل عذراً في حق العباد ...)^(٢) .

فالخطأ تماماً كالعمد في كونهما علة للضمان، يقول صاحب إعلام الموقعين : (فالخطأ والعمد اشتركا في الإتلاف الذي هو علة الضمان وإن اختلفا في علة الإثم، وربط الضمان بالإتلاف من باب ربط الأحكام بأسبابها وهو مقتضى العدل الذي لا تتم المصلحة إلا به)^(٣) .

وفيما يتعلق بخطأ الطبيب البيطري بحيث هل هو موجب للضمان أم لا، فقد اختلف الفقهاء على أقوال كالاتي :

١ - خطأ الطبيب البيطري موجب للضمان : وإليه ذهب جمهور الفقهاء^(٤)، يقول الدسوقي في حاشيته : (أو سقى الطبيب مريضاً دواءً أو قطع له شيئاً أو كواه فمات من ذلك فلا ضمان ولم يخطئ في فعله، فإن كان أخطأ في فعله والحال أنه من أهل المعرفة فالدية)^(٥) .

(١) التعريفات : الجرجاني ، ١٣٤/١ .

(٢) المرجع السابق : ١٣٤/١ .

(٣) إعلام الموقعين : محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، ت : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل ، بيروت ، ط-٢، ١٩٧٣/١٧١ .

(٤) ينظر : الدر المختار : الحصكفي ، ٦٨/٦ . مغني المحتاج : الشرييني ، ٢٠٢/٤ . المغني : لابن قدامة ، ٣١٢/٥ .

(٥) حاشية الدسوقي : الدسوقي ، ٢٨/٤ .

٢ - خطأ الطبيب البيطري لا يوجب الضمان : وهو قول المالكية، يقول صاحب بداية المجتهد : (الطبيب إذا أخطأ لزمته الدية مثل أن يقطع الحشفة وما أشبه ذلك لأنه في معنى الجاني خطأ وعن مالك رواية أنه ليس عليه شيء وذلك عنده إذا كان من أهل الطب)^(١) .

ويترجع ما ذهب إليه جمهور الفقهاء لما سبق بيانه من أن الخطأ من علل الضمان كالعمد تماماً وإن اختلفا في الإثم، وبه صدر قرار مجمع الفقه الإسلامي، ونصه : يكون الطبيب ضامناً إذا ترتب ضرر بالمريض في الحالات الآتية، وعد منها :

إذا ارتكب خطأ لا يقع في أمثاله ولا تقره أصول المهنة أو وقع منه إهمال أو تقصير^(٢) .

أما من يتولى تحديد الخطأ في عمل الطبيب البيطري من عدمه فهم أهل الخبرة والدراية بالصناعة، يقول صاحب المغني : (وتقبل شهادة الطبيب في الموضحة إذا لم يقدر على يقدر على طبيبين وكذلك البيطار في داء الدابة)^(٣) .

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد : لابن رشد ، ٢/٢١٣ .

(٢) قرار مجمع الفقه الإسلامي رقم : ١٤٢ (١٥/٥) في دورته الخامسة عشر ، والمنعقدة بمسقط من ١٤١٩ محرم ١٤٢٥ الموافق ٦١١ آذار ٢٠٠٤ .

(٣) المغني : لابن قدامة ، ١٠/٢٤٠ .

الخاتمة

أختم بحثي هذا بحمد الله جل في علاه ، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه وآله وصحبه ومن والاه ، وبعد :

فقد جاءت أبرز نتائج البحث كما يلي :

- ١ . المقصود بمداواة الحيوان : القيام بما يرجى منه شفاء الحيوان بما هو جائز شرعاً .
- ٢ . مداواة الحيوان أمرٌ مطلوب شرعاً لما فيها من الرحمة به والإحسان إليه وهي حفظ للمال في الوقت ذاته إن كان الحيوان مالاً .
- ٣ . مداواة الحيوان تعتبرها الأحكام التكليفية المختلفة، ولا يجوز للطبيب البيطري العمل في المزارع التي تعنى بتربية وإنتاج الخنازير .
- ٤ . الراجح جواز الوقف على الحيوان، لأن شرط الملك من الموقوف عليه للموقوف متحقق بمعناه ومقاصده، لأن الواقف أراد من وقفه نفع الحيوان والنفقة عليه .
- ٥ . كما يمكن القول بصحة الوقف على الجمعيات التي ترعى الحيوان وتهتم به، كما يصح الوقف على المدارس والمساجد والمشايخ، بجامع أن كلا منهما جهة عامة تصب وتخدم مصلحة المسلمين .
- ٦ . الناظر في صور الوقف في تاريخ وحضارة المسلمين يجد أنها تعدت حاجة الإنسان لتعنى بشؤون الحيوان، حيث ورد في الصحيح من التاريخ الإسلامي أوقافاً خاصة بمداواة وتطبيب الحيوانات والعناية بها .
- ٧ . الأصل في مداواة الحيوان أن تكون بما يجوز التداوي به شرعاً ما لم تتعين المداواة بالمحرم طريقاً وحيداً بإخبار الثقة العدل المتخصص .

٨. كل مداواة تكون سبباً في تعذيب الحيوان منهي عنها شرعاً لثبوت ذلك عن النبي ﷺ، ما لم يكن ترك المداواة فيه ضرراً أكبر لاحقاً، لأن الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف .
٩. لا مانع من عزل الحيوان المريض بمرض معد بل هو أمرٌ مطلوبٌ، لأنه من باب الوقاية، والضرر يدفع بقدر الإمكان، وكذلك الأمر بالنسبة لاستعمال اللقاح كنوع من أنواع المداواة الوقائية .
١٠. لا مانع من بيع الحيوان المريض بمرض معد مع الإيضاح من قبل البائع، وكذلك أكل لحمه ما لم يترتب على أكله ضرراً محققاً أو راجح، أما بالنسبة لقتله فإذا انعدمت فرص علاجه فقتله بالطريقة اللائقة هو الأولى، خشية انتقال المرض للحيوانات السليمة .
١١. لا يجوز بيع لحم الحيوان أو أحد مشتقاته قبل زوال أثر العقاقير خشية إلحاق الضرر بالإنسان، أما عن بيع الحيوان حياً قبل زوال أثر العقاقير فلا مانع مع الإفصاح .
١٢. مداواة الحيوان بقصد الزينة تبذير وإسراف لا فائدة مرجوة منه كما فيه إيلام له وتغيير لخلق الله تعالى وتمثيل به .
١٣. الإجماع منقول على جواز التداوي بالرقى وهو عام يشمل الإنسان والحيوان، ولذلك شواهد وأثار تؤيده .
١٤. لا مانع من أخذ الأجر على مداواة الحيوان لأن مداواته كسائر الأعمال المتعدية النفع، وأجرة الطبيب تقدر بالمدة لا بالبراء والعمل، فإن تمت المدة فله الأجر، ولا تجوز المشاركة على البرء لدفع الأجرة، ولا مانع من اشتراط الدواء على الطبيب البيطري وتكون له قيمته .
١٥. لا ضمان على الطبيب البيطري إذا عرف منه حذق الصنعة ولم يفرط أو يتعدى في مداواة الحيوان، وعلة إسقاط الضمان أن المداواة عمل مأذون فيه مُخرج من أصل الضمان، لأن الجواز الشرعي يناهض الضمان .

١٦. الطبيب الجاهل ضامن لما أتلّف، وزاد البعض مع الضمان : العقوبة تعزيراً، ومنعه من التطيب بالحجر عليه، وعدم استحقاقه الأجر .
١٧. إذا أقدم الطبيب البيطري على أي إجراء طبي دون إذن الجهة المخولة بالإذن ونتج عن ذلك ضرر فالراجع أنه ضامن لما أتلّف .
١٨. الخطأ من الطبيب البيطري في عمله ليس عذراً لدفع ورفع الضمان، لأن الخطأ تماماً كالعمد في كونهما علة للضمان وإن اختلفا في علة الإثم، وعليه فخطأ الطبيب البيطري موجب للضمان .

فهرس المصادر والمراجع

١. الإحكام في أصول الأحكام : علي بن محمد الأمدي أبو الحسن ، ت : سيد الجميلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١-١٤٠٤ .
٢. الاختيار لتعليق المختار : عبد الله بن محمود بن مودود الحنفي الموصللي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
٣. الآداب الشرعية والمنح المرعية : محمد بن مفلح المقدسي ، ت : شعيب الأرنؤوط وعمر القيام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣-١٤١٩/١٩٩٩ .
٤. إدارة الثروة الحيوانية - موقع الإرشاد الطبي ، تحت عنوان : ماذا تعرف عن فترة التحريم للأدوية البيطرية ، على الرابط التالي : www.irshadvetsu.com
٥. الاستذكار : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري ، ت : سالم محمد عطا ومحمد علي معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١-١٤٢١/٢٠٠٠ .
٦. إعلام الموقعين : محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي أبو عبد الله ، ت : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل ، بيروت ، ط-١٩٧٣ .
٧. الإنصاف : علي بن سليمان المرادوي أبو الحسين ، ت : محمد حامد الفقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٨. البحر الرائق : زين الدين إبراهيم بن محمد بن محمد بن بكر المعروف بابن نجيم ، دار المعرفة ، بيروت .
٩. بداية المجتهد ونهاية المقتصد : محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي أبو الوليد ، دار الفكر .
١٠. بدائع الصنائع : علاء الدين الكاساني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢-١٩٨٢ .
١١. البهجة في شرح التحفة : أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي ، ت : محمد عبد القادر شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١-١٤١٨/١٩٩٨ .
١٢. تاج العروس : محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى الزبيدي

- ، ت : مجموعة من المحققين ، دار الهداية .
- ١٣ . التاج والإكليل : محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري المعروف بالمواق ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢- ١٣٩٨ .
- ١٤ . تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام : برهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن أبي عبد الله محمد بن فرحون ، ت : جمال مرعشلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١- ١٤١٦/ ١٩٩٥ .
- ١٥ . تحفة الأحوذى : محمد عبد الرحيم المباركفوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ١٦ . تحفة الفقهاء : محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١- ١٤٠٥ .
- ١٧ . التعريفات : علي بن محمد بن علي الجرجاني ، ت : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العرب ، بيروت ، ط١- ١٤٠٥ .
- ١٨ . حاشية ابن عابدين : محمد أمين بن عابدين ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢- ١٣٨٦ .
- ١٩ . حاشية الدسوقي : محمد عرفة الدسوقي ، ت : محمد عيش ، دار الفكر ، بيروت .
- ٢٠ . الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة : زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى ، ت : مازن المبارك ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط١- ١٤١١ .
- ٢١ . حواشي الشرواني : عبد الحميد الشرواني ، دار الفكر ، بيروت .
- ٢٢ . الدر المختار : علاء الدين الحصكفي ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢- ١٣٨٦ .
- ٢٣ . درر الأوقاف المغربية في التكافل الاجتماعي عبر عصر بن مرين ٦٥٧ - ٨٦٩ / ١٢٥٩ - ١٤٦٥ : محمد المنوني ، ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم الإسلامي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد : ١٤٠٣/ ١٩٨٣ .
- ٢٤ . روضة الطالبين : محي الدين بن شرف النووي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٢- ١٤٠٥ .
- ٢٥ . زاد المعاد في هدي خير العباد : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن القيم الجوزية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣- ١٤٠٦/ ١٩٨٦ .
- ٢٦ . سبل السلام : محمد بن إسماعيل الصنعاني الأمير ، ت : محمد عبد العزيز الخولي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٤- ١٣٧٩ .
- ٢٧ . سنن ابن ماجه : محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ، ت : محمد فؤاد عبد

- الباقي ، دار الفكر ، بيروت .
- ٢٨ . سنن الترمذي : محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، ت : أحمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- ٢٩ . السنن الكبرى : أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي ، ت : عبد الغفار سليمان البداري وسيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١-١٤١١/١٩٩١ .
- ٣٠ . الشرح الكبير : أحمد الدردير أبو البركات ، ت : محمد عيش ، دار الفكر ، بيروت .
- ٣١ . شرح النووي على صحيح مسلم : أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٢-١٣٩٢ .
- ٣٢ . صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي ، ت : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير واليامة ، بيروت ط٢-١٤٠٧/١٩٨٧ .
- ٣٣ . صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- ٣٤ . العرب : صحيفة عربية يومية تأسست في لندن عام ١٩٧٧ ، مقال بعنوان : حمى عمليات التجميل تجتاح الحيوانات أيضاً ، بتاريخ : ١/٩/٢٠١٤ ، العدد : ٩٦٦٦ ، على الرابط التالي : www.alarab.co.uk .
- ٣٥ . العناية في شرح الهداية : لأبي محمد محمود بن أحمد العيني ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢-١٤١١/١٩٩٠ .
- ٣٦ . غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٢-١٤٠٥ .
- ٣٧ . الفتاوى الفقهية الكبرى على مذهب الإمام الشافعي : أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي ، ت : عبد القادر الفاكهاني وعبد اللطيف عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١-١٤١٧/١٩٨٧ .
- ٣٨ . فتح الباري : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت ، ط-١٣٧٩ .
- ٣٩ . فتح الباري شرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ، دار المعرفة ،

- بيروت ، ط - ١٣٧٩ .
٤٠. فتح المعين : زين الدين بن عبد السلام المليباري ، دار الفكر ، بيروت .
٤١. الفروع : محمد بن مفلح المقدسي أبو عبد الله ، ت : أبو الزهراء حازم القاضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١- ١٤١٨ .
٤٢. الفواكه الدواني : أحمد بن غنيم بن سالم النفاوي ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١٤١٥ .
٤٣. فيض القدير : لزين الدين عبد الرؤوف المناوي ، ت : أحمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١- ١٤١٥ / ١٩٩٤ .
٤٤. قرار مجمع الفقه الإسلامي رقم : ١٤٢ (١٥ / ٨) في دورته الخامسة عشر ، والمنعقدة بمسقط من ١٤ - ١٩ محرم ١٤٢٥ الموافق ٦ - ١١ آذار ٢٠٠٤ .
٤٥. قواعد الأحكام في مصالح الأنام : أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي المعروف بالعز بن عبد السلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
٤٦. كشف القناع : منصور بن يونس البهوتي ، ت : هلال مصيلحي مصطفى هلال ، دار الفكر ، بيروت ، ط - ١٤٠٢ .
٤٧. المبدع : إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح الحنبلي أبو إسحاق ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط - ١٤٠٠ .
٤٨. المبسوط : محمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر ، دار المعرفة ، بيروت ، ط - ١٤٠٦ .
٤٩. مجلة الأحكام العدلية : جمعية المجلة ، ت : نجيب هواويني ، كارخانة تجارت كتب .
٥٠. مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر : عبد الرحمن بن محمد بن سليمان الكلبولي المعروف بشيخي زاده ، ت : خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط - ١٤١٩ / ١٩٩٨ .
٥١. مجمع الزوائد : علي بن أبي بكر الهيثمي ، دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، القاهرة وبيروت ، ط - ١٤٠٧ .
٥٢. المجموع : محي الدين بن شرف النووي ، ت : محمود مطرحي ، دار الفكر ، بيروت ، ط١- ١٤١٧ / ١٩٩٦ .
٥٣. مجموع الفتاوى : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني ، ت : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف ،

- الشريف ، المدينة المنورة ، ط١٦٦/١٩٩٥ .
٥٤. المحرر في الفقه : عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط٢- ١٤٠٤ .
٥٥. مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، ت : محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط - ١٤١٥/١٩٩٥ .
٥٦. المدونة الكبرى : مالك بن أنس ، دار صادر ، بيروت .
٥٧. مدى مشروعية الوقف على الحيوان في الفقه الإسلامي : عبد القادر بن عزوز ، مجلة أوقاف ، العدد : ١٦ ، السنة التاسعة ، جمادى الأولى : ١٤٣٠ ، مايو : ٢٠٠٩ .
٥٨. المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، ت : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١- ١٤١١/١٩٩٠ .
٥٩. المستقصى : محمد بن محمد الغزالي أبو حامد ، ت : محمد عبد السلام عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١- ١٤١٣ .
٦٠. مسند أحمد : أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ، ت : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة .
٦١. مصنف ابن أبي شيبة : أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ، ت : تحقيق كمال يوسف الحوت ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط١- ١٤٠٩ .
٦٢. المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار ، ت : مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة .
٦٣. معجم لغة الفقهاء : محمد رواس قلعة جي وحامد صادق قنبيبي ، دار النفائس الأردن ، ط٢ - ١٤٠٨/١٩٨٨ .
٦٤. معجم مقاييس اللغة : لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، ت : عبد السلام هارون ، اتحاد الكتاب العرب ، ط - ١٤٢٤/٢٠٠٢ .
٦٥. معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية : منظمة التعاون الإسلامي - مجمع الفقه الإسلامي الدولي ، ط١- ١٤٣٤/٢٠١٣ .
٦٦. معونة أولي النهى شرح المنتهى : محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار ، ت : عبد الملك بن عبد الله دهيش ، مكتبة الأسد ، مكة

- المكرمة ، ط ٥ - ١٤٢٩ / ٢٠٠٨ .
- ٦٧ . المغني : عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ - ١٤٠٥ .
- ٦٨ . مغني المحتاج : محمد الخطيب الشربيني ، دار الفكر ، بيروت .
- ٦٩ . من روائع حضارتنا : مصطفى السباعي ، دار الوراق ، بيروت ، ط ١ - ١٤٢٠ / ١٩٩٩ .
- ٧٠ . المهذب : إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبو إسحاق ، دار الفكر ، بيروت
- ٧١ . الموافقات : إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي المعروف بالشاطبي ، ت : عبد الله دراز ، دار المعرفة ، بيروت .
- ٧٢ . موقع الإسلام اليوم - خزانة الفتاوى الأطعمة والأشربة والصيد والزكاة ، على الرابط : www.islamtoday.net ، بتاريخ : الثلاثاء ١٢ رجب ، الموافق ٩ سبتمبر ٢٠٠٣ .
- ٧٣ . نوازل البرزلي المسمى بالجامع لمسائل الأحكام لما نزل من قضايا بالمفتين والحكام : لأبي القاسم بن أحمد البلوي المعروف بالبرزلي ، ت : محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ - ٢٠٠٢ .
- ٧٤ . نيل الأوطار : محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، دار الجيل ، بيروت ، ط - ١٩٧٣ .
- ٧٥ . الهداية شرح البداية : علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المرغيناني أبو الحسين ، المكتبة الإسلامية ، بيروت ، ١١٤ / ٤ .

أثر تداخل حروف الصفات في توجيه الموهم من الآيات

دراسة في كتاب مجاز القرآن
للأبي عبيدة محمر بن المثنى

الدكتور / فادي بن محمود الرياحنة

الأستاذ المشارك بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
بجامعة طيبة بالمدينة المنورة

الملخص:

تمثل ظاهرة تداخل حروف الصفات، قضية للبحث كانت وما زالت موضع خلاف طويل بين العلماء، فقد ذهب العلماء في أمرها مذاهب شتى، وتعددت آراؤهم في النظر إليها ما بين مجيز ومانع لها.

يعالج البحث - بإذن الله تعالى - هذه الظاهرة وأثرها في توجيه المشكل من آيات القرآن الكريم - وذلك من خلال كتاب مجاز القرآن الكريم، حيث قام الباحث بدراسة ذلك في مبحثين:

المبحث التمهيدي، وفيه المدخل إلى الموضوع من خلال ثلاثة مطالب؛ عرف في الأول بالإمام أبي عبيدة وبكتابه مجاز القرآن، وفي الثاني تحدث عن مفهوم حروف الصفات، وعلاقته بعلم التفسير. وفي الأخير بين مذاهب العلماء واختلافهم حول هذه الظاهرة.

وفي المبحث التطبيقي، وهو عماد الدراسة - انتقل في حديثه عن هذه الظاهرة من حيز النظرية إلى فضاء التطبيق، وذلك من خلال عرض ودراسة خمسة مواضع من كتاب مجاز القرآن نص فيها المؤلف (رحمه الله) على وقوع مثل هذه الظاهرة؛ وكل ذلك ليتبين للقارئ الكريم جهود أبي عبيدة، وطريقته في دراسة هذا النوع من آيات القرآن الكريم، وما هو موقفه من ظاهرة تداخل حروف الصفات، كما يمكن إبراز دوره في التأصيل للدراسات التي تناولت هذا الموضوع بشكل مختص؛ كونه أحد أقدم العلماء المعنيين بتفسير معاني ألفاظ القرآن الكريم وبيانها، وفي الأخير ختم البحث بخاتمة تضمنت مجموعة من النتائج والحقائق، تلتها بعد ذلك قائمة بأهم المصادر والمراجع التي أفاد منها.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الدراسة، وأن يهيئ لها من يسدد ما فيها من نقص، كما أسأله أن يجعلها لنا ولكم في الأولى والآخرة ذخراً وأجراً. والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين

abstract

Attributes characters phenomenon represents a scholarly case that was and still since long a controversial subject among scholars, for they-scholars- approached it differently in numerous doctrines, and their reviews upon this matter varied between those who are permissive and those who are preventive.

This research addresses- In God's Will- this phenomenon and its impact in guiding from the holly Quran's verses- that is through " the holly Quran's metaphor" book, wherein the scholar did a survey in two sections: preliminary section, in it the introductory to the subject is in three demands; the first he introduced Imam Abe-Obydah and his book the holly Quran's metaphor, in the second he talked about the concept of attributes characters and its relation to exegesis, and at last between the scholars' doctrines and their disagreements about this phenomena.

In the applied section- which is the survey's pillar- he shifts in his manner of discussing this subject from theory to practice, and that is by studying and showing five sections from the book- the holly Quran's metaphor- wherein it the author (God bless his soul) mentions this phenomena: all of that to represent for the reader Abe-Obydah's efforts, and his methods in studying this type or sort of Quranic verses, and what is his position from overlapping of attributes characters, also his role in rooting the studies that approached this subject in particular can be displayed; for being one of the first pioneers that interpreted the holly Quran, at last the research is concluded a passage that included results and facts, followed by the list of work cited.

Finally I ask God to avail this study and to provide it with those who fulfill what it lacks, and I ask him that this study be in this life and after a virtue. God all knows, and peace be upon him our prophet Mohammad and his blessed family and friends.

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، أحمدته سبحانه ، وأثني عليه الخير كله ، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين ؛ نبينا وقدوتنا محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً . أما بعد :

فإن القرآن العظيم هو الكنز الزاخر، والبحر الوافر الذي لا تنقضي عجائبه، نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين، بلسان عربي مبين؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ × نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ × عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ × بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢)

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: " ذلك لأن لغة العرب، أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان فكمل من كل الوجوه"^(٣).

وعليه؛ فإنه لا يخفى على ذي لب، ما لدراسة اللغة العربية؛ بأسماءها، وأفعالها، وحروفها، من أهمية عظيمة في تفسير وفهم كتاب الله عز وجل، فقد ذكر الإمام بدر الدين الزركشي عن يحيى بن نضلة المديني، أنه سمع مالك بن أنس -رضي الله عنهما- يقول: " لا أوتى برجل يفسر كتاب الله، غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالا"^(٤).

ولما كانت الحروف في اللغة العربية -لغة القرآن الكريم-؛ هي ثلاثة الأثافي، والركن المهم في إفادة المعنى، جعلها العلماء الأجلاء، من أوائل الأدوات التي على المفسر معرفتها لفهم معاني القرآن الكريم"^(٥) قال الإمام الزركشي: - في النوع السابع والأربعين من

(١) سورة النساء: ١٩

(٢) سورة يوسف: ٢

(٣) ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٦هـ / ٤ / ٣٦٥

(٤) الزركشي، الإمام بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٧٢م. ص ٢٩

(٥) - الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، الحسين بن محمد بن محمد بن الفضل، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت. ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م. ص ٦.

كتابه البرهان-: " والبحث عن معاني الحروف، مما يحتاج إليه المفسر لاختلاف مدلولها"^(١) وقال الإمام السيوطي -النوع الأربعون-: في معرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر- " اعلم أن معرفة ذلك -الحروف وما شاكلها -من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها"^(٢)

وعليه؛ فقد أولاهها العلماء القدامى عناية كبيرة، وأهتموا بكل ما يتعلق بها من قضايا وظواهر اهتماما بالغا، حيث تعد قضية توسع العرب في استخدامها، وإيقاع بعضها موقع بعض، وما يؤدي ذلك من تداخل في المعنى كبير، من أهم هذه القضايا التي أفرد -العلماء الأجلاء- أبوابا في كتبهم للحديث عنها، كابن قتيبة الذي أفرد لها بابا مستقلا في كتابه المشكل سماه: (باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض) عرض فيه لمجموعة كبيرة من هذه الحروف، استعملها القرآن في غير معانيها المعروفة واستشهد على ذلك بأمثلة كثيرة أشهرها قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَبْتُمْ فِجْدُوعِ النَّخْلِ﴾^(٣) حيث قال: " أن حرف " في " بمعنى " على "، والمعنى: على جذوع النخل، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا﴾^(٤) أي: عنه، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(٥)، أي بالهوى، فحرف الجر " عن " بمعنى الباء "^(٦).

وكذلك ابن جني أيضا؛ الذي أفرد لها بابا في (الخصائص) سماه: " باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض ". ذكر فيه: " أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر يتعدى بآخر؛ فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه "^(٧)

-
- (١) - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٢ / ١٧٥
 - (٢) - السيوطي، أبو الفضل، جلال الدين عبد الرحمن، الإقتان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت ١٩٦٤م، ٢ / ١٦٦
 - (٣) - سورة طه: ٢٠
 - (٤) - سورة الفرقان: ٥٩
 - (٥) - سورة النجم: ٣
 - (٦) - ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة ط٢، ١٩٧٣م، ص ٢٩٩
 - (٧) - ابن جني، أبو الفتح، عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب، القاهرة ١٩٥٢م.

وفي هذا الإطار، يندرج كتاب قيّم، يعدّ من أهم كتب التفسير وأقدمها تناولاً لهذه الظاهرة، ألا وهو كتاب "مجاز القرآن الكريم" للعلامة البحر المبرز في اللغة وعلومها؛ معمر بن المثنى المعروف بأبي عبيدة، فإن الدارس له، يجد أنّ مؤلفه (رحمه الله تعالى)، قد تعرض إلى طائفة كبيرة من هذه الحروف المتداخلة في المعنى والدلالة، وذلك أثناء تفسيره لكتاب الله عز وجل، حيث بين (رحمه الله تعالى) ما أحدثته هذه الظاهرة اللغوية، من اختلاف في المعنى داخل النص القرآني؛ والذي بسببها أشكل المعنى على كثير من الناس، فكلامه -رحمه الله- يكشف عن معرفته ودرايته العميقة في هذا الجانب، فإنك تجده في مقدمة كتابه "مجاز القرآن" يقول: "ومن مجاز الأدوات اللواتي لهن معان في مواضع شتى، فتجىء الأداة منهن في بعض تلك المواضع لبعض تلك الإلغائي، قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(١) معناه مع ذلك، وقوله: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾^(٢) معناه: على جذوع النخل، وقال: ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾^(٣) معناه: من الناس، وقال: ﴿هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾^(٤) معناه: بل أنا خير^(٥). وتجده أيضاً أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْتَن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٦) يقول صراحة: "مجازه: لا يمسكهما أحد، وإن" في موضع آخر معناه معنى "ما"، ﴿وَأَنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِيَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾^(٧) معناه: "ما كان مكرهم لتزول منه الجبال"^(٨)، وكذلك أيضاً نجده عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ مَا نَمُوتُ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ﴾^(٩) يقول: "وما" في هذا الموضع بمعنى "الذي" فهو اسم^(١٠)،

(١) - سورة النازعات: ٢٠

(٢) - سورة طه: ٧١

(٣) - سورة المطففين: ٢

(٤) - سورة الزخرف: ٥٢

(٥) - أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، ت: محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ

١٤ / ١، ١

(٦) - سورة فاطر: ٤١

(٧) - سورة إبراهيم: ٤٦

(٨) - مجاز القرآن ٢ / ١٥٦:

(٩) - سورة آل عمران: ١٧٨

(١٠) - مجاز القرآن ١ / ١٠٨:

وغيرها الكثير من الجمل والعبارات الصريحة الدالة على معرفته وعنايته بهذا الجانب ولمعرفة جهوده (رحمه الله تعالى) ، وطريقته في تناول هذه الظاهرة، والتأصيل لها، أكتب هذا البحث بعد الاستعانة بالله، في مبحثين:

المبحث التمهيدي ، وفيه المدخل إلى الموضوع من خلال ثلاثة مطالب؛ عرّفت في الأول بالإمام أبي عبيدة وبكتابه مجاز القرآن، وفي الثاني تحدثت عن مفهوم مصطلح حروف الصفات ، وعلاقته بعلم التفسير وفي الأخير بينت مذاهب العلماء واختلافهم حول هذه الظاهرة.

وفي المبحث التطبيقي، -وهو عماد الدراسة-، انتقلت في حديثي عن هذه الظاهرة من حيز النظرية إلى فضاء التطبيق، وذلك من خلال عرض ودراسة خمسة مواضع من كتاب مجاز القرآن نص فيها المؤلف (رحمه الله) على وقوع هذه الظاهرة؛ وكل ذلك ليتبين للقارئ الكريم جهود أبي عبيدة وطريقته في دراسة هذا النوع من آيات القرآن الكريم وما هو موقفه من ظاهرة تداخل حروف الصفات، كما يمكن إبراز دوره في التأصيل للدراسات التي تناولت هذا الموضوع بشكل مختص؛ كونه أحد أقدم العلماء المعنيين بتفسير معاني ألفاظ الكريم وبيانها هذا، وفي الأخير ختمت البحث بخاتمة تضمنت مجموعة من النتائج والحقائق، تلتها بعد ذلك قائمة بأهم المصادر والمراجع التي أفاد منها.

والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

مقدمات تمهيدية :

المطلب الأول

التعريف بالإمام أبي عبيدة معمر بن المثنى؛ وبكتابه مجاز القرآن

أولاً: التعريف بالإمام أبي عبيدة.

هو الإمام العلامة البحر، معمر بن المثنى التميمي، مولاهم البصري النحوي^(١) المعروف بأبي عبيدة، ولد في البصرة سنة عشر ومائة للهجرة، ونشأ فيها فأخذ من علمائها اللغة والغريب، والشعر والنحو؛ فأخذ عن أبي عمرو ابن العلاء، وأبي الخطاب الأخفش، وروى عن هشام بن عروة كما أخذ طويلاً عن جماعة من فصحاء الأعراب وثقاتهم، مثل أبي سوار الغنوي وأبي عمرو الهذلي، سافر أبو عبيدة في سنة ثمان وثمانين ومائة للهجرة إلى بغداد، بناء على طلب الخليفة الرشيد، حيث قرأ عليه من كتبه شيئاً، وكان رحمه الله من العلماء المبرزين في اللغة والغريب والشعر وأخبار العرب، وله معرفة بتفسير القرآن وغريب الحديث، حتى قيل: "إنه أول من صنف في غريب الحديث"^(٢)، وبهذا كثر الثناء عليه. فقد سئل عنه أبو نواس، فقال: "أديم طوي على علم، كان من أجمع الناس للعلم وأعلمهم بأيام العرب وأخبارها، ووصفه النديم، فقال: "كان ديوان العرب في بيته"^(٣)

وفي المقابل نجد نقداً شديداً وجه لأبي عبيدة، بل ذمماً لا ذعماً، فهذا هو ابن قتيبة يقول فيه: "كان يبغض العرب، وصنف في مثالبهم كتباً ولما مات لم يحضر جنازته أحد، لشدة نقده معاصريه"^(٤).

- (١) - الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م. ص ٤٥٤/٩.
- (٢) - الداودي، محمد بن علي، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٩٨٣ م ١٩/١٥٥.
- (٣) - النديم، أبو الفرج، محمد بن أبي يعقوب، الفهرست، طبعة دار المعارف بيروت، ١٩٧١، ص ٧٦.
- (٤) - الزركلي، خير الدين، محمد بن عبد الله، الأعلام، طبعة ١٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩م، ٧/ ٢٧٢

ويرى بعض الباحثين أن شعوبية أبي عبيدة، وحدته في نقد معاصريه، هي التي جعلت خصومه يميلون إلى ثلبه وتنقصه، بنسبة آباءه إلى اليهودية، واتهامه في دينه وفي نسبه، مع أن كتابه - أي المجاز ما يشهد بحسن إسلامه، وغيرته على دينه^(١) كما أن شهادات المنصفين من العلماء، تدل على ذلك؛ فهذا يزيد بن مرة يقول: "ما كان أبو عبيدة يفتش عن علم من العلوم، إلا كان من يفتشه عنه، يظن أنه لا يحسن غيره، ولا يقوم بشيء أجود من قيامه به"^(٢). وعلى كل، فقد توفى في البصرة، فيما بين سنتي (٢٠٩ هـ و٢١٣ هـ)، وله نحو مائتي مصنف^(٣)، رحمه الله - تعالى - رحمة واسعة^(٤).

ثانياً : التعريف بكتابه مجاز القرآن وبقيمته العلمية

حظي كتاب أبي عبيدة (مجاز القرآن)، بمنزلة عالية بين الكتب المصنفة في تفسير القرآن وبيان غريبه؛ لأنه من أوائل الكتب المصنفة في هذا الموضوع، ولتقدم مؤلفه في معرفة غريب اللغة وأساليبها وعاداتها في الكلام، ولما حفظه من كلام العرب شعراً ونثراً، ولهذا فقد أفاد منه المفسرون واللغويون والمحدثون وغيرهم، وتأثر به بعضهم في مادتهم العلمية، وطريقة عرضها وتناولها، وعلى الرغم مما سدد إليه من نقد من بعض معاصريه فقد ظل بين الدراسين قديماً وحديثاً، مرجعاً أصيلاً، ينهلون منه ويرجعون إليه، فقد اعتمد عليه ابن قتيبة في كتابيه: (تأويل مشكل القرآن) و(تفسير غريب القرآن)، والطبري في (تفسيره)، والزجاج في (معانيه)، وابن دريد في (الجمهرة)، وأبو بكر السجستاني في (غريبه)، وأبو جعفر النحاس في (معاني القرآن)، والأزهري في (التهذيب)، وأبو علي القارسي في (الحجة) والجوهري في (الصحاح)، وابن منظور في (لسان العرب) وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين من المفسرين واللغويين^(٥).

- (١) عبد الواحد، أحمد، الدراسات البيانية في المصنفات الأولى في معاني القرآن، نادي مكة الثقافي، ص ٢٠.
- (٢) السيوطي، أبو الفضل، جلال الدين الدين عبد الرحمن الشافعي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة دار الفكر، ط ثانية، ١٩٧٩، م ٢ / ٢٩٤.
- (٣) الزركلي، خير الدين، محمد بن عبد الله، الأعلام، طبعة ١٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩، م ٧ / ٢٧٢.
- (٤) - النديم، الفهرست، ص ٧٦. انظر: سزكين، محمد فؤاد، مقدمة محقق مجاز القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١، م ١١، وخليفات، عدنان عبد الكريم، المسائل التي خالف فيها أبو عبيدة المفسرين، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد ٤٠: العدد ١/٢٠١٣، م، المقدمة.
- (٥) انظر: سزكين، مقدمة محقق مجاز القرآن، ص ١١، وانظر، خليفات، المسائل التي خالف فيها أبو عبيدة المفسرين، المقدمة.

المطلب الثاني

مفهوم حروف الصفات، وعلاقته بعلم التفسير

أولاً: مفهوم حروف الصفات

قبل الحديث عن حروف الصفات، وعلاقتها بعلم التفسير، تجدر الإشارة أولاً إلى أنّ الحروف في اصطلاح علماء اللغة، نوعان :

-حروف المباني : وهي الحروف الهجائية التي تبنى منها الكلمة، وليس للحرف منها معنى مستقل في نفسه، ولا في غيره. ويطلق عليها حروف التهجي^(١) -وحروف المعاني- أو كما يسميها الكوفيون "حروف الصفات" وهي: " تلك الحروف التي تربط الأسماء بالأفعال والأسماء بالأسماء. وتدل على معنى في غيرها ويطلق عليها حروف الربط ، وسميت "بحروف الصفات" ، لأن الكوفيون يرون أن هذه الحروف تنوب عن صفاتها في مثل: زيد في الدار، إذ أصل التعبير: زيد كائن أو مستقر في الدار ، فحذفت الصفة وهي كائن أو مستقر، وناب عنها الجار والمجرور، فقيل زيد في الدار"^(٢).

وهذا النوع-الثاني- هو موضوع الدراسة ومحور هذا البحث، ولهذا كان من المهم؛ بيان علاقته بعلم التفسير.

ثانياً: علاقته بعلم التفسير

من نافلة القول، الحديث عن ارتباط موضوع حروف الصفات، بعلم التفسير، وذلك في ضوء ندرة وجود كتاب في التفسير يخلو من الحديث عنه، أو الاعتماد عليه في بيان وتوضيح آيات القرآن الكريم، فهي تعد عندهم أحد أهم قواعد التفسير التي ينبغي للمفسر معرفتها وتعلمها قبل الإقدام على تفسير كتاب الله تعالى.

- (١) انظر:الزيات، أحمد وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، القاهرة، دار الدعوة، ١/٧٢
- (٢) تجدر الإشارة إلى أن قضية اختلاف بعض المصطلحات بين المدرستين (البصرة والكوفة) ، ترجع إلى رغبة العلماء في كل مدرسة منها بالتفرد بمصطلحات خاصة تكون سمة مميزة لها عن الأخرى، انظر: المخزومي، مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة النحو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٥٨، ص: ٢١٠ ، و: ديرة، أحمد، دراسة في النحو الكوفي، ، دار قتيبة، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١ ، ص: ٢٤٥ ، وابن جني، عثمان ، سر صناعة الإعراب ، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط ١ ، ١٩٨٥ ، ص: ١٢٥ ،

ومن أكثر ما يوضح هذه العلاقة الكبيرة؛ ذلك الأثر الذي ذكره الخطابي في رسالته عن إعجاز القرآن عن مالك بن دينار، قال: "جمعنا الحسن لعرض المصاحف أنا وأبا العالية الرياحي، ونصر بن عاصم الليثي، وعاصم الجحدري، فقال رجل: يا أبا العالية قوله تعالى في كتابه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ × الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(١) - ما هذا السهو؟ قال: الذي لا يدري عن كم ينصرف، عن شفع أو عن وتر فقال الحسن: مه يا أبا العالية، ليس هذا بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم. قال الحسن: ألا ترى قوله عز وجل: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ وعلق على ذلك الخطابي بقوله: "وإنما أتى أبو العالية في هذا حيث لم يفرق بين حرف "عن" و "في" فتنبه له الحسن فقال: ألا ترى قوله ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ يريد أن السهو الذي هو الغلط في العدد، إنما هو يعرض في الصلاة بعد ملابستها، فلو كان هذا المراد لقليل: في صلاتهم ساهون. فلما قال ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ دل على أن المراد به الذهاب عن الوقت"!!^(٢)

ومن ذلك أيضاً؛ ما ذكره الخطابي في تخطأتهم لابن قتيبة الدينوري، قائلاً "ونظير هذا ما قاله القتيبي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٣)، زعم أنه من قوله: عشوت إلى النار أعشوا إذا نظرت إليها، فغلطوه في ذلك وقالوا: إنما معنى قوله: ومن يعرض عن ذكر الرحمن، ولم يفرق بين عشوت إلى الشيء وعشوت عنه، وهذا باب عظيم الخطر، وكثيراً ما يعرض فيه الغلط، وقد يما عني به العربي الصريح فلم يحسن ترتيبه وترتيبه"^(٤).

فهذه الآثار، تدل دلالة واضحة، على أهمية معرفة هذا العلم، وعلاقته بتفسير كتاب الله تعالى، وبإذن الله تعالى، في مطالب البحث القادمة، ما يوضح هذه العلاقة بالأمثلة التي سنذكرها، لكن ما يهم بداية هو معرفة موقف أبو عبيدة (رحمه الله تعالى)، وطريقته في التعرض لهذه القضية أثناء تفسيره لكتاب الله تعالى، الأمر الذي سيتضح أيضاً في البحث القادم بإذن الله تعالى.

(١) - سورة المطففين: ٢

(٢) - الخطابي، أبو سليمان، حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول، القاهرة، دار المعارف ط ٢، سنة ١٩٧٦م، ص ٢٢

(٣) - سورة الزخرف: ٣٦.

(٤) - الخطابي، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل، ص ٢٣.

المطلب الثالث

تداخل حروف الصفات بين المجيزين والمانعين

اختلفت آراء العلماء، وتعددت اتجاهاتهم حول ظاهرة تداخل معاني حروف الصفات فيما بينها، ومجيء بعضها بمعنى بعض، وهم في هذا الاختلاف على مذهبين:

المذهب الأول؛ يجيز دخول حروف الصفات بعضها مكان بعض

وهو مذهب الكوفيين، وقال به كثيرٌ من البصريين، ومن القائلين به: الفراء، والأخفش، والمبرد، والزجاج، وابن هشام^(١)، وممن أفردوا بالتأليف؛ ابن قتيبة، الذي عقد لها باباً بعنوان: (باب دخول بعض الصفات على بعض)^(٢)، وابن سيده الذي عقد لها فصلاً سماه: (دخول بعض الصفات على بعض)^(٣)، وابن السِّدِّ البطليوسي الذي عمل أيضاً كسابقه، فخصص باباً لذلك سماه: (دخول بعض الصفات مكان بعض)^(٤)، وغير ذلك الكثير مما هو موجود في تضاعيف كتب اللغة والتفسير.

المذهب الثاني؛ يمنع دخول حروف الصفات بعضها مكان بعض

وهو رأي أكثر علماء البصرة، ومن علماء هذا المذهب؛ الزمخشري، وابن يعيش، وابن عصفور، وهو من أشد المنافحين عن هذا المذهب، فهؤلاء يرون أن الحرف لا يخرج عن معناه الحقيقي، وما ورد مما ظاهره خلاف ذلك فإنهم يخرجونه على أحد هذه الأمور^(٥):

الأول: أن يؤول المعنى تأويلاً يقبله اللفظ، الثاني: أن يكون على إضمار محذوف، الثالث: أن يُضْمَنَ الفِعْلُ مَعْنَى فِعْلٍ يَتَعَدَّى بِذَلِكَ الحرف^(٦)

(١) - انظر تفاصيل الخلاف؛ عواد، محمد حسن تناوب حروف الجر في لغة القرآن، دار الفرقان، الأردن. ص ٧

(٢) - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ١ / ٢٩٨

(٣) - ابن سيده، علي بن إسماعيل أبو الحسن الأندلسي، المخصص، طبعة مصورة في بيروت عن طبعة بولاق ١٣١٨ هـ. ٤ / ٢٢٧.

(٤) - البطليوسي، أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن السيد، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ت: مصطفى السقا وجماعة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١ م

(٥) - انظر تفاصيل الخلاف، عواد، محمد حسن، تناوب حروف الجر في لغة القرآن، دار الفرقان، الأردن.

(٦) - التضمن: هولغة جعل الشيء في الشيء تقبول ضمننت الشيء إذا أودعته إياه كما تودع الوعاء

ولا شك أن الخلاف حول وقوع تداخل حروف الصفات في القرآن الكريم، فرع عن الخلاف في وقوعه في اللغة، والحوار حول جوازه أو منعه في القرآن، فرع عن الحوار حول جوازه ومنعه في اللغة، وأحسب أن دراستنا هذه لا تهدف إلى الدخول في تفاصيل هذا الخلاف، وبيان أسباب رفض العلماء وتأبيدهم ومناقشاتها، وخصوصاً أن هذا الموضوع مبحوث في مصادره المتخصصة^(١)، لكنني عرضت لهذا الموجز بين الفريقين؛ لأدلف من خلاله إلى هذه الدراسة التي تحاول معرفة رأي أبي عبيدة، وموقفه من هذه الظاهرة، وهل هو من القائلين بالجواز، أو هو من القائلين بالمنع، الأمر الذي سيوضحه المطلب القادم .

المطلب الرابع

موقف أبي عبيدة من هذه الظاهرة وطريقته التي سلكها

سلك أبو عبيدة في موضوع تداخل حروف الصفات، سبيلاً مقتصداً بين الفريقين السابقين، بمعنى أنه أقرّ بالتداخل من جهة، لكنه لم يبالغ في جعل جميع الحروف المتقاربة في معانيها من التداخل، وليس هذا منه (رحمه الله تعالى) ما يوقع في دائرة الإشكال، بل هو المنهج المعتدل الذي يجيز دخول حروف الجر بعضها مكان بعض، إذا احتل المعنى ذلك، وإن لم يحتل المعنى فلا .

ومن علماء هذا المسلك؛ ابن السّراج، الذي يصرح فيقول: "واعلم أن العرب تتسع فيها، فتقيم بعضها مقام بعض، إذا تقاربت المعاني، ثم يبين الضابط في ذلك، وهو تقارب معنى الحرفين، فيقول: "فإذا تقارب الحرفان، فإن هذا التقارب يصلح لمعاقبة، وإذا تباين معانيهما، لم يجز؛ ألا ترى أن رجلاً لوقال: مررت في زيد، أو كتبت إلى القلم، لم يكن يلبس به، فهذا حقيقة تعاقب حروف الخفض، فمتى لم يتقارب المعنى لم يجز"^(٢) .

المتاع والميت القبر وهو اصطلاحاً: حمل اللفظ معنى غير الذي يستحقه بغير آلة ظاهرة. انظر: ابن منظور، لسان العرب (ضمن) والكفوي، ابو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، تحقيق الدكتور عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٦٤٠

(١) - انظر مثلاً: عواد، محمد حسن، تناوب حروف الجر في لغة القرآن، دار الفرقان، الأردن.

(٢) - ابن السراج، أبو بكر محمد بن السري بن سهل، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسن الفتلي،

١٩٩٦م، ط٢، مؤسسة الرسالة، لبنان، ١/١٤٤

وكذلك أيضاً؛ ابن جنّي حيث يقول في تعليقه على دخول حروف الجر بعضها على بعض: "ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا؛ لكننا نقول: إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع، على حسب الأحوال الدالة عليه، والمسوغة له، فأماً في كل موضع، وعلى كل حال فلا" (١)

فقول السادة العلماء: (موضع دون موضع)، وقولهم: (حسب الأحوال الدالة عليه) هو عين الرأي الذي سلكه أبو عبيدة، فإن الدراس لكتابه مجاز القرآن، يلحظ جلياً أنه -رحمه الله تعالى- كما أنه جنح إلى القول بالتداخل -وهو مذهب الكوفيين- في كثير من مواضع تفسيره لآيات القرآن الكريم، جنح إلى القول بالتضمنين أو التأويل -وهو مذهب البصريين- في مواضع أخرى، ومن الأمثلة الدالة على ذلك:

أ- عند تفسير قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ (٢).

فالقائلون بالتداخل قالوا: (على) بمعنى (الباء) (٣)، والمعنى: (حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق)، والقائلون بالتضمنين ضمنوا معنى (حقيق) معنى (حريص). قال أبو عبيدة: "مجازه: مجاز (حريص على أن لا أقول)، أو (فحق أن لا أقول)" (٤).

فهذا القول منه -رحمه الله تعالى- صريح بتضمنين فعل (حقيق) معنى

(١) - ابن جنّي، أبو الفتح عثمان الموصلي، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة، ٢ / ٣١٠

(٢) سورة الأعراف: ١٠٥

(٣) قال الفراء: "والعرب تجعل (الباء) في موضوع (على) فتقول: رميت على القوس وبالقوس، وجئت على حال حسنة وبحال حسنة" أنظر: الفراء، أبوزكريا، يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار وآخرين، الدار المصرية، القاهرة ١٩٤٧م. ١/٣٧٦، وقال الأخفش: "هذا كما قال تعالى: (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ) وكما وقعت الباء في قوله (بكل صراط) موقع على". انظر: الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي، معاني القرآن، ت: د. فائز فارس، ط ٢، المطبعة العصرية، الكويت، ١٤٠١هـ. ٢/٣٠٧.

(٤) أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيمي البصري مجاز القرآن، المحقق: محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة

الطبعة: ١٣٨١هـ. ١ / ٢٢٤

الفعل (حريص). قال الزركشي: التضمين إعطاء الشيء معنى الشيء، وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف فأما في الأسماء فهو أن تضمن اسماً معنى اسم لإفادة معنى الاسم جميعاً كقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ ضمن (حقيق) معنى (حريص) ليفيد أنه محقوق يقول الحق وهو حريص عليه^(١).

ب-ومما جرى عنده مجرى التضمين أيضاً، تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَحَلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾^(٢) فالقائلون بالتداخل، قالوا: (إلى) بمعنى (الباء) أو بمعنى (مع)، والمعنى: (أحل لكم ليلة الصيام الرفث بنسائكم أو مع نسائكم)^(٣)، والقائلون بالتضمين، ضمّنوا (الرفث) معنى (الإفشاء).

قال أبو عبيدة: "الرفث إلى نسائكم: أي الإفشاء إلى نسائكم، أي النكاح"^(٤).

فهذا القول منه -رحمه الله تعالى- صريح بتضمين فعل (الرفث) معنى الفعل (الإفشاء).

قال ابن هشام: "ومن مثل ذلك أيضاً، قوله تعالى: ﴿الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ ضمّن (الرفث) معنى (الإفشاء) فعدي ب(إلى) مثل: (قد أفضى بعضكم إلى بعض)، وإنما أصل الرفث أن يتعدى بالباء يقال: (أرثت فلان بامرأته)^(٥).

وقال ابن جني: "وأنت لا تقول: (رثت إلى المرأة)، وإنما تقول: (رثت بها أو معها)، لكنه لما كان (الرفث) هنا في معنى (الإفشاء)، وكنت تعدي أفضيت ب(إلى)، كقولك: أفضيت إلى المرأة، جئت ب(إلى) مع الرفث إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه"^(٦).

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٢ / ٣٢٨

(٢) - سورة البقرة: ١٨٧

(٣) - لأنه لا يقال: رثت إلى المرأة، لكنه ضمّن (الرفث) معنى الإفشاء، -الذي يراد به الملابس- لهذا ساغ ذلك، والتقدير: أحل لكم ليلة الصيام الرفث مفضين إلى نسائكم، ومنه قوله تعالى: وقد أفضى بعضكم إلى بعض". انظر: ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، المحقق: د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥، ١ / ٨٩٨

(٤) - مجاز القرآن ١ / ٦٧.

(٥) ابن هشام، مغني اللبيب ١ / ٨٩٨

(٦) ابن جني، الخصائص، ٢ / ٣١٠

فكلامه رحمه الله تعالى في هذه الأمثلة، يدل دلالة واضحة قاطعة على أنه لا يجيز مثل هذه الحالة القول بالتداخل، وبناء عليه؛ يتضح أنه لم يقل بالتداخل المطلق غير المقيد، بل جنح إلى التضمن والتأويل في كثير من الأحيان، حاله حال البصريين بذلك، غير أن البصريين، يغلب عليهم القول بالتأويل والتضمين أكثر، وهو- والله أعلم- الرأي الأجود والأشهر عند أكثر علماء اللغة والتفسير، لأن القول بالجواز المطلق ربما أحدث اللبس، واللغة قائمة على الإبانة والإيضاح.

قال ابن جنّي: "ألا ترى أنك إن أخذت بظاهر هذا القول غفلاً هكذا، لا مقيداً، لزمك عليه أن تقول: (سرتُ إلى زيد) وأنت تريد معه؛ وأن تقول: (زيد في الفرس)، وأنت تريد عليه... ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش"^(١)

وما يهم هنا الآن- خصوصاً بعد معرفتنا بموقف أبي عبيدة من هذه الظاهرة -هو الوقوف على طريقته في تناول هذه الظاهرة أثناء تفسيره لكتاب الله تعالى، الأمر الذي سيتضح بإذن الله -تعالى- في المبحث القادم.

(١) ابن جنّي، الخصائص، ٢/ ٢٠٨

المبحث الثاني

الدراسة التطبيقية

في هذا المبحث مواضع مختارة من كتاب مجاز القرآن، يتبين من خلالها، موقف أبي عبيدة من ظاهرة تداخل حروف الصفات وأثرها في توجيه الموهم من الآيات عنده، وقد جاءت هذه التطبيقات من مواضع متفرقة من القرآن الكريم، وأيضا متنوعة في الأحرف، وهي على النحو الآتي:

الموضع الأول: مجيء حرف الشك (أو) بمعنى (الواو) المفيدة للجمع والموالة.

وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١). قال أبو عبيدة: " مجازه: (إنا لعلى هدى وإياكم إنكم فى ضلال مبين) لأن العرب تضع "أو" فى موضع (واو) الموالة. قال جرير:

أَتَغْلَبَةُ الْفَوَارِسِ أَوْ رِيَا حَا ... عَدَلَتْ بِهِمْ طُهَيْةً وَالْخِشَابَا^(٢).

يَعْنِي أَتَغْلَبَةُ وَرِيَا حَا^(٣).

ففي هذا المثال، لما كان خطابه -عليه الصلاة والسلام- لهؤلاء الكفار المعاندين على هذه الطريقة وبهذا الأسلوب، أشكل فهم الآية الكريمة على كثير من الناس، فتوهم خروج الخبر منه -عليه الصلاة والسلام- على سبيل الشك والتردد. وهو مما يستحيل عقلا، ولا يليق به عليه الصلاة والسلام.

ولدفع هذا التوهم، وتأويل مشكل الآية، يرى أبو عبيدة خروج حرف (أو) عن معناه الأصلي المعروف وهو الشك والتردد، إلى معنى آخر مجازي، وهو (الواو) التي تعيد العطف والموالة. بدليل أن العرب تضع (أو) موضع (واو) الموالة.

(١) سورة سبأ: ٢٤

(٢) - أي: عدلت هاتين القبيلتين بهاتين القبيلتين. انظر البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزائن الأدب ولب

لباب لسان العرب، ت: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م، ١١ / ٦٩

(٣) - مجاز القرآن، ٢ / ١٤٨

وليبيان موقف العلماء حول ما ذكره أبو عبيدة، وبعد الرجوع إلى كتب التفسير، ومعاجم اللغة، أمكن حصر خلافهم حول هذا الحرف على النحو الآتي:

الوجه الأول: أن تكون (أو) بمعنى (الواو)

والقائلون بهذا الوجه، يصرفون (أو) عن معناها الأصلي، إلى معنى آخر مجازي، وهو (الواو) فيكون نظم الكلام: ﴿وَأَنَا لَعَلَىٰ هُدًىٰ وَإِيَّاكُمْ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢)، وعليه تكون هذه الآلية من باب اللف والنشر المرتب، أي أن قوله تعالى: (لَعَلَىٰ هُدًى) راجع إلى قوله (إِنَّا)، وقوله لفي ضلال (راجع) إلى قوله (إياكم)، وتقدير المعنى (وإنا لعلی هدی وإياكم لفي ضلال مبين). فأخبر عليه السلام عن كلِّ بما يناسبه.

وممن قال بهذا المسلك موافقاً - لأبي عبيدة -؛ عكرمة، وابن قتيبة، والأخفش، وزیاد بن أبي مریم^(١). وغيرهم محتجين على صحة هذا المسلك ب:

أ- العديد من نظائر هذا الحرف في كتاب الله تعالى، نحو

- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾^(٢)، والمعنى كما قال الأخفش: "وليس قوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ بقولك: هُوَ زَيْدٌ أَوْ عَمْرُو، وإنما هذه (أو) التي في معنى (الواو) نحو قولك: نحن نأكل البر أو الشعير أو الأرز كلُّ هذا نأكل"^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(٤). أي: ويزيدون، قال ابن قتيبة: "وليس هذا كما تأولوا، وإنما بمعنى (الواو) في جميع هذه المواضع، وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون"^(٥).

- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾^(٦) والمعنى: (وهو

(١) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي، تفسير الماوردي، النكت والعيون، المحقق:

السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤ / ٤٤٩

(٢) سورة البقرة: ٧٤

(٣) الأخفش، معاني القرآن: ٨٥.

(٤) سورة الصافات: ١٧٤

(٥) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ١ / ٢٩٠

(٦) سورة النحل: ٧٧

أقرب) ، عن ابن جريج قال: هو أقرب وكل شيء في القرآن (أو) فهو هكذا (مائة ألف أو يزيدون) والله أعلم^(١)

- قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٢). والمعنى: (فكان قاب قوسين وأدنى)^(٣)

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾^(٤) والمعنى: (آثما وكفورا)

فكل هذه المواضع من كتاب الله تعالى، يجعلون فيها حرف الشك والإبهام (أو) بمعنى (الواو) .

ب- ورود نظائر ذلك في الأحاديث النبوية الصحيحة: نحو

قوله عليه الصلاة والسلام: "أسكن حراء فما عليك إلا نبي أو صديق، أو شهيد"^(٥).

والمعنى: فما عليك إلا نبي، وصديق، وشهد فأقام (أو) مقام الواو^(٦).

جانصوص اللغوية الواردة عن العرب، التي تبين ورود هذا التداخل، ومنها ،

قول الشاعر:

فَلَوْ كَانَ الْبُكَاءُ يَرُدُّ شَيْئًا بَكَيتُ عَلَى بُجَيْرٍ أَوْ عِفاقِ^(٧)

(١) السيوطي، أبو الفضل، جلال الدين الدين عبد الرحمن، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، طبعة دار

المعرفة، بيروت، التاريخ [بدون]. ١٥٢ / ٥

(٢) سورة النجم: ١٠

(٣) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ١ / ٢٩١

(٤) - سورة الإنسان: ٢٤

(٥) - أخرجه البخاري في: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذا خليلا، انظر:

البخاري، الإمام أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول

الله ﷺ وسننه وأيامه المعروف بـ (صحيح البخاري)، تحقيق: الدكتور صطفى ديب، دار القلم، بيروت

١٩٨١م. حديث رقم (١٧٢٨) ، والذين كانوا على جبل حراء وتحرك الجبل بهم، هم: النبي ﷺ -

وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير.

(٦) ابن مالك ، جمال الدين محمد بن عبد الله، شرح التسهيل، تح: محمد عبد القادر عطا وطارق فتحى

السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م ٢ / ٢٢٢

(٧) - هذا الشعر يقوله متمم بن نويرة في بجير بن أبي مليل، وأخوه عفاق بن أبي مليل. قتلهم الفريسي بن مسلمة

انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم الأفرقي، لسان العرب، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٢٠٠ هـ، (عفق)

أراد الشاعر: على بجير وعفاق، فأقام (أو) مقام الواو.

قول جرير:

نَالَ الْخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ^(١)

أراد الشاعر: نال الخلافة و كانت ، فأقام (أو) مقام الواو

قول توبة بن الحمير:

وَقَدْ زَعَمْتَ لَيْلَى بِأَنِّي فَاجِرٌ لِنَفْسِي تَقَاهَا أَوْ عَلَيْهَا فُجُورُهَا^(٢)

والمعنى كما أراد الشاعر: لنفسي تقاها وعليها فجورها. قال الإمام الطبري: "ومعلوم أن ذلك من توبة على غير وجه الشك فيما قال ، ولكن لما كانت (أو) في هذا الموضوع دالة على مثل الذي كانت تدل عليه (الواو) لو كانت مكانها، وضعها موضعها"^(٣)

إذن ، فحرف (أو) في جميع ما سبق ليس للشك، وإنما هو بمعنى حرف (الواو) المفيد للجمع والموالاتة قال الإمام الشوكاني: "وهي وإن كانت في الأصل للشك فقد توسع فيها حتى صارت لمجرد التساوي من غير شك"^(٤)

الوجه الثاني: بقاء حرف (أو) على أصله في الإبهام والشك.

ويرى أصحاب هذا الوجه؛ أنه لا حاجة أو ضرورة ملحة تدعو إلى إخراج حرف (أو) عن أصله، وإنما هو على بابه من الإبهام. ولدفع مشكل الآية؛ فإنهم يؤولون الكلام على نحو يقبله المعنى، وهو هنا أن يكون الكلام قد خرج منه-عليه السلام- على أحد

(١) -يقال: قدر الإله كذا تقديراً؛ وإذا وافق الشيء الشيء قلت: جاء قدره، وقال ابن سيده: القدر والقدر (بسكون الدال وتحريكها) : القضاء والحكم، وهو ما يقدره الله من القضاء، ويحكم به من الأمور. انظر: لسان العرب، (قدر)

(٢) أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون، أمالي القالي، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، ١٣٤٤ هـ / ١ / ٨٨.

(٣) الطبري، جامع البيان / ١ / ٣٥٥

(٤) -الشوكاني، محمد بن علي ، فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية في علم التفسير، دون تاريخ،

أساليب التعبير البلاغية المعروفة والمشهورة في كلام العرب، ومن أظهر هذه الأساليب:

أ- أن يكون على سبيل التوبيخ والتنقص للمشركين.

ذكر ذلك مكي بن أبي طالب، فقال: " (أو) ههنا على بابها، ولكن معنى الكلام الإنتقاص للمشركين والإستهزاء بهم" (١).

ب- أن يكون على سبيل الإنصاف في الحجة

ذكر ذلك القرطبي، وقال: " وهذا على وجه الإنصاف في الحجة، كما يقول القائل لغيره: أهدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق، وأن صاحبه كاذب، والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادين، وأحد الفريقين مهتد وهو نحن، والآخر ضال وهو أنتم، فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب" (٢).

ج- أن يكون على سبيل التعريض والتورية" (٣).

ذكر ذلك ابن قتيبة، فقال: " المعنى: إنا لضالون أو مهتدون، وإنكم أيضاً لضالون أو مهتدون، وهو جل وعز يعلم أن رسوله المهتدي وأن مخالفه الضال، وهذا كما تقول للرجل يكذبك ويخالفك: إن أهدنا لكاذب وأنت تغنيه، فكذبته من وجه هو أحسن من التصريح" (٤).

والذي يظهر والله أعلم، أن هذا الوجه- الأخير- هو الأجود والأنسب والأبعد عن التكلف، وإنما كان ذلك، لثلاثة أمور:

(١) مكي بن أبي طالب، أبو محمد حمّوش بن محمد بن مختار، الهداية إلى بلوغ النهاية، المحقق: مجموعة رسائل جامعة بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ، ٩ / ٥٩٢٦.

(٢) -: القرطبي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م، ١٤ / ٢٩٨.

(٣) التعريض كما عرّف السيد الجرجاني هو: (ما يفهم به السامع مراده من غير تصريح) انظر: الجرجاني، الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ ص ٤٨ .

(٤) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص ٢٦٩.

١- الأشهر عند أهل التفسير واللغة .

فقد فسّر هذه الآية بهذا الوجه غير واحد من علماء اللغة والتفسير؛ فهو الرأي الذي رجحه الإمام الطبري، واختاره النحاس، والسمرقندي، والزمخشري، وابن الجوزي، وابن عاشور... وغيرهم^(١)

قال الإمام الطبري: " والصواب من القول في ذلك عندي أن ذلك أمر من الله لنبيه بتكذيب من أمره بخطابه بهذا القول بأجمل التكذيب، كما يقول الرجل لصاحب يخاطبه، وهو يريد تكذيبه في خبر له: أحدنا كاذب، وقائل ذلك يعني صاحبه لا نفسه، فلهذا المعنى صير الكلام بـ " أو "^(٢).

وقال النحاس: " وهذا على حسن المخاطبة "^(٣).

وقال أبو اسحق الثعلبي: " ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى ﴾ فهي كما تقول للرجل: أحدنا كاذب أو أحدنا مخطئ، تكديباً جميلاً "^(٤).

وقال ابن الجوزي: " ومثله ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى ﴾، والعرب تستعمل التعريض في كلامها كثيراً، فتبلغ إرادتها بوجه هو أطف من الكشف وأحسن من التصريح^(٥).

ب- الموافق لسياق الآية ومعاني الكلام.

فعد النظر في سياق ما جاءت به الآية الكريمة، نعلم أنها وردت في سياق المناظرة أو الحجاج بين الرسول ﷺ، ومشركي قريش، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . والمعنى الذي يراد بها

(١) أبو الليث السمرقندي، نصر بن محمد بن أحمد، تفسير بحر العلوم، ت: علي محمد وجماعة، دار

الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ٩٠ / ٣

(٢) الطبري، جامع البيان، ٤٠٣ / ٢٠

(٣) معاني القرآن: ٢٥٢ / ٤

(٤) الثعلبي، أبو اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي

محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ٨ / ٨٨

(٥) ابن الجوزي، أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، ط: الثالثة دمشق،

بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ٣ / ١٩٦

هو: (وصف هؤلاء المشركين بالضللال). غير أن الآية قد سلكت في تأدية هذا المعنى مسلكاً تعريضياً، هو أقدر على الإقناع من مسلك التصريح أو التعبير المباشر، ذلك لأن التعبير المباشر، ومكاشفة الخصم والتجريح به يجره، إلى مزيد من الجدل الذي يسد نوافذ فكره، ويطمس على بصيرته. لكن عندما يجيء الخطاب على هذا الشكل من الحسن والملاينة فإنه بلا شك يبعث - كما يقول صاحب الإيضاح في بيان فائدة التعريض هنا- المشركين على "الفكر في حال أنفسهم وحال النبي - ﷺ - والمؤمنين، وإذا فكروا فيما هم عليه من: (إغارات بعضهم على بعض، وسبّي ذراريهم واستباحة أموالهم، وقطع الأرحام، وإتيان الفروج الحرام، وقتل النفوس التي حرم الله قتلها، وشرب الخمر التي تُذهِب العقول، وتحسن ارتكاب الفواحش)، وفكروا فيما النبي عليه السلام والمؤمنون عليه من: (صلة الأرحام، واجتناب الآثام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإطعام المساكين، وبر الوالدين، والمواظبة على عبادة الله تعالى)، علموا أن النبي - عليه السلام - والمسلمين على هدى، وأنهم على الضلالة، فبعثهم ذلك على الإسلام، وهذه فائدة عظيمة"^(١).

٣- القول بهذا الوجه أعرق في البلاغة من القول بالتداخل :

فالقول بأن الكلام قد خرج منه - عليه الصلاة والسلام - على سبيل التعريض والتوريه، وأنه كذبهم عليه السلام بلفظ "غير مكشوف ولا شنيع فإن ذلك، أحلى وأدمث، وأنسب، من أن يكون مشافهة وكشفاً، ومصارحة وجهرًا"^(٢)

وإذا كان القرآن الكريم، قد نزل بلغة العرب، وعلى أساليبها البلاغية والبيانية، فقد جاءت بعض آياته على هذا النحو.

وهو المعنى الذي أفاد به الزمخشري، بقوله: " وهذا من الكلام المنصف، الذي كل من سمعه من موال، أو مناف قال لمن خوطب به، قد أنصفك صاحبك وفي درجه بعد تقدمه ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى.

(١) الصعدي، الشيخ عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب

الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م / ٤ / ٦٣٢ .

(٢) ابن جني، الخصائص، ص ٦٤

ومن هو في الضلال المبين، -ويعلل الزمخشري سبب اللجوء الى التعريض بقوله- ولكن التعريض والتورية أنزل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم، وقل شوكته بالهونا^(١).

وتبع أبو الفرج المعاني الزمخشري في ذلك، وقال: "فإن مثل هذا الحسن في الخطاب والتعريض فيه" مما قد تعطف الخصم إلى المقاربة، وتثنيه عن اللدد والمشغبة. وقد يقول الرجل لمن ركب معه البهت في مناظرته والمكابرة في منازعته: قد زعمت أنه إذا جمع بين النار والقطن أنه لا يحترق القطن، فنحن نجمع بينهما فننظر أيحترق أم لا، فإن لم يحترق فالقول ما قلت، وإن احترق فالقول فيه على ما قلنا. وقائل هذا ليس يحتاج بجمعه بين هذين الشيئين إلى علم شيء جهله، ولا دفع شك عرض له، ولكنه لاستظهاره قصد حسم شغب خصمه، ورده إلى الحق عن باطله. قال الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتَهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾^(٢)

الموضع الثاني: مجيء حرف الاستثناء (إلا) بمعنى (واو) الموالاة

وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتِمَّ بِنِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٣)، قال أبو عبيدة: "موضع" إلا" هاهنا ليس بموضع استثناء، إنما هو موضع (واو) الموالاة، ومجازها: (لئلا يكون للناس عليكم حجة، وللذين ظلموا)، وقال الأعشى:

أَلَيْتُ لَا نُعْطِيهِ مِنْ أَبْنَانِنَا رُهْنًا فَيُفْسِدَهُمْ كَمَنْ قَدْ أَفْسَدَا

(١) الزمخشري، الكشاف ٢/٢٠٥

(٢) سورة الأحقاف: ٨. وانظر: أبو الفرج المعافى، زكريا بن يحيى الجريري النهرواني، المجلسي الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافعي، المحقق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة:

الأولى ١٤٢٦ هـ، ١ / ٧١٨

(٣) - سورة البقرة: ١٥٠

إِلَّا كخارجة المكلف نفسه وابني قبيصة أن أغيب ويشهدا^(١)

ومعناه: وخارجة"^(٢)

ففي هذا المثال، لما نفى الله عز وجل أن يكون لأحد من الناس حجة على رسوله عليه السلام، واستثنى بعد ذلك بقوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أشكل ذلك المعنى على بعض الناس، فتوهموا وجود حجة للذين ظلموا على رسوله عليه السلام، وكأنهم يقولون: كيف يكون للظالمين حجة على النبي عليه الصلاة والسلام؟

ولدفع هذا التوهم، يرى أبو عبيدة خروج حرف الاستثناء (إلا) عن معناه الأصلي المعروف، وهو الاستثناء، إلى معنى آخر مجازي وهو هنا (الواو) التي تفيد الجمع والموالاتة " ذلك لأن العرب تضع (إلا) في موضع (الواو)

ولبيان موقف العلماء حول ما ذكره أبو عبيدة، وبعد الرجوع إلى كتب التفسير، ومعاجم اللغة، أمكن حصر خلافهم حول الحرف على النحو الآتي:

الوجه الأول: أن يكون حرف الاستثناء (إلا) بمعنى (الواو).

والقائلون بهذا الوجه، يجعلون (إلا) بمعنى (واو) العطف، فيكون ترتيب الكلام: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة والذين ظلموا منهم﴾، ويكون المعنى المقدر للآية: "إن الذين ظلموا (وهم قريش) ليس لهم حجة على الرسول في تحويل القبلة، (والذين ظلموا) لا يكون لهم أيضا حجة".

وممن ذهب إلى هذا الرأي، -موافقا لأبي عبيدة-، الأخفش، والفراء، وابن

قتيبة... وغيرهم

(١) - والمعنى: آليت ألا نجيبه إلى ما يسألنا من تقديم الرهائن من أبنائنا، إلا ما سبق من أمر خارجة -وهو رجل من شيان- الذي يكلف نفسه أن يحضر حين أغيب، وابني قبيصة اللذين أخذ منهما الخوف فأرهما أنفسهما وحملا إليك الرهائن، والخائف جدير بأن يرهق نفسه. وانظر: المبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، المقتضب، المحقق: محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب. - بيروت، ٤/٤١٨. وانظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، ١/٢٠٢

(٢) - مجاز القرآن ١/٦١

مستدلين على صحة مسلكهم ب :

أ-ورود نظائر هذا الحرف في كتاب الله تعالى، نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ × إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ﴾^(١).

- والمعنى: لا يخاف لدي المرسلون، ولا من ظلم ثم بدل حسنا،

- قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي "ولا من ظلم"^(٢).

ب-ورود (إلا) بمعنى (الواو) كثيرا في كلام العرب وأشعارها ، نحو

-قول الشاعر:

وَكُلُّ أَخٍ مُضَارِقُهُ أَخُوهُ لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الضَّرْقَدَانِ^(٣)

والمعنى كما أراده الشاعر: والفرقدان أيضا متفرقان^(٤).

الوجه الثاني: بقاء حرف الاستثناء (إلا) على بابه.

وأصحاب هذا الوجه القائلون بأن الاستثناء متصل وصحيح، وأن الحرف باق على معناه الحقيقي، متفقون على ضرورة تأويل الآية الكريمة على نحو يصح معه المعنى، وهم هنا -على الأشهر بينهم يقولون بتضمن معنى كلمة (الحجة) معنى آخر وهو: (المحاجة؛ التي هي المخاصمة، والدعوى الباطلة، والحجة الواهية الداخضة.

فهم يقولون أن القرآن قد سماها (حجة) لكن هي في الحقيقة (مخاصمة باطلة)، وهي (حجة واهية). فيكون معنى الآية الكريمة: (إن للذين ظلموا حجة عند الرسول لكن هذه الحجة هي حجة ضعيفة، حجة واهية، داخضة..).

(١) سورة النمل الآية: ١١

(٢) سورة النمل الآية: ١١ وانظر: الطبري، جامع البيان، ١٩ / ٤٣٢

(٣) البيت لعمر بن معديكرب وفي "اللسان" الفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان، انظر: لسان العرب،

١٥ / ٤٣٢ وانظر: المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، ت: أبو الفضل إبراهيم،

والسيد شحاته، دار النهضة، مصر، ٤ / ٦٥

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ١ / ٤٤٨

ذكر ذلك ابن عطية فقال: " المعنى أنه لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداخضة للذين ظلموا من اليهود وغيرهم الذين تكلموا في النازلة، وسماها حجة، وحكم بفسادها حين كانت من ظلمة" (١).

وقال الراغب الأصفهاني: " يجوز أنه سمي ما يحتجون به حجة - كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَحَابُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتَهُمْ دَاخِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (٢) فسمى الداخضة حجة" (٣).

والذي يظهر والله أعلم، أن هذا الوجه هو الأجود والأنسب لسياق الآية والأبعد عن التكلف، وإنما كان ذلك لخمسة أمور:

١- تفسيرات السلف والمرويات الصحيحة المروية عنهم (٤):

فقد فسر هذه الآية بهذا الوجه، غير واحد من السلف، كمجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي وغيرهم. رضي الله عنهم أجمعين. وممن أشهر أقوالهم ما روي

- عن مجاهد: " قال هم مشركو العرب، قالوا حين صرفت القبلة إلى الكعبة: قد رجع إلى قبلتكم، فيوشك أن يرجع إلى دينكم" (٥)

- وعن قتادة: " قال هم مشركو قريش. يقول: إنهم سيحتجون عليكم بذلك، فكانت حجتهم على نبي الله ﷺ بانصرافه إلى البيت الحرام أنهم قالوا سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا! (٦)

- وعن ابن مسعود قال: " لما صُرف نبي الله ﷺ نحو الكعبة، بعد صلاته إلى بيت

(١) ابن عطية الأندلسي، أبو محمد، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد

السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، ١٤١٤هـ، ١ / ٢٢٥

(٢) سورة الشورى: ١٦

(٣) الراغب، أبو القاسم، الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ

القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت. ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م، ١ / ٢١٩

(٤) الطبري، جامع البيان، ٢ / ٢٠٣

(٥) المرجع السابق، ٢ / ٢٠٢

(٦) المرجع السابق بنفس الصفحة

المقدس، قال المشركون من أهل مكة: تحير على محمد دينه! فتوجه بقبلته إليكم، وعلم أنكم كنتم أهدى منه سبيلاً ويوشك أن يدخل في دينكم! فأنزل الله جل ثناؤه فيهم: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم﴾^(١)

٢- الرأي الأشهر بين علماء التفسير واللغة.

فهذا التوجيه هو منتقى أكثر المشرحين وعلماء اللغة؛ منهم الزجاج والطبري، وابن عطية، والزمخشري والقرطبي... وغيرهم رحمهم الله أجمعين، ومن أشهر ما ورد عنهم قول الإمام الطبري: "فإن قال قائل: "وأية حجة كانت لمشركي قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه، في توجيههم في صلاتهم إلى الكعبة؟ وهل يجوز أن يكون للمشركين على المؤمنين - فيما أمرهم الله به أو نهاهم عنه - حجة؟ قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما توهمت وذهبت إليه. وإنما "الحجة" في هذا الموضع، (الخصومة والجدال). ومعنى الكلام: لئلا يكون لأحد من الناس عليكم خصومة ودعوى باطل غير مشركي قريش، فإن لهم عليكم دعوى باطلة وخصومة بغير حق، بقبلتهم لكم: "رجع محمد إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا". فذلك من قولهم وأمانيتهم الباطلة، هي "الحجة" التي كانت لقريش على رسول الله ﷺ وأصحابه. ومن أجل ذلك استثنى الله تعالى ذكره "الذين ظلموا" من قريش من سائر الناس غيرهم، إذ نفى أن يكون لأحد منهم في قبلتهم التي وجههم إليها حجة"^(٢)

وقال الزجاج في معاني القرآن: "والقول عندي: أن المعنى في هذا واضح، وإنما سميت هنا حجة: لأن المحتج به سماه حجة وحجته داحضة عند الله. قال الله عز وجل: ﴿حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾"^(٣)، سميت حجة إلا أنها حجة مبطلّة، فليست بحجة موجبة حقاً. وهذا بيان شافٍ إن شاء الله"^(٤).

(١) المرجع السابق ٣ / ٢٠٣

(٢) -الطبري، جامع البيان، ٢ / ٢٠١

(٣) سورة النساء: ١٤٨

(٤) الزجاج، أبو اسحق، إبراهيم السري، معاني القرآن وإعرابه، ت: د. عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت: ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨، ١ / ٢٢٥.

٢- المعروف والمشهور لغة، عدم مجيء (إلا) بمعنى "الواو"، إلا مع استثناء سابق قد تقدمها .

ذكر ذلك الفراء، وقال: "إنما تكون (إلا) بمنزلة (الواو) إذا عطفتها على استثناء قبلها، فهناك تصير بمنزلة الواو؛ كقولك: (لي على فلان ألف عشرة إلا مائة)، تريد بـ (إلا) الثانية أن ترجع على الألف، كأنك أغفلت المائة، فاستدركتها، فقلت: اللهم إلا مائ، فالعنى: له علي ألف ومائة، وأن تقول: (ذهب الناس إلا أخاك، اللهم إلا أباك)، فتستثنى الثاني، تريد: إلا أباك وإلا أخاك.

كما قال الشاعر:

مَا بِالْمَدِينَةِ دَارٌ غَيْرُ وَاحِدَةٍ دَارُ الْخَلِيفَةِ إِلَّا دَارُ مَرْوَانَ^(١)
كأنه أراد: ما بالمدينة دار إلا دار الخليفة، ودار مروان^(٢)

٣- القول بالوجه الثاني أعرق في البلاغة والبيان .

ذلك لأنه لو كانت الآية الكريمة على معنى العطف، لكان النفي الأول عن جميع الناس مبيناً للمعنى المراد^(٣)، ذكر ذلك الإمام الطبري، وقال: "لو كانت الآية الكريمة على معنى العطف لكان النفي الأول عن جميع الناس أن يكون لهم حجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في تحوّلهم نحو الكعبة بوجههم مبيناً عن المعنى المراد، ولم يكن في ذكر قوله بعد ذلك: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ إلا التلبس الذي يتعالى عن أن يضاف إليه، أو يوصف به"^(٤).

٤- الاستعمال القرآني لكلمة الحجة في كتاب الله يقوي القول بهذا الرأي .

ذكر ذلك ابن القيم في بدائع الفوائد، وقال: "سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: "ليس الاستثناء بمنقطع بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا

(١) الفراء، معاني القرآن، ١ / ٩٠ والبيت للفرزدق، وأراد مروان بن الحكم

(٢) انظر الطبري، جامع البيان: ٣ / ٢٠٤

(٣) المرجع السابق بنفس الصفحة

(٤) المرجع السابق بنفس الصفحة

بانقطاعه حيث ظنوا أن الحجة ههنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق، والحجة في كتاب الله يراد بها نوعان:

أحدهما: الحجة الحق الصحيحة كقوله: ﴿وَتَلَكُ حُجَّتَنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾^(١). ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو باطل كقوله: ﴿فَإِنْ حَاجُوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾^(٢) وقوله: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣) وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾^(٤) وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتَهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٥) وإذا كانت الحجة اسماً لما يحتج به من الحق أو باطل صح استثناء حجة الظالمين من قوله: ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾^(٦) وهذا في غاية التحقيق والمعنى أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة فلا تخشوهم واخشوني. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٧) فهذه مناظرة حكاها الله بين المسلمين والكفار فإن الكفار لجأوا إلى تقليد الآباء وظنوا أنه منجيهم لإحسانهم ظنهم بهم فحكم الله بينهم بقوله: ﴿أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٨) وفي موضع آخر: ﴿أَوْلَوْكَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(٩) وفي موضع آخر: ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾^(١٠) فأخبر عن بطلان هذه الحجة وأنها لا تنجني من عذاب الله تعالى لأنها تقليد من ليس عنده علم ولا هدى من الله^(١١).

(١) سورة الأنعام: ٨٢

(٢) سورة آل عمران: ٢٠

(٣) سورة الجاثية: ٢٥

(٤) سورة البقرة: ٢٥٨

(٥) سورة الشورى: ١٦

(٦) سورة البقرة: ١٥٠

(٧) سورة البقرة: ١٧٠

(٨) سورة البقرة: ١٧٠

(٩) سورة لقمان: ٢١

(١٠) سورة الزخرف: ٢٤

(١١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٤ /

إذن فقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، استثناءٌ صحيحٌ بمعنى الاستثناء المعروف الذي "يثبت فيه" لما بعد حرف الاستثناء ما كان منفيًا عما قبله فهو كما يقال في اللغة: (ما سار من الناس أحدٌ إلا أخوك) إثباتٌ للأخ من السير ما هو منفيٌّ عن كلِّ أحدٍ من الناس

وكذلك هذه الآية الكريمة على القياس نفسه، فهي تنفي أن يكون لأحد (خصومةٌ وجدلٌ قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعوى باطلة عليه بسبب توجهه في صلواته قبل الكعبة)، (إلا) الذين ظلموا أنفسهم - من قريش -، فإن لهم قبله خصومةٌ ودعوى باطلة بأن يقولوا: إنما توجهه إلينا وإلى قبلتنا؛ لأننا كنا أهدى منه سبيلاً، وأنه بتوجهه نحو بيت المقدس على ضلالٍ وباطلٍ^(١)... والله تعالى أعلم

الموضع الثالث: مجيء حرف النفي (ما) بمعنى الاسم الموصول (الذي).
وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ. كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾^(٢) قال أبو عبيدة: "مجازها مجاز القسم، كقولك: والذي أخرجك ربك لأن "ما" في موضع "الذي" وفي آية أخرى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾^(٣) أي والذي بناها، وقال:

لَعَمْرُكَ إِنَّمَا خَطْبِي وَصَوْبِي عَلَيَّ وَإِنَّ مَا أَهْلَكْتُ مَالٌ
أي وإن الذي أهلك مال. وفي آية أخرى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ﴾^(٤) إن الذي فعلوه كيد ساحر^(٥)

ففي هذا المثال، لما ذكر الله عز وجل في الآية الكريمة؛ المشبه في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ ولم يذكر المشبه به!!! أشكل ذلك على بعض الناس فتوهم فيه

(١) المرجع السابق، ٣ / ٢٠٤

(٢) سورة الأنفال: ٥

(٣) سورة الشمس: ٥

(٤) - سورة طه: ٦٩

(٥) - مجاز القرآن، ١ / ٢٤١

الانقطاع؟ وكأنه يقول أين المشبه به؟ وما الذي شبهه باخراج الله نبيه عليه السلام من بيته بالحق؟

ولدفع هذا الإيهام، وفهم المعنى الدقيق للآية، يرى أبو عبيدة، خروج حرف النفي (ما) عن معناه الأصلي المعروف، إلى معنى آخر مجازي وهو هنا (الذي)، ذلك لأن العرب تضع (ما) موضع (الذي).

ولبيان موقف العلماء حول ما ذكره أبو عبيدة، وبعد الرجوع إلى كتب التفسير، ومعاجم اللغة، أمكن حصر خلافهم حول الحرف على النحو الآتي:

الوجه الأول: أن يكون حرف التشبيه (كما) بمعنى (والذي) المفيدة للقسم .
والموافقون لأبي عبيدة في هذا الوجه يجعلون (الكاف) بمعنى حرف القسم (الواو)، و(ما) حرف موصول بمعنى (الذي)، فيكون تقدير الكلام: ﴿والذي أخرجك من بيتك بالحق﴾ جملة قسم، وقوله تعالى ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ جواباً لهذا القسم .

ومما يستدل به أصحاب هذا الرأي:

أ- مواضع عديدة ومتفرقة من كتاب الله جاءت على هذا النحو: نحو:
- قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾^(١) (ما) هنا بمعنى (الذي) وتقديره : والذي بناها^(٢) قال الخازن: " فعلى هذا كأنه أقسم به وبأعظم مخلوقاته "^(٣)
- ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(٤) والمعنى: والذي خلق الذكر والأنثى

(١) - سورة الشمس: ٥

(٢) - قال عطاء: يريد والذي بناها. انظر: الواحي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى ١٩٩٤ م، ٤ / ٤٩٥

(٣) - الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم، لباب التأويل في معاني التنزيل، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٥ هـ، ٤ / ٤٣٢

(٤) - سورة الليل: ٢

- وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ ﴾^(١) والمعنى: إن الذي فعلوه كيد ساحر.

فهم في جميع هذه المواضع من كتاب الله تعالى يوجهون فيها حرف النفي (ما) بمعنى حرف الوصل (الذي)

ب- العديد من أقوال العرب وأشعارها التي تبين ورود هذا التداخل، نحو قول الشاعر:

لَعَمْرُكَ إِنَّمَا خَطَّيْتُ وَصُوبِي عَلَيَّ وَإِنَّ مَا أَهْلَكْتُ مَالٌ^(٢)

والمعنى كما أراد الشاعر: وإن الذي أهلك ما، قال في لسان العرب: "مالٌ، بالرفع، أي وإن الذي أهلك إنما هو مال"^(٣).

الوجه الثاني: بقاء حرف التشبيه (كما) على أصله .

والقائلون ببقاء الحرف على أصله في التشبيه، متفقون على ضرورة تقدير مبتدأ محذوف يصح معه المعنى، ويدل عليه السياق، وهو هنا على أشهر أقوالهم، (هذه الحال) كحال ما أخرجك ربك من بيتك بالحق

ووجه الشبه هو: كراهية المؤمنين في بادية الأمر لما هو خير لهم في الواقع^(٤)

وعليه يكون حرف (كما) حرف تشبيه، حيث شبهت كراهية أصحاب رسول الله عليه السلام لخروجه من المدينة حين تحققوا خروج قريش للدفع عن أبي سفيان وحفظ عيره (بكراهيتهم) لنزع الغنائم من أيديهم وجعلها لله ورسوله يحكم فيها ما يشاء.^(٥)

(١) - سورة طه: ٦٩

(٢) - لأوس بن غلفاء، انظر: لسان العرب مادة: (صوب)، من أبيات يقولها لامرأته، يقول: دعيني انما ألتفت مالا، ولم ألتف عرضا، ولا دينا (وإن الذي أهلك إنما هو مال، والمال يستخف) وانظر أيضا: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٠ / ٢٥٢.

(٣) - لسان العرب، ١ / ٥٣٥

(٤) - ابن عاشور، التحرير والتنوير ٩ / ٢٦٢

(٥) - انظر: السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، الدر المصون في علم الكتاب المكنون: أحمد الخراط، دار القلم دمشق ١٤٠٦هـ، ٥ / ٥٦١

والذي يظهر والله أعلم، أن هذا الوجه هو الأوجه والأنسب لمعاني الآيات والأبعد عن التكلف، وإنما كان ذلك لأربعة أمور:

١ - الرأي الأشهر بين علماء التفسير واللغة.

فهذا المذهب هو منتقى أكثر المفسرين؛ منهم ابن عطية، والقاسمي، والزمخشري، والبيضاوي، والرازي، وابن عاشور، والذجاج، والفراء، وهو قول مجاهد كما ذكر الطبري؛ واختاره لنفسه... وغيرهم رحمهم الله أجمعين.

ومن أشهر ما ورد عنهم، قول الزمخشري: "يرتفع محل الكاف على أنه خبر ابتداء محذوف تقديره: هذه الحال كحال إخراجك. يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجهم للحرب"^(١).

وهذا الذي ذكره الزمخشري هو أيضاً قول ابن عطية وقد شرحه بنحو ما تقدم من الألفاظ فقال: "وتحرير هذا المعنى عندي أن يقال إن هذه الكاف شبّهت هذه القصة التي هي إخراجها من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال، كأنهم سألوا عن النفل وتشاجروا فأخرج الله ذلك عنهم، فكانت فيه الخيرة كما كرهوا في هذه القصة انبعاث النبي ﷺ فأخرجه الله من بيته فكانت في ذلك الخيرة، فتشاجرهم في النفل بمثابة كراهيتهم هاهنا للخروج، وحكم الله في النفل بأنه لله وللرسول دونهم هو بمثابة إخراج نبيه ﷺ من بيته، ثم كانت الخيرة في القصتين فيما صنع الله"^(٢) وقال البيضاوي: "هذه الحال في كراهتهم إياها كحال إخراجك للحرب في كراهتهم له، وهي كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة"^(٣).

ب- الاستئناس بنظائر هذا التشبيه في القرآن :

حيث يمكن الاستئناس لهذا الرأي، بورود مثل ذلك في مواضع عديدة من القرآن،

- (١) - الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٢ / ١٩٧
- (٢) - ابن عطية الأندلسي، أبو محمد، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، ١٤١٤ هـ، ٢ / ٥٠٢
- (٣) - البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (المعروف بتفسير البيضاوي)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ٣ / ٥٠

كما في قوله تعالى في وصف المنافقين في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١). حيث شبه هنا (حال بحال)، حال المنافقين في اشتراهم الضلالة بالهدى بحال الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنوره هو ومن معه وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

وقوله تعالى في سورة الحشر في صفة المنافقين: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) حيث شبهت الكاف هنا (حال) المنافقين في تخليهم عن المؤمنين في المعركة وتقاعدتهم عن نصرتهم (بحال) الشيطان حين يتخلى عن الإنسان بعد أن يورده موارد الكفر والطغيان.^(٣)

ج- غرابة قول أبي عبيدة وبعده عن الصواب في جعل (الكاف) حرف قسم.

فقوله -رحمه الله- غريب جداً في العربية وفي معنى الآية، وقد أنكر عليه الأئمة الأعلام انكاراً شديداً فقد جعل ابن هشام قول أبي عبيدة هذا من التخريج على ما لم يثبت في العربية فقال في المغني: "بعد أن ذكر قول أبي عبيدة في الآية: ويبطل هذه المقالة أربعة أمور: أن الكاف لم تجيء بمعنى واو القسم. وإطلاق (ما) على الله سبحانه وتعالى، وربط الموصول بالظاهر وهو فاعل (أخرج)... ووصله بأول السورة مع تباعد ما بينهما"^(٤). أي جعله التقدير: الأنفال لله والرسول والذي أخرجك.

قال في البحر المحيط: "وقال الكرمانى عن أبي عبيدة: "هذا سهو. وقال ابن الأنباري: "الكاف ليست من حروف القسم"^(٥).

وقال ابن الشجري: "وهذا قول أخذ بحظ وافر من الاستحالة - أي قول من زعم

(١) - سورة البقرة: ١٧

(٢) - سورة الحشر: ١٦

(٣) - انظر: يونس، أحمد عزت، العلاقات النصية في لغة القرآن الكريم، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ص ٩.

(٤) - ابن هشام الأنصاري، جمال الدين، أبو محمد عبد الله بن يوسف الشافعي، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ت: مازن المبارك، ط٢، مكتبة سيد الشهداء، ١٩٧٢ م ٥٤٦/٢.

(٥) - أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٢/٥

أن الكاف للقسم بمنزلة الواو-... وهذا مما لا تجوز حكايته فضلاً عن تقبله، وما علمت في مذهب أحد ممن يوثق بعلمه في النحو بصري ولا كوفي أن الكاف يكون بمنزلة الواو في القسم" (١)

د- القول بأن (يُجَادُلُونَكُ) جواباً للقسم لا يصح، ويرده عدم توكيده.

ذلك لأنه لو كانت (كما) للقسم، للزم أن يكون جوابه مؤكداً (باللام أو نون التوكيد)، على مذهب البصريين أو الكوفيين. أما خلو جواب القسم منهما أو أحدهما، فهو يدل على أن ليس ثمة قسم في الجملة.

ذكر ذلك السمين الحلبي وقال: "فالقول بأن (يُجَادُلُونَكُ) جواباً للقسم لا يصح؛ لأنه على مذهب البصريين متى كان مضارعاً مثبتاً؛ وجب فيه شيئان: اللام، وإحدى النونين نحو: ﴿لَيْسَ جَنَّ وَلَيْكُونَا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٢) وعند الكوفيين إمَّا اللام، وإمَّا إحدى النونين، ويُجَادُلُونَكُ عَارٍ عَنْهُمَا" (٣)

وإذا كان ذلك، فإن التأويل الأجود والأنسب أن تكون الآية الكريمة من قبيل التشبيه، وليست القسم

فالكاف: للتشبيه بمعنى (مثل)، وهي خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذه الحال) هو (المشبه) ما بعدها هو (المشبه به)، ووجه التشبه: كراهية المؤمنين لما هو خير لهم في الواقع، والمعنى: حال بعض أهل بدر في كراهتهم تقسيمك الفنائم بالسوية، مثال حال بعضهم في كراهة الخروج للقتال، مع ما في هذه القسمة والقتال من خير وبركة.

الموضع الرابع: مجيء حرف النفي (لا) بمعنى حرف الوصل (أن)

وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٤) قال أبو عبيدة: "مجازه: ما منعك أن تسجد،

(١) - انظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ١، ٧٠٧

(٢) - سورة يوسف: ٣٢

(٣) - السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم بن محمد، الدر المصون في علم الكتاب المكنون ت:

أحمد الخراط، دار القلم دمشق ١٤٠٦ هـ، ٥ / ٥٦٠

(٤) - سورة الأعراف: ١٢

والعرب تضع (لا) فى موضع الإيجاب وهى من حروف الزوائد،

قال أبو النجم :

فَمَا أُلُومُ الْبَيْضِ أَلَّا تَسْخَرَا لَمَّا رَأَيْنَ الشَّمِطَ الْقَفْنَدَرَا

والمعنى كما أراد الشاعر : ما أُلوم البيض أن يسخرن، والقفندر: القبيح السمج^(١).

وقال الأحوص :

ويلحيننى فى اللهو أَلَّا أَحِبَّه وللهو داع دائب غير غافل

أراد: فى اللهو أن أحبه^(٢)

قال العجاج :

فِي بئرِ لَأ حُورِ سَرَى وَمَا شَعَرُ بِإِفْكِهِ حَتَّى رَأَى الصُّبْحَ جَشَرَ

الحور: الهلكة، وقوله لا حور: أي فى بئر حور، و"لا" فى هذا الموضع فضل^(٣)

ففى هذا المثال، لما أنكر الله عز وجل على إبليس امتناعه عن السجود بهذا الاستفهام، أشكل هذا على بعض الناس فتوهم -بالنظرة العجلى- وجود خطأ فيها، وكأنه يقول: كيف يكون الإنكار على إبليس بترك السجود بهذا الاستفهام الذي يطلب فيه بيان السبب الذي منعه من عدم السجود؟ وهو على خلاف المراد من الاستفهام الذي يطلب فيه أن يجيب عن سبب المنع عن السجود، لا عن سبب المنع من عدم السجود.. كيف يكون هذا؟

ولدفع هذا الوهم، وتأويل هذا المشكل، يرى أبو عبيدة خروج حرف النفي (لا) عن معناه الأصلي المعروف، إلى معنى آخر مجازي، وهو هنا حرف الوصل (أن). فيكون تقدير الكلام (ما منعك أن تسجد)، ذلك لأن العرب تزيد (لا) في كلامها للتأكيد

(١) - لسان العرب، (قفندر)

(٢) - المرجع السابق، (قفندر)

(٣) - مجاز القرآن، ١ / ٢١١

والمعنى طرحها.

ولبيان موقف العلماء حول ما ذكره أبو عبيدة، وبعد الرجوع إلى كتب التفسير، ومعاجم اللغة، أمكن حصر خلافهم حول الحرف على النحو الآتي:

الوجه الأول: أن يكون الحرف النفي (لا) صلةً زائدة بمعنى (أن) وليس بمعنى النفي. فالموافقون لأبي عبيدة في هذا الوجه، يرون أن حرف (لا) في الآية الكريمة، من جملة الحروف التي تزداد في الكلام فهي لا تتغير في المعنى شيئاً، وإنما يُوصل بها الكلام للتأكيد فهي بمعنى (أن)، وعليه يكون تقدير الكلام: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ؟

قال ابن عاشور: "فقليل هي مزيدة للتأكيد، ولا تفيد نفياً، لأن الحرف المزيد للتأكيد لا يفيد معنى غير التأكيد و(لا) من جملة الحروف التي يؤكد بها الكلام"^(١). وقال ابن قتيبة: "قد تزداد (لا) في الكلام والمعنى: طرحها لإباء في الكلام أو جحد. كقول الله عز وجل: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، أي ما منعك أن تسجد. فزداد في الكلام (لا) لأنه لم يسجد"^(٢) وقال جمال الدين القاسمي: " (لا) مزيدة للتبنيه على أن الموبّخ عليه ترك السجود. ولتوكيد لمعنى الفعل الذي دخلت عليه وتحقيقه"^(٣)

وهذا الرأي هو قول الكسائي، والزمخشري، وابن قتيبة، والبغوي، وابن عاشور.... وغيرهم^(٤)

ويحتج أصحاب هذا المسلك بجملة من الأدلة منها:

- (١) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، ١٩٨٤ هـ، ٨ / ١٤٠
- (٢) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ١ / ١٥٤
- (٣) القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد، محاسن التأويل، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ، ٥ / ١٢
- (٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٨ / ٤٠ وقال الزمخشري: "فإن قلت: ما فائدة زيادتها؟ قلت: توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب. وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك؟ إذ أمرتُك لأن أمرى لك بالسجود أوجب عليك إيجاباً وأحتمه عليك حتماً لا بد لك منه فإن قلت: لم سأله عن المانع من السجود، وقد علم ما منعه؟ قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته وكفره وافتخاره بأصله وازدراءه بأصل آدم" انظر: الزمخشري، الكشاف، ٢ / ٨٩

أ- نضائر هذا الجُرف في كتاب الله ، نحو

- قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(١) معناه: أقسم

- قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) يريد وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون، فزاد (لا) لأنهم لا يؤمنون إذا جاءت^(٣).

- قوله تعالى: ﴿لَيْتَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾^(٤) والمعنى: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ، فزاد (لا) في أول الكلام^(٥)

- قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٦). والمعنى: أنهم يرجعون، فزاد (لا) : لأنهم لا يرجعون.. أي ممنوع أنهم يرجعون معنا محققا^(٧)

ب- العديد من أقوال العرب وأشعارها التي تبين ورود هذا التداخل ، نحو قول الشاعر

فَمَا أَلُومَ الْبَيْضِ أَلَّا تَسْخِرَا مِمَّا رَأَيْنَ الشَّمْطَ الْقَفْنَدِرَا

والمعنى كما أراد الشاعر: أي ما أُلومَ البيض أن يسخرن، و(القفندر): هو: القبيح السَّمج، فزاد (لا) في آخر الكلام^(٨)

- قول الأحوص:

وَتَلْحِينُنِي فِي اللَّهِوِ أَلَّا أَحِبَّهُ وَلِلَّهُوِ دَاعٍ دَائِبٌ غَيْرُ غَافِلٍ

(١) سورة القيامة: ١

(٢) -سورة الأنعام: ١٨٢

(٣) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ١ / ١٥٤

(٤) سورة الحديد: ٢٩

(٥) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ١ / ١٥٤

(٦) سورة الأنبياء: ٩٥

(٧) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٨ / ٤٠

(٨) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ١ / ١٥٤

والمعنى كما أراد: في اللهو أن أحبه (ولا) زائدة^(١)

الْقَوْلُ الثَّانِي: بقاء حرف النفي (لا) على أصله

والقائلون ببقاء حرف النفي (لا) على أصله متفقون على تأويل الكلام على نحو
يصح معه المعنى، وهو هنا - على أشهر أقوالهم -

أ- تضمين فعل (ما منعك) معنى فعل آخر محذوف تقديره: (ما أحوجك وألزمك،
واضطرك) ... وغيرها مما يشتق منها من أفعال. وعليه يكون المعنى: (ما منعك من
السجود، فأحوجك أن لا تسجد إذ أمرتك).

وهذا المسلك هو قول: الكسائي، والفراء، والزمخجاري^(٢)، والزمخشري، والطبري،
واستحسنه ابن كثير حيث قال بعد ذكر الأقوال في المسألة - : "حكاها ابن جرير وردها،
واختار أن "منعك" تضمن معنى فعل آخر تقديره: ما أحوجك وألزمك واضطرك ألا
تسجد إذ أمرتك، ونحو ذلك. وهذا القول قوي حسن، والله أعلم"^(٣).

وقال الإمام الطبري: "والصواب عندي من القول في ذلك، أن يقال: إن في الكلام
محذوفاً قد كفى دليل الظاهر منه، وهو أن معناه: ما منعك من السجود فأحوجك أن
لا تسجد... فترك ذكر أحوجك استغناء بمعرفة السامعين... وغير جائز أن يكون في
كتاب الله شيء لا معنى له، وأن لكل كلمة معنى صحيحاً، فتبين بذلك فساد قول من
قال: "لا" في الكلام حشواً لا معنى لها"^(٤).

وهذا التوجيه مع جلالة قدره، وقوته عند أكثر العلماء، إلا أن الإمام الألوسي
ذكر رأياً آخر عن بعض المفسرين - يمكن اعتباره والله أعلم - الأفضل والأجود، كونه

(١) - الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار إحياء
التراث، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م، ٦، ١١١/

(٢) انظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ١٤ / ٢٠٧

(٣) ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٦هـ، ٣ / ٣٩٢.

(٤) الطبري، جامع البيان، ١٢ / ٣٢٦

الأبعد عن التكلف، ولا حاجة فيه إلى القول بخروج الحرف عن أصله، أو القول تضمين الفعل (منعك) معنى فعل آخر.

وهو أن تفسر كلمة (ما منعك) على أحد معانيها في اللغة وهو: (ما حماك) ذلك لأن فعل (منع) يحمل معنيين اثنين في اللغة: المعنى الأول هو (الحيلولة والاعتراض)، والمعنى الثاني: هو (الحماية والتأييد)^(١).

وهذا الثاني هو معنى الآية في سورة الأعراف، وعليه يكون معنى قوله تعالى (ما منعك ألا تسجد) أي ما القوة التي حماك فجعلتك تظن أنك منيع فترفض السجود.

قال جلال الدين القزويني - عن بعض المفسرين - معنى ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ ما حماك وجعلك في منعة مني في ترك السجود؛ أي: في معاقبة تركه^(٢).

وقال الإمام الألويسي: "المنع يقال في ضد العطية، ويقال في الحماية، ومنه مكان منيع وقد منع وفلان ذو منعة أي عزيز ممتنع على من يرومه. والمنع في الآية ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ من الثاني أي ما حماك عن عدم السجود إذ أمرتك بالسجود"^(٣)

فالقائلون بهذا الوجه؛ يجعلونها من قول العرب: "فلان منع فلاناً من أن يؤذى، أي: حماه من أن تناله يد الأذى، وقولهم: (فلان في منعة)، أي: في قوة حامية له. قال الإمام الزمخشري: "فلان يمنع الجار: يحميه من أن يضام. وله في قومه حصن وممنع، وقد منع فلان: صار ممنوعاً محمياً مناعةً ومنعةً، وتمنّع به تمنّعا"^(٤)

(١) انظر: ابن فارس، أبو الحسن زكرياء القزويني الرازي، مجمل اللغة، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ١ / ٨١٧ ولسان العرب، (منع)

(٢) الصعيدي، بغية الإيضاح ٤٧٢ / ٣.

(٣) الألويسي، أبو الفضل، شهاب الدين السيد محمود البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٤ / ٣٢٨.

(٤) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩م. ٢ / ٢٢٩.

وقال الرازي: "مَنَعٌ من باب قطع فهو مانِعٌ.. ومكان مَنِيعٌ، وفلان في عزٍ ومَنَعَةٍ بفتحيتين وقد تسكن النون عن بن السكيت، وقيل المنعة جمع مانع أي هو في عزٍ ومن يمنعه من عشيرته" (١).

وقال الراغب الأصفهاني: "المنع يقال في الحماية ومنه مكان منيع وقد منع، وفلان ذو منعة أي عزيز ممتنع على من يرومه" (٢).

-ومن نظائر هذا المعنى في كتاب الله :

-قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) فالمعنى؛ أَلَمْ نصرِفهم عنكم وحميناكم فتأمنون وتسلمون منهم (٤).

-قول تعالى ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ (٥) ومعنى (مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ) أي تمنع وقوع العذاب عليهم من الله ومن المؤمنين وتحميهم من وصول أيدي المؤمنين إليهم (٦).

- قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ (٧). قال محمد أبو زهرة في تفسيره -زهرة التفاسير-: "ونحن لانرى في القرآن حرفاً زائداً؛ فهو كلام الله (تعالى)؛ المنزه عن الزيادة؛ بل كل كلمة في موضعها؛ ونقول: إن المنع بمعنى الحماية؛ ومنه "مكان منيع"؛ و"حصن منيع"؛ و"فلان ذو منعة"؛ أي: حماية؛ وبتخريج النص السامي على هذا المعنى يكون كلام موسى لأخيه:

(١) الرازي، زين الدين، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٩م.

(٢) الراغب، أبو القاسم، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت. ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م، ص ٧٧٩

(٣) سورة النساء: ١٤١

(٤) انظر: البغوي، محيي السنة، أبو محمد، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، ت: محمد عبد الله النمر وجماعة، دار طيبة، ط: ٤، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، ١ / ٧١٤، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢ / ٤٣٦

(٥) سورة الحشر: ٢

(٦) المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥

١٩٤٦م، ٢٨ / ٣٣

(٧) سورة طه: ٩٣

ما منعك ألا تتبعتني؟ ما الذي جعلك ذا منعة وحماية على ألا تتبعتني؟ ويكون المعنى العام للنص: ما النصير لك جعلك منيعاً على ألا تتبعتني؟ كأنه يقول له: إنك معاوئي وناصرني؛ فلماذا لا تتبعتني؟ أصرت ذا قوة تحميك وتمنعك؛ وتجعلك منفصلاً عني؛ وأنت لي رءء ومعاون غير ممانع؟ ولذا أردف هذا بقوله: أفصيت أمري الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ أي: فباعتمادك وحمايتك من غيري؛ عصيت أمري؛ وقد قال الأصفهاني في مفرداته: ويقال المنع في الحماية؛ ومنه "مكان منيع"؛ و"فلان ذو منعة"؛ أي: عزيز ممتنع على من يرومه؛ قال: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾؛ وهذا قريب مما ذكرنا في قوله ﴿يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ .. والله أعلم بمراده. ^(١)

ويقول الدكتور سامي عطا حسن: "ومعنى قوله تعالى: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾: بناء على ذلك: ما حماك وجعلك في منعة مني في ترك السجود، أي: من المعاقبة على تركه. وعليه يكون جواب إبليس (أنا خير منه) مطابقاً للسؤال، كأنه يقول: إن اعتقادي في تمييزي وفضلي على آدم، جعلني في منعة، وعزة، وحماية، واعتقاد التمييز والأفضلية يجعل صاحبه ظنه - في حماية من الخضوع لغيره. وهذا معنى لغوي صحيح، وتخریج عربي مستقيم، يتجنب القول بالمجاز أو التضمنين. فضلاً عن إبعاده القول بزيادة (لا) الذي يعتبره المحققون إسرافاً وتسرعاً لا يجوز ولا يسوغ القول به في كتاب الله عز وجل ^(٢) .. والله أعلم

الموضع الخامس: مجيء حرف الشرط (إن) بمعنى (ما) النافية

وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ^(٣)، قال أبو عبيدة: " (إن) في موضع (ما) في قول بعضهم: ما كان للرحمن ولد، و (الفاء) مجازها مجاز (الواو): ما كان للرحمن ولد وأنا أول العابدين ^(٤)"

(١) أبو زهرة، محمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة،

(٢) - عبد الرحمن، سامي عطا حسن، حروف الزيادة في القرآن بين المجيزين والمنعنين مجلة الشريعة الدراسات الإسلامية (الكويت)، مج ٢٧، ع ٨٩: ٢٠١٢، ١٤٢٣، ص ١٠٩١٦٠.

(٣) - سورة الزخرف: ٨١

(٤) - مجاز القرآن: ٢ / ٢٠٧

ففي هذا المثال، لما كان كلامه - عليه الصلاة والسلام - لهؤلاء الكفار المعاندين على هذه الطريقة ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾، أشكل فهم الآية الكريمة على بعض الناس، فتوهم خروج الكلام منه - عليه الصلاة والسلام - على سبيل الشك والتردد في إثبات ولد لله عز وجل، وهو مما يستحيل عقلا، ولا يليق به عليه الصلاة والسلام.

ولدفع هذا التوهم، وتأويل مشكل الآية، يرى أبو عبيدة خروج حرف الشرط (إن) عن معناه الأصلي المعروف وهو الشك والتردد، إلى معنى آخر مجازي، وهو (ما) النافية، بدليل أن العرب تضع (إن) بمعنى (ما) النافية .

ولبيان موقف العلماء حول ما ذكره أبو عبيدة، وبعد الرجوع إلى كتب التفسير، ومعاجم اللغة، أمكن حصر الخلاف على النحو الآتي:

الوجه الأول: أن يكون حرف الشرط (إن) بمعنى (ما) النافية

وعلى هذا الوجه يكون الحرف (إن) قد خرج عن معناه الأصلي، وهو الشرط إلى معنى آخر مجازي وهو النفي (ما) ، وعليه يكون ترتيب الآية: ﴿ما كان للرحمن ولدٌ﴾، ويتم الكلام حينئذ، ثم يبدأ قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ و(الواو) بدل (الفاء) .

وهذا المسلك؛ هو رأي قتادة، والحسن، وابن عباس، وزيد بن أسلم، وابنه... وغيرهم^(١)

ذكر ذلك الإمام القرطبي عن بعض المفسرين، وقال: "اختلف في معناه. فقال ابن عباس والحسن والسدي: المعنى: ما كان للرحمن ولد (إن) بمعنى (ما) ويكون الكلام على هذا تاما، ثم تبتدى بقوله تعالى ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾^(٢) وقال الإمام الطبري: "قال قتادة وابن زيد: (إن) هنا نافية بمعنى (ما كان للرحمن ولد) وتم الكلام، ثم ابتدأ

(١) - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٥ / ٢٦٥

(٢) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ١١٩

قوله ﴿فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَابِدِينَ﴾ .. وعن زيد بن أسلم، عن قول الله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وِلْدٌ﴾ قال: هذا قول العرب معروف، إن كان: ما كان^(١)

وقال ابن كثير: "وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: (قل إن كان للرحمن ولد) ، يقول : لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين"^(٢) .

ويستدل أصحاب هذا الرأي بـ

أ- ورود (إن) بمعنى (ما) في مواضع مختلفة من كتاب الله، نحو .

-قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾^(٣) والمعنى؛ ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، فالذي أنزل الله من كتابه وقضاه من قضائه أثبت من الجبال^(٤)

-قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾^(٥) والمعنى؛ فذكر ما نفعت الذكرى^(٦)

-قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخِذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(٧) قال الامام البغوي: قال قتادة ومقاتل وابن جريج: (إن) للنفي، أي: ما كنا فاعلين^(٨)

-قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(٩) إن بمعنى " ما " ، المعنى: ما هو إلا وحي^(١٠) .

ب- النفي الصريح في القرآن مطابق لصيغة النفي (ما) .

"فالأيات كثيرة في ذلك، تبين أن (إن) نافية. وخير ما يفسر به القرآن القرآن

(١) - الطبري، جامع البيان، ٢١ / ٦٤٩

(٢) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم / ٢٤٢

(٣) سورة ابراهيم، الآية ٥٢

(٤) الطبري، جامع البيان، ٢١ / ٦٤٩

(٥) سورة الأعلى، الآية: ٩

(٦) الشوكاني، فتح القدير للشوكاني، ٥ / ٥١٦

(٧) سورة الأنبياء: ١٧

(٨) البغوي، معالم التنزيل ٢ / ٢٨٥

(٩) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ٥ / ٧٠

(١٠) الألوسي، روح المعاني، ١٤ / ٤٧

فكون المعبر في الآية: (وما كان للرحمن ولد) بصيغة النفي الصريح مطابق لقوله تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾^(١)، وقوله تعالى في أول الفرقان: ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ ﴾^(٢) الى أن يقول. والذي يظهر لي في معنى هذه الآية الكريمة: أنه يتعين المصير إلى القول بأن (إن) نافية، وأن القول بكونها شرطية لا يمكن أن يصح له معنى بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن، وإن قال به جماعة من أجلة العلماء^(٣).

الوجه الثاني: بقاء حرف الشرط (إن) على بابه.

والقائلون ببقاء (إن) على أصلها في الشرطية، متفقون على ضرورة تأويل الكلام على نحو يصح معه المعنى، وهو هنا - على أشهر توجيهاتهم - يقولون بتضمين فعل (العابدين) معنى فعل آخر تقديره (أنفين)؛ حيث جعلوه من قول العرب: قد عبد فلان من هذا الأمر، إذا (أنف منه)^(٤)، وعليه يكون معنى الآية الكريمة: (قل إن كان للرحمن ولد، فأنا أول الأنفين لذلك)^(٥)

ذكر ذلك الإمام الطبري عن بعض المفسرين فقال: " وقال آخرون: معنى ذلك: قل إن كان للرحمن ولد، فأنا أول الأنفين ذلك، ووجهوا معنى العابدين إلى المنكرين الآيبين، من قول العرب: قد عبد فلان من هذا الأمر إذا أنف منه وغضب وأباه، فهو يعبد عبداً"^(٦)

وقال الجوهرى: " وقال أبو عمرو وقوله تعالى: ﴿ فَأَنَا أَوْلُ الْعَابِدِينَ ﴾^(٧)، من الأنف والغضب، وقال الكسائي والتبتي، حكاه الماوردي عنهما. وقال الهروي: وقوله

(١) - سورة الاسراء: ١١١

(٢) - سورة الفرقان: ٢

(٣) الشنقيطي، أضواء البيان، ٧ / ١٤٩

(٤) الطبري، جامع البيان، ٢١ / ٦٥٠

(٥) معاني القرآن: ٤ / ٤٢٠

(٦) الطبري، جامع البيان، ٢١ / ٦٥٠

(٧) - سورة الزخرف: ٨١

تعالى: ﴿فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَابِدِينَ﴾^(١) قيل هو من عبد يعبد ، أي : من الأنفين^(٢) وقال ابن كثير: "وقال بعض المفسرين أي: الأنفين، منهم سفيان الثوري"^(٣)

ويستدل أصحاب هذا التوجيه ، بورود نظائر لهذا المعنى في كلام العرب، نحو

-قول الشاعر:

أَلَا هَوَيْتُ أُمَّ الْوَلِيدِ وَأُصْبِحَتْ لِمَا أَبْصَرْتَ فِي الرَّأْسِ مِنِّي تَعَبِدُ

ومعنى (تعبد) في البيت: بمعنى تأنف أو تغضب، قال في لسان العرب: وتعبد:

كعبد^(٤).

-ومنه قول الشاعر:

مَتَى مَا يَشَأُ ذُو الْوَدِّ يَصْرِمُ خَلِيلَهُ وَيَعْبُدُ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ظَالِمًا

ومعنى (يعبد عليه) : أي يغضب عليه وهو مضارع عبد عليه^(٥)

وقد تعقب أكثر العلماء هذا التأويل، واحتجوا عليه بأنه تخريج له على الشاذ والقليل

من اللغة والقرآن الكريم لا يأتي على ذلك ولا يحمل على الشارد من اللغة.

قال الامام القرطبي: " لو كان كذلك لكان (العَبْدِينَ). بغير ألف، يقال : عبد بكسر

الباء يعبد عبدا بفتحها إذا أنف وغضب فهو عبد ، والأسم العبدة ، مثل الأنفة عن أبي

زيد قال الفرزدق :

أَوْلَيْكَ قَوْمِي إِنْ هَجَوْتِي هَجَوْتُهُمْ وَأَعْبَدُ أَنْ أَهْجُو كَلَيْبًا بِدَارِمِ

(١) - سورة الزخرف: ٨١

(٢) القرطبي، ١٦ / ١٢٠

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧ / ٢٤٢

(٤) لسان العرب: (عبد)

(٥) المرجع السابق

وقال ابن عرفة: "إنما يقال عبد يعبد فهو عبد، وقلما يقال عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة، ولا الشاذ"^(١).

وإذا كان كذلك، فإنه لا حاجة أو ضرورة ملحّة، تدعو إلى إخراج حرف الشرط (إن) عن معناه الأصلي أو تضمين فعل (العابدين) معنى فعل آخر، لكن الأجود والحسن والابعد عن التكلفة -والله أعلم- تأويل الكلام على نحو أنه قد خرج منه على أسلوب من أساليب التعبير البلاغية المعروفة والمشهورة في كلام العرب، وهو أسلوب (الفرض المحال)^(٢) أو كما يسميه أبو حيان: "الفرض والتمثيل لغرض المبالغة في نفي الولد عنه جل وعلا والاطناب فيه"^(٣) أو كما يسميه الزركشي: "في النوع التاسع عشر - إبراز الكلام في صورة المستحيل على طريق المبالغة) وفيه يقول: "كقول العرب: لا أكلمك حتّى يبيض القار، وحتّى يشيب الغراب .. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾. أي ولكن ليس له ولد فلا أعبد سواه"^(٤)

وعليه يكون معنى الآية المقدر: إن كان للرحمن ولد (في زعمكم) وصح ذلك وثبت في برهان صحيح وحجة واضحة، فأنا أول من يعبد هذا الولد" وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد، وهي محالة في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها، وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلت بالدليل، فأنا أول من يعتقد، وهذا مبالغة في الاستبعاد، أي: لا سبيل إلى اعتقاده^(٥).

وهذا التوجيه، هو ما عليه أكثر أهل العلم من المفسرين وعلماء اللغة، فهو اختيار الطبري، والقرطبي، وابن عاشور، والنسفي.. وغيرهم قال الإمام النسفي في مدارك التنزيل: "وهذا كلام وارد على سبيل (الفرض) والمراد نفي الولد وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها ونظيره قول سعيد بن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ١٢٠

(٢) عرّف السيد الجرجاني المحال بقوله: "ما يمتنع وجوده في الخارج. والمحال الذي أحيل على جهة الصواب إلى غيره، ويراد به في الاستعمال ما اقتضى الفساد من كل وجه" انظر التعريفات / ١٦٧.

(٣) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير ٩ / ٣٩٠

(٤) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ٣ / ٤٧

(٥) -الزمخشري، الكشاف، ٤ / ٢٦٦

جبير للحجاج حين قال له واللّه لأبدلنك بالدينيا ناراً تظلى لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك" (١)

وقال الإمام الطبري: "وأولى الأقوال عندنا بالصواب في ذلك ، قول من قال : معنى (إن) الشرط الذي يقتضى الجزاء . ومعنى الكلام قل يا محمد لمشركي قومك الزاعمين أنّ الملائكة بنات الله: إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول عابديه بذلك منكم ، ولكنّه لا ولد له ، فأنا أعبدّه بأنّه لا ولد له ، ولا ينبغي أن يكون له... وإذا وجه الكلام إلى ما قلنا من هذا الوجه لم يكن على وجه الشكّ ، ولكن على وجه الإلطاف من الكلام وحسن الخطّاب ، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿ قل الله وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ . وقد علم أنّ الحقّ معه ، وأنّ مخالفه في الضلال المبين" (٢)

وقال الإمام الزمخشري ، قل إن كان للرحمن ولد وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح تورّدونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته... (٣)

وقال ابن كثير: يقول تعالى: (قل) يا محمد: ﴿ إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين ﴾ . أى : لو فرض هذا لعبده على ذلك ، لأنّي عبد من عبيده ، مطيع لجميع ما أمرنى به ، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا كان هذا ، ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا كما قال تعالى: ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى ممّا يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ . (٤)

(١) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٢ / ٢٨٣ .

(٢) الطبري، جامع البيان، ٢٠ / ٦٥٢ .

(٣) الزمخشري، الكشاف، ٤ / ٢٦٥ .

(٤) سورة الزمر: ٤ ، وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، تفسير ابن كثير ٧ / ٢٤٢ .

قال القرطبي: وقيل: المعنى قل يا محمد إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد ولده، ولكن يستحيل أن يكون له ولد، وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت بالدليل فأنا أول من يعتقه، وهذا مبالغة في الاستبعاد، أي: لا سبيل إلى اعتقاده^(١).

وبعد، فهذه مجموعة من الأمثلة الموضحة لموضوع حروف الصفات في كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة، وأثرها في توجيه الموهم من الآيات، تبين من خلالها سعة علمه، وغزارة معرفته-رحمه الله- لمعاني حروف القرآن وأهم القضايا الدلالية المتعلقة بها وفي مقدماتها قضية تداخلها ومجيء بعضها في معنى بعض.

وفي الختام أسأل الله -تعالى- أن أكون قد وفقت في توضيح موقف أبي عبيدة ورأيه وطريقته (رحمه الله) في التعامل مع موضوع أشغل الباحثين والدارسين واختلفت آراؤهم وتباينت اتجاهاتهم فيه،...سأئله -عز وجل- أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي وحسناتكم أجمعين، إنه على كل شئ قدير، وبالإجابة جدير.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٦ / ١١٩.

الخاتمة

- الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، فهذه خاتمة البحث، وفيها أهم النتائج المستنبطة:
1. تتبع أهمية هذه الدراسة كونها تتناول أحد الأقسام الثلاثة للكلمة العربية وهو الحرف، ثالث الأثافي وأحد الأركان المهمة في إفادته للمعاني.
 2. مثلت ظاهرة تداخل حروف الصفات؛ قضية للبحث كانت موضع خلاف طويل بين العلماء وما تزال كذلك، فقد ذهب العلماء في أمرها مذاهب شتى، وتعددت آراؤهم في النظر إليها، بين مجيز ومانع لها.
 3. استحوذت هذه الظاهرة، على اهتمام اللغويون القدامى، فألفوا فيها رسائل، وأفردوا لها أبواباً وفصولاً.
 4. تداخل حروف الصفات في القرآن، فرع عن تداخل حروف الصفات في اللغة العربية، والبحث حول القول بجوازه أو منعه، فرع على الحوار حول جوازه في اللغة أو منعه.
 5. تعرض البحث إلى عدد من حروف الصفات أمكن التأكيد من خلالها أن أبا عبيدة من القائلين بجواز تداخل الحروف بعضها مكان بعض، وهو الرأي الذي أقر به كبار علماء اللغة والتفسير أمثال قطرب، والفراء، والأصمعي، وابن السكيت، وابن قتيبة، وغيرهم الكثير.
 6. بين البحث أهمية كتاب "مجاز القرآن"، ودوره في التأسيس لدراسة هذه الظاهرة، لا سيما وأنه من الكتب المبكرة المتقدمة؛ ولو استثنينا بعض التفاسير الأولى في القرن الثاني لمقاتل ابن سليمان ت ١٥٠هـ، وشعبة ت ١٦٠هـ، وغيرهم، لما وجدنا كتباً سبقت كتابه (مجاز القرآن) إلا القليل، مما جعله مفيداً لكل من جاء بعده في تناول هذه الظاهرة.

٧. للحروف في اللغة العربية - كما للكلمة - أهمية بالغة في إيصال المعنى، فهو وإن كان أيسر صور الكلمة، إلا أنه قد يتسع في دلالاته ليشمل معاني كثيرة، لا تتضح إلا من خلال إمعان النظر في السياق القرآني.

٨. أكد أبو عبيدة صحة رأيه بشواهد مختلفة من الشعر العربي المحتج به؛ إضافة إلى المعروف والمشهور من كلام العرب، كما شهد لكلام أبي عبيدة جمهرة من علماء التفسير واللغة.

٩. بين البحث أن العلم بأحرف الصفات، وما يتعلق بها من قضايا وظواهر، خصوصاً المختلف فيه منها كقضية التداخل والآنابة أحد أهم قواعد التفسير؛ وأصلاً من أصوله التي ينبغي للمفسر معرفتها، وتعلمها، قبل الإقدام على تفسير كتاب الله - تعالى -.

١٠. أفاد أبو عبيدة من درايته العميقة في اللغة وأسرارها، فعرض إلى بعض المواضع التي أشكلت بسبب سبب تداخل دلالة أحرف الصفات منها، فشرحها وتلمس معانيها الدقيقة الخفية، واضعاً بذلك حجر الأساس لكل الدراسات المتخصصة التي جاءت بعده في هذا المجال.

١١. الأصل الذي بنيت عليه اللغة أن يكون لكل كلمة أو حرف معنى خاص به لا تشاركه في هذا المعنى كلمة أو حرف آخر وهذا الأصل ومقتضى الإبانة التي وضعت اللغة من أجلها لكن العرب قد توسعت في الاستخدام فأخرجوا بعض هذه الحروف عن معناها الأصلي الذي وضعت له إلى معنى آخر مجازي، وهذا الاتساع في الاستعمال هو أحد دلائل عظيمة لغتنا العربية - لغة القرآن -، وسر من أسرارها التي تتفرد به على بقية اللغات الأخرى.

وأخيراً فإن الموضوع في هذا المضمون ما زال يتسع للكثير من البحوث العلمية الدقيقة، وما هذه الدراسة إلا خدمة متواضعة لهذا القرآن الكريم ولغته الشريفة السامية، هدفت من خلالها إلى إبراز جهود أحد كبار فحول العلم في دراسة هذه الظاهرة وبيان موقفه (رحمه الله) وطريقته في التعرض إليها في ثنايا تفسيره لكتاب الله - عز وجل -.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١. النديم، أبو الفرج، محمد بن أبي يعقوب، الفهرست، طبعة دار المعارف بيروت، ١٩٧١
٢. ابن الأنباري، أبو بكر، محمد بن القاسم. (١٣٢٥هـ). الأضداد في اللغة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، طبعة الحسينية، مصر
٣. ابن الجوزي، أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، ط: الثالثة دمشق، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م
٤. ابن السراج، أبو بكر محمد بن السري بن سهل، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسن الفتلي، ١٩٩٦م، ط ٢، مؤسسة الرسالة، لبنان
٥. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلية، سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م
٦. ابن جني، أبو الفتح، عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب، القاهرة ١٩٥٢م.
٧. ابن سيده، علي بن إسماعيل أبو الحسن الأندلسي، المخصص، طبعة مصورة في بيروت عن طبعة بولاق ١٣١٨هـ.
٨. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، ١٩٨٤ هـ
٩. ابن عطية الأندلسي، أبو محمد، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد السلام عبد الشايف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، ١٤١٤هـ
١٠. ابن فارس، أبو الحسن زكرياء القزويني الرازي، مجمل اللغة، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان،
١١. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة ط ٢، ١٩٧٣م

١٢. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان
١٣. ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٦هـ
١٤. ابن مالك، جمال الدين محمد بن عبد الله، شرح التسهيل، تح: محمد عبد القادر عطا وطارق فتحى السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م
١٥. ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي، لسان العرب، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٣٠٠هـ، (عفق)
١٦. ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المحقق: د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م
١٧. أبو الفرج المعافى، زكريا بن يحيى الجريري النهرواني، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافى، المحقق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٦هـ
١٨. أبو الليث السمرقندي، نصر بن محمد بن أحمد، تفسير بحر العلوم، ت: علي محمد وجماعة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ
١٩. أبو زهرة، محمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة،
٢٠. أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيمى البصري مجاز القرآن، المحقق: محمد فواد سزين، مكتبة الخانجي، القاهرة
٢١. أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيزون، أمالي القالي، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، ١٣٤٤هـ
٢٢. الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة المجاشعي البليخي، معاني القرآن، ت: د. فائز فارس، ط ٢، المطبعة العصرية، الكويت، ١٤٠١هـ .
٢٣. الألوسي، أبو الفضل، شهاب الدين السيد محمود البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت

٢٤. البخاري، الإمام أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: الدكتور صطفى ديب، دار القلم، بيروت ١٩٨١ م.
٢٥. البطليوسي، أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن السيد، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ت: مصطفى السقا وجماعة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١ م
٢٦. البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ت: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ م
٢٧. البغوي، محيي السنة، أبو محمد، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، ت: محمد عبد الله النمر وجماعة، دار طيبة، ط: ٤، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧ م
٢٨. البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (المعروف بتفسير البيضاوي)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر
٢٩. الثعلبي، أبو اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ ٢٠٠٢ م
٣٠. الجرجاني، الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ
٣١. الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم، لباب التأويل في معاني التنزيل، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٥ هـ
٣٢. الخطابي، أبو سليمان، حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول، القاهرة، دار المعارف ط ٢، سنة ١٩٧٦ م
٣٣. خليفات، عدنان عبد الكريم، المسائل التي خالف فيها أبو عبيدة المفسرين، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد ٤٠: العدد ١/٢٠١٣ م
٣٤. الداوودي، محمد بن علي، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٩٨٣ م
٣٥. ديرة، أحمد، دراسة في النحو الكوفي، دار قتيبة، بيروت، ط ١، ١٩٩١،

٣٦. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢ م.
٣٧. الرازي، زين الدين، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٩ م
٣٨. الراغب، أبو القاسم، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت. ١٣٩٢ هـ، ١٩٧٢ م
٣٩. الزجاج، أبو اسحق، إبراهيم السّري، معاني القرآن وإعرابه، ت: د. عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت: ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨.
٤٠. الزركشي، الإمام بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٧٢ م.
٤١. الزركلي، خير الدين، محمد بن عبد الله، الأعلام، طبعة ١٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩ م
٤٢. الزمخشري، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر الخوارزمي، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩ م.
٤٣. الزيات، أحمد وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، القاهرة، دار الدعوة
٤٤. سزكين، محمد فؤاد، مقدمة محقق مجاز القرآن ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١ م
٤٥. السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم بن محمد، الدر المصون في علم الكتاب المكنون ت: أحمد الخراط، دار القلم دمشق ١٤٠٦ هـ
٤٦. السيوطي، أبو الفضل، جلال الدين عبد الرحمن ، الإتيان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت ١٩٦٤ م ،
٤٧. السيوطي، أبو الفضل، جلال الدين الدين عبد الرحمن ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة دار الفكر، ط ثانية، ١٩٧٩ م
٤٨. السيوطي، أبو الفضل، جلال الدين الدين عبد الرحمن، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، طبعة دار المعرفة، بيروت،

٤٩. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار إحياء التراث، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م
٥٠. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية في علم التفسير، دون تاريخ
٥١. الصعيدي، الشيخ عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب
٥٢. عبد الرحمن، سامي عطا حسن، حروف الزيادة في القرآن بين المجيزين والمنايعين مجلة الشريعة الدراسات الاسلامية (الكويت)، مج ٢٧، ع ٨٩: ٢٠١٢. ٢٠٢٣هـ .
٥٣. عبد الواحد، أحمد، الدراسات البيانية في المصنفات الأولى في معاني القرآن، نادي مكة الثقافى
٥٤. عواد، محمد حسن، تناوب حروف الجر في لغة القرآن، دار الفرقان، الأردن.
٥٥. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد، محاسن التأويل، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ
٥٦. القرطبي، أبو عبد الله، محمد بن احمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م
٥٧. الكفوي، ابو البقاء أيوب بن موسى، الكليات، تحقيق الدكتور عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت
٥٨. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي، تفسير الماوردي، النكت والعيون، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤ / ٤٤٩
٥٩. المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، ت: أبو الفضل إبراهيم، والسيد شحاته، دار النهضة، مصر
٦٠. المخزومي، مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة النحو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٥٨،
٦١. المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ

٦٢. مكي بن أبي طالب، أبو محمد حَمَّوش بن محمد بن مختار، الهداية إلى بلوغ النهاية، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ
٦٣. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م
٦٤. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى ١٩٩٤ م
٦٥. يونس، أحمد عزت، العلاقات النصية في لغة القرآن الكريم، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٤

نصوص أصولية من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ)

جمعا ودراسة

الدكتور / فهد بن عبدالله المنيع

الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية بالزلفي، جامعة المجمعة

الملخص :

تكتسب النصوص الأصولية الأولى أهمية كبرى؛ باعتبار أسبقيتها وإعلانها المبكر عن علم أصول الفقه؛ فكتاب الرسالة للشافعي يعد أول كتاب مؤلف في هذا الفن؛ إذ حوى جملة من مسائل علم الأصول، فاكتسب أهمية كبرى وتأثيرا عظيما على مر العصور؛ إلا أننا لا نجد مصادر كثيرة في زمنه تدلنا على مقاربة مسائل أصولية، وتكشف عن مستوى وجود المسائل والمصطلحات الأصولية؛ ولذلك تحضر رسالة الشافعي في كتب التاريخ للعلم، ثم ينتقل إلى زمن متأخر بعده؛ فكانت هذا الدراسة لتسد فراغا في تاريخ علم الأصول؛ وإثبات حضور القضايا والمصطلحات الأصولية في القرنين الثاني والثالث؛ من خلال استقراء وتتبع كتابات أبي عثمان الجاحظ، والذي تعتبر مؤلفاته رصيда ضخما في شتى الفنون بما فيها علم الأصول.

Abstract:

The first fundamental texts are of great importance because of their primacy and early declaration of the fundamentals of jurisprudence. The letter of the letter to Shafi'i is the first book written in this art. It contains a number of issues of the science of origin, which has gained great importance and influence over the ages. We find many sources in his time to show us the approach of fundamentalist issues, and reveal the level of the existence of fundamental questions and terminology; therefore, the letter of the Shafi'i in the history books of science, and then move to a later time; this study to fill a gap in the history of the science of assets; In the second and third centuries; Through the extrapolation and tracing of the writings of Abi Othman Al-Jahiz, whose works are considered a huge asset in the various arts including the science of

مقدمة

مر علم أصول الفقه بمراحل متعددة نشأة وتأسيسا، وتوظيفا وتوسعا؛ وتداخلت فيه مجموعة كبيرة من المؤثرات والمصادر في مختلف مراحلها، وتعتبر لحظة التأسيس الأولى على يد الإمام الشافعي (٢٠٤ هـ) من اللحظات المهمة في تاريخ هذا العلم، إذ ابتداء الإمام الشافعي بكتابه تاريخ العلم باعتباره علما مستقلا ومتميزا عن غيره، وباعتبار وظيفته الحاكمة والمحددة لمصادر التشريع وقواعد الاستدلال، وبتتبع تاريخ العلم والمؤلفات فيه: نجد شحا كبيرا في التأليف فيه بعد الشافعي؛ فلا نجد بعد كتاب الرسالة وصولا لكتاب التقريب والإرشاد للقاضي الباقلاني (٤٠٢ هـ)؛ والقاضي عبد الجبار (٤١٥ هـ)؛ ما يمكن أن نصفه بأنه عمل أصولي يستوعب أدواته ومناهجه ومصادره على الرغم من وجود بعض الشخصيات الأصولية مثل: الأصم (٢٠١ هـ)؛ وثمامة بن الأشرس (٢١٣ هـ)؛ وعيسى بن أبان (٢٢١ هـ)؛ وأبي الهذيل العلاف (٢٢٥ هـ)؛ والجبائيان (أبي علي ٣٠٢؛ أبي هاشم ٣١٥ هـ)، والكعبي (٣٢٧ هـ)، وأبي عبد الله البصري (٣٦٩ هـ)، وبعض علماء الحديث الذين تأثروا بالإمام الشافعي؛ كالإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ)؛ وصولا لكتاب التقريب والإرشاد للقاضي الباقلاني -؛ إلا ما يذكر من بعض الكتابات التي تناولت قضايا جزئية؛ أو أقوالا متفرقة لعلماء في مسائل أصولية متنوعة؛ فكان من المهم أن تتم مراجعة ما كتب ودون في القرن الثاني والثالث من خلال المصادر المتوفرة ودراسة مدى حضور المسائل والمصطلحات الأصولية فيما تبقى من كتب ذلك العصر؛ وإذا كان الأمر على هذا النحو؛ فمن المهم مراجعة هذه الفترة التاريخية ودراسة كيفية تطور علم الأصول بعد الإمام الشافعي؛ ومدى تأثير العلماء من شتى المذاهب بما قرره الإمام الشافعي، وهل تم البناء على أصوله؛ أو كانت هناك منهجيات مختلفة وإعراض عن تقريرات الإمام الشافعي؛ ولعل من أهم ما يذكر في تلك المرحلة؛ هو مدى تأثير الشخصيات الاعترالية في علم الأصول؛ ومن أهم ما يمكن أن يقدم لنا إضافة في هذا الجانب؛ هو ما كتبه مؤرخ وأديب ومتكلم تلك المرحلة: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠-٢٥٥ هـ)؛ والذي يعتبر من أكثر المؤلفين في التاريخ العربي والإسلامي^(١)؛ يضاف إلى ذلك فتره حياته الممتدة والطويلة التي عاصر

(١) تنظر دراسة موسعة لمؤلفات الجاحظ وإحصائها؛ وما صحت نسبته ومالم يصح في: أدب الجاحظ، حسن السندوبي؛ المطبعة الرحمانية مصر ١٣٥٠ هـ. ص ١١٦-١٤٤ وقد أوصلها المؤلف إلى ١٥٩ كتابا ورسالة.

فيها جملة من العلماء البارزين في شتى الفنون والمذاهب؛ وخصوصاً أصحابه المعتزلة؛ كالنظام (٢٢١ هـ)، وأبي الهذيل العلاف؛ وأحمد بن أبي دؤاد (٢٤٠ هـ)، وثمامة بن الأشرس، ومويس بن عمران (٢٤٦ هـ)، والمردار (٢٢٦ هـ) وغيرهم من أهل الأدب والحديث والشعر كالخليل بن أحمد (١٧٠ هـ)، والأصمعي (٢١٦ هـ)^(١)؛ إضافة إلى رحلاته وانتقالاته بين أهم الأماكن في ذلك الوقت: بغداد والبصرة، ومعاصرتة لقضايا كبيرة؛ كمسألة القول بخلق القرآن^(٢).

كما نجد حفظ الجاحظ وتسجيله في كتبه لجملة من تراجم العلماء وآرائهم الكلامية والأصولية؛ إضافة إلى آرائه واختياراته في مسائل أصولية؛ إذ له كتاب يظهر من مقدمته الباقية وعنوانته أن له ارتباطاً وثيقاً بمسائل أصولية مهمة؛ وهو كتاب: (أصول الفتيا والأحكام)^(٣).

كما أن الجاحظ يعد من أبرز علماء الأدب وتتسب له الأسبقية في القول بالمجاز؛ وكان اهتمامه بدلالات الالفاظ واضحاً؛ ولاسيما في كتابه البيان والتبين.

وبعد قراءة ما وقضت عليه من كتابات ومؤلفات الجاحظ؛ وجدت جملة وافرة من المسائل والمصطلحات الأصولية التي يحكيها الجاحظ عن غيره؛ أو يذكرها متبنيًا

(١) نجد حضوراً كبيراً لعدد من العلماء في شتى الفنون في كتب الجاحظ، وهو يحكي سماعه منهم ومناقشاته لهم.

(٢) وقد ألف الجاحظ رسالته في خلق القرآن؛ وحكى شيئاً من المناظرة في مجلس المعتصم بين أحمد بن أبي دؤاد؛ والإمام أحمد بن حنبل، ومنها قوله: "وقد قال صاحبكم (يعني الإمام أحمد بن حنبل) للخليفة المعتصم، يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمخلصين، إعداراً وإنذاراً: امتحنتني وأنت تعرف ما في المحنة، وما فيها من الفتنة، ثم امتحنتني من بين جميع هذه الأمة". رسالة الجاحظ في حكاية المناظرة بين الإمام أحمد وأحمد بن أبي دؤاد في مجلس الخليفة المعتصم ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ عبد السلام هارون ٢/٢٩٢.

(٣) وقد فقد هذا الكتاب ولم تبق منه إلا مقدمته؛ ويبدو أنه جمع في هذا الكتاب أقوال المعتزلة مما يتعلق بالفتيا.

قال الدارقطني في المؤلف والمختلف عند ذكره لمويس بن عمران (٤/٢١٦): "وأما مويس: فهو مويس بن عمران أحد المتكلمين، ذكره الجاحظ في أصول الفتيا، وحكى عنه حكايات يطول ذكرها". وينظر: مقدمة رسالة في أصول الفتيا والأحكام ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون ١/٢١٤.

لها ومستدلا عليها ومنافحا عنها؛ وكان من المهم رصد أقوال الجاحظ للاعتبارات السابقة؛ ولكونه يغطي فراغا كبيرا ويقدم إضافة مهمة لفهم المسار التاريخي لعلم أصول الفقه؛ وكيفية تطور مسأله، وطريقة توظيفه؛ إضافة للمعرفة بكيفية دخول بعض المصادر لمادة هذا العلم وموضوعاته؛ ولاسيما علم الكلام؛ فتأتي هذه الدراسة لتسجل هذه الآراء ومدى إضافتها التاريخية؛ كما تقارن الأقوال التي دونت في تلك المرحلة؛ كما تبين مدى ارتباط المسائل الفقهية والعقدية الكلامية بعلم أصول الفقه، وحرص العلماء والأدباء على الجمع بين التأصيل والتفريع: "فإن الفروع لامحالة راجعة إلى أصولها؛ والأعجاز لاحقة بصدورها؛ والموالي تبع لأوليائها"^(١). "ولا تلتمس الفروع إلا بعد إحكام الأصول"^(٢).

أهمية الموضوع

هذا الموضوع له أهمية كبيرة للاعتبارات الآتية:

١. أن هذا الموضوع يغطي فترة تاريخية من علم الأصول؛ تعتبر فترة متقدمة ومهمة؛ وهي ما بين القرن الثاني والثالث.
٢. قلة المعلومات والكتب المؤلفة في هذه الفترة؛ ويتبين هذا من خلال تتبع الكتب التي تناولت تأريخ علم الأصول.
٣. أهمية ومكانة الجاحظ؛ باعتباره من أهم الشخصيات العلمية التي عاصرت القرنين الثاني والثالث.
٤. علاقة الجاحظ المتعددة بعدد كبير من العلماء والأدباء والخلفاء؛ ومن مختلف المذاهب العقدية والفقهية.
٥. تأثير الجاحظ الكبير في زمانه؛ فهو الموصوف بكونه صُحفي المعتزلة، وراصد أقوالهم وأفكارهم، ومعتقداتهم وخلافاتهم ونقاشاتهم؛ في المسائل الفقهية والعقدية واللغوية والحياتية والأدبية^(٣).

(١) رسالة القيان للجاحظ ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون؛ مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٧/٢.

(٢) البرصان والعرجان والعميان والحولان، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت؛ الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ. ص ٢٩.

(٣) ومن ذلك قول الجاحظ: "كنا في مجلس بشر بن المعتز يوماً، وعنده المُردار، وثمامة، والعلاف، في

٦. كون الجاحظ من العلماء الذين حفظت كتبهم ومؤلفاتهم غالباً؛ فبقي منها عدد كبير يشمل قدراً كبيراً من المسائل المهمة وفي فنون متعددة^(١)؛ ومنها مسائل داخلية في علم الأصول^(٢).
٧. تمكنه واطلاعه على جملة من العلوم؛ التي كان لها تأثير في صياغة المادة الأصولية؛ مثل علم اللغة العربية، وعلم الكلام، والمنطق^(٣).
٨. أن الجاحظ من الموصوفين في زمنه بالإحاطة بما يكتب ويؤلف؛ مما يجعلنا قادرين على قياس مدى تأثيره أو تأثيره بالكتابات الأصولية في زمنه^(٤).

جماعة من المعتزلة وأصحاب الكلام، فتذاكروا العوامَّ واستحوذ الفتنة عليهم في التقليد، واستغلق قلوبهم بكثير مما ليس في طبيعتهم، فتعظمهم وتقضي لكل من نبيل منهم بالصواب في قوله وإن لم يعلموا؛ لا يدينون بالحقيقة، ولا يحمدون إلا ظاهر الحلية. ومن الدليل على ندالة طبيعتهم، والعلم بفسالة رأيهم... "رسالة في ذم أخلاق الكتاب ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون ١٩٦٢/٢.

وذكر الحاكم الجشمي في تعليقه على طبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار ص ٢٧٩ عند ترجمته لمويس بن عمران: بأن الجاحظ نقل عن موسى مذهبه في الإفتاء: وهو أنه يجوز أن يفوض الله تعالى الأحكام إلى نبيه وعلماء أمته؛ إذا علم أنهم يصيبون.

- (١) وصفه ابن خلكان بأنه: "صاحب التصانيف في كل فن". وفيات الأعيان (٣/ ٤٧١).
 - (٢) وسيأتي في ثنايا البحث ما يؤكد ذلك؛ ومن النصوص التي زخرت بجملة من المصطلحات الأصولية قوله: "وليس ينتفع الناس بالكلام في الأخبار إلا مع التصديق، ولا تصادق إلا مع كثرة السماع، والعلم بالأصول؛ لأن رجلاً لونازع في الأخبار، وفي الوعد والوعيد، والخاص العام، والناسخ والمنسوخ، والفريضة والنافلة، والسنة والشريعة، والاجتماع والفرقة... ينظر: رسالة حجج النبوة ضمن مجموع رسائل هارون ٢٦٥/٣.
 - (٣) وهذا يتبين من بعض النقول التي تدل على معرفته بكتب المنطق اليوناني ومن ذلك قوله: "وأما ديمقراط؛ فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بد من أن يكون لكل كتاب علم وضعه أحد من الحكماء ثمانية أوجه: منها الهمة، والمنفعة، والنسبة، والصحة، والصفحة، والتأليف، والإسناد، والتدبير... فذكر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب، وهو كتابه الذي يسمى: أفوريسمو- تفسيره: كتاب الفصول". الحيوان (١/ ١٠١-١٠٢). وأما ما يتعلق بعلم الكلام: فله عبارات كثيرة تدل على اهتمامه به وتمكنه منه، ومن ذلك قوله: "وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين؛ ما دمت خائضاً في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام فإن ذلك أفهم لهم عني وأخف لمؤنثهم علي... وقبيح بالمتكلم أن يفتر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة". الحيوان (٣/ ٣٦٨).
 - (٤) يذكر في ترجمة الجاحظ أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر، وأنه لم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان الكتاب. ينظر ثقافة الجاحظ واطلاعه الواسع؛ سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٢٧)؛
- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ؛ عزت السيد أحمد، منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٥م. ص ١٢.

٩. معاصرته ومشاهدته لأحداث كان لها تأثير كبير على مستوى الخلاف الأصولي والعقدي؛ مثل مسألة خلق القرآن.
١٠. تحلي الجاحظ بميزة مهمة في مؤلفاته وهو حرصه على إسناد الأقوال ونسبتها لأصحابها^(١)؛ مما يجعلنا قادرين على اكتشاف بدايات بعض المسائل المرتبطة بعلم الأصول، ومن قال بها.
١١. أسبقية الجاحظ في الكلام عن بعض المسائل بحيث صارت تنسب له؛ كالقول بالمجاز، وإعجاز القرآن، والتأليف في أصول الفتيا والأحكام؛ مع الاهتمام بأسباب الخلاف والوفاق^(٢)؛ ومحك النظر في معرفة المهم في فهم المسائل^(٣).
١٢. اهتمام الجاحظ بالناحية التأصيلية والتأسيسية في العلوم المتعددة؛ وهذا يظهر من خلال طريقتيه وعباراته المهمة في ضرورة الفهم والتثبيت^(٤)؛

(١) وهذا ما يظهر كثيرا في كتب الجاحظ المختلفة؛ بل إن أقوال كبار المعتزلة إنما عرفت عن طريقه؛ ومن أمثلة ذلك حرصه على رصد أقوال النظام وغيره من المعتزلة؛ ومن ذلك قوله: "خبرني أبو إسحاق إبراهيم النظام؛ وقد كان جالسه حيناً؛ وكان إبراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب؛ ولم أزمع أنه قليل الزيغ والزلل؛ على أن ذلك قد كان يكون منه وإن كان قليلاً". الحيوان (٢/ ٢٢٩).

وقال عنه في الحيوان (٣/ ٤٥١): "وأخبرني أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام قال: "جمعت حتى أكلت الطين".

(٢) ومن ذلك ما ذكره ورسده الجاحظ في البيان والتبيين ٢/ ٢٧٥ وما بعدها؛ في قصة الخراساني المرتد، ونقاش المأمون له: "قال المرتد: أوحشني كثرة ما رأيت من الاختلاف فيكم. قال المأمون: لنا اختلافان؛ أحدهما: كالإختلاف في الأذان، وتكبير الجنائز، والاختلاف في التشهد، وصلاة الأعياد وتكبير التشريق، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفتيا، وما أشبه ذلك، وليس هذا باختلاف؛ إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة، فمن أذن مثني وأقام مثني لم يؤثم؛ ومن أذن مثني وأقام فرادي لم يحوب. والاختلاف الآخر: كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا؛ وتأويل الحديث عن نبينا مع إجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر؛ فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب؛ فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كما يكون متفقاً على تنزيله؛ ولا يكون بين جميع النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات؛ وينبغي لك أن لا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في تأويل الفاظها؛ ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثته رسلاً لا يحتاج إلى تفسير لفضل؛ ولكننا لم نر شيئاً من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية؛ ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة؛ وذهبت المسابقة والمنافسة؛ ولم يكن تقاضل".

(٣) وكانت له في هذا المقام عبارات تأصيلية سابقة؛ مثل قوله: "ومدار الأمر على فهم المعاني لا الألفاظ؛ والحقائق لا العبارات". الحيوان ٥/ ٥٤٢.

(٤) وغالب ما يبدأ الجاحظ كتبه بمقدمة فيها دعاء للخالق وتوجيه للقاريء؛ ومن أهم ما يبدأ به الجاحظ هو الدعوة للفهم والتثبيت؛ ومن ذلك ما ذكره في مقدمة البيان والتبيين ١/ ١١: "مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهيم؛ وكلما كان اللسان أبين كان أحمد؛ كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد؛ والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل؛ إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم".

واستيعاب مقدمات العلوم، وتراتبية العلم، والمصادر والمسائل^(١)، والاتقنات للفروق الدقيقة بين المعاني والأشياء المتشابهة^(٢).

١٢. بعد الجاحظ عن التقليد واعتداده بأرائه مما جعله يخالف بعض أساتذته من المعتزلة وغيرهم^(٣).

منهجية البحث

لما كانت كتب الجاحظ كثيرة ومتعددة وفي فنون مختلفة؛ فقد حرصت على استقرارها وتتبعها، وجمع المهم مما يتعلق بالجانب الأصولي مع حذف المكرر والمؤكد؛ وكان الاختصار في الجمع على ما ينقله الجاحظ عن غيره أو يتبناه بنفسه؛ دون التعرض

- (١) قال الجاحظ: "فاطلب العلم على تنزيل المراتب، وعلى ترتيب المقدمات، وليكن لتدبيرك نطاق، فإنه أمان من الخطأ... فإنه لا بد للبنيان من قواعد؛ وليكن أحب العلم إليك أطوعه لله، فإن لم تفعل فأكسبه للحال الجميلة، والذي لا بد للشريف من معرفته علم الأخبار، ومعرفة علل النحو". البرصان والعرجان ص ٣٤.
- (٢) وعدد الجاحظ أنواع الجنون؛ فجاء بشيء فريداً فقال: "والتخييل ضروري: تخييل من المراتب وتخيل من الشيطان؛ وتخييل آخر: كالرجل يعمد إلى قلب رطب لم يتوقع؛ وذهن لم يستمر؛ فيحمله على الدقيق وهو بعد لا يفى بالجليل؛ ويتخطى المقدمات متسكماً بلا أمارة؛ فرجع حسيراً بلا يقين؛ وغبر زماناً لا يعرف إلا الشكوك". الحيوان (٣/ ٢٧٩). وقال: "ولا تلتبس الفروع إلا بعد إحكام الأصول". البرصان ص ٢٩.
- (٣) ومن ذلك قوله: "ولم أذكر لك من الأبواب الطوال شيئاً؛ ولو قد صرت إلى ذكر فرق ما بين الجن والإنس؛ وفرق ما بين الملائكة والأنبياء؛ وفرق ما بين الأنثى والذكر؛ حتى يمتد بنا القول في فضيلة الإنسان على جميع أصناف الحيوان؛ وفي ذكر القسم والأعمار؛ وفي ذكر مقادير العقول والعلوم والصناعات".
- (٣) قال الجاحظ عن أساتذته النظام: "وإنما كان عيبه الذي لا يفارقه: سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله؛ فلو كان بدل تصحيحه القياس؛ التمس تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمره على الخلاص؛ ولكنه كان يظن ثم يقيس عليه، وينسى أن بدء أمره كان ظناً؛ فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه؛ ولكنه كان لا يقول: سمعت ولا رأيت؛ وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة القاطعة: لم يشك السامع أنه إنما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه، أو عن معاينة قد بهرته". الحيوان (٢/ ٢٢٩-٢٣٠). وقال محذراً من التقليد بدون دليل وبرهان: "وأنا أعيد نفسي بالله أن أقول إلا له؛ وأعيدك بالله أن تسمع إلا له؛ وقد قال الله عز وجل: (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) [الأعراف: ١٩٨]. فاحذر من أن تكون منهم؛ وممن ينظر إلى حكمة الله وهو لا يبصرها؛ وممن يبصرها بفتح العين واستماع الأذان؛ ولكن بالتوقف من القلب والتثبت من العقل وتحفيظه وتمكيته من اليقين والحجة الظاهرة؛ ولا يراها من يعرض عنها". الحيوان (٤/ ٢١١).

لأقواله وما نقل عنه في كتب الأصول الأخرى؛ نظرا لوجودها في مظانها؛ وعدم الفائدة في رصد ما دونه الأصوليون وناقشوه في كتبهم^(١).

وستكون منهجية البحث خادمة لغرض البحث؛ وهو إبراز المسائل الأصولية في القرن الثاني والثالث؛ من خلال كتابات الجاحظ وتتبع المصطلحات الأصولية؛ مع توضيح ما يحتاج إلى ذلك؛ دون دراسة الأقوال ومقارنتها والترجيح بينها؛ نظرا لأن قدرا كبيرا من مسائل الأصول تم تناولها على هذا النحو، والمهم هو رصد الأقوال وطريقة إيرادها؛ ولفت الانتباه لما يهم منها وشرح ما يحتاج إلى توضيح وتبيين؛ مع رصد مدى مقارنة القضايا التي ناقشها الجاحظ للمسائل وللقضايا المذكورة في القرنين الثاني والثالث؛ ولاسيما الموجود في رسالة الشافعي؛ وما نقل عن المعتزلة المتقدمين؛ كما حرصت على جمع كلامه في المسألة الواحدة في مكان واحد مهما تعددت المصادر؛ حرصا على معرفة قوله في المسألة من جوانبها المتعددة؛ وقد ذكرت النصوص الأصولية للجاحظ وفق ترتيب المسائل الآتي:

- المبحث الأول: النصوص في أن الأصل في الأشياء الإباحة.
- المبحث الثاني: النصوص في التكليف بالأمر والنهي.
- المبحث الثالث: النصوص في النسخ.
- المبحث الرابع: النصوص في الاستدلال بالقرآن والسنة والإجماع والقياس.
- المبحث الخامس: النصوص في مكانة الصحابة.
- المبحث السادس: النصوص في شرع من قبلنا.
- المبحث السابع: النصوص في عمل أهل المدينة.
- المبحث الثامن: النصوص فيما يتعلق بدلالات الألفاظ؛ وفيه مطالب:
 - المطلب الأول: النصوص في معنى البيان.
 - المطلب الثاني: النصوص في العمل بالعام والخاص والمطلق والمقيد.
 - المطلب الثالث: النصوص في مبدأ اللغات.

(١) ومن ذلك قول الجاحظ في المسألة المشهورة في التصويب والتخطئة؛ وقوله في إعجاز القرآن ومذهب الصرّفة؛ وقوله في وجود واسطة بين الصدق والكذب في باب الإخبار. ينظر: البحر المحيط ٢/٢٨٨-٤/٥٢٤.

المطلب الرابع: النصوص في الحقيقة والمجاز.
المطلب الخامس: النصوص في وقوع الترادف.
المبحث التاسع: النصوص فيما يتعلق بالاجتهاد: وفيه مطالب:
المطلب الأول: النصوص في تجزؤ الاجتهاد.
المطلب الثاني: النصوص في أن اجتهاد النبي يخطيء ويصيب.
المطلب الثالث: النصوص في علم الكلام واشتراطه في الدين.
ومستبقاً ذلك كله بتمهيد موجز لصاحب هذه النصوص: أبو عثمان عمرو بن بحر
الكناني (الجاحظ).

التمهيد

ترجمة موجزة للجاحظ^(١)

يعد الجاحظ من أبرز الشخصيات في التراث العربي التي حظيت بكم كبير من الاهتمام والدراسة؛ وذلك يعود للكم الكبير من المؤلفات والكتابات التي تركها في فترة متقدمة من تاريخ التأليف عند المسلمين والعرب؛ إضافة إلى تقننه وتعدد العلوم التي أسهم فيها؛ فمنها كتب الأدب والبيان؛ والحيوان؛ وعلم الكلام؛ والبخل والبخل، وطبائع المجتمعات، وكتب الردود والمناقشات، والفتاوى والأحكام؛ وكل هذه المؤلفات والمقاربات جاءت بقلم سيال، وعبارة راقية، وذهن مستوعب؛ إضافة إلى قدر كبير من الفكاهة والسخرية - إن اقتضت الحاجة لذلك -.

والجاحظ هو لقب وصف به؛ نظرا لجحوظ عينيه وبروزهما؛ ولذلك كان يسمى أيضا بالحدقي^(٢)؛ وأما اسمه: فهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري المعتزلي^(٣).

وصفه الذهبي (٧٤٨ هـ) بأنه: "العلامة، المتبحر، ذو الفنون... وكان أحد الأذكياء ... من بحور العلم، وتصانيفه كثيرة جدا... وكان باقعة في قوة الحفظ... فما روى من الحديث إلا النزر اليسير، ولا هو بمتهم في الحديث، في النفس من حكاياته ولهجته، فربما جازف، وتلطخه بغير بدعة أمر واضح، ولكنه أخباري علامة، صاحب فنون وأدب باهر، وذكاء بين عفا الله عنه"^(٣).

(١) تنظر مصادر ترجمته: تأويل مختلف الحديث؛ ابن قتيبة الدينوري، تحقيق: محمد زهري النجار ص ٥٩، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، القاضي عبد الجبار بن أحمد؛ ص ٢٧٥؛ طبقات المعتزلة؛ أحمد بن يحيى المرتضى؛ بيروت لبنان ١٢٨٠ هـ. ص ٦٧، وفيات الأعيان (٤٧٠/٣)؛ سير أعلام النبلاء ١١/٥٢٦؛ لسان الميزان ت أبي غدة (١٩٠/٦)؛ طبقات المفسرين للداودي (١٧/٢)؛ الأعلام للزركلي (٧٤/٥)؛ أدب الجاحظ، حسن السندوبي؛ المطبعة الرحمانية مصر ١٢٥٠ هـ؛ الجاحظ، شارل بلات، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، دمشق، دار اليقظة العربية ١٩٦١ م.

(٢) وتنسب له فرقة من المعتزلة تسمى بالجاحظية كما ذكر في ترجمته.

(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء ١١/٥٢٦-٥٢٧-٥٢٠.

ولد الجاحظ سنة (١٥٠ هـ) فعاصر فترة زخرت بكم كبير من العلماء في شتى الفنون.

ومن أبرز صفاته العلمية: قدرته على استقصاء المعاني واستيفاء جميع الحقوق مع اللفظ الجزل والمخرج السهل^(١). وكانت وفاة الجاحظ في المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة^(٢)، وقد نيف على مائة سنة^(٣).

(١) ينظر: لسان الميزان ت أبي غدة (٦ / ١٩٠).

(٢) وفيات الأعيان (٣ / ٤٧٤).

(٣) وقد تأخرت وفاته عن أقرانه وعلماء عصره؛ وامتدت حياته قرناً من الزمان؛ فأشرف واطلع على أقوال أهل زمانه ورصدها في كتبه.

المبحث الأول

النصوص في أن الأصل في الأشياء الإباحة

جاء كلام الجاحظ في هذه المسألة في سياق تبيينه لُحد الفيرة الواجب والممنوع؛ فيما بين الإفراط والتفريط؛ فقال: "أما بعد فإنه ليس كل صامت عن حجته مبطلاً في اعتقاده، ولا كل ناطق بها لا برهان له محقاً في انتحاله؛ والحاكم العادل من لم يعجل بفصل القضاء دون استقصاء حُجج الخصماء، ودون أن يحوّل القول فيمن حضر من الخصماء والاستماع منه، وأن تبلغ الحجة مداها من البيان..."

واعتمدنا على أن المطول يقصر، والمُلخص يختصر، والمطوي يُشر، والأصول تتفرع... إن الفروع لا محالة راجعة إلى أصولها، والأعجاز لاحقة بصدورها، والموالي تبعٌ لأوليائها، وأمور العالم ممزوجة بالمشكلة ومنفردة بالمضادة، وبعضها علة لبعض... وكل شيء لم يوجد محرماً في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؛ فمباحٌ مطلق؛ وليس على استقباح الناس واستحسانهم قياس؛ ما لم نخرج من التحريم دليلاً على حسنه، وداعياً إلى حلاله^(١).

فابتدأ الجاحظ ببيان أهمية التأصيل وفهم الفروع بناء على الأصول؛ وضرورة عدم الاستعجال في إصدار الأحكام قبل الثبوت والتفهم؛ وأنه لا يمكن تحريم شيء ما لم يوجد دليل التحريم في كتاب الله وسنة رسوله؛ فيكون الأصل فيه الإباحة المطلقة؛ وأما استقباح الناس واستحسانهم فهو ليس دليلاً؛ كما نستخلص من هذا النص مدى تمسك الجاحظ بالنص الشرعي؛ وعدم إعمال الاستحسان والاستقباح الذي لا يؤيده الدليل؛ وأما ما دل الدليل على تحريمه فهو كذلك إلى أن يقام الدليل على كونه حسناً وحلالاً.

وقول الجاحظ هنا يوافق قول عامة المعتزلة وجمهور الأصوليين^(٢).

(١) رسالة القيان للجاحظ ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون؛ مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٧/٢.

(٢) ينظر: قواطع الأدلة في الأصول لأبي المظفر السمعاني؛ تحقيق: محمد حسن الشافعي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان؛ الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٩م؛ ٥٩/٣؛ اللمع في أصول الفقه: أبو إسحاق الشيرازي؛ دار الكتب العلمية الطبعة: الثانية ٢٠٠٣م ١٤٢٤هـ. ص ١٢٢، الواضح في أصول الفقه، أبو الوفاء، علي بن عقيل بن محمد بن عقيل؛ المحقق: الدكتور عبد الله التركي؛ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ. ٢١٧/٢. البحر المحيط للزركشي ٤/٢٢٢.

كما يتوافق هذا القول في رد قياس الناس في الاستحسان والاستتباح؛ مع ما نقل عن ابن المقفع (١٤٢ هـ) والنظام المعتزلي؛ فابن المقفع يرى أن القياس دليل يستدل به على المحاسن؛ فإن أدى إلى حسن معروف أخذ به؛ وإن قاد إلى قبيح مستنكر ترك؛ لأن المقصود ليس ذات القياس ولكن محاسن الأمور ومعروفها^(١).

ولعل هذا النقل عن الجاحظ يؤكد القول باختلاف نظر المعتزلة الأوائل عن الأواخر في النظر إلى العقل والنقل؛ فالمعتزلة: "في بداية مسيرهم مع العقل لم يريدوا به أن يكون حاكماً على الشرع، بل أرادوا أن العقل طريق إلى العلم بالحكم الشرعي، ولكنهم بعد أن توغلوا في العقل بالغوا في تقديسه حتى جعلوه مقدماً على الشرع وحاكماً عليه"^(٢).

وأكبر القضايا في مسائل التحسين والتقيح هي الأحكام المتعلقة بما لم يرد فيه دليل شرعي؛ ونلاحظ هنا أن الجاحظ تمسك بعدم وجود الدليل الشرعي على الإباحة؛ ولم يجعل الحكم مبنياً على ما يستحسنه العقل أو يستقبه.

وفي هذا المقام وعلاقة العقل بالنص وبناء الأحكام؛ يقول الجاحظ: "فالعقل هو المستدل، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل، وكون الاستدلال مع عدم الدليل؛ والعقل مضمن بالدليل، والدليل مضمن بالعقل، ولا بد لكل واحد منهما من صاحبه، وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر"^(٣).

(١) ينظر: رسالة الصحابة لابن المقفع ضمن مجموعة رسائل البلغاء طبعة مصر ١٢٢١ هـ. ص ١٢٠. إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية؛ محمد عبد الهادي أبو ريده؛ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ القاهرة؛ ١٣٦٥ هـ. ص ٢٩.

(٢) العقل عند الأصوليين: د. علي الضويحي (ص: ٢٩). وتنظر دراسة موسعة للقول بالقياس عند المعتزلة من خلال بيان موقف إبراهيم النظام من القياس؛ إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية ٢٤-٣٠.

وممن نص على التفريق بين أقوال المعتزلة المتقدمين والمتأخرين: الإمام البيهقي في الأسماء والصفات ١/٦٢٣.

(٣) حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ تحقيق هارون ٣/٢٢٦.

المبحث الثاني

النصوص في التكليف بالأمر والنهي.

جاء كلام الجاحظ في هذه المسألة في سياق تبيينه للأمور التي يحصل بها صلاح الإنسان في دنياه وأخراه؛ وابتدأها كعادته بالأمر بالثبوت والتفهم؛ وبناء الأصول واختبارها بالفروع؛ فقال: "فإنما حُمدت العلماء بحسن الثبوت في أوائل الأمور، واستشفا فهم بعقولهم ما تجيء به العواقب، فيعلمون عند استقبالها ما تؤول به الحالات في استدبارها؛ وبقدر تفاوتهم في ذلك تستبين فضائلهم"^(١)،

ثم بين منهجه في توضيح هذه الأمور؛ فقال: "وراسم لك في ذلك أصولاً، ومبين لك مع كل أصل منها علته وسببه"^(٢)... غير راضٍ لك بالأصول حتى أتقصى لك ما بلغه علمي من الفروع"^(٣).

ثم قال: "واجعل أمر الله ونهيه نصب عينيك؛ وأحذرک ونفسي الله والاعتزاز به"^(٤)... لله ابتلاء أن في خلقه والابتلاء هو الاختبار ابتلاء بنعمة، وابتلاء بمصيبة. وبقدر عظمها يجب التكليف من الله عليها"^(٥).

وبين الجاحظ سبب هذا التكليف؛ فقال: "فعلم الله أنهم لا يتعاطفون، ولا يتواصلون، ولا يتقادون إلا بالتأديب، وأن التأديب ليس إلا بالأمر والنهي؛ وأن الأمر والنهي غير ناجعين فيهم إلا بالترغيب والترهيب الذين في طباعهم؛ فدعاهم بالترغيب إلى جنته، وجعلها عوضاً مما تركوا في جنب طاعته، وزجرهم بالترهيب بالنار عن معصيته، وخوفهم بعقابها على ترك أمره... ثم أقام الرغبة والرغبة على حدود العدل، وموازين النصفة.. فقال: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [الزلزلة: ٧، ٨]"^(٦).

(١) رسالة المعاش والمعاد للجاحظ ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون ٩١/١.

(٢) رسالة المعاش والمعاد للجاحظ ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون ٩٧/١.

(٣) رسالة المعاش والمعاد للجاحظ ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون ٩٨/١.

(٤) رسالة المعاش والمعاد للجاحظ ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون ١٠٠/١.

(٥) رسالة المعاش والمعاد للجاحظ ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون ١٠٠/١.

(٦) رسالة المعاش والمعاد للجاحظ ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون ١٠٤/١.

ثم قال: "أخبر الله -تبارك وتعالى- أنه غير داخل في تدبيره الخلل، ولا جائزٌ عنده المحاباة؛ ليعمل كل عامل على ثقة مما وعده وواعده، فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرغبة، فاطرّد التدبير، وأستقامت السياسة، لموافقتهما ما في الفطرة، وأخذهما بمجامع المصلحة، ثم جعل أكثر طاعته فيما تستثقل النفوس، وأكثر معصيته فيما تلذ، ولذلك قال النبي ﷺ: (حفت الجنة بالمكاره، والنار بالشهوات^(١)). يخبر أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره، والطريق إلى النار اتباع الشهوات، فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلا بما وصفت لك من الرغبة والرغبة^(٢)".

وفي رسالة القيان يقول الجاحظ مؤيداً هذا الكلام: "ولولا المحنة والبلوى في تحريم ما حرم؛ وتحليل ما أحل، وتخليص الموالي من شبهات الاشتراك فيها، وحصول الموارث في أيدي الأعمام، لم يكن واحدٌ أحقُّ بوحدة منهن من الآخر، كما ليس بعض السّوام أحقُّ برعيّ مواقع السّحاب من بعض،... إلا أنّ الفرض وقع بالامتحان فخصّ المطلق، كما فعل بالزرع فإنه مرعى لولد آدم ولسائر الحيوان إلا ما منع منه التحريم^(٣)".

وأما في كتاب الحيوان؛ فقد شرح الجاحظ أنواع المحرم، وارتباط ذلك بالابتلاء والامتحان؛ فقال: "وقد أنبأك كما ترى عن التحريم أنه يكون من وجوه: فمنها ما يكون كالكذب، والظلم، والغشم والغدر؛ وهذه أمور لا تحل على وجه من الوجوه؛ ومنها ما يحرم في العقل من ذبح الإنسان الطفل؛ وجعل في العقول التبين بأن خالق الحيوان أو المالك له والقادر على تعويضه يقبح ذلك في السماع على السنة رسله؛ وهذا مما يحرم بعينه وبذاته؛ لا أنه حرم لعله قد يجوز دفعها؛ والظلم نفسه هو الحرام؛ ولم يحرم لعله غير نفسه. وهو ما جاء من طريق التعبد وما يعرف بالجملة ويعرف بالتفسير؛ ومنه ما يكون عقاباً ويكون مع أنه عقاب امتحاناً واختباراً؛ كنحو ما ذكر من قوله: (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبِعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) [من الآية ١٤٦ من سورة الأنعام].؛ وكنحو أصحاب البقرة الذين قيل لهم: اذبحوا بقرة فإني أريد أن أضرب بها القليل ثم أحبيهما جميعاً؛ ولو اعترضوا من جميع البقر بقرة فذبحوها كانوا غير مخالفين؛ فلما ذهبوا مذهب التلكؤ

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٨٧) ومسلم برقم (٢٨٢٢).

(٢) رسالة المعاش والمعاد للجاحظ ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبدالسلام هارون ١/١٠٥.

(٣) رسائل الجاحظ تحقيق هارون ٢/١٤٧.

والتعلل، ثم التعرض والتعنت في طريق التعنت؛ صار ذلك سبب تغليظ الفرض^(١) .

وهذا الكلام من الجاحظ هو في سياق تسمية أوامر الله ونواهيه تكاليف شرعية؛ وكونها مبنية على تحقيق المصالح؛ مع ما يستتبع ذلك من حصول المشقة البالغة والتأديب.

وهذا القول أصل من أصول المعتزلة؛ في أنه لا يصح التكليف إلا مع حصول المشقة؛ ومتى لم يكن كذلك لم يكن تكليفاً؛ ولهذا جعلوا الأحكام كلها من باب التكليف؛ كما أن إطلاق التكاليف على الأوامر والنواهي ينسب استعماله الأول للمعتزلة.

قال الباقلاني لما ذكر صفات المأمور به: " هذا قدر ما يلزم المأمور به من الصفات حتى يصح الأمر به والنهي عنه، دون جميع ما يدعيه القدرية^(٢)؛ من وجوب... أن يكون شاقاً على المكلف وثقيلاً فعله^(٣) .

ثم قال: " وأما اشتراطهم كونه ثقيلاً شاقاً على المكلف؛ فلا أجل قولهم؛ إنه لا يصح التكليف إلا مع الكلفة والمشقة في تحمل الفعل والانصراف، ومتى لم يكن كذلك لم يصح تكليفه^(٤) .

قال ابن تيمية (٧٢٨ هـ) موضحاً سبب هذا القول والجواب عنه: " نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله؛ هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه؛ كما عليه أهل الإيمان وكما دل عليه القرآن؛ لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم؛ إن عبادته تكليف ومشقة وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان؛ والاختبار؛ أو لأجل التعويض بالأجرة؛ كما يقوله المعتزلة وغيرهم؛ فإنه وإن كان في الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس، والله سبحانه يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة؛ كما قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ) [التوبة: من الآية ١٢٠]... فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي؛ وإنما وقع ضمناً وتبعاً لأسباب؛ ولهذا لم يجئ في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح أنه تكليف؛ كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمنفقهة، وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي كقوله: (لا

(١) الحيوان ٤/٦٢.

(٢) من أسماء المعتزلة لقولهم بنفي القدر. ينظر: الأسماء والصفات لليبهي ١/٦٢٣.

(٣) التقريب والإرشاد (الصغير) (١/٢٦٣).

(٤) التقريب والإرشاد (الصغير) (١/٢٦٤).

يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة: من الآية ٢٨٦]... أي: وإن وقع في الأمر تكليف؛ فلا يكلف إلا قدر الوسع؛ لأنَّه يسمى جميع الشريعة تكليفاً^(١).

ويلاحظ أيضاً في كلام الجاحظ تفريقه بين المحرمات: فمنه ما هو قبيح لنفسه ومنه ما يكون عقاباً أو تعبدًا وابتلاءً.

قال ابن عقيل (٥١٣ هـ) موضحاً أسباب تفريق المعتزلة بين أنواع المحرم: "قالوا: إن في الأمور الداخلة تحت التكاليف ما هو قبيح لنفسه، فلا يحسن إلا النهي عنه، ولا يختلف باختلاف الأزمنة، ولا يختلف باختلاف الأشخاص، مثل الكذب، وكفران نعمة المنعم، وعقوق الوالدين، والجهل بالله سبحانه، وإضافة ما لا يجوز عليه إليه، والظلم والبغي، وهو الإضرار المحض الذي لا يتعقبه ولا يضامه نفع يوفي عليه.

وفي التكليف ما هو حسن في نفسه لأمر يرجع إليه لا إلى غيره، كالإحسان، والعفو، وبرّ الوالدين، ومعرفة الله - وهي الأصل -، وشكره على ما أنعم به، فهذا حسن لا يحسن النهي عنه، بل يحسن الأمر به، والحث عليه^(٢).

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٥/١. وينظر: المسائل المشتركة للشيخ العروسي ص ٨٦: الشرح الكبير لمختصر الأصول (ص: ٩٠).

(٢) الواضح في أصول الفقه (٤/ ٢٥٧). وينظر مزيداً من تبيان قول المعتزلة في هذه المسألة والرد عليهم: تقويم الأدلة في أصول الفقه (ص: ٤٥٩)؛ البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٢٧٤-٢٧٥)؛ أعلام النبوة الماوردي (ص: ٢٧)؛ العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٦/ ٤٢).

المبحث الثالث

النصوص في النسخ

جاء كلام الجاحظ في مسائل النسخ موجزا ومختصرا؛ وفي معرض حكايته لبعض المناظرات التي جرت في مسألة خلق القرآن؛ ومنها المناظرة المشهورة في مجلس الخليفة المعتصم (٢٢٧ هـ) بين الإمام أحمد بن حنبل^(١)؛ والوزير أحمد بن أبي دؤاد؛ وكعادته بدأ الرسالة ببيان أهمية التثبيت والبعد عن العجلة، والحرص على فهم الأصول واستيفاء الفروع؛ فقال: "ولا بد من استجماع الأصول، ومن استيفاء الفروع، ومن حسم كل خاطر، وقمع كل ناجم، وصرف كل هاجس، ودفع كل شاغل، حتى تتمكن من الحجة، وتتهنأ بالنعمة، وتجد رائحة الكفاية، وتتلج ببرد اليقين، وتفضي إلى حقيقة الأمر"^(٢).

ثم ساق قصة المناظرة؛ وقول الإمام أحمد: بأن حكم كلام الله كحكم علمه؛ فكما لا يجوز أن يكون علما محدثا مخلوقا؛ فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقا محدثا^(٣)؛ فأجاب ابن أبي دؤاد بقوله: "أليس قد كان الله يقدر أن يبذل آية مكان آية، وينسخ آية بآية، وأن يذهب بهذا القرآن، ويأتي بغيره، وكل ذلك في الكتاب مسطور؟. قال: نعم"^(٤).

وكذلك ذكر الجاحظ ومثّل للنسخ وجوازه بقوله: "قد كان المسلمون يتكلمون في الصلاة ويطبّقون إذا ركعوا"^(٥)؛ فنهى عن ذلك إمام من الأئمة وضرب عليه^(٦) بعد أن

(١) جرت عادة الجاحظ أنه لا يسمي علماء السنة؛ وكذلك فعل في هذه الرسالة؛ وإنما يشير إليه بقول: صاحبكم. ينظر: رسالة الجاحظ في حكاية المناظرة بين الإمام أحمد وأحمد ابن أبي دؤاد في مجلس الخليفة المعتصم ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ عبد السلام هارون ٢٩٢/٣.

(٢) رسالة الجاحظ في حكاية المناظرة بين الإمام أحمد وأحمد ابن أبي دؤاد في مجلس الخليفة المعتصم ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ عبد السلام هارون ٢٨٦/٣.

(٣) رسالة الجاحظ في حكاية المناظرة بين الإمام أحمد وأحمد ابن أبي دؤاد في مجلس الخليفة المعتصم ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ عبد السلام هارون ٢٩٤/٣.

(٤) رسالة الجاحظ في حكاية المناظرة بين الإمام أحمد وأحمد ابن أبي دؤاد في مجلس الخليفة المعتصم ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ عبد السلام هارون ٢٩٥/٣.

(٥) التطبيق: أن يشبك أصابع يديه ويضعهما بين فخذه. وحديث التطبيق المنسوخ رواه مسلم حديث (٥٢٤).

(٦) نقل النهي عنه عن عمر بن الخطاب؛ والضرب عن سعد بن أبي وقاص كما في سنن الترمذي برقم (٢٥٨)، سنن النسائي برقم (١٠٢٢) وفيه: عن مصعب بن سعد، قال: صليت إلى جنب أبي وجعلت

أظهرَ النَّسخَ وعرفَهم أن ذلك من المنسوخ؛ فكانَ قائلًا قال: أتتهانا عن شيءٍ وقد كان على عهد النبي ﷺ.

فيقول: نعم. وقد قدم الاحتجاج في النَّسخ والمنسوخ^(١).

وقال الجاحظ في سياق ذكره لقول أهل السنة في القرآن واعتقادهم فيه: "ثم زعم أكثرهم أن كلام الله حسن وبيِّن، وحجة وبرهان، وأنَّ التَّوراة غير الزُّبور، والزُّبور غير الإنجيل، والإنجيل غير القرآن، والبقرة غير آل عمران، وأنَّ الله تولَّى تأليفه، وجعله برهانه على صدق رسوله، وأنَّه لو شاء أن يزيد فيه زاد، ولو شاء أن ينقص منه نقص، ولو شاء أن يبدِّله بدَّله، ولو شاء أن ينسخه كلَّه بغيره نسخه، وأنَّه أنزله تنزيلا، وأنَّه فصَّله تفصيلا^(٢)."

وهذا القول وإن كان حكاية من الجاحظ لقول غيره؛ إلا أنه يدل على حضور مسائل النسخ في كلامه؛ وتداخل مسائل النسخ مع بعض الاستدلالات في القضايا العقديَّة الكبرى؛ كمسألة خلق القرآن؛ وهذه النقول تدل بمجملها على موافقة الجاحظ لجماهير العلماء في جواز النسخ ووقوعه؛ ووهم من نسب له القول بعدم جواز النسخ؛ كما قال صاحب فواتح الرحموت: "وأجمع أهل الشرائع على وقوعه سمعا خلافا لأبي مسلم الجاحظ من شياطين المعتزلة^(٣)".

بيدي بين ركبتي، فقال لي: اضرب بكفيك على ركبتيك، قال: ثم فعلت ذلك مرة أخرى، فضرب يدي، وقال: "إنا قد نهينا عن هذا، وأمرنا أن نضرب بالأكف على الركب".

(١) الحيوان ٤/٢٧٧.

(٢) رسالة في الرد على النابتة ضمن مجموع رسائل الجاحظ تحقيق هارون ١٨/٢. وينظر شرح العقيدة الطحاوية؛ لمحمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني؛ دار السلام؛ الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. ١/١٧٦.

(٣) والمذكور في كتب الأصول أنه أبو مسلم الأصفهاني. ينظر: فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت ٢/٦٥. العدة في أصول الفقه ٣/٧٧٠.

المبحث الرابع

النصوص في الاستدلال بالقرآن والسنة والإجماع والقياس

ثمة نصوص كثيرة للجاحظ تدل على تمسكه بالنصوص الشرعية وتعظيمه لها؛ وجاء كلامه عن أدلة الشرع مفرقا في رسائله وكتبه؛ ومن أصرح عباراته في هذا المقام ما ذكره في بداية رسالته في الترجيح والتفضيل؛ فقال: "هذا كتاب من اعتزل الشك والظن، والدعوى والأهواء، وأخذ باليقين والثقة من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وبإجماع الأمة بعد نبيها؛ مما تضمنه الكتاب والسنة؛ وترك القول بالآراء، فإنها تخطئ وتصيب؛ لأن النبي شاور أصحابه في الأسرى ببدر؛ واتفق على قبول الفداء فأنزل الله: (مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى لَهٗ أُسْرَى حَتَّىٰ يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ) [الأنفال: من الآية ٦٧]؛ فقد بان لك أن الرأي يخطئ ويصيب ولا يعطي اليقين، وإنما الحجة لله ورسوله؛ وما أجمعت عليه الأمة من كتاب الله وسنة نبيها... وأجمعت الأمة بعد نبيها أنه خلف كتاب الله تعالى ذكره، وأمرهم بالرجوع إليه إذا نابهم أمر، وإلى سنة نبيه فيتدبرونهما ويستنبطوا منهما ما يزيل به الاشتباه"^(١).

وقال الجاحظ في بيان حل أكل الضب: "قالوا: الشيء لا يحرم إلا من جهة كتاب؛ أو إجماع؛ أو حجة عقل؛ أو من جهة القياس على أصل في كتاب الله عز وجل؛ أو إجماع؛ ولم نجد في تحريره شيئا من هذه الخصال"^(٢). وقال في صدر رسالته فيما يحل من الشراب وما يحرم: "وإنما يعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق، والسنة المجمع عليها، والعقول الصحيحة، والمقاييس المصيبة"^(٣).

وقال الجاحظ: "فكتبت لك كتاباً، أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان"^(٤). وقال الجاحظ في بيان مكانة السنة

(١) رسالة الترجيح والتفضيل ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: د محمد الحاجري ص ٦٢.

(٢) الحيوان ٦/٨٤.

(٣) رسالة الشارب والمشروب ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون ص ٢٧٧.

(٤) رسالة الجاحظ في حكاية المناظرة بين الإمام أحمد وأحمد ابن أبي دؤاد في مجلس الخليفة المعتصم ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ عبد السلام هارون ٢/٢٨٧.

النبوية؛ وأقوال النبي ﷺ: "ولإياد وتميم في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب؛ لأن رسول الله هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جملة بعكاظ، وموعظته^(١)، وهو الذي رواه لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه؛ وهذا إسناد تعجز عنه الأماني وتتقطع دونه الآمال"^(٢). وقال الجاحظ: "والدليل الواضح والشاهد القاطع قول النبي ﷺ: (نصرت بالصبا؛ وأعطيت جوامع الكلم^(٣))؛ وهو القليل الجامع للكثير"^(٤).

وقال الجاحظ: "لكننا أحببنا أن نصدر هذا الجزء^(٥) بكلام من كلام رسول رب العالمين، والسلف المتقدمين، والجلة من التابعين؛ الذين كانوا مصاييح الظلام، وقادة هذا الأنام، وملح الارض، وحلى الدنيا، والنجوم التي لا يضل معها الساري، والمنار الذي إليه يرجع الباغي، والحزب الذي كثر الله به القليل، وأعز به الذليل، وزاد الكثير في عدده، والعزيز في ارتفاع قدره، وهم الذين جلوا بكلامهم الأبصار العليلة، وشحدوا بمنطقهم الأذهان الكليلة؛ فنبهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها من سوء عادتتها، وشفوها من داء القسوة وغباوة الغفلة، وداووا من العي الفاضح، ونهجوا الطريق الواضح"^(٦).

وقال الجاحظ في بيان مكانة القرآن والسنة؛ وخطورة جحد ما نص عليه: "وليس ... الاستئثار بالفيء، واختيار الولاية على الهوى، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقربة، من جنس جحد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسُنن المنصوبة؛ وسواءً في باب ما يستحق من الإكفار؛ جحد الكتاب ورد السنة؛ إذ كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره، إلا أن أحدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه أشد"^(٧). وقال الجاحظ في بيان

(١) ما روي في قصة قس بن ساعدة موضوع. ينظر: الموضوعات لابن الجوزي ٢١٣/١. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٨٠٧ (٩/١٩٤): "رواه الطبراني والبخاري، وفيه محمد بن الحجاج اللخمي وهو كذاب".

(٢) البيان والتبيين؛ تحقيق: عبد السلام هارون (١/٥٢).

(٣) الجزء الأول من الحديث رواه البخاري (٩٨٨) ومسلم برقم (٩٠٠). والجزء الثاني في صحيح مسلم برقم (٥٢٣).

(٤) البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ٢٩/٤.

(٥) الجزء الثاني من البيان والتبيين حسب ترتيب المصنف. ينظر: ٥/٢.

(٦) البيان والتبيين ٦-٥/٢.

(٧) رسالة في الرد على النابتة ضمن مجموع رسائل الجاحظ تحقيق هارون ١٨/٢.

مكانة العقل ودوره في فهم النصوص: "وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس؛ وحكم باطن للعقول؛ والعقل هو الحجة^(١)". وقال: "والحجة حجتان: عيان ظاهر، وخبر قاهر؛ فإذا تكلمنا في العيان وما يفرع منه، فلا بد من التعارف في أصله وفرعه منه؛ ولا بد من التصديق في أصله، والتعارف في فرعه؛ فالعقل هو المستدل، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل، وكون الاستدلال مع عدم الدليل؛ والعقل مضمن بالدليل، والدليل مضمن بالعقل، ولا بد لكل واحد منهما من صاحبه، وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر؛ والعقل نوع واحد، والدليل نوعان: أحدهما شاهد عيان يدل على غائب، والآخر مجيء خبر يدل على صدق؛ ثم رجع الكلام إلى الإخبار عن دلائل النبي ﷺ وأعلامه، والاحتجاج لشواهد وبرهانه^(٢)".

ومن جملة هذه النصوص المتظافرة: نرى طريقة الجاحظ في الاحتجاج بالأدلة؛ وعلى رأسها: الكتاب، والسنة، والإجماع، وحجج العقل، أو القياس على أصل في كتاب الله؛ فاعتبر جحد الكتاب ورد السنة؛ سبباً لاستحقاق وصف الكفر؛ إذا كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره، إلا أن أحدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه أشد^(٣).

ولذلك قال أبو الحسين الخياط المعتزلي في بيان دور الجاحظ في الاحتجاج للقرآن والسنة: "لا يعرف المتكلمون أحدا منهم نصر الرسالة، واحتج للنبوة؛ بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ؛ ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد ﷺ على نبوته غير كتاب الجاحظ؛ وهذه كتبه في إثبات الرسالة؛ وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة^(٤)".

كما يتبين من سياق كلام الجاحظ وترجيحاته: أن للإجماع عنده معنى خاص يختلف عن معناه عند الأصوليين؛ فعلى الرغم من أنه يحكي إجماع الأمة؛ فهو ينتهي في رسالته إلى أن الأولى بالإمامة هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٥)؛ وهذا من

(١) الحيوان ٢٠٧/١.

(٢) حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ تحقيق هارون ٣/ ٢٢٦.

(٣) ينظر: رسالة في الرد على النابتة ضمن مجموع رسائل الجاحظ تحقيق هارون ١٨/٢.

(٤) ينظر: كتاب الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد؛ لأبي الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط؛ تحقيق: الدكتور نبيرج، مطبعة دار الكتب المصرية ١٢٤٤، ص ١٥٤.

(٥) رسالة الترجيح والتفضيل ضمن مجموع رسائل الجاحظ تحقيق د محمد الحاجري ص ٦٢.

المعروف أنه خلاف الإجماع تماما؛ ومن الظاهر أن الجاحظ يتبنى قول النظام في الإجماع؛ وهو أن الإجماع كل قول قام الدليل على حجيته؛ ولو كان قول واحد؛ ولهذا اعتبر القاضي عبد الجبار أن المعتزلة هم المتمسكون بالسنة والجماعة؛ والجماعة: ما أجمعت عليه الأمة وثبت ذلك من إجماعها؛ وهو ما وافق طاعة وإن كان رجلا واحدا^(١).

قال الغزالي: "وذهب النظام إلى أن الإجماع عبارة عن كل قول قامت حجته؛ وإن كان قول واحد؛ وهو على خلاف اللغة والعرف، لكنه سؤاه على مذهبه؛ إذ لم ير الإجماع حجة، وتواتر إليه بالتسامح تحريم مخالفة الإجماع؛ فقال: هو كل قول قامت حجته"^(٢).

وكذلك قوله بالقياس؛ فهو يشترط الأخذ بالقياس الذي نص على أصله في كتاب الله؛ وهذا القول هو مطابق لقول أبي هاشم الجبائي: في أنه لا يجوز القياس على أصل لم ينص على حكمه في الجملة^(٣).

وتظهر أيضا مكانة العقل عند الجاحظ باعتباره حجة من حجج الشرع ومصدرا من مصادر الأحكام؛ وإن كان يتبين من سياقه للكلام أنه يجعل العقل في مرتبة متأخرة عن الكتاب والسنة؛ "فالعقل هو المستدل، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل، وكون الاستدلال مع عدم الدليل. والعقل مضمن بالدليل، والدليل مضمن بالعقل، ولا بد لكل واحد منهما من صاحبه، وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر؛ والعقل نوع واحد"^(٤).

- (١) ينظر: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، عبد الجبار بن أحمد، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، ص ١٨٧.
- (٢) المستصفى ١/١٢٧. وينظر التفصيل في قول النظام ومن تابعه في الإجماع وحجته: إبراهيم بن سيار النظام وأراؤه الكلامية والفلسفية؛ محمد عبد الهادي أبو ريده؛ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ القاهرة؛ ١٣٦٥ هـ. ص ١٨.
- قلت: وعلى هذا يحمل التردد بين إثبات بعض المصطلحات حيناً ونفيها حيناً آخر عند بعض المعتزلة؛ فهم يثبتونها بمعنى وينفونها بمعنى آخر.
- (٣) قال محقق كتاب شرح العمدة: الشيخ عبد الحميد أبو زنيد تعليقا على نقل أبي الحسين البصري هذا القول عن أبي هاشم: "لم أجد في كتب أصول الفقه التي اطلعت عليها؛ أن أحدا تابع أبا هاشم على قوله هذا؛ سوى ما نقله ابن النجار في شرح الكوكب المنير عن أبي زيد الدبوسي. ينظر: شرح العمدة؛ لأبي الحسين البصري محمد بن علي الطيب، تحقيق عبد الحميد أبو زنيد؛ دار المطبعة السلفية بالقاهرة؛ الطبعة الأولى ١٤١٠-١٢٩/٢. شرح الكوكب المنير ٤/١١٢؛ آراء المعتزلة الأصولية ص ٢٩٢.
- (٤) حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ تحقيق هارون ٣/٢٢٦.

وعلى الرغم من هذا فإنه يتبين من خلال تناوله لبعض الأحاديث والسنن؛ أنه إذا توهم وجود تعارض بين الخبر والعقل؛ فإنه يقدم العقل جريا على طريقة المعتزلة؛ إما بتأويل الأحاديث؛ أو ردها وتضعيفها؛ أو الطعن في روايتها؛ ومن ذلك طعنه في حديث نفخ الوزغ على إبراهيم؛ قال الجاحظ: "جَهَّالُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَقْتُلُونَ الْوَزْغَ عَلَى أَنَّ آبَاءَهَا وَأُمَّهَاتَهَا كَانَتْ تَنْفُخُ عَلَى نَارِ إِبْرَاهِيمَ وَتَقُلُّ إِلَيْهَا الْحَطْبُ؛ فَأَحْسَبُ أَنَّ آبَاءَهُ وَأُمَّهَاتَهَا قَدْ كُنَّ يَعْرِفْنَ فَصْلَ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُنْتَبِيِّ؛ وَأَنَّهُنَّ اعْتَقَدْنَ عداوةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى تَقْصِيرٍ فِي أَصْلِ النَّظَرِ؛ أَوْ عَنِ مَعَانِدَةِ بَعْدِ الْإِسْتِبَانَةِ حَتَّى فَعَلْنَ ذَلِكَ؛ كَيْفَ جَازَ لَنَا أَنْ تَزُرَّ وَازِرَةٌ وَوَزْرٌ أُخْرَى؛ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا أَنَّ هَذِهِ الَّتِي نَقَلْتَهَا هِيَ تِلْكَ الْجَا حِدَةُ لِلنَّبِوَةِ وَالْكَافِرَةِ بِالرَّبِوِيَّةِ؛ وَأَنَّهَا لَا تَتَنَاقَحُ وَلَا تَتَوَالِدُ؛ وَقَدْ يَسْتَقِيمُ فِي الْأَمْرِ أَنْ تَقْتُلَ أَكْثَرُ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ؛ إِمَّا مِنْ طَرِيقِ الْمِحْنَةِ وَالتَّعْبُدِ. وَإِمَّا إِذْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَضَى عَلَى جَمَاعَتِهَا الْمَوْتَ أَنْ يَجْرِيَ ذَلِكَ الْمَجْرَى عَلَى أَيْدِي النَّاسِ؛ كَمَا أَجْرَى مَوْتَ جَمِيعِ النَّاسِ عَلَى يَدِ مَلِكٍ وَاحِدٍ؛ وَهُوَ مَلِكُ الْمَوْتِ؛ وَبَعْدَ فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ هَذَا الْقَوْلُ (١) إِنْ كَانَ قَالَهُ؛ عَلَى الْحِكَايَةِ لِأَقَاوِيلِ قَوْمٍ؛ وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ عَلَى مَعْنَى كَانَ يَوْمئِذٍ مَعْلُومًا؛ فَتَرَكَ النَّاسُ الْعِلَّةَ وَرَوَا الْخَبَرَ سَالِمًا مِنَ الْعِلْلِ مَجْرَدًا غَيْرَ مَضْمَنٍ؛ وَلَعَلَّ مَنْ سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ شَهِدَ آخَرَ الْكَلَامِ وَلَمْ يَشْهَدْ أَوَّلَهُ؛ وَلَعَلَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَصَدَ بِهَذَا الْكَلَامِ إِلَى نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قَدْ كَانَ دَارَ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَهُ فِيهِ شَيْءٌ وَكُلُّ ذَلِكَ (٢) (٣). فَكُلُّ هَذِهِ الْإِيرَادَاتِ وَالْأَحْتِمَالَاتِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى عَدَمِ مَوَافَقَةِ الْعَقْلِ - كَمَا يَظُنُّ الْجَا حِظُ - لِلْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ الْأَمْرُ بِقَتْلِ الْوَزْغِ (٤)

قال ابن السمعاني تعليقا على طريقة المعتزلة في رد الأحاديث بدعوى مخالفتها للعقل: "وأما مخالفونا فجعلوا قاعدة مذاهبهم: المعقولات والآراء؛ وبنوا الكتاب والسنة وطلبوا التأويلات المستكرهة، وركبوا كل صعب وذلول، وسلكوا كل وعر وسهل، وأطلقوا أعنة عقولهم كل الإطلاق؛ فهجمت بهم كل مهجم وعثرت بهم كل عناء؛ ثم إذا لم

(١) حديث الأمر بقتل الوزغ وتعليقه ثابت في الصحاح. فينظر: صحيح البخاري (٢٣٥٩)؛ وصحيح مسلم

برقم (٢٢٣٧).

(٢) أي وكل ذلك محتمل في الحديث.

(٣) الحيوان ١ / ٣٠٥.

(٤) ولذلك كتب ابن قتيبة الدينوري كتابه: تأويل مختلف الحديث؛ للرد خصوصا على المعتزلة ومنهم الجاحظ في ردهم الأخبار بدعوى مخالفتها للعقل.

يجدوا وجهاً للتأويل طلبوا رد السنة بكل حيلة يحتالونها ومكيدة يكيدونها؛ ليستقيم وجهة رأيهم ووجهة معقولهم؛ فقسّموا الأقسام ونوعوا الأنواع وعرضوا الأحاديث عليها؛ فما لم يوافقها ردها وأسأوا الظن بنقلتها ورموهم بما نزههم الله تعالى عنه^(١).

وهذا الموقف من الجاحظ فيه قدر كبير من التأثير بموقف شيخه النظام^(٢).

وأما من جهة العلاقة بين الكتاب والسنة؛ ومكانة السنة بالنظر للكتاب؛ فالجاحظ يرى أن القرآن فوق السنة مع حجيتها. قال الجاحظ: "قال تعالى: (فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ) [المائدة: من الآية: ٤]. فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَعْظُمُ بِهِ فِي عَيْنِكَ إِمْسَاكُهُ عَلَيْكَ؛ وَهَكَذَا يَقُولُ أَصْحَابُ الصَّيْدِ: إِنَّ كُلَّ صَائِدٍ فَإِنَّمَا يُمْسِكُ عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا الْكَلْبَ؛ فَإِنَّهُ يُمْسِكُ عَلَى صَاحِبِهِ؛ وَلَوْ كَانَ الْجَوَابُ لَزِيدَ الْخَيْلِ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَانَ فِي ذَلِكَ الرَّفْعَةُ؛ فَكَيْفَ وَالْكِتَابُ فَوْقَ السُّنَّةِ"^(٣).

وبناء على ذلك فقد فضل الجاحظ الكلب على السنور؛ باعتبار أن الكلب ذكر في القرآن بخلاف الهر^(٤).

كما يظهر احتجاج الجاحظ واعتداده بالأخبار؛ ولاسيما إذا كانت مروية بالتواتر والعدد الكثير الذي لا يمكن أن يتفقوا معه على الكذب. قال الجاحظ: "على أن العدد الكثير المختلفي العلل، المتضادي الأسباب، المتفاوتي الهمم، لا يتفقون على تخصص الخبر في المعنى الواحد، وكما لا يتفقون على الخبر الواحد على غير التلاقي والتراسل إلا وهو حق؛ فكذلك لا يمكن مثلهم في مثل عللهم التلاقي عليه، والتراسل فيه. ولو كان تلاقيهما ممكناً، وتراسلهم جائزاً لظهر ذلك وفشا، واستفاض وبدا. ولو كان ذلك أيضاً ممكناً، وكان قولاً متوهماً لبطلت الحجة، ولنقضت العادة، وفسدت العبرة، ولعادت النفس بعلّة الأخبار جاهلية، ولكان للناس على الله أكبر الحجة. وقد قال الله جل وعز: (لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) [النساء: من الآية ١٦٥]؛ إذ كلفهم طاعة رسله، وتصديق

(١) قواطع الأدلة في الأصول؛ للسمعاني (١/ ٣٧٠). وينظر: إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية ص ٣٠.

(٢) ينظر: المرجع السابق.

(٣) الحيوان ٢/ ٢٠٥.

(٤) ينظر: المرجع السابق.

أنبيائه ورسله وكتبه، والإيمان بجنته وناره، ولم يضع لهم دليلاً على صدق الأخبار، وامتناع الغلط في الآثار، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(١).

كما كان الجاحظ مهتماً بمسألة طريقة الرواية بين الرواية باللفظ والرواية بالمعنى؛ فقال: "وقال ابن عون (١٥٠ هـ): أدركت ثلاثة يتشددون في السماع، وثلاثة يتساهلون في المعاني. فأما الذين يتساهلون: فالحسن^(٢)، والشعبي^(٣)، والنخعي^(٤)، وأما الذين يتشددون: فمحمد بن سيرين^(٥)، والقاسم بن محمد^(٦)؛ ورجاء بن حيوة^(٧)". كما كان له آراء نقدية في رواية الحديث؛ ومن تقبل روايته ومن ترد روايته؛ ولا سيما ممن عاصرهم؛ وتتفق آراء النقدية مع آراء أئمة الجرح والتعديل؛ ولا سيما من ذكرهم من أهل السير والأخبار؛ فقال: "ما هو إلا أن ولد أبو مخنف^(٨) حديثاً، أو الشرقي بن القطامي^(٩)، أو الكلبي^(١٠)، أو ابن الكلبي^(١١)؛ أو لقيط المحاربي^(١٢)، أو شوكر^(١٣)؛ أو عطاء

- (١) حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ: تحقيق هارون ٢/ ص ٢٤١.
- (٢) هو الحسن بن أبي الحسن البصري؛ الورع العابد الثقة توفى سنة ١١٠ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٢.
- (٣) هو عامر بن شراحيل الشعبي؛ تابعي من الثقات الأثبات توفى سنة ١٠٠ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٩٤.
- (٤) هو إبراهيم بن يزيد النخعي؛ من كبار التابعين المحدثين الفقهاء. توفى سنة ٩٦ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٢٠.
- (٥) هو أبو بكر محمد بن سيرين الأنصاري البصري؛ من الثقات الورعين الأثبات. توفى سنة ١١٠ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠٦.
- (٦) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق؛ فقيه وإمام مكث من الحديث. توفى سنة ١٠٧ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء ٥/ ٥٣.
- (٧) البيان والتبيين تحقيق هارون ٢/ ٢٢٢. ورجاء بن حيوة هو بن جرول الكندي ثقة فاضل كثير العلم من عباد أهل الشام؛ توفى سنة ١١٢ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥٧. وينظر كلام الأصوليين في مسألة الرواية باللفظ أو المعنى: الرسالة للشافعي ص ٢٧٤، أصول السرخسي ١/ ٣٥٥؛ العدة ٣/ ٩٦٩.
- (٨) أبو مخنف هو لوط بن يحيى الأزدي إخباري من أهل الكوفة؛ ومات قبل سنة ١٧٠ هـ. قال فيه ابن حجر في لسان الميزان (٤/ ٤٩٢): "إخباري تالف لا يوثق به؛ وقال ابن عدى: شيعي محترق صاحب أخبارهم". وينظر: البيان والتبيين ١/ ٣٦١.
- (٩) القطامي هو الوليد بن الحصين بن حمال؛ من أهل الأدب والرواية والمعرفة بالأنساب. ينظر: البيان والتبيين ١/ ٣٦٠.
- (١٠) هو أبو النضر محمد بن السائب الكلبي الكوفي النسابة المفسر؛ توفى بالكوفة سنة ١٤٦ هـ. ينظر: البيان والتبيين ١/ ٢٤٢، لسان الميزان ٧/ ٣٥٩.
- (١١) هو أبو المنذر هشام بن محمد النسابة؛ المتوفى سنة ٢٠٤ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٠١.
- (١٢) هو لقيط بن بكر المحاربي الكوفي المتوفى سنة ١٩٠ هـ. ينظر: البيان والتبيين ٢/ ١٦٢؛ الفهرست ١/ ١٣٨.
- (١٣) أحد الإخباريين الوضاعين الشيعة كان في المائة الثانية. قال ابن حجر عنه في لسان الميزان (٣/ ١٥٨): "شوكر: إخباري مؤرخ لا يعتمد عليه؛ شيعي كان في المائة الثانية".

الملط^(١)، أو ابن دأب^(٢)، أو أبو الحسن المدائني^(٣)، ثم صوره في كتاب، وألقاه في الوراقين، إلا رواه من لا يحصل ولا يتثبت ولا يتوقف؛ وهؤلاء كلهم يتشيعون... ومن أراد الأخبار فليأخذها عن مثل قتادة^(٤)... وأبي عاصم النبيل^(٥).....^(٦)؛ فإن هؤلاء وأشباههم مأمونون، وأصحاب توق وخوف من الزوائد، وصون لما في أيديهم، وإشفاق على عدالتهم^(٧)."

ويلاحظ هنا منهج الجاحظ في قبول الرواية وردّها؛ فمن اشتهر بالكذب والوضع وعدم المبالاة بالعدالة؛ فروايته غير مقبولة؛ كما أشار الجاحظ إلى كون هؤلاء غالبهم ممن يتشيع؛ أو ممن عرف بالتساهل وعدم المبالاة بالضبط والإتقان، ثم أشار بالمقابل إلى أهل الضبط والإتقان والخوف على العدالة والتوقي؛ مما يؤثر في الرواية؛ وأن هؤلاء هم من ينبغي أن تؤخذ عنهم الأخبار؛ وما قرره الجاحظ هنا في وجوب التثبت واشتراط العدالة لقبول الرواية يتفق مع مذهب الكافة من العلماء وحكي الاتفاق عليه^(٨).

- (١) من الشعراء المعاصرين لبشار بن برد وله معه أخبار؛ ومعنى الملط: الخبيث. ينظر: الأغاني ٢/٢٢٣.
- (٢) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب النسابة الإخباري؛ وكان متهما بوضع الحديث. قال عنه ابن حجر في لسان الميزان (٤/٤٠٨): "كان إخباريا علامة نسابة؛ لكن حديثه واه؛ قال خلف الأحمر: كان يضع الحديث، وقال البخاري وغيره: منكر الحديث".
- (٣) هو أبو الحسن علي بن محمد المدائني؛ صاحب أخبار وتصانيف كثيرة؛ توفى سنة ٢١٥ هـ. ينظر: الفهرست ١/١٤٧.
- (٤) هو قتادة بن دعامة السدوسي؛ من المحدثين الحفاظ الأثبات؛ وتوفى سنة ١١٨ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء ٥/٢٦٩.
- (٥) هو أبو عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني البصري؛ من الفقهاء الثقات الكثيرين للحديث؛ توفى سنة ٢١٣ هـ. ينظر: لسان الميزان ٧/٢٤٩.
- (٦) ساق الجاحظ جملة من الرواة والإخباريين الذين اشتهروا بالصدق والعدالة.
- (٧) رسالة البغال للجاحظ ضمن مجموع الرسائل تحقيق عبد السلام هارون ٢/٢٢٥-٢٢٨ ص ٢٩، ٢٨، ٢٧.
- (٨) وقد ترجم المحقق للرواة المذكورين. ينظر: شرح مختصر الروضة ٢/١٤٢، البحر المحيط ٣/٣٢٣.

المبحث الخامس

النصوص في مكانة الصحابة

تظهر من عبارات الجاحظ التبجيل لفقهاء الصحابة؛ ويحيل بعض المسائل لقولهم واختيارهم ويعتبر اختياراتهم أصح من غيرهم؛ فقال: " وإن كان الأول أحق بالتقديم، والآخر أحق بالتأخير، للذي قدموا من الاحتمال، وأعطوا من المجهود، ولأنهم أصل هذا الأمر ونحن فرعه، والأصل أحق بالقوة من الفرع؛ وهم السابقون ونحن التابعون، وهم الذين وطئوا لنا، وكلفونا ما لم نكن لنكلفه أنفسنا، فتجرعوا دوننا المرار، ومنحونا روح الكفاية؛ ولأن الله تعالى اختارهم لصحبة نبيه ﷺ، ولأن القرآن نطق بفضيلتهم؛ والله تعالى أعلم بمن بعدهم^(١)". وقال عند ذكره لمسألة في البيوع: " وكره ابن عمر رضي الله عنهما قول القائل: أسلمت في كذا وكذا وقال: ليس الإسلام إلا لله عز وجل^(٢)؛ وهذا الكلام مجازُه عند الناس سهل؛ وقد كرهه ابنُ عمر وهو أعلم بذلك^(٣)".

ولا يلتزم الجاحظ هذا الموقف من الصحابة كلهم؛ بل يوجه أحيانا سهام النقد على طريقته في إظهار قدرته على الدفاع عن الرأي ونقيضه^(٤)؛ واقترابا من رأي أصحابه المعتزلة الذين يرون أن الصحابة عدول إلا من ظهر فسقه ولم يتب^(٥).

(١) رسالة حجج النبوة ضمن مجموع رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ٢/٢٢٨..

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه برقم (١٤١١٥).

(٣) الحيوان ١/٣٤١.

(٤) ينظر على سبيل المثال في تردد الجاحظ في مواقفة من الصحابة رضي الله عنهم: العثمانية؛ لجاحظ؛ تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون؛ الناشر: دار الجيل، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م، ورسالة من صدر كتابه في مقالة الزيدية والرافضة ضمن مجموع الرسائل تحقيق هارون ٤/٣١١. وقال ابن قتيبة في ترجمة الجاحظ: " وبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه؛ ويحتج لفضل السودان على البيضان؛ وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة، ومرة يفضل عليا رضي الله عنه ومرة يؤخره". تأويل مختلف الحديث ص ٥٩.

(٥) ينظر: مسائل أصول الدين المبحوثة في أصول الفقه. خالد عبد الله؛ نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية؛ الطبعة الأولى ١٤٢٦. ص ١٢٥٨ مابعدا. عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام؛ ناصر بن علي عائض حسن الشيخ؛ الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية؛ الطبعة الثالثة، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠ م. ٢/ ٨١٧.

المبحث السادس

التصوص في الاحتجاج بشرع من قبلنا

قال الجاحظ: " فقد أجمعوا على أن قتل البعض إحياء للجميع؛ وأن إصلاح الناس في إقامة جزاء الحسنه والسيئة؛ ولكم في القصاص حياة؛ والقود حياة؛ وهذا شيء تعمل به الأمم كلها؛ غير الزنادقة؛ والزنادقة لم تكن قط أمة ولا كان لها ملك ومملكة؛ ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق؛ فلا أنتم زنادقة، ولا ينكر لمن كان ذلك مذهبه أن يقول هذا القول؛ فأنتم لا دهرية، ولا زنادقة، ولا مسلمون، ولا أنتم راضون بحكم الله أيام التوراة؛ فإن كان هذا الحكم قد أمر الله به وهو عدل؛ فليس بين الزمانين فرق^(١) .

وهذا الاستدلال من الجاحظ على حجية شرع من قبلنا قائم على نفي الفارق بين زماننا وزمان موسى عليه السلام؛ باعتبار أن القود عدل وفيه إصلاح للناس؛ وما كان حسنا وصلاحا في الزمان الأول؛ فهو كذلك في الزمان الثاني.

قال القرأفي: " جميع شرائع الأمم شرع لنا، إلا ما نسخ، ولا فرق بين موسى وغيره^(٢) .

(١) الحيوان ٤/٤٣٢.

(٢) نفائس الأصول في شرح المحصول (٦/ ٢٣٧١).

المبحث السابع

التصوص في عمل أهل المدينة

من المسائل التي بحثها الجاحظ في رسائله: هي الأشربة ما يحل منها وما يحرم؛ فكتب فيها كتاباً أسماه: (الشارب والمشروب)؛ وانتهى فيه إلى حل النبيذ دون الخمر؛ ثم ذكر إيرادا في تحريم أهل المدينة للنبيذ ثم أجاب عنه؛ فقال: "ولعل قائلًا يقول: وأهل مدينة الرسول ﷺ وسكان حرمه ودار هجرته، أبصر بالحلال والحرام، والمسكر والخمر، وما أباح الرسول وما حظره، وكيف لا يكون كذلك والدين ومعامله من عندهم خرج إلى الناس؛ والوحي عليهم نزل، والنبي ﷺ فيهم دفن؛ وهم المهاجرون السابقون، والأنصار المؤثرون على أنفسهم. وكلهم مجمع على تحريم الأنبيذة المسكرة، وأنها كالخمر؛ وخلفهم على منهاج سلفهم إلى هذه الغاية، حتى إنهم جلدوا على الريح الخفي..."

وإننا نقول في ذلك: إن عظم حق البلدة لا يحل شيئاً ولا يحرمه^(١)، وإنما يعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق، والسنة المجمع عليها، والعقول الصحيحة، والمقاييس المصيبة... وبعد، فأهل المدينة لم يخرجوا من طبائع الإنس إلى طبع الملائكة^(٢).

ويلاحظ هنا أن ما ذكره الجاحظ في سياق الاستدلال لمن قال بحجية عمل أهل المدينة مطابق لما ذكره المستدلون به وبعبارات مقاربة؛ ف جاء في رسالة الإمام مالك بن انس (١٧٩ هـ)؛ للإمام الليث بن سعد (١٧٥ هـ)؛ في سياق الاحتجاج بعمل أهل المدينة: "وإنما الناس تبع لأهل المدينة: إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأحل الحلال وحرم الحرام، إذ رسول الله ﷺ بين أظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه، ويبين لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله، واختار له ما عنده، صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته؛ ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته، فما نزل بهم مما علموا أنفدوه؛ وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما

(١) جاءت عبارة أبي الحسين البصري في نفس السياق: "الأماكن لا تؤثر في كون الأقوال حجة". المعتمد (٣٤ / ٢).

(٢) رسالة الشارب والمشروب ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبد السلام هارون ص ٢٧٦ وما بعدها.

وجدوا في ذلك ، في اجتهادهم ، وحادثة عهدهم ، فإن خالفهم مخالف ، أو قال امرؤ غيره ما هو أقوى منه وأولى ، ترك قوله ، وعمل بغيره؛ ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون ذلك السبيل ويتبعون تلك السنن ، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به ، لم أر لأحد خلافه؛ للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها ، ولو ذهب كل أهل الأمصار يقولون : هذا العمل ببلدنا ، وهو الذي مضى عليه من مضى منا لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة ، ولم يجز لهم من ذلك مثل الذي جاز لهم^(١) . وقول الجاحظ موافق لقول جمهور العلماء في عدم حجية عمل أهل المدينة^(٢) .

(١) ينظر: المعرفة والتاريخ: أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي؛ (ت : ٢٧٧هـ)؛ المحقق : د أكرم العُمري؛ مؤسسة الرسالة - بيروت؛ الطبعة : الأولى ، ١٩٨١ ، (١ / ٦٩٦ وما بعدها) . الإشارة في أصول الفقه ص ٢٨؛ نفائس الأصول في شرح المحصول ٢٦٩٨/٦ .

(٢) ينظر: المعتمد ٢٤/٢؛ الواضح في أصول الفقه ١٨٣/٥؛ شرح مختصر الروضة ١٠٣/٣؛ الردود والنقود لابن البابر تي ١/٥٥٠ .

المبحث الثامن

النصوص فيما يتعلق بدلالات الألفاظ

وفيه مطالب:

المطلب الأول

النصوص في معنى البيان

الجاحظ من كبار أهل اللغة والبيان؛ وله اهتمام كبير بالألفاظ وارتباطها بالمعاني من جهة الشرع واللغة^(١)؛ ولذلك ألف كتابا يعتبر من العُمد في هذا الباب^(٢)؛ وهو كتاب: البيان والتبين؛ وكان من أولى المسائل التي ناقشها هو معنى البيان وأنواعه وما يحصل به البيان من الدلالات اللفظية او المعنوية.

فقال: "البيان: اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير؛ حتى يفضي السامع الى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان.

ثم اعلم حفظك الله: أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ؛ لأن المعاني مبسوسة إلى غير غاية؛ وممتدة إلى غير نهاية؛ وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة؛ وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال: وتسمى نصبة؛ والنصبة: هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات.

ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بأئنة من صورة صاحبها؛ وحلية مخالفة لحلية أختها؛ وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة؛ ثم عن حقائقها في التفسير

(١) تنظر دراسة موسعة حول قضية اللفظ وارتباطها بالمعنى عند المعتزلة عموما والجاحظ خصوصا وأبعاد ذلك. التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة؛ ٢٧٥-٤٠٥.

(٢) ينظر: البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبين، د محمد علي الصباغ، المكتبة العصرية بيروت؛ الطبعة الأولى ١٤١٨. ص ١١٣.

وعن أجناسها وأقذارها؛ وعن خاصها وعامها وعن طبقاتها في السار والضار؛ وعمما يكون منها لغوا بهرجا وساقطا مطرحا^(١).

ويلاحظ هنا حرص الجاحظ على بيان معنى البيان في مقدمة كتابه؛ فما سيأتي بعده مبني على فهم مدلول البيان ومعرفة أقسامه؛ وهو قريب مما فعله الإمام الشافعي في رسالته^(٢)؛ إذ ابتداء كتابه بباب: كيف البيان؟ ثم وضع معانيه العامة وذكر أقسامه وما يحصل به البيان^(٣)؛ وهذا ما جعل الإمام الزركشي يتعقب الغزالي في قوله: بأن عادة الأصوليين جرت على عقد كتاب له؛ والخطب فيه يسير^(٤)؛ فقال الزركشي: "وأمره ليس بالسهل؛ فإنه من جملة أساليب الخطاب؛ بل هو من أهمها؛ ولهذا صدر به الشافعي كتاب الرسالة"^(٥).

كما وضع الجاحظ ما يحصل به البيان من اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال وتسمى نصبة؛ وما ذكره هو موافق لما يذكره الأصوليون في باب البيان من حصوله بأي طريق؛ فقد يكون بالفعل أو الإشارة أو الرمز^(٦).

(١) البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ١/٧٤.

(٢) لا نجد في كتب الجاحظ كلها أي ذكر للإمام الشافعي؛ كما أنه يتحاشى ذكر الإمام أحمد باسمه - كما تقدم في حكايته للمناظرة المشهورة بين الإمام أحمد وابن أبي دؤاد - ويظهر لي أن الجاحظ اطلع على رسالة الإمام الشافعي واستفاد منها؛ وإن لم يصرح بذلك، وقد ذكر ابن قتيبة - تلميذ الجاحظ - كما في بعض نسخ كتابه: تأويل مختلف الحديث: "وذكر الشافعي بأقبح قول وقال: ما يصنع الناس بما وضع وصنع؛ هلا اشتغل بشعر جميل وكثير؛ كان أصلح له منها؛ وكان يشتمه بأقبح الشتم". تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة؛ تحقيق: سليم الهلالي؛ دار ابن عفان؛ الطبعة الثانية ١٤٢٠ ص ١٤٢. وقد نبه المحقق إلى أن الزيادة موجودة في بعض النسخ المرموز لها بالنسخة (ش).

والإعراض عن ذكر علماء السنة في كتب المعتزلة ظاهر؛ ولذلك نقل القاضي عبد الجبار بن أحمد في ترجمة الوليد بن أبي الوليد بن أحمد بن أبي دؤاد؛ أن له كتابا يسمى: كتاب الاختلاف والائتلاف، فنظر فيه أبو علي الجبائي وقال: ما فيه عيب إلا ذكره فيه ابن حنبل وابن راهويه. ينظر: طبقات المعتزلة ص ٢٠١ وما بعدها.

(٣) ينظر: الرسالة ص ٢١.

(٤) ينظر: المستصفي ط الرسالة ٢/٣٨.

(٥) ينظر: البحر المحيط للزركشي ٢/٦٤. وينظر: الرسالة للشافعي ص ٢١.

(٦) ينظر طرق البيان المختلفة: المستصفي ط الرسالة ٢/٢٩. شرح مختصر الروضة ٢/٦٧٨، البحر المحيط ٢/٦٧، أفعال الرسول ﷺ ودلائلها على الأحكام الشرعية، محمد بن سليمان بن عبد الله الأشقر؛ الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان. الطبعة: السادسة، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م. ١/٨٨ وما بعدها، التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة ص ٨٥ وما بعدها.

المطلب الثاني

النصوص في العمل بالعام والخاص والمطلق والمقيد

يحاول الباحثون في علم أصول الفقه وتاريخه التماس البدايات الأولى لظهور المصطلحات الأصولية؛ كالعام، والخاص، والمطلق، والمقيد، والبيان، والمجمل^(١)... ومن خلال قراءة ما ذكره الجاحظ في كتبه المختلفة نجد حضوراً لهذه المصطلحات؛ وتوظيفاً لها بما يدل على معناها الأصولية وتطبيقاتها عند الأصوليين؛ ومن ذلك مصطلحات العام والخاص والمطلق والمقيد.

وقد نبه الجاحظ على أن الجهل بمعاني كلام العرب سبب للهلاك والإهلاك؛ فقال: " فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم؛ وتلك الألفاظ مواضع آخر ولها حينئذ دلالات آخر؛ فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل؛ فإذا نظر في الكلام، وفي ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن؛ هلك وأهلك!"^(٢).

ومن ذلك قول الجاحظ مستدلاً على زوال ثمود، وانقراض نسلهم؛ وتزييف قول من قال ببقاءهم: " فأما ثمود: فقد خبر الله عز وجل عنهم؛ فقال: (وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى) [النجم: ٥١]. وقال: (فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ) [الحاقة: ٨]؛ فأنا أعجب من مسلم يصدق بالقرآن، ويزعم أن في قبائل العرب من بقايا ثمود! وكان أبو عبيدة (٢٠٩ هـ)^(٣) يتأول قوله: (وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى) [النجم: ٥١]. أن ذلك إنما وقع على الأكثر وعلى الجمهور الأكبر!^(٤)

(١) ينظر: علم أصول الفقه من التدوين إلى نهاية القرن الرابع الهجري ص ٩٢ وما بعدها.

(٢) الحيوان ١/١٥٤. وقريب منه ما قرره الإمام الشافعي في الرسالة؛ في بيان أهمية اللغة ومعرفة دلالاتها؛ فقال: " فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها؛ وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً يراد به العام الظاهر، ويستغني بأول هذا منه عن آخره؛ وعاماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص... فتكلف القول في علمها تكلف ما جهل بعضه. ومن تكلف ما جهل وما لم تثبته معرفته: كانت موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه - غير محمود، والله أعلم؛ وكان بخطئه غير معذور، إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه". الرسالة ص ٥١-٥٢.

(٣) أبو عبيدة معمر بن المثنى وهو من شيوخ الجاحظ.

(٤) ووجه تأويل أبي عبيدة: هو احتمال أن يكون بعض ثمود ممن آمن؛ فيكون الاستئصال خاصاً بمن كفر

وهذا التأويل أخرجه من أبي عبيدة سوء الرأي في القوم؛ وليس له ان يجيء الى خبر عام مرسل غير مقيد، وخير مطلق غير مستثنى منه؛ فيجعله خاصا كما مستثنى منه؛ وأي شيء بقي لطاعن أو متأول بعد قوله: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]. فكيف يقول ذلك؟ إذا كنا نحن قد نرى منهم في كل حي باقية؛ معاذ الله من ذلك (١).

وروا أن الحجاج (٩٥ هـ) قال يوما على المنبر: يزعمون أنا (٢) من بقايا ثمود؛ وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتُؤَمِّدُ فَمَا أَبْقَى﴾ [النجم: ٥١] (٣)!

وقال الجاحظ: "وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ﴾ [يس: من الآية ٦٩]؛ ثم قال: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: من الآية ٦٩]؛ ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥-٢٢٦]؛ فعم ولم يخص وأطلق ولم يقيد (٤)!"

وقال الجاحظ استدلالا لمن أجاز رؤية الله بقوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: من الآية ١٠٣]: "وقلت هذه الآية مبهمة؛ وخرجت مخرج العموم والعام غير الخاص؛ وقد صدقتم؛ كذلك العام إلى أن يخصه الله بآية (٥)!"

والملاحظ هنا هو استعمال الجاحظ للعام والمطلق بمعنى واحد وهو يتفق مع ما ذكره الأصوليون من استعمال المتقدمين لهذين المصطلحين بمعنى واحد (٦).

منهم. ينظر هذا القول: نكت وتنبهات في تفسير القرآن المجيد؛ أبو العباس اليسلي التونسي (المتوفى ٨٣٠ هـ) مما اختصره من تقييده الكبير عن شيخه الإمام ابن عرفة (ت ٨٠٣ هـ) وزاد عليه: تقديم وتحقيق: الأستاذ / محمد الطبراني؛ منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية؛ مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء؛ الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م. ٦٧٠/٣؛ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني؛ محمود الألوسي أبو الفضل؛ الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت. (٧٠/٢٧).

(١) ولذلك حمل جمهور المفسرين الآية على عمومها دون استثناء. ينظر: المرجعين السابقين.

(٢) يعني قبيلته تضيف.

(٣) البيان والتبيين تحقيق هارون ١/١٨٧-١٨٨.

(٤) يعني في ذم الشعراء. ينظر: البيان والتبيين تحقيق هارون ٤/٢٩.

(٥) مالم ينشر من تراث الجاحظ، تحقيق الدكتور: عثمان الضامن، منشورات وزارة الثقافة العراقية ١٩٧٩ م. ص ١٢.

(٦) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٣٩١.

وقال الجاحظ في سياق توظيف مسائل العموم والخصوص في دفع التعارضات والإشكالات: "وسأل سائلون في تحريم الخنزير عن مسألة؛ فمنهم من أراد الطعن؛ ومنهم من أراد الاستفهام، ومنهم من أحب أن يعرف ذلك من جهة الفتيا؛ إذ كان قوله خلاف قولنا^(١)."

قالوا: إنما قال الله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ [المائدة: من الآية ٣]؛ فذكر اللحم دون الشحم، ودون الرأس، ودون المخ، ودون العصب، ودون سائر أجزائه، ولم يذكره كما ذكر الميتة بأسرها، وكذلك الدم؛ لأن القول وقع على جملتهما فاشتمل على جميع خصالهما بلفظ واحد، وهو العموم؛ وليس ذلك في الخنزير؛ لأنه ذكر اللحم من بين جميع أجزائه، وليس بين ذكر اللحم والعظم فرق، ولا بين اللحم والشحم فرق، وقد كان ينبغي في قياسكم هذا لو قال: حرمت عليكم الميتة والدم وشحم الخنزير! أن تحرموا الشحم وإنما ذكر اللحم؛ فلم حرمت الشحم؟ وما بالكم تحرمون الشحم عند ذكر غير الشحم؛ فهلا حرمت اللحم بالكتاب وحرمت ما سواه بالخبر الذي لا يدفع. فإن بقيت خصلة أو خصلتان مما لم تصيبوا ذكره في كتاب منزل وفي أثر لا يدفع؛ رددتموه إلى جهة العقل.

قلنا: إن للناس عادات وكلاما يعرف كل شيء بموضعه؛ وإنما ذلك على قدر استعمالهم له وانتفاعهم به؛ وقد يقول الرجل لوكيله: اشتر لي بهذا الدينار لحما، أو بهذه الدراهم فيأتيه باللحم؛ فيه الشحم، والعظم، والعرق^(٢)، والعصب، والفضروف، والفؤاد، والطحال، والرئة، وبيعض أسقاط الشاة، وحشو البطن؛ والرأس لحم، والسّمك أيضا لحم، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا

(١) نقل ابن قتيبة عن بعض المتكلمين بعض الآراء الشاذة؛ فقال: "وبلغني أن من أصحاب الكلام من يرى

الخمير غير محرمة؛ وأن الله تعالى إنما نهى عنها على جهة التأديب... ومنهم من يرى شحم الخنزير وجلده حلالا؛ لأن الله تعالى إنما حرم لحمه في القرآن؛ فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]. فلم يحرم شيئا غير لحمه". تأويل مختلف الحديث: تحقيق النجار (ص: ٦٠).

(٢) جاء في تاج العروس من جواهر القاموس (١٣٦/٢٦): "والعرق بالفتح. والعراق كغراب: العظم الذي أكل لحمه، وقيل: أخذ معظم اللحم وهبره وبقي عليها لحوم رقيقة طيبة، فتكسر وتطبخ، وتؤخذ إهابتها من طفاحتها، ويؤكل ما على العظام من لحم رقيق وتتمشش العظام، ولحمها من أطيب اللحم".

مَنْهُ حَلِيَّةٌ تَلْبَسُونَهَا ﴿[النحل: من الآية ١٤]؛ فَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ ذَهَبَ إِلَى الْمُسْتَعْمَلِ مِنْ ذَلِكَ؛ وَتَرَكَ بَعْضَ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ لَحْمٍ، فَقَدْ أَخَذَ بِمَا عَلَيْهِ صَاحِبِهِ؛ فَإِذَا قَالَ: حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ لَحْمًا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: لَحْمَ الشَّاةِ وَالْجَزُورِ؛ وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: أَكَلْتُ لَحْمًا؛ وَإِنَّمَا أَكَلَ رَأْسًا، أَوْ كَبِدًا، أَوْ سَمَكًا، لَمْ يَكُنْ كَاذِبًا؛ وَلِلنَّاسِ أَنْ يَضَعُوا كَلَامَهُمْ حَيْثُ أَحْبَبُوا إِذَا كَانَ لَهُمْ مَجَازٌ إِلَّا فِي الْمَعَامَلَاتِ.

فإن قلت: فما تقول في الجلد؟ فليس للخنزير جلد، كما أنه ليس للإنسان جلد، إلا بقطع ما ظهر لك منه بما تحته، وإنما الجلد ما يسلك ويدحس فيتبرأ مما كان به ملتزقا ولم يكن ملتحما، كفروق ما بين جلد الحوصلة والعرقين؛ فإن سألت عن الشعر، وعن جلد المنخقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع؛ فإني أزعم أن جلده لا يدبغ ولا ينتفع به إلا الأساكفة؛ والقول في ذلك: أن كله محرم؛ وإنما ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمئذٍ دُبْرَهُ﴾ [الأنفال: من الآية ١٦]؛ وكقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، وجزء من الآية ٢٤]؛ والعرب تقول للرجل الصانع نجارا: إن كان لا يعمل بالمتقب والمنشار ونحوه، ولا يضرب بالمضلع ونحو ذلك، وتسميه خبازا: إذا كان يطبخ ويعجن، وتسمى العير لطيمة^(١): وإن لم يكن فيها ما يحمل العطر إلا واحد؛ وتقول: هذه ظعن فلان للهوارج: إذا كانت فيها امرأة واحدة؛ ويقال: هؤلاء بنو فلان؛ وإن كانت نساؤهم أكثر من الرجال؛ فلما كان اللحم هو العمود الذي إليه يقصد وصار في أعظم الأجزاء قدرا؛ دخل سائر تلك الأجزاء في اسمه؛ ولو كان الشحم معتزلا من اللحم ومفردا في جميع الشحام؛ كشحوم الكلى والثروب^(٢): لم يجز ذلك؛ وإذا تكلمت على المفردات: لم يكن المخ لحما لا الدماغ، ولا العظم، ولا الشحم، ولا الغضروف، ولا الكروش، ولا ما أشبه ذلك؛ فلما قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ [المائدة: من الآية ٣]؛ وكانت هذه الأشياء المشبهة باللحم تدخل في باب العموم في اسم اللحم كان القول واقعا على الجميع^(٣).

(١) اللطيمة: هي العير التي تحمل الطيب وبز التجارة. تاج العروس من جواهر القاموس (٢٣/ ٤٢٤).
 (٢) في تاج العروس من جواهر القاموس (٨٣/ ٢): "الشرب: شحم رقيق يغشي الكرش والأمعاء (وقيل: هو الشحم المبسوطة على الأمعاء والمصارين)."
 (٣) ينظر: الحيوان ٤/ ٧٤-٧٧.

وقال الجاحظ في مثال آخر: "وقد قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مِمَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مِمَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مِمَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [النور: من الآية ٤٥]. وقد وضع الكلام على قسمة أجناس الحيوان، وعلى تصنيف ضروب الخلق، ثم قصر عن الشيء الذي وضع عليه كلامه؛ فلم يذكر ما يطير، وما يعوم، ثم جعل ما ينساح مثل: الحيات، والديدان مما يمشي، والمشي لا يكون إلا برجل، كما أن العض لا يكون إلا بضم، والرمح لا يكون إلا بحافر، وذكر ما يمشي على أربع، وها هنا دواب كثيرة تمشي على ثمان قوائم وعلى ست وعلى أكثر من ثمان! ومن تفقد قوائم السرطان وبنات وردان وأصناف العناكب عرف ذلك.

قلنا: قد أخطأتم في جميع هذا التأويل وحده؛ فما الدليل على أنه وضع كلامه في استقصاء أصناف القوائم، وبأي حجة جزتمت على ذلك؛ وقد قال الله سبحانه عز وجل: ﴿وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: من الآية ٢٤]؛ وترك ذكر الشياطين والنار لهم أكل، وعذابهم بها أشد؛ فترك ذكرهم من غير نسيان وعلى أن ذلك معلوم عند المخاطب.

وقد قال الله عز وجل: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [فاطر: من الآية ١١]؛ أخرج من هذا العموم عيسى ابن مريم؛ وقد قصد في مخرج هذا الكلام إلى جميع ولد آدم؛ وقال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]؛ أدخل فيها آدم وحواء؛ ثم قال على صلة الكلام: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: من الآية ٢]؛ أخرج منها آدم وحسن ذلك؛ إذ كان الكلام لم يوضع على جميع ما تعرفه النفوس من جهة استقصاء اللفظ؛ فقولته: ﴿فَمِنْهُمْ مِمَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مِمَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مِمَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ [النور: من الآية ٤٥]؛ كان على هذا المثال الذي ذكرنا؛ وعلى أن كل شيء يمشي على أربع؛ فهو مما يمشي على رجلين؛ والذي يمشي على ثمان؛ هو مما يمشي على أربع وعلى رجلين^(١).

وقال الجاحظ في سياق التمثيل للعموم؛ ونقاشه لمن لا يحمل العموم على عمومته؛ وخطئه في ذلك: "لو أن إنساناً سمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَغْيِرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾

[النساء: من الآية ١١٩]. قال: إنما يعني الخصاص: لم يقبل ذلك منه؛ لأن اللفظ ليست فيه دلالة على شيء دون شيء؛ وإذا كان اللفظ عاماً لم يكن لأحد أن يقصد به إلى شيء بعينه؛ إلا أن يكون النبي ﷺ قال ذلك مع تلاوة الآية؛ أو يكون جبريل عليه السلام قال ذلك للنبي ﷺ؛ لأن الله تبارك وتعالى: لا يضمّر، ولا ينوي، ولا يخص ولا يعم بالقصد؛ وإنما الدلالة في بنية الكلام نفسه؛ فصورة الكلام هو الإرادة وهو القصد^(١).

ومن الأمثلة السابقة كلها؛ يتبين أن الجاحظ كان يحمل معاني العموم والخصوص على إطلاقاتها المعروفة عند الأصوليين؛ وأن اللفظ إذا كان عاماً فإنه لا يجوز تخصيصه -أو قصد شيء بعينه؛ كما هي عبارة الجاحظ- إلا مقترنا به؛ وهذا متفق مع رأي بعض المعتزلة^(٢) الذين يقولون بامتناع تأخر المخصص عن اللفظ العام؛ وهي من فروع مسألة تأخير البيان عن وقت الحاجة^(٣)؛ وقد بين أبو الحسين البصري مذهب المعتزلة في هذا القول وأدلته؛ ومن أهمها: "أنه لو أسمع الحكيم غيره العام دون الخاص؛ لكان قد أغراه بالجهل، وهو اعتقاد استغراقه وإباحة ذلك، وهذا قبيح"^(٤).

كما أشار الجاحظ أخيراً إلى مسألة تتعلق باللفظ ودلالته على المعنى، وهي من أهم المسائل المتعلقة بارتباط القصد بالإرادة والمراد؛ لأن الكلام مما يدل على القصد^(٥).

وما ذكره الجاحظ هنا هو اختيار بعض أهل الأصول^(٦).

قال ابن تيمية: "الكلام يدل بقصد المتكلم وإرادته، وهو يدل على مراده"^(٧).

وبإزاء هذا يقول ابن القيم (٧٥١ هـ): "دلالة النصوص نوعان: حقيقية وإضافية؛

- (١) ينظر: الحيوان ١/١٨٠.
- (٢) ومنهم أبو الهذيل العلاف، والشحام، وأبو علي الجبائي. ينظر: المعتمد ١/٣٢١. آراء المعتزلة الأصولية ص ٥٥٢.
- (٣) ينظر: التقريب والإرشاد ٢/٢٨٧، البحر المحيط ٢/٢٠٤، آراء المعتزلة الأصولية ٥٥٢.
- (٤) ينظر هذا الدليل والاستدلالات الأخرى لأصحاب هذا القول: المعتمد ١/٣٢٢ وما بعدها.
- (٥) نقل الزركشي عن القفال الشاشي قوله: "ومن ضبط هذا الباب أفاده علماء كثيراً". البحر المحيط ٢/٣٤٩.
- (٦) ينظر: البحر المحيط للزركشي ٢/٣٤٩. الاستدلال بالدليل في غير ما سبق له، عبد الرحمن الشعلان ص ٣٢ وما بعدها.
- (٧) النبوات لابن تيمية، تحقيق: عبدالعزيز الطويان، أضواء السلف، الرياض الطبعة الأولى ١٤٢٠. ص ٧٢٨.

فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته؛ وهذه الدلالة لا تختلف؛ والإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه وجودة فكره وقرينته وصفاء ذهنه^(١).

قال ابن القيم: " هذا أمر يعم أهل الحق والباطل لا يمكن دفعه؛ فاللفظ الخاص قد ينتقل إلى معنى العموم بالإرادة، والعام قد ينتقل إلى الخصوص بالإرادة؛ فإذا دعي إلى غداء فقال: واللّه لا أتعدى أو قيل له: "نم"؛ فقال: واللّه لا أنام؛ أو "أشرب هذا الماء" فقال: واللّه لا أشرب؛ فهذه كلها ألفاظ عامة نقلت إلى معنى الخصوص بإرادة المتكلم التي يقطع السامع عند سماعها بأنه لم يرد النفي العام إلى آخر العمر؛ والألفاظ ليست تعبدية... وقد كان الصحابة يستدلون على إذن الرب تعالى وإباحته بإقراره وعدم إنكاره عليهم في زمن الوحي؛ وهذا استدلال على المراد بغير لفظ، بل بها عرف من موجب أسمائه وصفاته، وأنه لا يقر على باطل حتى يبينه^(٢).

وقال: " فمن عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب اتباع مراده؛ والألفاظ لم تقصد لذواتها وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم؛ فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق كان عمل بمقتضاه؛ سواء كان بإشارة أو كتابة أو بإيماء أو دلالة عقلية أو قرينة حالية أو عادة له مطردة لا يخل بها، أو من مقتضى كماله وكمال أسمائه وصفاته؛ وأنه يمتنع منه إرادة ما هو معلوم الفساد، وترك إرادة ما هو متيقن مصلحته؛ وأنه يستدل على إرادته للنظير بإرادة نظيره ومثله وشبهه، وعلى كراهة الشيء بكراهة مثله ونظيره^(٣).

ولذلك يظهر أن " المهم عند الأصوليين: هو معرفة قصد الشارع من الخطاب؛ وليس فهم معنى الخطاب؛ لأن كل لفظ في التركيب له معنى؛ لكن ليس بالضرورة أن يكون له قصد؛ لأن القصد لا يكون في دلالة اللفظ وهي خاصة بالسامع؛ وإنما يكون في الدلالة باللفظ وهي خاصة بالمتكلم^(٤).

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين؛ لابن القيم؛ تحقيق: طه سعد، دار الجيل بيروت ١٩٧٢م. ص ٣٥٠/١.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٢٥٨-٢٥٩).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٢٥٨).

(٤) ينظر: القصدية واللأقصدية في الفكر الأصولي، علاء حمزاوي. ص ١٨. وينظر: البحر المحيط ٢/ ٣٤٩ وما بعدها.

المطلب الثالث

النصوص في مبدأ اللغات

الجاحظ يرى بأن اللغات كلها توقيفية؛ فالله عز وجل علم آدم الأسماء كلها بألفاظها ومعانيها؛ وهو اختيار جمهور الأصوليين؛ وهو خلاف مذهب جمهور المعتزلة؛ ومنهم أبو هاشم الجبائي وأتباعه من المعتزلة؛ الذين يرون بأن اللغات اصطلاحية^(١).

قال الجاحظ: "كان الله تعالى يكلم آدم؛ كما كان يكلم ملائكته، ثم علمه الأسماء كلها^(٢)؛ ولم يكن ليعلمه الأسماء كلها إلا بالمعاني كلها، فإذا كان ذلك كذلك؛ فقد علمه جميع مصالحه ومصالح ولده، وتلك نهاية طباع الأدميين، ومبلغ قوى المخلوقين^(٣)".

كما كان للجاحظ رأي في نشوء اللغة العربية؛ وكونها توقيفية من الله عز وجل؛ فقال: "القول في إنطاق الله تعالى إسماعيل بن إبراهيم صلى الله على نبينا وعليهما بالعربية المبينة؛ على غير التلقين والتمرين، وعلى غير التدريب والتدريج، وكيف صار عربياً أعجمي الأبوين... أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة وروى عن ابن عباس: أن الله ألهم إسماعيل العربية إلهاماً^(٤)؛ وقال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية٤]^(٥). وقال الجاحظ في نفس السياق: "قد جعلوا إسماعيل وهو ابن عجميين عربياً؛ لأن الله تعالى فتق لهاته بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب، ثم فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشو والتقدير، وسلخ طباعه من طبائع العجم، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء، وركبه اختراعاً على ذلك التركيب، وسوَّاه تلك التسوية، وصاغه تلك الصياغة، ثم حباه من طبائعهم، ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأنفتهم

(١) ينظر: الإحكام للأمدى/١٠٩/١، شرح مختصر الروضة/٤٧١/١، شرح الكوكب المنير/٢٨٥/١.

(٢) وهذا أحد المعاني التي قيلت في التوقيف؛ وهو أن يكلم الله آدم عليه السلام ويخاطبه مباشرة. ينظر: نشأة اللغات، د ترحيب الدوسري؛ ضمن مجلة كلية الشريعة بالقصيم العدد الأول ص٢٣٩.

(٣) المختار في الرد على النصارى (ص: ٨٢).

(٤) ذكره الألويسي في روح المعاني ونسبه للشيرازي مسنداً في كتاب الألقاب. روح المعاني/١٢/١٧٢.

(٥) البيان والتبيين ٢/٢٩٠ وما بعدها.

وهمهم على أكرمها وأمكنها، وأشرفها وأعلاها، وجعل ذلك برهاناً على رسالته، ودليلاً على نبوته^(١). وقد استدل الجاحظ لهذا القول بما يلي: "والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنة، وكذلك أطفالهم والمجانين منهم، يتكلمون ساعة يدخلون الجنة بلسان أهل الجنة على غير الترتيب والتنزيل، والتعليم على طول الأيام والترقيم والتلقين؛ فكيف يتعجب الجاهلون من إنطاق إسماعيل بالعربية على غير تعليم الآباء، وتأديب الحواضن^(٢)".

وهذا القول موافق لاختيار بعض الأصوليين الذين تكلموا في مبدأ اللغات على وجه العموم، واللغة العربية على وجه الخصوص؛ ومنهم ابن حزم والقراي وغيرهم.

قال ابن حزم: "وإذا تيقنا ذلك؛ فالسريانية أصل للعربية وللعبرانية معا، والمستفيض أن أول من تكلم بهذه العربية إسماعيل عليه السلام؛ فهي لغة ولده، والعبرانية لغة إسحاق ولغة ولده^(٣)".

ويظهر من هذه النصوص أسبقية الجاحظ في نقاش بعض المسائل الأصولية المرتبطة باللغة^(٤).

(١) رسالة مناقب الترك ضمن مجموع رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ٣١/١.

(٢) رسائل الجاحظ تحقيق هارون ٣٣/١.

(٣) الأحكام لابن حزم (١/ ٣٠)؛ نقائس الأصول في شرح المحصول ٤٥٧/١.

(٤) ينظر كلام ابن تيمية رحمه في مبدأ الخلاف في مسألة نشأة اللغات بين أبي هاشم الجبائي وأبي الحسن الأشعري: مجموع الفتاوى ٩٠/٧.

المطلب الرابع

النصوص في الحقيقة والمجاز

يعد الجاحظ هو أول من استعمل المجاز في القرآن بالمعنى المقابل للحقيقة، وهذا ما يظهر من خلال المواضع الكثيرة التي أشار فيها للمجاز في القرآن وكلام العرب؛ ويلاحظ أنه استخدم المجاز بالمعنى المقابل للحقيقة وليس بمعنى التفسير^(١)؛ ومن المواضع التي صرّح فيها الجاحظ بالمجاز ما يلي:

قال الجاحظ: "ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: (نعمت العمّة لكم النخلة خلقت من فضلة طينة آدم)^(٢)؛ وهذا الكلام صحيح المعنى؛ لا يعيبه إلا من لا يعرف مجاز الكلام"^(٣). قال الجاحظ: "أنا لو تأولنا الذبّ عليّ مثال تأويل قولنا في ذبّ إبراهيم إسماعيلَ عليهما السلام؛ وإنما كان ذلك ذبحاً في المعنى لغيره؛ أو على معنى قول القائل: أمّا أنا فقد ذبحته وضربت عنقه ولكن السيف خانتني؛ أو على قولهم: المسك الذبيح؛ أو على قولهم: فجئت وقد ذبّحتي العطش لكان ذلك مجازاً"^(٤).

وقال الجاحظ: "أن المسيح أمر الحواريين أن يقولوا في صلواتهم: يا أبانا في السماء، تقدس اسمك. في أمور عجيبة، ومذاهب شنيعة، يدل على سوء عبادة اليهود، وسوء تأويل أصحاب الكتب، وجهلهم مجازات الكلام"^(٥).

وقال الجاحظ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ النساء: من

- (١) لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩)؛ -وهو من شيوخ الجاحظ- كتاب: مجاز القرآن؛ إلا أنه عنى به الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته؛ وهذا المعنى أعم من المعنى الوارد في كتب البلاغة والأصول. وتنظر أسبقية الجاحظ في استخدام لفظ المجاز: التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، وليد قصاب، دار الثقافة الدوحة ١٤٠٥ ص ٨٩. مقدمة محقق مجاز القرآن؛ محمد فؤاد سزكين؛ مكتبة الخانجي القاهرة. ص ١٨ وما بعدها.
- (٢) حديث لا يصح مرفوعاً؛ وذكره ابن الجوزي في الموضوعات؛ دار الكتب العلمية ١/١٨٤.
- (٣) الحيوان ١/٢١٢.
- (٤) الحيوان ٤/٨٥.
- (٥) ووجه ذلك: أن النصارى ذهبوا إلى أن المقصود بكلمة الأب: هي أبوة الولادة؛ وهذا جهل منهم بالكلام ودلالاته الحقيقية والمجازية. ينظر: رد الجاحظ على النصارى (ص: ٧٢).

[الآية ١٠]؛ وقوله تعالى عز اسمه: ﴿أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: من الآية ٤٢]؛ وقد يقال لهم ذلك؛ وإن شربوا بتلك الأموال الأنبيذة؛ ولبسوا الحلل؛ وركبوا الدواب؛ ولم ينفقوا منها درهما واحدا في سبيل الأكل؛ وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: من الآية ١٠]؛ وهذا مجاز آخر^(١).

ويظهر من هذه النصوص استعمال الجاحظ لكلمة المجاز بالمعنى المقابل للحقيقة؛ ويظهر من كلام ابن تيمية رحمه الله ما يدل على ظهور هذا المصطلح على يد المعتزلة؛ وإن لم يصرح بأول من قاله.

قال ابن تيمية: " وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز: أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه؛ ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة؛ وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية... ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ولا من سلف الأمة وعلمائها؛ وإنما هذا اصطلاح حادث؛ والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين؛ فإنه لم يوجد هذا في كلام أحد من أهل الفقه والأصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف؛ وهذا الشافعي هو أول من جرد الكلام في أصول الفقه لم يقسم هذا التقسيم؛ ولا تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز.. فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز؛ إنما اشتهر في المائة الرابعة، وظهرت أوائله في المائة الثالثة؛ وما علمته موجودا في المائة الثانية؛ اللهم إلا أن يكون في أواخرها^(٢)."

(١) الحيوان ٢٥/٥.

ووجه المجاز في الآية الكريمة هو أن الله عبر سبحانه عن أكل المال الحرام بأكل النار، باعتباره يكون سببا لدخول النار واستحقاقها، لا أنهم حقيقة يتناولون النار بالأكل، ولما كان أكل أموال البيتامى ظلما يسبب دخول النار؛ كان التجوز بالتعبير عنه بالنار ناظرا إلى هذه الحقيقة. ينظر: مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية؛ محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي؛ بيروت؛ الطبعة الأولى ١٤٢٠. (ص: ١٥٩) وما بعدها..

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٨٩). قلت: ولأهل اللغة اهتمام كبير بدراسة قضية المجاز، وتاريخ دخول هذا المصطلح بمعناه البلاغي المقابل للحقيقة، ويخلص كثير من الباحثين إلى اعتبار الجاحظ صاحب الأسبقية في هذا. ينظر مبحث: مجاز القرآن عند الرواد الأوائل؛ ضمن كتاب مجاز القرآن: خصائصه الفنية وبلاغته العربية؛ ١١-١٩.

المطلب الخامس

النصوص في وقوع الترادف^(١)

قال الجاحظ: "وللسنور فضيلة أخرى: أنه كثير الأسماء القائمة بأنفسها غير المشتقات؛ ولا أنها تجمع الصفات والأعمال؛ بل هي أسماء قائمة، من ذلك: القط، والهر، والضيون، والسنور.

وليس للكلب اسم سوى الكلب؛ ولا للديك اسم إلا الديك؛ وليس للأسد اسم إلا الأسد الليث؛ وأما الضيغم والخنابس والرئبال وغيرها^(٢)؛ فليست بمقطوعة، والباقي ليست بأسماء مقطوعة، ولا تصلح في كل مكان^(٣). كما نبه الجاحظ إلى أهمية التفريق بين الكلمات ودلالاتها، وعدم حملها على معنى واحد؛ فما يظن أنه يفيد معنى واحدا يكون بينه اختلاف وفرق؛ فقال: "وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها؛ وغيرها أحق بذلك منها؛ ألا ترى ان الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام؛ والعامية وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث؛ ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع؛ وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين؛ ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعا؛ والجاري على أفواه العامة غير ذلك؛ لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال؛ وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج؛ والعامية ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما؛ وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا وتدع

(١) اهتم الأصوليون بمباحث الترادف؛ لأهميته الكبرى في استنباط الأحكام من أدلة الشرع؛ والفقهاء مبني

على فهم اللغة وألفاظها ودلالاتها.

(٢) تنظر أسماء الأسد عند أهل اللغة: معجم أسماء الأشياء المسمى للطلائف في اللغة؛ أحمد بن

مصطفى الدمشقي. سنة الوفاة ١٣١٨ هـ. الناشر: دار الفضيلة مكان النشر: القاهرة ١/٦٦، تاج

العروس ١٦/٣٠.

(٣) الحيوان ٥/٣٣٦.

ما هو أظهر وأكثر؛ ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه؛ وكذلك المثل السائر^(١) .

ومن هذه النصوص نستنتج أن الجاحظ يقول بوقوع الترادف: وهي الألفاظ المفردة الدالة على مسمى واحد باعتبار واحد^(٢)؛ ومن ذلك أسماء السنور: فهو يسمى بالقط والهر والضيون^(٣)؛ وكلها تدل على مسمى واحد؛ واختيار الجاحظ هو رأي الجمهور في المسألة؛ فالترادف واقع^(٤)؛ ونسب القول بمنعه لمن شذ في المسألة^(٥)؛ وإن كان الظاهر من عبارة الجاحظ: أن الترادف قليل في اللغة؛ ولذلك اعتبر كثرة أسماء السنور من فضائله التي يتميز بها عن غيره، واعتبر أن ما يذكر من أسماء الأسد فهو ليس من قبيل المترادف؛ كما اعتبر أن صنع العامة هو عدم التفريق بين الكلمات ويظنونها بمعنى واحد؛ وهي ليست كذلك؛ وقول الجاحظ واختياره في المسألة هذه موافق لقول بعض المحققين؛ ومنهم ابن تيمية: حيث اعتبر أن الترادف في اللغة قليل^(٦) .

(١) البيان والتبيين ٢٠/١ وما بعدها.

(٢) المحصول ١/٣٧٤. وينظر: معجم أسماء الأشياء المسمى اللطائف في اللغة ١/٢٩.

(٣) ينظر: تاج العروس للزبيدي ١/٢٠٤.

(٤) ينظر: البحر المحيط للزركشي ١/٤٧٤.

(٥) ينظر: الإحكام للآمدي ١/٤٦.

(٦) ينظر: مجموع الفتاوى ١٣/٢٤١.

المبحث التاسع

النصوص فيما يتعلق بالاجتهاد

للجاحظ اهتمام بمسائل الاجتهاد والإفتاء والتقليد؛ وهذا ظاهر من مناقشته لبعض المسائل المتعلقة بها؛ كما أن له كتاباً مفرداً يظهر من مقدمته أنه خاص بمسائل الفتيا والأحكام؛ فقد قال في مقدمة رسالته لابن أبي دؤاد: "عنديأبواق اللهكتاب جامع لاختلاف الناس في أصول الفتيا، التي عليها اختلفت الفروع وتضادت الأحكام، وقد جمعت فيه جميع الدعاوي مع جميع العلل؛ وليس يكون الكتاب تاماً، ولحاجة الناس إليه جامعاً، حتى تحتج لكل قول بما لا يصاب عند صاحبه، ولا يبلغه أهله؛ وحتى لا نرضى بكشف فتاع الباطل دون تجريد، ولا بتوهينه دون إبطاله"^(١).

المطلب الأول

النصوص في تجزؤ الاجتهاد

من استعراض كتابات الجاحظ نجد أنه ناقش بعض المسائل ومنها: تجزؤ الاجتهاد.

قال الجاحظ-: "يقال: إن أصلح الأمور لمن تكلف علم الطب؛ أن لا يحسن منه شيئاً؛ أو يكون من الحذاق المتطبيين؛ فإنه إذا أحسن منه شيئاً ولم يبلغ فيه المبالغ هلك وأهلك أهله؛ وكذلك العلم بصناعة الكلام؛ وليس كذلك سائر الصناعات؛ فليس يضر من أحسن باب الفاعل والمفعول به، وباب الإضافة وباب المعرفة والنكرة، أن يكون جاهلاً بسائر أبواب النحو؛ وكذلك من نظري في علم الفرائض، فليس يضر من أحكم باب الصلب أن يجهل باب الجد وكذلك الحساب، وهذا كثير"^(٢).

فالجاحظ هنا يرى أن علم الطب وعلم الكلام يشترط التمكن منهما؛ وعدم إغفال

(١) رسالة في أصول الفتيا والأحكام ضمن مجموع رسائل الجاحظ تحقيق هارون ١/٢١٤. وجاء في خطبة كتابه الحيوان: "وعبت كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام". الحيوان (١/٩).

(٢) البيان والتبيين تحقيق هارون ٤/٤٠، وقال في الحيوان: (١/٥٩): من أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه".

شيء من قضاياهما؛ وليس الأمر كذلك في سائر العلوم والصناعات؛ ومنها الفقه والنحو؛ كما ذكر في المثالين؛ ففي باب الفرائض لا يضر الجهل بمسألة في إتيان مسألة أخرى؛ لعدم الارتباط بينهما.

وهذه المسألة يناقشها الأصوليون تحت عنوان تجزؤ الاجتهاد؛ وهو أن يكون لدى المجتهد القدرة على النظر في مسألة واحدة أو باب واحد^(١).

وقد جعل بعض الأصوليين محل النزاع: هو في تجزؤ الاجتهاد في الأبواب، دون مسائل تلك الأبواب؛ وعد هؤلاء الاجتهاد لا يتجزأ في المسائل قطعاً^(٢).

والصحيح من كلام الأصوليين جريان الخلاف في المسألتين؛ ونص على ذلك بعض الأصوليين^(٣). وهو اختيار الجاحظ كما يظهر من عبارته.

وإن كان بعض العلماء قد استبعد الاجتهاد في المسألة الواحدة، فابن تيمية - رحمه الله - أجاز تجزؤ الاجتهاد ومع ذلك استبعد وقوعه في مسألة واحدة؛ حيث قال " فأما مسألة واحدة من فن فيبعد الاجتهاد فيها"^(٤). وقول جمهور العلماء هو جواز تجزؤ الاجتهاد^(٥).

وقد نص أبو الحسين البصري من المعتزلة على استثناء علم الفرائض؛ وجواز تجزؤ الاجتهاد فيه - كما ذكر الجاحظ - فقال: " ويجوز أن يجتهد في مسألة من الفرائض؛ إذا كان عالماً بالفرائض، وإن لم يعلم ما عداه من أبواب الفقه؛ لأن الظاهر من أحكام الفرائض أنها لا تستبطن من غيرها إلا نادراً؛ والذهاب عن النادر لا يقدح في الاجتهاد؛ ألا ترى أن المجتهد قد يخفي عليه من النصوص اليسير، ولا يقدح ذلك في كونه من أهل الاجتهاد"^(٦).

(١) ينظر: أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح ٢٦/١، شرح مختصر الروضة ٢/٥٨٥.

(٢) المحصول ٢٤/٦، وينظر: نهاية السؤل ٢/١٠٢٨.

(٣) ينظر: المحصول ٢٤/٦، وينظر: نهاية السؤل ٢/١٠٢٨. البحر المحيط ٦/٢١٠.

(٤) مجموع الفتاوي ٢٠/٢٠٤.

(٥) ينظر: بذل النظر ٦٩٢، كشف الأسرار (٤/٢٩). شرح تنقيح الفصول ص (٢٤٢).

(٦) المعتمد (٢/٢٥٩).

المطلب الثاني

النصوص في حكم اجتهاد النبي ﷺ .

قال الجاحظ: " وترك القول بالآراء ، فإنها تخطئ وتصيب؛ لأن النبي ﷺ شاوَر أصحابه في الأسرى ببدر؛ واتفق على قبول الفداء فأَنْزَلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَّخَذَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٧]. فقد بان لك أن الرأي يخطئ ويصيب؛ ولا يعطي اليقين^(١) .

من هذه العبارة يتبين أن الجاحظ يرى وقوع الاجتهاد من النبي ﷺ وجواز الخطأ عليه .

وهذا الدليل هو من أقوى أدلة من قال بوقوع الاجتهاد من النبي ﷺ حيث إنه عليه السلام عوتب في أسارى بدر ، فقبل منهم الفداء ، ولم يقتلهم^(٢) . والقول بجواز الاجتهاد من النبي ﷺ ووقوعه منه هو مذهب جمهور العلماء^(٣) ؛ خلافا لبعض المعتزلة^(٤) .

(١) رسالة الترجيح والتفضيل ضمن مجموع رسائل الجاحظ تحقيق د محمد الحاجري ص ٦٢ .

(٢) ينظر: شرح مختصر الروضة ٣/٥٩٥ .

(٣) ينظر: العدة ٥/١٥٧٨ ، المحصول ٦/٧ ، الإحكام للأمدى ٢/٣٩٨ ، روضة الناظر تحقيق النملة ٣/٩٦٩ ،

الردود والنقود ٢/٦٨٠ ، إرشاد الفحول ٢/١٠٤٥ .

(٤) ينظر: آراء المعتزلة الأصولية ص ٥٦٩ .

المطلب الثالث

النصوص في علم الكلام واشتراطه في الدين.

قال الجاحظ: "وسنذكر مسألة كلامية؛ وإنما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممن ليس له علم بالكلام؛ ولو كان أعلم الناس باللغة؛ لم ينفك في باب الدين حتى يكون عالماً بالكلام"^(١).

وقال: "وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة يصلح للرئاسة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة؛ والعالم عندنا هو الذي يجمعهما.. وأنا أعوذ بالله أن أكون كلما غمز قناتي باب من الكلام صعب المدخل؛ نقضت ركناً من أركان مقالتي؛ ومن كان كذلك لم يُتفع به"^(٢).

وقال الجاحظ: "إنه لولا مكان المتكلمين لهكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهكت العوام من جميع النحل؛ فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم^(٣) وإبراهيم؛ لهكت العوام من المعتزلة؛ فإني أقول: إنه قد أنهج لهم سبلاً، وفتق لهم أموراً، واختصر لهم أبواباً، ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة"^(٤).

وقال في صدر رسالته في صناعة الكلام: "إن صناعة الكلام علق نفيس، وجوهر ثمين، وهو الكنز الذي لا يفنى ولا يبلى، والصاحب الذي لا يمل ولا يغل، وهو العيار على كل صناعة، والزماء على كل عبارة، والقسطاس الذي به يستبان نقصان كل شيء ورجحانه، والراووق^(٥) الذي به يعرف صفاء كل شيء وكدره، والذي كل أهل علم عليه عيال، وهو لكل تحصيل آلة ومثال...

(١) الحيون ١٥/٢.

(٢) الحيون ١٣٥/٢.

(٣) يعني شيخه إبراهيم بن إسحاق النظم.

(٤) الحيوان ٢٠٦/٤.

(٥) الراووق: هو شيء يعلق ويصفي به الشراب. ينظر: المفردات في غريب القرآن؛ الحسين بن محمد بن

الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني؛ الناشر: دار العلم دار الشامية؛ دمشق - بيروت سنة الطبع:

١٤١٢ هـ؛ تحقيق: صفوان عدنان داودي (ص: ٧٩١).

وكيف لا يكون حرماً! وبه عرفنا حرمة الشهر الحرام والحلال المنزل، والحرام المفصل! وكيف لا يكون ثغراً وكل الناس لأهله عدو، وكل الأمم له مطالب. وأحق الشيء بالتعظيم، وأولاه بأن يحتمل فيه كل عظيم ما كان مسلماً إلى معرفة الصغير والكبير، والحقير والخطير، وأداة لإظهار الغامض، وآلة لتخليص الغاشية، وسبباً للإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يوم الإطناب؛ وبه يستدل على صرف ما بين الشرين من النقصان، وعلى فضل ما بين الخيرين من الرجحان، والذي يصنع في العقول من العبارة وإعطاء الآلة مثل صنيع العقل في الروح، ومثل صنيع الروح في البدن^(١).

وقال في نفس الرسالة مبينا فضل علم الكلام والمتكلمين على حفظ الفروع والفتيا فيها: "إنه لو لم يكن في المتكلمين من الفضل إلا أنهم قد رأوا إدبار الدنيا عن علم الكلام، وإقبالها إلى الفتيا والأحكام، وإجماع الرعية والراعي على إغناء المفتي، وعلم الفتوى فرع؛ وإطباقهم على حرمان المتكلم، وعلم الكلام أصل، فلم يتركوا مع ذلك تكلفه، وشحت نفوسهم عن ذلك الحظ، مخافة إدخال الضيم على علم الأصل، وإشفاقاً من أن لا تسع طبائعهم اجتماع الأصل والفرع، فكان الفقر والقلة أثر عندهم مع إحكام الأصول، من الغنى والكثرة، مع حفظ الفروع، فتركوا أن يكونوا قضاة، وتركوا القضاة وتعديلهم وتركوا أن يكونوا حكاماً وقتعوا بأن يحكم عليهم، مع معرفتهم بأن آلتهم أتم، وآدابهم أكمل، وأستنتهم أحد، ونظرهم أثقب، وحفظهم أحضر، وموضع حفظهم أحسن^(٢)".

وإعلاء الجاحظ من شأن علم الكلام واعتباره ضروريا للعلم بالدين والاجتهاد فيه؛ منسجم مع رأي المعتزلة الذين يعتبرون علم الكلام من مصادر الشرع؛ وشرطاً ضروريا لاستجماع أوصاف الاجتهاد^(٣)؛

قال القاضي عبد الجبار (٤١٥ هـ)؛ مؤيدا لهذا القول ومستدلًا له: "الواجب على كل من يطلب علماً أن يقدم على هذا العلم... لأن كل علم يشرف بشرف معلومه؛

(١) تنظر رسالة في صناعة الكلام؛ ضمن مجموع رسائل الجاحظ؛ تحقيق: عبدالسلام هارون/٤/٢٤٣ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٩ وما بعدها.

(٣) ينظر: المعتمد ٢/٣٥٨.

ومعلوم علم المتكلمين: هو الله تعالى وما يختص به؛ ولأن هذا العلم لا يختلف باختلاف الأعصار واللغات والأحوال، وغيره من العلوم قد يختلف باختلاف ذلك؛ ولأن هذا العلم أصل لسائر العلوم الدينية يستقل بنفسه، وليس كذلك سائر العلوم^(١). وخالفهم في ذلك جمهور العلماء. قال الزركشي: "اختلفوا في اشتراط تبخره في أصول الدين على وجهين... الاشتراط، وهو قول القدرية^(٢)؛ والثاني: لا يشترط بل من أشرف منه على وصف المؤمن كفاه... وعلى هذا القول جل أصحاب كتب الحديث والفقهاء وغيرهم؛ وأطلق الرازي عدم اشتراط علم الكلام^(٣)، وفصل الأمدي^(٤)؛ فشرط الضروريات، العلم بوجود الرب وصفاته وما يستحقه وجوب وجوده لذاته، والتصديق بالرسول وما جاء به، ليكون فيما يسنده إليه من الأحكام محققا ولا يشترط علمه بدقائق الكلام؛ ولا بالأدلة التفصيلية وأجوبتها؛ كالتحارير من علمائه. وكلام الرازي محمول على هذا التفصيل^(٥)".

(١) ينظر: طبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار بن أحمد؛ ص ١٨٢.

(٢) أي المعتزلة.

(٣) ينظر: المحصول ٦/٣٦.

(٤) ينظر تفصيل الأمدي: الإحكام ٤/١٧٠.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٤/٤٩٤.

الخاتمة

الحمد لله على إحسانه وتوفيقه وتسهيل أمره؛ والإعانة على ما بدأت وأتممت؛
والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً مزيداً إلى يوم
الدين... أما بعد.

ففي خاتمة هذا البحث الجامع لنصوص أصولية لشيخ البيان: أبي عثمان عمرو بن
بحر الجاحظ؛ وصلت لجملة من النتائج والتوصيات ومن أهمها:

1. أهمية الرجوع للبدايات الأولى في تاريخ علم أصول الفقه، وسد الهوة ما بين
كتاب الرسالة للشافعي وما جاء بعده من كتب الأصول.
2. يعد الجاحظ من أكثر العلماء في تاريخ الإسلام تأليفاً وكتابةً؛ وتناولت
كتاباته علومًا متعددة من اللغة، والكلام، والأحكام، والحيوان، وطبائع الناس
وأخلاقهم.
3. اشتملت كتب الجاحظ المتنوعة على جملة من القضايا والمسائل الأصولية.
4. ظهر في الدراسة تأثير الجاحظ الكبير بالمعتزلة؛ فهو من تلاميذ النظام
المعتزلي، وناقلاً أقواله ومناقشاته.
5. وجود عدد كبير من المسائل الأصولية في كلام الجاحظ؛ والتي ظهرت فيما
بعد في كتب المعتزلة وظهر تأثيره على من جاء بعده من الأصوليين.
6. ظهر من خلال الدراسة تقارب على مستوى الاهتمام والبحث بين ما كتبه
الجاحظ، وما قرره الشافعي وتناوله في كتاب الرسالة.
7. تبين مدى اهتمام المعتزلة ومنهم الجاحظ بعلم الكلام، ودور هذا العلم في
خدمة القضايا الاعتزالية.

٨. كشفت هذه الدراسة عن ظهور بعض المصطلحات على يد الجاحظ لأول مرة؛ ومنها مصطلح المجاز بمعناه المعروف عند أهل البلاغة والأصول.
٩. تأثير علم الأصول ومسائله ودخوله في بعض القضايا الجدلية والخلافية مثل مسألة خلق القرآن.
١٠. وجود بعض الكتابات الأصولية للجاحظ التي تناولت قضايا الفتيا والأحكام على جهة الأفراد والاستقلال.
١١. وجود قدر كبير من الاستدلالات على القضايا الأصولية، والتي ظهرت فيما بعد في استدلالات الأصوليين.

ومن المهم تسجيل بعض الاقتراحات والتوصيات ومنها:

١. أهمية الرجوع لكتب اللغة والكلام المؤلفة في القرن الثاني والثالث؛ واستكشاف مخبأاتها؛ مما يتعلق بمسائل الأصول واللغة المرتبطة بدلالات اللغة العربية.
 ٢. أهمية الرجوع لكتب الطبقات ولاسيما طبقات المعتزلة؛ ففيها جملة من المسائل الأصولية المهمة، وفيها توضيح لنشأة الأقوال الأصولية وسبب ذلك.
 ٣. احتياج كتب الجاحظ لمزيد من الدراسة والاستكشاف؛ ولاسيما كتب اللغة والبيان والكلام.
 ٤. إعادة النظر في كلام المعتزلة الأوائل ومقارنته بمتأخريهم، واكتشاف مدى التفاوت بينهم وأسباب ذلك.
- وأسأل الله عز وجل أن يكون هذا العمل نافعا ومفيدا ومسددا وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين.

فهرس أهم المصادر والمراجع

١. الأسماء والصفات: البيهقي أحمد بن الحسين أبو بكر ٤٥٨ هـ؛ المحقق: عبد الله بن محمد الحاشدي؛ الناشر: مكتبة السواوي - جدة. الطبعة الأولى.
٢. أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم: صديق بن حسن القنوجي، تحقيق: عبد الجبار زكار، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٧٨.
٣. الإبهاج في شرح المنهاج: علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦ هـ)، وولده تاج الدين السبكي؛ تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤ هـ.
٤. إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية: محمد عبد الهادي أبوريدة؛ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ القاهرة؛ ١٣٦٥ هـ.
٥. الإحكام في أصول الأحكام: سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد الأمدي (ت ٦٣١ هـ) تحقيق: عبدالرزاق عفيضي، دار الصميعي، الطبعة الأولى، ٥١٤٢٤ هـ.
٦. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ)، تحقيق: سامي العربي، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.
٧. الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد: لأبي الحسين عبدالرحيم بن محمد بن عثمان الخياط؛ تحقيق: الدكتور نيجبرج، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٤ هـ.
٨. أدب الجاحظ: حسن السندوبي؛ المطبعة الرحمانية مصر ١٣٥٠ هـ.
٩. آداب الشافعي ومناقبه: عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: عبدالغني عبدالخالق، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ.

١٠. أصول البزدوي مع كشف الأسرار: عبدالعزيز بن أحمد بن محمد البخاري، الطبعة العثمانية ١٣١٠ هـ.
١١. الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي (ت ١٣٩٦ هـ)، دار العلم للملايين.
١٢. أعلام النبوة: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي؛ الناشر: دار الكتاب العربي بيروت
١٣. الطبعة الأولى، ١٩٨٧؛ تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي.
١٤. الإشارة في أصول الفقه: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث القرطبي الباجي الأندلسي (المتوفى: ٤٧٤ هـ)؛ المحقق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل؛ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان؛ الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.
١٥. الإفادات والإنشادات: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: محمد أبو الأجنان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.
١٦. أفعال الرسول ﷺ ودلالاتها على الأحكام الشرعية: محمد بن سليمان بن عبد الله الأشقر؛ الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان. الطبعة: السادسة، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.
١٧. البحر المحيط في أصول الفقه: بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤ هـ)، تحقيق القسم الأول من البحر المحيط الدكتور: محمد بن عبد الرزاق الدويش، رسالة دكتوراه جامعية من قسم أصول الفقه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٦.
١٨. البداية والنهاية: لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤ هـ)، مكتبة المعارف، بيروت.
١٩. البرهان في أصول الفقه: لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت ٤٧٨ هـ) حققه: عبد العظيم الديب، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ.
٢٠. البرصان والعرجان والعميان والحولان: الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت؛ الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.
٢١. البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين: د محمد علي الصباغ، المكتبة

- العصرية بيروت؛ الطبعة الأولى ١٤١٨.
٢٢. البيان والتبين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (سنة الولادة ١٥٠هـ/ سنة الوفاة ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة؛ الطبعة السابعة ١٤١٨ هـ.
٢٣. تأويل مختلف الحديث؛ ابن قتيبة الدينوري: تحقيق: محمد زهري النجار.
٢٤. تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية .
٢٥. التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري: وليد قصاب، دار الثقافة الدوحة ١٤٠٥.
٢٦. تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، دراسة وتحقيق: د سيد عبد العزيز عبد الله ربيع، المدرسان بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر، الناشر: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث توزيع المكتبة المكية، الطبعة: الثانية ١٤٢٦هـ.
٢٧. التعريفات: علي بن محمد بن علي الجرجاني، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٥، تحقيق: إبراهيم الأبياري.
٢٨. تقريب الوصول إلى علم الأصول: محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (ت ٧٤١هـ)، تحقيق: محمد علي فركوس، دار التراث الإسلامي، الجزائر، الطبعة الأولى ١٤١٠.
٢٩. التقريب والإرشاد: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (ت ٤٠٣هـ)، حققه: عبد الحميد أبو زيد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٣٠. جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: القاضي عبد رب النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية لبنان بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.
٣١. الجاحظ: شارل بلات، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، دمشق، دار اليقظة العربية ١٩٦١م.
٣٢. الجامع الكبير سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرَة بن موسى بن

- الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)؛ المحقق: بشار عواد معروف؛ الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت؛ سنة النشر: ١٩٩٨ م.
٣٣. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي؛ المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر؛ الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)؛ الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ
٣٤. حاشية العلامة البناني على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع: عبد الرحمن بن جاد الله البناني المغربي (ت ١١٩٨ هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر.
٣٥. الحدود في الأصول (مطبوع مع: الإشارة في أصول الفقه): أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (المتوفى: ٤٧٤ هـ)، المحقق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان
٣٦. الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.
٣٧. الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (سنة الولادة ١٥٩ هـ / سنة الوفاة ٢٥٥ هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الناشر دار الجيل ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م مكان النشر: لبنان / بيروت.
٣٨. الرسالة: محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي (ت ٢٠٤ هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، ١٣٥٨ هـ.
٣٩. رسالة الصحابة: لابن المقفع ضمن مجموعة رسائل البلغاء طبعة مصر ١٣٣١ هـ.
٤٠. الرسائل للجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٣٨٤ هـ.
٤١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود الألوسي أبو الفضل؛ الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٤٢. سلاسل الذهب: بدر الدين الزركشي (ت ٥٧٩٤ هـ)، تحقيق ودراسة: محمد الشنقيطي، الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ.

٤٣. سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ.
٤٤. سير أعلام النبلاء: المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)
٤٥. المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
٤٦. الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول: أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي؛ الناشر: المكتبة الشاملة، مصر؛ الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ ٢٠١١ م.
٤٧. شرح التلويح على التوضيح: سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الشافعي (ت٧٩٢هـ)، ضبطه: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
٤٨. شرح العمدة: لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري (ت٤٣٦هـ)، تحقيق: عبد الحميد أبو زيد، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٤٩. شرح الكوكب المنير: محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحي الحنبلي (ت٩٧٢هـ)، تحقيق: محمد الزحيلي، نزيه حماد، مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ..
٥٠. شرح مختصر الروضة: نجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت٧١٦هـ) تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، توزيع: وزارة الشؤون الإسلامية بالسعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
٥١. الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ). الناشر: دار العلم للملايين - بيروت. الطبعة: الرابعة - يناير ١٩٩٠.
٥٢. طبقات المعتزلة: أحمد بن يحيى المرتضى؛ بيروت لبنان ١٣٨٠ هـ.
٥٣. الضروري في أصول الفقه: لأبي الوليد محمد بن رشد الحفيد (ت٥٩٥هـ) تحقيق: جمال الدين العلوي. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٤.

٥٤. العقد المنظوم في الخصوص والعموم: شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (٦٢٦٦٨٢ هـ) دراسة وتحقيق: د. أحمد الختم عبد الله؛ الناشر: دار الكتبي - مصر. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.
٥٥. علاقة علم أصول الفقه بعلم المنطق: وائل بن سلطان الحارثي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٣١ هـ.
٥٦. العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم: ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسن بن القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير (المتوفى: ٨٤٠ هـ)؛ حققه وضبط نصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط؛ الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م.
٥٧. غاية المرام في شرح مقدمة الإمام: لأبي العباس أحمد بن زكري التلمساني المالكي (ت ٥٩٠ هـ)، تحقيق محند مشنان، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ.
٥٨. فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة: القاضي عبد الجبار بن أحمد، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر.
٥٩. فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت: محب الله بن عبد الشكور (ت ١١١٩ هـ)، والشرح: لعبد العلي محمد الأنصاري اللكنوي (ت ١٢٢٥ هـ)، ضبطه: عبد الله محمود عمر، مكتبة: عباس الباز، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.
٦٠. فلسفة الأخلاق عند الجاحظ: عزت السيد أحمد، منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٥ م.
٦١. في أصول النحو: سعيد الأفغاني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.
٦٢. قواطع الأدلة في الأصول: لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (ت ٤٨٩ هـ)، تحقيق: محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ.
٦٣. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد علي التهانوي (هـ ١١٥٨)، إشراف: د رفيق العجم مكتبة لبنان: بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٦ م.

٦٤. كتاب الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: لأبي البقاء الكنومى (ت ١٠٩٤ هـ)، دار النشر: مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٩ هـ تحقيق: عدنان درويش محمد المصري.
٦٥. لسان الميزان: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢ هـ)
٦٦. المحقق: عبد الفتاح أبو غدة؛ الناشر: دار البشائر الإسلامية؛ الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م.
٦٧. اللمع في أصول الفقه: أبو إسحاق الشيرازي؛ دار الكتب العلمية الطبعة: الطبعة الثانية ٢٠٠٣ م ١٤٢٤ هـ:
٦٨. مالم ينشر من تراث الجاحظ: تحقيق الدكتور: عثمان الضامن، منشورات وزارة الثقافة العراقية ١٩٧٩ م.
٦٩. المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي: المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣ هـ)؛ تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة؛ الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦.
٧٠. مذكرات في علم الأصول: محمد محروس المدرس الأعظمي، مقررات قسم الفقه والأصول في كلية معارف الوحي في الجامعة الماليزية الإسلامية، ٢٠٠٢ م.
٧١. مسائل أصول الدين المبحوثة في أصول الفقه: خالد عبد الله؛ نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية؛ الطبعة الأولى ١٤٢٦. ص ١٢٥٨ ما بعدها. عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام؛ ناصر بن علي عائض حسن الشيخ؛ الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية؛ الطبعة: الثالثة، ١٤٢١ هـ.
٧٢. المستصفي من علم الأصول: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، تحقيق: محمد بن سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.
٧٣. المعتمد في أصول الفقه: لأبي الحسين محمد بن علي الطيب البصري (ت ٤٣٦ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٣ تحقيق: خليل الميس.

٧٤. المعرفة والتاريخ: أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي؛ (ت: ٢٧٧هـ)؛ المحقق : د أكرم العُمري؛
٧٥. مؤسسة الرسالة - بيروت؛ الطبعة : الأولى ، ١٩٨١.
٧٦. مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن ابن خلدون (ت ٥٨٠هـ) ، دار إحياء التراث العربي الطبعة الرابعة بيروت - لبنان.
٧٧. المؤتلف والمختلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ) تحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر؛ الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٧٨. مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية: محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي؛ بيروت؛ الطبعة الأولى ١٤٢٠.
٧٩. المختار في الرد على النصارى: المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) المحقق: د محمد عبد الله الشرقاوي الناشر: دار الجيل - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
٨٠. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)؛ المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي؛ الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٨١. معجم أسماء الأشياء المسمى اللطائف في اللغة؛ أحمد بن مصطفى الدمشقي. سنة الوفاة ١٣١٨هـ. الناشر: دار الفضيلة مكان النشر: القاهرة.
٨٢. المفردات في غريب القرآن: الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني؛ الناشر: دار العلم الدار الشامية؛ دمشق- بيروت سنة الطبع: ١٤١٢ هـ؛ تحقيق: صفوان عدنان داودي.
٨٣. ميزان الأصول في نتائج العقول: لعلاء الدين شمس النظر أبو بكر محمد بن أحمد السمرقندي (المتوفى: ٥٣٩هـ) رسالة جامعية لمرحلة الدكتوراه، أعدها: عبد الملك السعدي، جامعة أم القرى ١٤٠٤هـ.

٨٤. النبوات: لابن تيمية، تحقيق: عبدالعزيز الطويان، أضواء السلف، الرياض الطبعة الأولى ١٤٢٠.
٨٥. نشأة اللغات: د ترحيب الدوسري؛ مجلة كلية الشريعة بالقصيم العدد الأول.
٨٦. نفائس الأصول في شرح المحصول: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي (ت ٦٨٤هـ)، تحقيق: عادل عبدالموجود، علي معوض، مكتبة نزار الباز، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
٨٧. نكت وتببيهاات في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس البسيلي التونسي (المتوفى ٨٣٠ هـ) مما اختصره من تقييده الكبير عن شيخه الإمام ابن عرفة (ت ٨٠٣ هـ) وزاد عليه؛ تقديم وتحقيق: الأستاذ / محمد الطبراني؛ منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية؛ مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء؛ الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م.
٨٨. الواضح في أصول الفقه: أبو الوفاء، علي بن عقيل بن محمد بن عقيل؛ المحقق: الدكتور عبد الله التركي؛ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.

الأحاديث الواردة في التَّالِي الممنوع

جمع ودراسة
من خلال كتب السنة

بدر بن حمود بن ربيع الرويلي

أستاذ مساعد، بكلية العلوم والآداب
بجامعة الحدود الشمالية، بمحافظة طريف.

الملخص:

تناولت الدراسة الأحاديث الواردة في التآلي المنوع، وكان جمع الأحاديث من خلال تتبعها في كتب السنة حاشا الكتب التسعة، مقتصرة على المرفوع منها، وقد بلغت عشرة أحاديث: حديث إسناده حسن، وآخر مختلف فيه، وخمسة إسناده ضعيف، وثلاثة إسناده ضعيف جداً.

كما أوضحت مفهوم التآلي على الله تعالى، وبيان أقسامه، وكيفية معالجة النبي ﷺ له، وكذلك اشتملت على فقه الأحاديث وأهم مسائلها.

الكلمات المفتاحية: آفات اللسان، مفهوم التآلي، أقسام، فقه الأحاديث.

Abstract:

The study examined all the Hadiths related with regard to forbidden 'Taali' (meaning: 'declaring a forbidden oath on Allah'). Therefore, the study inspected this topic in the light of the Sunnah. The researcher collected all the related Hadiths from Sunnah books. However, the study was limited to those Hadiths which were categorized as Marfu' (meaning: 'Elevated'). These are ten Marfu' Hadiths: one is 'Hasan' (meaning: 'Good'); one other Hadith is assessed as Mukhtalif (meaning: 'Contradictory'); five more Hadiths whose their 'Authenticity of Correspondents' is 'Daeef'(meaning: 'Weak'); and another three Hadiths are 'Authenticated to be 'DaeefJidan' (meaning: 'Very Weak').

Then, the study included the most important results reached, such as: clarifying the number of the related Hadiths and their categorization; giving a definite definition of the concept of 'Taali'; identifying the aspects of 'Taali'; and how the Prophet addressed it.

Keywords: Hadiths jurisprudence, Taali concept, aspects, Tongue lesions.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله عز وجل خلق اللسان وجعله نعمة من نعمه العظيمة، وبديعة من بدائعه العجيبة، وقد جاء القرآن الكريم بالتحذير من خطره وآفاته، ووجوب التحرز من فلتاته ولفظاته، فقال الله جل شأنه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٨].

كما أن السنة النبوية زخرت بالأخبار المرهبة من آفات اللسان، مبيّنة جزاء المُصْرَطِّ في كَبْحِ جَمَاحه، سواء متلفظاً باليمنوع أو صامتاً عن الحق، ففي السنن أن معاذاً قال: يا نبي الله، وأنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟، فقال: ((تكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟))^(١).

وإن من آفاته الخطيرة ما ثبت في السنة المطهرة من التحذير من التآلي على الله عز وجل على وجه الكبر والعجب والغرور؛ لما فيه من سوء الأدب مع الخالق عز وجل، فليس لأحد أن يجزم على أمر غيبي، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

إن للموضوع أهمية بالغة؛ لتعلقه بالله عز وجل، ولما يترتب على صاحبه من المآل الوخيم الذي ربما خسر فيه دنياه وآخرته.

وكان سبب اختيار الموضوع كثرة الألفاظ المتداولة في المجتمع وخاصة بين عوام المسلمين -، كقول: فلان محرمة عليه الجنة، وقول القائل في حق من مات: ذهب إلى جهنم وبئس المصير، أو قول: سلم على فرعون وأبي لهب، وغيرها من الألفاظ التي فيها تآلي على الله عز وجل، وتحجير لرحمته الواسعة، فمآل العباد إلى الله تعالى ليس لأحد

(١) أخرجه الترمذي، أبواب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة (١١/٥) رقم (٢٦١٦) واللفظ له، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (١٢١٤/٢) رقم (٣٩٧٣)، والنسائي في السنن الكبرى (٢١٤/١٠) رقم (١١٣٢٠). قال الترمذي: ((حديث حسن صحيح)). وقال العقيلي: ((وفي هذا الباب عن معاذ، وغيره، أحاديث ثابتة)). الضعفاء الكبير (٤٨٠/٣).

من الخلق أن يمنع رحمة الخالق عن أحد من عباده؛ لذا رغبت في المساهمة في معالجة هذا السلوك من خلال دراسته في ضوء السنة النبوية.

أهداف البحث:

١. خدمة سنة النبي ﷺ.
٢. التحذير من الألفاظ المنهي عنها شرعاً، ورُتّب عليها مآل وخيم.
٣. توضيح مفهوم التآلي على الله عزوجل، وتمييز الفرق بين الممنوع والمشروع.
٤. معالجة هذه القضية السلوكية وفق هدي السنة النبوية الشريفة.
٥. دراسة أحاديث البحث دراسة حديثة وتمييز الصحيح من السقيم.
٦. بيان أهم المسائل التي أشارت إليها أحاديث الدراسة.

حدود البحث:

يقتصر البحث على الأحاديث المرفوعة الواردة في التآلي الممنوع، من خلال كتب السنة عدا الكتب التسعة.

مشكلات البحث:

في ضوء ما جاءت به الأحاديث النبوية من التحذير من التآلي على الله عزوجل، تناول البحث الإجابة عن جملة من الأسئلة منها:
ما معنى التآلي على الله تعالى؟
وما أقسامه؟ وما حكم كل قسم؟
وكيف عالج النبي ﷺ قضية التآلي الممنوع؟

الدراسات السابقة:

لم أقف على دراسة جمعت أحاديث التآلي على الله عزوجل بوجهه الممنوع، عدا رسالة علمية بعنوان: "الأحاديث الواردة في المناهي اللفظية جمع ودراسة من خلال الكتب التسعة"، للباحث: بدر بن حمود الرويلي، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وقد تطرّق فيها الباحث في أحد مباحث رسالته فجمع أحاديث النهي عن التآلي في حدود الكتب التسعة، وقد اشتملت على حديثين، بينما هذه الدراسة ستتناوله من خلال سائر كتب السنة دون الكتب التسعة، وقد بلغت عشرة أحاديث.

منهج البحث:

يعتمد البحث على منهج الاستقراء والتتبع، وكان العمل فيه على النحو التالي:

١. جمع الأحاديث المرفوعة في التآلي المنوع محذوفة الأسانيد، من خلال كتب السنة عدا الكتب التسعة مرتبة من حيث الصحة.
٢. أورد الحديث بتمامه، فإن كان السياق طويلاً اكتفيت منه بموضع الشاهد.
٣. أخرج الحديث من كتب السنة ومصادرها الأصيلة، مع دراسة إسناده وبيان الحكم عليه.
٤. أُبين أهم المسائل التي أشارت إليها الأحاديث مما له صلة بالموضوع.
٥. أكتب الآيات (الواردة في المتن) وفق الرسم العثماني، موضحاً اسم السورة، ورقم الآية بعدها.

وقد قسّمته وفق الخطة التالية:

المقدمة: وتشتمل على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وحدود البحث ومشكلاته، ومنهجه، وخطته.

التمهيد: وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: مفهوم التآلي على الله تعالى.
- المطلب الثاني: أقسام التآلي على الله تعالى.

المبحث الأول: تخريج الأحاديث الواردة في التآلي المنوع، وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: الأحاديث الصحيحة والحسنة.
- المطلب الثاني: الأحاديث الضعيفة.
- المطلب الثالث: الأحاديث الضعيفة جداً.

المبحث الثاني: فقه أحاديث الباب.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

تمهيد

المطلب الأول

مفهوم التائي على الله تعالى

التَّائِي فِي اللُّغَةِ: مَاخُودٌ مِنَ الْأَيْتَةِ وَهِيَ الْيَمِينُ، وَجَمَعَهُ الْأَلْيَا عَلَى وَزْنِ الْبَلِيَّةِ وَالْبَلَايَا.
قال الشاعر:

قَلِيلُ الْأَلْيَا حَافِظٌ لِيَمِينِهِ فَإِنْ سَبَقَتْ مِنْهُ الْأَيْتَةُ بَرَّتْ^(١)
وقال آخر:

وَأَكْذَبُ مَا يَكُونُ أَبُو الْمَثْنَى إِذَا آتَى يَمِينًا بِالطَّلَاقِ^(٢)
وربما قالوا: الْأُتُوَّةُ أَوْ الْأُتُوَّةُ أَوْ الْإِلُّوَّةُ فِي مَعْنَى الْأَيْتَةِ.

ويقال: آتَى الرَّجُلُ يُوَلِّي إِيْلَاءً إِذَا حَلَفَ. وَتَأَلَّى يَتَأَلَّى تَأَلُّيًّا، وَاتَّلَى يَأْتَلِي اتِّتْلَاءً^(٣).
قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَتَسَعَةً﴾ [النور: ٢٢].
وقال الفرّاء: "الائتلاء: الحلف"^(٤).

ومنه حديث: "من ذا الذي يتألى علي"^(٥)، يعني: الذي يحكم على الله تعالى
فيزعم أنه لا يفخر لفلان.

(١) قائله كَثِيرٌ عَزَّةٌ. ينظر: ديوان كَثِيرٍ عَزَّةٌ (ص ٢٢٥).

(٢) القوايف، للتوخي (ص ٦١).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة (١٥/٢١٠)، الصحاح (٦/٢٢٧٠) مادة: ((أَلَا))، طلبه الطلبة (ص ٦١).

(٤) معاني القرآن (٢/٢٤٨).

(٥) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن تقنين الإنسان من رحمة الله تعالى
(٢٠٢٣/٤) رقم (١٣٧-٢٦٢١).

وفي الاصطلاح: هو الجراءة بالحلف على الله تعالى والحكم عليه على أمر من أمور الغيب^(١).

ومن أمثلة ذلك: قول القائل: (والله لا يغفر الله لفلان)، أو (فلان بعيد عن الهداية)، ونحو ذلك مما باعته العجب والكبر والغرور.

المطلب الثاني

أقسام التآلي على الله تعالى.

لقد بينت الأخبار الواردة عن النبي ﷺ أن الإقسام على الله عزوجل ينقسم إلى قسمين:

الأول: مشروع، وله صورتان:

الصورة الأولى:

أن يقسم بما أخبر الله عزوجل به ورسوله ﷺ من نفي أو إثبات ليقينه بذلك، كقول: والله ليشقن الله نبيه في الخلق يوم القيامة، أو يقول: والله لا يغفر الله لمن أشرك به ومات عليه، ونحو ذلك.

الصورة الثانية:

أن يقسم على الله تعالى لقوة رجائه، وثقته بعطائه، وحسن ظنه بربه، وتأميل الخير منه، كأن يقسم على الله تعالى بأن يسقي العباد بالأمطار؛ لقوة ثقته برحمة الله وعطائه، أو أن ينصرهم على الأعداء؛ لقوة حسن ظنه بالله عزوجل وأنه ناصر المؤمنين، ونحو ذلك.

(١) ينظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (١٠٢/٨)، المفاتيح في شرح المصاييح، للمظهري (١٨٢/٣)، الكاشف عن حقائق السنن، للطيب (١٨٤٤/٦).

ويشهد لهذا نصوص من السنة، منها:

حديث أنس - رضي الله عنه - : ((إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره))^(١).

الثاني: ممنوع:

بأن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنعس، والحقد، والكبر، والغرور، والجهل، والتعجل، وتَحَجُّر فضل الله عز وجل، وسوء الظن به تعالى فهذا محرم، وهو وشيك بأن يُحْبَطُ اللهُ عز وجل عمل هذا المُقْسَمِ^(٢)، وقد جاء في حديث جندب بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان، قد غفرت له وأحيطت عملك))^(٣).

(١) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر﴾ [البقرة: ١٧٨] إلى قوله ﴿عذاب أليم﴾ [البقرة: ١٠] [٢٤/٦] رقم (٤٥٠٠)، ومسلم، كتاب: القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: إثبات القصاص في الأسنان، وما في معناها (١٣٠٢/٣) رقم (٢٤ - ١٦٧٥).

(٢) ينظر: حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم (ص ٣٨٨)، القول المفيد (٢/٤٩٧-٤٩٩)، معجم المناهي اللفظية (ص ٥٣٧).

(٣) سبق تخريجه ص ٦.

المبحث الأول

تخريج الأحاديث الواردة في التآلي الممنوع

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول

الأحاديث الصحيحة والحسنة، وفيه حديثان:

[١]- عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: ((يقول الله عز وجل: من تألى على عبي، أدخلت عبي الجنة وأدخلته النار)).

تخريج الحديث:

أخرجه مُسَدَّد في مسنده كما في (المطالب العالية) ^(١) قال: حدثنا الحارث بن عبيد، عن عامر الأحول، عن فطر بن خليفة، عن أبي بشر جعفر ابن أبي وحشية، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس (رضي الله عنهما).

الحكم على الحديث:

إسناده فيه ضعف ويحتمل التحسين؛ ففيه الحارث بن عبيد، و عامر الأحول، مختلف فيهما، وبقية رجال إسناده ثقات.

الحارث بن عبيد:

قال ابن مهدي: "من شيوخنا وما رأيت إلا خيراً" ^(٢).
وقال ابن معين: "ضعيف الحديث" ^(٣)، ومرة قال: "في حديثه ضعف" ^(٤).

(١) (٥٥٢/١٢) رقم (٢٠٠١).

(٢) التاريخ الكبير (٢٧٥/٢).

(٣) من كلام أبي زكريا يحيى بن معين في الرجال (رواية طهمان) (ص ٦٧).

(٤) تاريخ ابن معين (رواية الدوري) (٢٤٨/٤).

- وقال أحمد بن حنبل: " مضطرب الحديث " ^(١).
- وقال أبو حاتم: " ليس بالقوي، يكتب حديثه ولا يحتج به " ^(٢).
- وقال النسائي: " ليس بالقوي " ^(٣)، ومرة قال: " صالح " ^(٤).
- وقال الساجي: " صدوق عنده مناكير " ^(٥).
- وقال ابن حبان: " كان شيخاً صالحاً ممن كثر وهمه حتى خرج عن جملة من يحتج بهم إذا انفردوا " ^(٦).
- وقال الذهبي: " ليس بالكثير، وهو حسن الحديث " ^(٧).
- وقال ابن حجر: " صدوق يخطئ " ^(٨).
- فالخلاصة: أنه يحتج به فيما يتابعه عليه الثقات، وقد روى له مسلم في صحيحه ^(٩).

عامر الأ حول :

- قال ابن معين: " ليس به بأس " ^(١٠). ووثقه مسلم ^(١١).
- وقال أبو حاتم: " ثقة، لا بأس به " ^(١٢).
- وقال الساجي: " يحتمل لصدقه، وهو صدوق " ^(١٣).
- وقال ابن عدي: لا أرى بروايته بأساً " ^(١٤).

- (١) العلل ومعرفة الرجال (رواية ابنه عبد الله) (٢٧/٣).
- (٢) الجرح والتعديل (٨١/٣).
- (٣) الضعفاء والمتروكون ص ٢٩.
- (٤) تهذيب التهذيب (١٥٠/٢).
- (٥) إكمال تهذيب الكمال (٣٠٥/٣).
- (٦) المجروحين (٢٢٤/١).
- (٧) تاريخ الإسلام (٥٩٧/٤).
- (٨) تقريب التهذيب (ص ١٤٧ رقم ١٠٣٣).
- (٩) ينظر: تهذيب الكمال (٢٦٠/٥).
- (١٠) ينظر: الجرح والتعديل (٣٢٦/٦).
- (١١) ينظر: ميزان الاعتدال (٣٦٢/٢).
- (١٢) الجرح والتعديل (٣٢٧/٦).
- (١٣) إكمال تهذيب الكمال (١٤٦/٧).
- (١٤) الكامل في ضعفاء الرجال (١٥٤/٦).

وقد ضعفه أحمد بن حنبل، فقال: " في حديثه شيء " (١)، ومرة قال: " ليس بالقوي، ضعيف الحديث " (٢). وكذا النسائي، فقال: " ليس بالقوي " (٣).

والخلاصة: يظهر أنه محتج به؛ فجرحه مبهم وكل من جرحه لم يكن جرحه مفسراً في مقابل التوثيق. والله أعلم.

والحديث يشهد له ما جاء في حديث جندب - رضي الله عنه - : " من ذا الذي يتألى علي " (٤).

قال البوصيري في تعليقه على الحديث - : " رواه مُسَدَّد، وأصله في صحيح مسلم من حديث جندب بن عبد الله " (٥).

[٢]- عن أبي قتادة الأنصاري - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: ((ألا أحدثكم عن رجلين من بني إسرائيل، أما أحدهما فيرى أنه أفضلهما في الدين والعلم والخلق، وأما الآخر فيرى أنه مسرف على نفسه، فذكر عند صاحبه، فقال: لن يغفر الله له، فقال الله: " ألم تعلم أني أرحم الراحمين، ألم تعلم أن رحمتي سبقت غضبي، واني قد أوجبت لهذا الرحمة ولهذا العذاب "، قال رسول الله ﷺ: فلا تتألوا على الله)) .

تخريج الحديث:

أخرجه ابن أبي الدنيا في (حسن الظن بالله) (٦)، والطبراني في (مسند الشاميين) (٧) واللفظ له، وعنه أبو نعيم في (حلية الأولياء) (٨)، من طريق أبي مسهر.

(١) العلل ومعرفة الرجال (رواية ابنه عبد الله) (٤٤/٢).

(٢) المصدر نفسه (١٨٢/٢).

(٣) ميزان الاعتدال (٣٦٢/٢).

(٤) سبق تخريجه ص ٦.

(٥) إتحاف الخيرة المهرة (٣٧٨/٧) رقم (٧١٢٠).

(٦) (ص ٥٢) رقم (٤٤) بنحوه.

(٧) (١٦٨/١) رقم (٢٨١).

(٨) (٢٧٥/٨) بنحوه.

وأخرجه ابن عساكر في (تاريخ دمشق) ^(١) من طريق الوليد بن مسلم، ومن طريق بشر بن بكر.

ثلاثتهم (أبو مسهر، والوليد، وبشر) عن سعيد بن عبد العزيز، عن إسماعيل بن عبيد الله، عن رجل من آل جبير بن مطعم، عن أبي قتادة - رضي الله عنه - .

الحكم على الحديث:

رجال إسناده ثقات عدا الرجل من آل جبير لم يُصرَّح باسمه، إلا أن ابن عساكر قال في تاريخه: "قال أبو زرعة الدمشقي: سألت عبد الرحمن بن إبراهيم عن اسم هذا الرجل الذي من ولد جبير، فقال: هو نافع بن علقمة .." ^(٢).

وبهذا يزول الإبهام.

ونافع بن علقمة مختلف في صحبته:

قال ابن أبي حاتم: "يقال: إنه سمع من النبي ﷺ، وقال -: سمعت أبي يقول: لا أعلم له صحبة" ^(٣).

وقال ابن حبان: "يروى عن جماعة من الصحابة، روى عنه الناس" ^(٤).

وقال ابن عبد البر: "يقال: إنه سمع النبي ﷺ، وقد قيل: إن حديثه مرسل" ^(٥).

وذكره أبو موسى المدني في (معرفة الصحابة) ^(٦)، وابن الأثير في (أسد الغابة) ^(٧)، وابن حجر في (الإصابة) ^(٨)، وقالوا: "ذكره ابن شاهين في الصحابة". ورجح ابن حجر صحبته.

(١) (٤١١/٦١) بنحوه.

(٢) تاريخ دمشق (٤١١/٦١).

(٣) الجرح والتعديل (٤٥١/٨).

(٤) الثقات (٤٦٩/٥).

(٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١٤٩١/٤).

(٦) نقله العيني في نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار (٩٧/١٦).

(٧) (٥٢٩/٤).

(٨) (٣٢٣/٦).

قال أبو نعيم عقب الحديث - " غريب من حديث إسماعيل، لم نكتبه إلا من حديث سعيد" (١).

وللحديث شواهد، كحديث جندب^(٢)، وأبي هريرة^(٣) رضي الله عنهما.

المطلب الثاني

الأحاديث الضعيفة، وفيه خمسة أحاديث:

[١]- عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: ((فيمن كان قبلكم رجل وطئ على عنق نبي، قال: فقال له: والله لا يغفر الله لك هذا أبداً، قال: فقال الله عز وجل: تآلى علي، فإني قد غفرت له)) .

تخريج الحديث:

أخرجه معمر بن راشد في جامعه^(٤)، ومن طريقه الطبراني في (المعجم الكبير)^(٥)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء)^(٦).

بلفظ: ((عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رجلاً مرَّ برجل وهو ساجد فوطئ على رقبتة، فقال: أتطأ على رقبتتي وأنا ساجد؟ والله لا يغفر الله لك أبداً ..)) وذكره

(١) حلية الأولياء (٢٧٥/٨).

(٢) سبق تخريجه ص ٦.

(٣) ولفظه: " كان رجلاً من بني إسرائيل متواخين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر، فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي أبعثت علي رقيباً؟، فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة -، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً؟، أو كنت على ما في يدي قادراً؟، وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار". قال أبو هريرة: " والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وأخرته ". أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في النهي عن البغي (٢٧٥/٤) رقم (٤٩٠١)، وأحمد (٤٦/١٤) رقم (٨٢٩٢)، وابن حبان (٢٠/١٣) رقم (٥٧١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٢/٩) رقم (٦٢٦٢)، واللفظ لأبي داود وإسناده حسن.

(٤) (١٨٢/١١) رقم (٢٠٢٧٥) بنحوه.

(٥) (١٥٨/٩) رقم (٨٧٩٥).

(٦) (٢٠٥/٤) بمثله.

بنحوه. واللفظ للطبراني.

وأخرجه مسدد في مسنده كما في (المطالب العالوية) ^(١)، والشاشي في مسنده ^(٢) واللفظ له، من طريق شعبة بن الحجاج.

كلاهما (معمر، وشعبة) عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - .

الحكم على الحديث:

إسناده ضعيف؛ لانقطاع سنده، فهو يروى من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، وقد اختلف النقاد في سماع أبي عبيدة من أبيه:

قال شعبة: " عن عمرو بن مرة قال: قلت لأبي عبيدة: تذكر من أبيك شيئاً؟ قال: لا " ^(٣).

وقال ابن سعد: " روى عن أبيه رواية كثيرة، وذكروا أنه لم يسمع منه شيئاً " ^(٤).

ونص على عدم سماعه ابن معين ^(٥)، وأحمد ^(٦)، والترمذي ^(٧)، وأبو حاتم ^(٨)، وغيرهم ^(٩).

وسئل الدارقطني: " قيل: سماع أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه صحيح؟ قال: يختلف فيه، والصحيح عندي أنه لم يسمع منه، ولكنه كان صغيراً بين يديه " ^(١٠).

-
- (١) (٤٢٥/١٢) رقم (٢٩٣٩) بنحوه.
 - (٢) (٣٣٤/٢) رقم (٩٢٩).
 - (٣) العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل (رواية ابنه عبد الله) (٢٨٤/١) رقم (٤٥٦)، المراسيل لابن أبي حاتم (ص ٢٥٦) رقم (٩٥٢).
 - (٤) الطبقات الكبرى (٢١٠/٦).
 - (٥) ينظر: تاريخ ابن معين (رواية الدوري) (٣٥٤/٣) رقم (١٧١٦).
 - (٦) ينظر: موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله (٢١٩/٤) رقم (٣٧٠٩).
 - (٧) ينظر: سنن الترمذي (٢٥/١) رقم (١٧).
 - (٨) ينظر: المراسيل لابن أبي حاتم (ص ٢٥٦) رقم (٩٥٣).
 - (٩) ينظر: الثقات (٥٦١/٥)، تهذيب الكمال (٦١/١٤)، جامع التحصيل (ص ٢٠٤).
 - (١٠) علل الدارقطني (٣٠٨/٥) رقم (٩٠٢).

وقال الذهبي: " روى عن أبيه شيئاً، وأرسل عنه أشياء" (١).
وقال في موضع آخر: " روى عن أبيه مراسلاً" (٢).
وقال الحافظ ابن حجر: " اختلف في سماعه من أبيه، والأكثر على أنه لم يسمع
منه، وثبت له لقاءه وسماع كلامه، فروايته عنه داخلة في التدليس، وهو أولى بالذكر من
أخيه عبد الرحمن" (٣).

والذي يظهر عدم سماعه، لا سيما وهو قول أكثر النقاد. والله أعلم.

[٢]- عن جعفر العبدي قال: قال رسول الله ﷺ: ((ويل للمتأئين من
أمتي الذين يقولون: فلان في الجنة، فلان في النار)).

تخريج الحديث:

أخرجه مُسَدَّد في مسنده كما في (المطالب العلية) (٤) واللفظ له، والبخاري في
(التاريخ الكبير) (٥) "تليقاً"، وابن بطة في (الإبانة الكبرى) (٦)، من طريق ليث بن
أبي سليم، عن زيد بن أرقط الفزاري، عن جعفر العبدي، به مرفوعاً.

الحكم على الحديث:

إسناده ضعيف؛ لعلتين:

الأولى: الإرسال؛ فجعفر العبدي لم يدرك النبي ﷺ، قال الحافظ ابن حجر: " قال أبو موسى: إن كان هذا هو جعفر بن زيد العبدي فهو تابعي معروف. وإلا فما أعرفه. قلت: هو هو، فقد ذكره البخاري في (التاريخ)، وذكر هذا الحديث في ترجمته من طريق معتمر، وقال: هو مرسل" (٧).

(١) سير أعلام النبلاء (٣٦٣/٤).

(٢) تاريخ الإسلام (١٠٢٩/٢).

(٣) تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس (ص ٤٨).

(٤) (٥٥١/١٢) رقم (٣٠٠٠).

(٥) (١٩١/٢).

(٦) (٧٥٣/٢) رقم (١٠٤٩) بمثله.

(٧) الإصابة في تمييز الصحابة (٦٤٨/١).

الثانية: فيه ليث بن أبي سليم ضعيف، ضعفه ابن سعد^(١)، وابن معين^(٢)، والنسائي^(٣)، والدارقطني^(٤).

وقال أحمد بن حنبل: ((مضطرب الحديث، ولكن حَدَّثَ الناس عنه))^(٥).
وقال أبو زرعة، وأبو حاتم: ((ليث لا يُشْتَغَلُ به، هو مضطرب الحديث))^(٦).
وقال ابن حجر: ((صدوق اختلط جداً، ولم يتميز حديثه فترك))^(٧).

[٣]- عن أبي أمامة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ وهو راكب على الجداء^(٨)، وخلفه الفضل بن عباس (رضي الله عنهما) يقول: ((لا تألوا على الله، لا تألوا على الله، فإنه من تألى على الله أكذبه الله)).

تخريج الحديث:

أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير)^(٩) من طريق محمد بن سلمة، عن أبي عبد الرحيم خالد بن أبي يزيد الحراني، عن أبي عبد الملك، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - .

- (١) ينظر: الطبقات الكبرى (٣٤٩/٦).
- (٢) ينظر: تاريخ ابن معين (رواية الدارمي) (ص ١٥٨).
- (٣) ينظر: الضعفاء والمتروكون (ص ٩٠).
- (٤) سنن الدارقطني (١٢٢/٢).
- (٥) العلل ومعرفة الرجال (رواية ابنه عبد الله) (٣٧٩/٢).
- (٦) الجرح والتعديل (١٧٩/٧).
- (٧) تقريب التهذيب (ص ٤٦٤).
- (٨) الجداء: اسم ناقية النبي ﷺ، والجداء هي المقطوعة الأذن، وقيل: لم تكن ناقته مقطوعة الأذن، وإنما كان هذا اسماً لها. ينظر: النهاية في غريب الحديث (٢٤٧/١).
- (٩) (٢٢٩/٨) رقم (٧٨٩٨).

الحكم على الحديث:

إسناده ضعيف؛ لضعف أبي عبد الملك علي بن يزيد الألهاني^(١)، وبه ضعفه الهيثمي^(٢)، والألباني^(٣).

[٤]- عن أبي هريرة -رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ((من حتم^(٤) على الله أكذبه)) .

تخريج الحديث:

أخرجه ابن أبي الدنيا في (المنامات)^(٥)، وابن بطة في (الإبانة الكبرى)^(٦) واللفظ له، من طريق عبد الملك بن عمرو، عن عكرمة بن عمار، عن يحيى بن أبي كثير، أن النبي ﷺ قال: .. فذكره.

وقد عزاه في (كنز العمال)^(٧) إلى أبي نعيم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - ، ولم أجده عنده فيما وقفت عليه من كتبه المطبوعة.

الحكم على الحديث:

إسناده ضعيف؛ لعلّة الإرسال، فيحیی بن أبي كثير يرفعه إلى النبي ﷺ، ويحیی من صفار التابعين.

(١) ينظر: تقریب التهذیب (ص ٤٠٦).

(٢) ينظر: مجمع الزوائد (٢٠٨/٧) رقم (١١٨٩٧)، وقال في موضع آخر عند رقم (٥٦٣٨): " رواه الطبراني في الكبير، وفيه علي بن يزيد، وهو ضعيف، وقد وثق "

(٣) ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤٥٨/٨) رقم (٣٩٩٢).

(٤) حتم: الحتم هو اللازم الواجب الذي لا بد من فعله. والمعنى: من أوجب على الله وألزمه. ينظر: النهاية في غريب الحديث (٣٣٨/١).

(٥) (ص ١٤٧) رقم (٣٣٣) ضمن قصة يرويها أبو هريرة t، ثم قال ابن أبي الدنيا في آخرها: " وزعم يحيى .. "

(٦) (٨٧٠/٢) رقم (١١٨٦).

(٧) (٥٦٠/٣) رقم (٧٩٠٥).

ولم يثبت عندي أنه من مسند أبي هريرة - رضي الله عنه - .

كما أنه من رواية عكرمة بن عمار، عن يحيى بن أبي كثير، وقد قال أحمد بن حنبل^(١)، والبخاري^(٢): ((مضطرب الحديث عن يحيى بن أبي كثير)) .

[٥]- عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: من زعم أنه مؤمن فهو كافر، ومن زعم أنه في الجنة فهو في النار، ومن زعم أنه عالم فهو جاهل، قال: فنازعه رجل، فقال: إن تذهبوا بالسلطان فإن لنا الجنة، قال: فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من زعم أنه في الجنة فهو في النار)) .

تخريج الحديث:

أخرجه الحارث في مسنده كما في (بغية الباحث)^(٣) واللفظ له، وأبو بكر الخلال في (السنة)^(٤)، وابن بطة في (الإبانة الكبرى)^(٥)، من طريق همام بن يحيى، عن قتادة، عن عمر - رضي الله عنه - .

وأخرجه مسدد في مسنده كما في (المطالب العالية)^(٦) من طريق موسى بن عبيدة، عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيْز، بلفظ: " قال عمر بن الخطاب: إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه، ومن قال: أنا عالم فهو جاهل، ومن قال: إني في الجنة فهو في النار " .

وأخرجه أبو بكر الخلال في (السنة)^(٧) واللفظ له، من طريق معتمر بن سليمان، عن ليث.

(١) العلل ومعرفة الرجال (رواية ابنه عبد الله) (١١٧/٣) .

(٢) نقله العقيلي في (الضعفاء الكبير) (٣٧٨/٣)، وابن عدي في (الكامل في ضعفاء الرجال) (٤٧٨/٦) .

(٣) (١٦٢/١) رقم (١٧) .

(٤) (١٠٨/٤) رقم (١٢٨٢) بمثله .

(٥) (٨٦٨/٢) رقم (١١٨٠) بمثله .

(٦) (٥٥٩/١٢) رقم (٣٠٠٦) .

(٧) (١١١/٤) رقم (١٢٩٠) .

وأخرجه اللالكائي في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة) ^(١)، من طريق معتمر بن سليمان، عن أبيه.

كلاهما (ليث، وسليمان) عن نعيم بن أبي هند قال: قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : "من قال: أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال: هو عالم فهو جاهل، ومن قال: هو في الجنة فهو في النار".

الحكم على الحديث:

إسناده ضعيف؛ لانقطاع سنده، فقتادة لم يسمع من عمر - رضي الله عنه - ، وقد كان مولده بعد وفاة عمر - رضي الله عنه - ببضع وثلاثين سنة ^(٢).

قال البوصيري في حكمه على الحديث -: "صحيح إلا أنه منقطع" ^(٣).

وأما ما أخرجه مسددموقفاً له حكم الرفع - ، فإسناده ضعيف؛ فيه موسى بن عبيدة ضعيف ^(٤).

وأما ما أخرجه الخلال فإسناده منقطع أيضاً؛ نعيم بن أبي هند لم يدرك عمر - رضي الله عنه - ^(٥).

وعليه، فلا يثبت عن عمر - رضي الله عنه - في هذا الباب شيء فيما وقفت عليه من طرق - . والله أعلم.

(١) (١٠٤٧/٥) رقم (١٧٧٧) بمثله.

(٢) وفيات الأعيان (٨٥/٤)، سير أعلام النبلاء (٢٧٠/٥).

(٣) إتحاف الخيرة المهرة (١٣٧/١) رقم (٢-١٢٥).

(٤) تقريب التهذيب (ص ٥٥٢) رقم (٦٩٨٩).

(٥) الجرح والتعديل (٤٦٠/٨)، الثقات لابن حبان (٥٣٦/٧)، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم (٢٦٣/١).

المطلب الثالث

الأحاديث الضعيفة جداً، وفيه ثلاثة أحاديث:

[١]- عن عقبة بن عامر الجهني - رضي الله عنه - قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.. ثم ساق الحديث بطوله -، وجاء فيه: (ومن يتألى على الله يُكذبه).

تخريج الحديث:

أخرجه القُضاعي في (مسند الشهاب) ^(١)، والبيهقي في (دلائل النبوة) ^(٢) واللفظ له، وأبو القاسم ابن منده في (المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة) ^(٣)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) ^(٤)، كلهم من طريق يعقوب بن محمد بن عيسى الزهري، عن عبد العزيز ابن عمران، عن عبد الله بن مصعب بن منظور بن جميل، عن أبيه، عن عقبة بن عامر الجهني أ.

الحكم على الحديث:

إسناده ضعيف جداً؛ فيه عبد العزيز بن عمران الزهري، وهو عبد العزيز بن أبي ثابت، قال البخاري: "منكر الحديث، لا يكتب حديثه" ^(٥).

وقال النسائي وغيره: "متروك" ^(٦).

وعبد الله بن مصعب بن منظور ووالده لم أجد لهما ترجمة.

قال ابن كثير: "هذا حديث غريب، وفيه نكارة، وفي إسناده ضعف" ^(٧).

وكذلك ضعّفه الألباني، فقال في تعليقه على حديث عقبة -: "أخرجه ابن عدي،

(١) (٥٨/١) رقم (٢٨) وليس فيه ذكر التآلي على الله تعالى، وإنما قال: "وذكر خطبة النبي I بطولها".

(٢) (٢٤٢-٢٤١/٥).

(٣) (٣٩٩/١) بنحوه.

(٤) (٢٤٠/٥١) بنحوه.

(٥) الضعفاء الصغير (ص ٨٨).

(٦) الضعفاء والمتروكون (ص ٧٢)، ميزان الاعتدال (٢/٦٣٢).

(٧) البداية والنهاية (١٧١/٧).

والقُضَاعِي (١٢/١٠٩) من طريق عبد العزيز بن عمران، قال: أخبرنا عبد الله بن مصعب بن منظور، قال: أنبأنا أبي قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: فذكره.

قلت: وعبد العزيز بن عمران هذا هو الزهري المديمتروك؛ كما قال النسائي وغيره^(١).

[٢]- عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال هو على المنبر - : يا أيها الناس تواضعوا؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من تواضع لله رفعه ..)) الحديث. وفيه: ((من يتأل على الله يكذبه ..)) .

تخريج الحديث:

أخرجه الطبراني في (المعجم الأوسط)^(٢)، والقطيعي في (جزء الألف دينار)^(٣)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء)^(٤)، والقضاعي في (مسند الشهاب)^(٥) واللفظ له، والبيهقي في (شعب الإيمان)^(٦)، كلهم من طريق سعيد بن سلام العطار، عن سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم بن عابس بن ربيعة، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - .

الحكم على الحديث:

إسناده ضعيف جداً إن لم يكن موضوعاً؛ فيه سعيد بن سلام العطار، كذبه ابن نمير^(٧)، وأحمد بن حنبل^(٨).

(١) ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة (١١٨/٦) رقم (٢٦١١).

(٢) (١٧٢/٨) رقم (٨٣٠٧) بنحوه، ولم يذكر التالي على الله.

(٣) (ص٤١٧) رقم (٢٧٥) بنحوه، ولم يذكر التالي على الله.

(٤) (١٢٩/٧) بنحوه، ولم يذكر التالي على الله.

(٥) (٢١٩/١) رقم (٣٣٥).

(٦) (٤٥٥/١٠) رقم (٧٧٩٠) بنحوه، ولم يذكر التالي على الله.

(٧) ينظر: العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل (رواية ابنه عبد الله) (٣٦١/٣) رقم (٥٥٨٥).

(٨) المصدر نفسه.

وقال البخاري: "يُذكر بوضع الحديث عن سفيان" ^(١).
وقال في موضع آخر: "سعيد بن سلام أبو الحسن البصري عن الثوري منكر
الحديث" ^(٢).

وقال أبو حاتم: "منكر الحديث جداً" ^(٣).
وقال النسائي: "متروك الحديث" ^(٤).

وقال ابن حبان: "منكر الحديث، ينفرد عن الأثبات بما لا أصل له" ^(٥).

[٣]- عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ: ((من قال:
إنه في النار فهو في النار، ومن قال: إنه في الجنة فهو في النار)) .

تخريج الحديث:

أخرجه ابن عدي في (الكامل في ضعفاء الرجال) ^(٦) من طريق حسين بن علي بن
مهران، عن السَّمِيدِع بن صبيح العتكي، عن ضرار بن عمرو، عن الحسن عن أنس -
رضي الله عنه - .

الحكم على الحديث:

إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ جَدًّا؛ فِيهِ حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَالسَّمِيدِعُ بْنُ صَبِيحٍ، لَمْ أَجِدْ لَهُمَا تَرْجُمَةً.
وضرار بن عمرو ضعّفه ابن معين ^(٧).
وقال البخاري: "فيه نظر" ^(٨).
وقال ابن عدي: "منكر الحديث" ^(٩).

-
- (١) التاريخ الأوسط (٢/٢٤٣).
 - (٢) التاريخ الكبير (٣/٤٨١-٤٨٢).
 - (٣) الجرح والتعديل (٤/٢٢).
 - (٤) ينظر: الضعفاء والمتروكون (ص٥٢).
 - (٥) المجروحين (١/٢٢١).
 - (٦) (٥/١٦١).
 - (٧) ميزان الاعتدال (٢/٢٢٨)، لسان الميزان (٤/٢٤٠).
 - (٨) التاريخ الكبير (٤/٢٣٩) رقم (٣٠٥١).
 - (٩) الكامل في ضعفاء الرجال (٥/١٦١).

المبحث الثاني

فقه أحاديث الباب

١. فيها دلالة على تحريم الحلف على الله تعالى على وجه الحجر، بأنه لا يرحم عباده، أو لا يغفر لهم، أو لا يدخلهم الجنة، ونحو ذلك؛ لكونه من سوء الأدب مع الله عزوجل، وهو مناف لكمال التوحيد، إن لم يكن مناف لأصله، فليس لأحد أن يعلم الغيب أو يفترقات على الله عزوجل بأن يمنعه من أن يتصرف في خلقه، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ويدخل الجنة من شاء، سبحانه هو الحكيم الخبير^(١).
٢. إن الحامل للمقسم على الله تعالى هو الإعجاب بالإنفس، والكبر، والجهل، وسوء الظن به تعالى، وهو وشيك بأن يحبط الله عزوجل عمل هذا المقسم^(٢)؛ لكونه جهل سعة رحمة الله وكرمه، قال ابن الجوزي رحمه الله " وهذا المتألي جهل سعة الكرم فعوقب بإحباط العمل"^(٣).
٣. إنه من أعظم البغي أن يشهد على مَعِينٍ أن الله لا يغفر له، أو لا يرحمه، أو لا يدخله الجنة؛ فإن هذا حكم الكافر بعد الموت؛ لأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهداً مخطئاً مغفوراً له، أو يمكن أن يكون ممن لم يبلغه نص شرعي بحرمة فعله، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجب له رحمة الله تعالى^(٤)، فعقيدة أهل السنة والجماعة تنص على: أننا لا نجزم لأحد بجنة ولا نار إلا لمن ورد فيه نص شرعي. قال الطحاوي: ^(٥) "ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم، ولا نزل أحداً منهم جنة ولا ناراً"^(٥).

(١) ينظر: القول المفيد (٤٩٩/٢).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٥٠/٢).

(٤) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٤٣٦/٢-٤٣٧).

(٥) العقيدة الطحاوية (شرح وتعليق الألباني) (ص ٦٧).

وقال ابن أبي العز الحنفي: ^(١) لا نقول عن أحد معين من أهل القبلة إنه من أهل الجنة أو من أهل النار، إلا من أخبر الصادق عليه السلام أنه من أهل الجنة، كالعشرة - رضي الله عنهم -، وإن كنا نقول: إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر من يشاء الله إدخاله النار، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين، ولكننا نقف في الشخص المعين، فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم؛ لأن حقيقته باطنة، وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء ^(١).

ومع هذا التوقف في أمر الآخرة، لا يمنعنا ذلك من أن نعاقبه في الدنيا؛ لمنع بدعته واستتابته ^(٢).

٤. إن المؤمن الموحّد العاصي تحت مشيئة الله عزوجل يوم القيامة، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، فلا يجوز أن يقال: إن الله تعالى يعاقبه لا محالة، ولا أن يقال: إن الله تعالى يعفو عنه لا محالة، بل هو تحت مشيئة الله عزوجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨، ١١٦]، إن شاء عفا عنه بفضلهم وكرمه، أو ببركة ما معه من الإيمان وكثرة الطاعات، أو بشفاعة النبي عليه السلام، أو باستغفار الرسل والملائكة (عليهم السلام) لعامة المؤمنين، أو بشفاعة واحد من الأخيار، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، ثم يخرج إلى الجنة، فهي عاقبته لا محالة؛ لأنه لا يخلد في النار مؤمن، ولا يجوز أن يشهد لأحد من المؤمنين بالجنة إلا للأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، ولمن بشرهم النبي عليه السلام بها ^(٣).

٥. إن التآلي على الله تعالى، إضافة إلى كونه من كبائر الذنوب ^(٤)، فإنه يترتب عليه عقوبة خطيرة، وهي كما في قوله: ^(٥) «وأحبطت عملي»، والمراد حبط بقدر هذه

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٢/٥٢٧-٥٣٥).

(٢) المصدر نفسه (٢/٤٢٦-٤٢٧) بتصرف يسير.

(٣) ينظر: الكاشف عن حقائق السنن (٦/١٨٤٤)، تحقيق التجريد شرح كتاب التوحيد (٢/٥٥١).

(٤) ينظر: الكبائر لمحمد بن عبد الوهاب (ص١١-١٣).

السيئة لا كل عمله^(١)، قال ابن رجب رحمه الله: " بعض السيئات تحبط بعض الحسنات، ثم تعود بالتوبة منها"^(٢).

ونص بعض أهل العلم على أن التأليّ ربما كان كفراً، قال القاضي عياض رحمه الله " المتألي قانط من رحمة الله ومكذب بها، والقنوط كفر، والكفر يحبط العمل"^(٣).

فالمؤمن ينبغي ألا يفعل فعلاً ولا يقول قولاً إلا وينظر هل هو شرعي أو لا؟، وإن لم ينظر فلا بد أن يغفل ويقع في هذا الخطر وأمثاله^(٤).

(١) ينظر: الآداب الشرعية (٤٣٨/٣).

(٢) فتح الباري لابن رجب (١٩٩/١).

(٣) إكمال المعلم (١٠٢/٨).

(٤) ينظر: فتح الله الحميد شرح كتاب التوحيد (ص ٤٧١).

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى نتائج عدة، من أهمها:

١. بلغت الأحاديث المجموعة في هذه الدراسة عشرة أحاديث، منها حديث إسناده حسن، وحديث مختلف في صحة إسناده؛ للاختلاف في صحة روايته، وخمسة أحاديث إسنادها ضعيف، وثلاثة أحاديث إسنادها ضعيف جداً.
٢. مفهوم التألي على الله عزوجل: هو الجرأة بالحلف على الله تعالى والحكم عليه على أمر من أمور الغيب.
٣. حكم التألي على الله عزوجل منه ما هو جائز، ومنه ما هو ممنوع، فمن يقسم بما أخبر الله به ورسوله من نفي أو إثبات، أو يقسم على الله تعالى لقوة رجائه وحسن ظنه بربه، فهذا جائز، وأما إن كان الحامل له هو الإعجاب بالنفس، والكبر، والجهل، وتَحَجُّر فضل الله عز وجل، وسوء الظن به تعالى، فهذا محرّم، وهو وشيك بأن يُحِبِّط الله عز وجل عمل هذا المُقْسِم.
٤. نصّت نصوص السنة على جملة من الألفاظ التي فيها تألي ممنوع، من ذلك قول القائل:
لن يغفر الله له، والله لا يغفر الله لفلان، والله لا يغفر الله لك أبداً، لا يدخلك الله الجنة، فلان في الجنة، فلان في النار، زعم المرء أنه في الجنة، وغيرها، وقد تكون هذه الألفاظ جاءت في أحاديث ضعيفة إلا أن معناها صحيح، فكل ما فيه تحجير لرحمة الله وفضله وسعة كرمه على وجه الكبر والجهل والغرور هو محرّم بلا ريب.
٥. عالج النبي ﷺ هذه القضية بالتحذير الشديد منها، فذكر عاقبة من ارتكب هذا الجرم من الأمم السابقة، بأن أحبط الله عمله وأدخله النار. وغير ذلك من النتائج المنثورة في طيات هذه الدراسة.

وهناك بعض التوصيات العلمية أحببت الإشارة إليها، من ذلك:

١. توجيه العناية إلى الاهتمام بالقضايا الاجتماعية أو المشكلات السلوكية، ودراستها من خلال السنة النبوية (راوية ودراية)؛ فخير الهدى هدى محمد ﷺ.

٢. الحرص على تقويم المخالفات العقدية المنتشرة في المجتمعات الإسلامية، من خلال الدراسات المنهجية على ضوء السنة النبوية.

وختاماً، هذا جهد المقل، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خلل وتقصير ونسيان فمن نفسي والشيطان والله ورسوله منه بريئان.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. الإبانة الكبرى، عبيد الله بن محمد العُكْبَرِي، المعروف بابن بَطَّة (المتوفى: ٣٨٧هـ)، المحقق: رضا معطي، وآخرون، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
٣. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري (المتوفى: ٨٤٠هـ)، المحقق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٤. الأحاديث الواردة في المناهي اللفظية (جمع ودراسة من خلال الكتب التسعة)، بدر بن حمود الرويلي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كلية الحديث الشريف، (رسالة دكتوراه، ١٤٣٧هـ).
٥. الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)، الناشر: عالم الكتب.
٦. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
٧. أسد الغابة، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الجزري، ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، الناشر: دار الفكر بيروت، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
٨. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.
٩. إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي، أبو عبد الله، علاء الدين (المتوفى: ٧٦٢هـ)، المحقق:

- أبو عبد الرحمن عادل بن محمد أبو محمد أسامة بن إبراهيم، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
١٠. إكمال المعلم بفوائد مسلم، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى السبتي، أبو الفضل، (المتوفى: ٥٤٤هـ)، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨/٥١٤١٩م.
١١. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
١٢. تاريخ ابن معين (رواية الدارمي)، يحيى بن معين بن عون بن زياد (المتوفى: ٢٣٣هـ)، المحقق: د. أحمد محمد نور سيف، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق.
١٣. اريخ ابن معين (رواية الدوري)، يحيى بن معين بن عون بن زياد (المتوفى: ٢٣٣هـ)، المحقق: د. أحمد محمد نور سيف، الناشر: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامية المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
١٤. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.
١٥. التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (المتوفى: ٢٥٦هـ)، الطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان.
١٦. تاريخ دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
١٧. تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، محمد بن عبد الله بن أحمد الربيعي (المتوفى: ٣٧٩هـ)، المحقق: د. عبد الله أحمد سليمان الحمد، الناشر: دار العاصمة - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.
١٨. تحقيق التجريد شرح كتاب التوحيد، عبد الهادي بن محمد بن عبد الهادي

- العجيلي (المتوفى: ق ١٣هـ)، المحقق: حسن بن علي العواجي، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
١٩. تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: د. عاصم بن عبد الله القريوتي، الناشر: مكتبة المنارعمان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
٢٠. تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: محمد عوامة، الناشر: دار الرشيد - سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
٢١. تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة: الأولى، ١٣٢٦هـ.
٢٢. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج المزي (المتوفى: ٧٤٢هـ)، المحقق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٢٣. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهر (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.
٢٤. الثقات، محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم البستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، الناشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن الهند، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
٢٥. الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق)، المؤلف: معمر بن أبي عمرو راشد (المتوفى: ١٥٢هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.
٢٦. جامع التحصيل في أحكام المراسيل، صلاح الدين خليل بن كيكليدي العلائي (المتوفى: ٧٦١هـ)، المحقق: حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر: عالم الكتب ببيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

٢٧. الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، الناشر: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية الهند، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة: الأولى، ١٢٧١هـ / ١٩٥٢م.
٢٨. جزء الألف دينار وهو الخامس من الفوائد المنتقاة والأفراد الغرائب الحسان، أحمد بن جعفر بن حمدان المعروف بالقطيعي (المتوفى: ٣٦٨هـ)، المحقق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: دار النفائس الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
٢٩. حاشية كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم (المتوفى: ١٣٩٢هـ)، الناشر: (بدون)، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ.
٣٠. حسن الظن بالله، عبد الله بن محمد بن عبيد المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: مخلص محمد، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
٣١. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله بن أحمد، أبو نعيم الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
٣٢. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ.
٣٣. ديوان كُتِبَ عَزَّةً، جمعه وشرحه د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت لبنان، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.
٣٤. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
٣٥. السنة، أحمد بن محمد بن هارون الخلال (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: د. عطية الزهراني، الناشر: دار الراية - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.
٣٦. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، أبو داود السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا بيروت.

٣٧. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرَة، أبو عيسى الترمذي (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، الناشر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
٣٨. سنن الدارقطني، علي بن عمر بن أحمد الدارقطني (المتوفى: ٢٨٥هـ)، حققه: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
٣٩. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٤٠. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ)، تحقيق: أحمد بن سعد الغامدي، الناشر: دار طيبة - السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٤١. شرح العقيدة الطحاوية، محمد بن علاء الدين ابن أبي العز الحنفي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط عبد الله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٤٢. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
٤٣. الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٤٤. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٤٥. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربيبيروت.

٤٦. الضعفاء الصغير، محمد بن إسماعيل البخاري (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: أحمد بن إبراهيم بن أبي العينين، الناشر: مكتبة ابن عباس، الطبعة: الأولى ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٤٧. الضعفاء الكبير، محمد بن عمرو العقيلي (المتوفى: ٣٢٢هـ)، المحقق: عبد المعطي أمين قلعي، الناشر: دار المكتبة العلمية بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
٤٨. الضعفاء والمتروكون، أحمد بن شعيب بن علي النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، المحقق: محمود إبراهيم زايد، الناشر: دار الوعيل، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦هـ.
٤٩. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨م.
٥٠. طلبة الطلبة، عمر بن محمد بن أحمد، نجم الدين النسفي (المتوفى: ٥٣٧هـ)، الناشر: المطبعة العامرة، مكتبة المثنى ببغداد، بدون طبعة، ١٣١١هـ.
٥١. العقيدة الطحاوية، أحمد بن محمد بن سلامة المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٢٢١هـ)، شرح وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ.
٥٢. العلل الواردة في الأحاديث النبوية، علي بن عمر بن أحمد الدارقطني (المتوفى: ٢٨٥هـ)، تحقيق وتخريج: محفوظ الرحمن زين الله السلفي، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، [والمجلدات من الثاني عشر، إلى الخامس عشر]، علق عليه: محمد بن صالح بن محمد الدباسي، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.
٥٣. العلل ومعرفة الرجال (رواية عبد الله بن أحمد)، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: وصي الله بن محمد عباس، الناشر: دار الخاني، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٥٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: محمود شعبان عبد المقصود وآخرون، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية المدينة النبوية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

٥٥. فتح الله الحميد المجيد في شرح كتاب التوحيد، حامد بن محمد بن حسين بن محسن، المحقق: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار المؤيد، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
٥٦. القوافي، للتوحي، تحقيق: د. عوني عبد الرؤوف، الناشر: مكتبة الخانجي بمصر، ط٢، ١٩٧٨م.
٥٧. القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار ابن الجوزي - السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ.
٥٨. الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، (المتوفى: ٧٤٣هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هندأوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة الرياض)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧/١٩٩٧م.
٥٩. الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، المؤلف: شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: محمد عوامة أحمد محمد نمر الخطيب، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية مؤسسة علوم القرآن، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
٦٠. الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد بن عدي الجرجاني (المتوفى: ٣٦٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، وعبد الفتاح أبو سنة، الناشر: الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨/١٩٩٧م.
٦١. الكبائر، محمد بن عبد الوهاب التميمي (المتوفى: ١٢٠٦هـ)، المحقق: باسم فيصل الجوابرة، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ.
٦٢. كشف المشكل من حديث الصحيحين، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن بالرياض.
٦٣. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الهندي، الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، المحقق: بكري حيان صفاة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٦٤. لسان الميزان، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢م.
٦٥. المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم البستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، المحقق: محمود إبراهيم زايد، الناشر: دار الوعي - حلب، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦هـ.
٦٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٦٧. المراسيل، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، ابن أبي حاتم (المتوفى: ٢٢٧هـ)، المحقق: شكر الله نعمة الله قوجاني، الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ.
٦٨. المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق، ابن مندة الأصبهاني، أبو القاسم (المتوفى: ٤٧٠هـ)، المحقق: أ. د. عامر حسن صبري، الناشر: وزارة العدل والشئون الإسلامية البحرين.
٦٩. مسند الحارث = (بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث)، الحارث بن محمد بن داهر، المعروف بابن أبي أسامة (المتوفى: ٢٨٢هـ)، المنتقى: علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، المحقق: د. حسين أحمد صالح الباكري، الناشر: مركز خدمة السنة والسيرة النبوية المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ - ١٩٩٢م.
٧٠. مسند الشاميين، سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.
٧١. مسند الشهاب، محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (المتوفى: ٤٥٤هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

٧٢. المسند، الهيثم بن كليب الشاشي (المتوفى: ٣٣٥هـ)، المحقق: د. محفوظ الرحمن زين الله، الناشر: مكتبة العلوم والحكماء المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.
٧٣. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: مجموعة من الباحثين الناشر: دار العاصمة دار الغيث، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٧٤. معاني القرآن، يحيى بن زياد بن عبد الله الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة مصر، الطبعة: الأولى.
٧٥. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين - القاهرة.
٧٦. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية.
٧٧. معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ، بكر بن عبد الله أبو زيد (المتوفى: ١٤٢٩هـ)، الناشر: دار العاصمة - الرياض، الطبعة: الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
٧٨. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٧٩. المفاتيح في شرح المصابيح، الحسين بن محمود بن الحسن، المشهور ب: بالمظْهري (المتوفى: ٧٢٧هـ)، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
٨٠. المنامات، عبد الله بن محمد بن عبيد المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: عبد القادر أحمد عطا، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٨١. من كلام أبي زكريا يحيى بن معين في الرجال (رواية طهمان)، أبو زكريا يحيى بن معين بن عون البغدادي (المتوفى: ٢٣٣هـ)، المحقق: د. أحمد محمد نور سيف، الناشر: دار المأمون للتراث دمشق.
٨٢. موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلمه، جمع وترتيب: السيد أبو المعاطي النوري وآخرون، دار النشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
٨٣. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م.
٨٤. نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، محمود بن أحمد بن موسى، بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
٨٥. النهاية في غريب الحديث، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
٨٦. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان (المتوفى: ٦٨١هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر بيروت، ١٩٩٤م.

القضاء والقضاة في المدينة المنورة خلال العصر العباسي

في الفترة (٣٣٢هـ - ٧٥٠م) إلى (٣٣٠هـ - ٩٤١م)

عذاري بنت إبراهيم الشعبي

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك

بجامعة الملك فيصل بالأحساء

ملخص :

أخذ القضاء ومنصب القاضي اهتماماً وعناية من قبل المصادر الفقهية و التاريخية على السواء، وقد أخذت تلك القوانين والتشريعات الخاصة بالقاضي أو بمنصب القضاء تتطور وتتغير على مر العصور الإسلامية. وقد جاءت هذه الدراسة لتسليط الضوء على تاريخ القضاء والقضاة في حقبة تاريخية مهمة من تاريخ القضاء عبر العصور الإسلامية، ألا وهي فترة الخلافة العباسية في الفترة (٥١٣٢ - ٧٥٠م) إلى (٥٣٣٠ - ٩٤١م)، لاسيما وأن العصر العباسي تميز بنشاط المذاهب الفقهية وبروز عدد من الاتجاهات الفكرية. ومن جانب آخر كان اختيار المدينة المنورة لدراسة تطور التنظيمات الخاصة بالقضاء والقضاة في هذه الحقبة التاريخية لكونه جُلّ تركيز المؤرخين والباحثين توجه نحو قضاة بغداد كونها عاصمة العباسيين على الرغم من أهمية المدينة المنورة الروحية وتأثيرها العلمي الكبير على باقي الأمصار الإسلامية بما فيها بغداد وغيرها من المدن الرئيسية في تلك الفترة .

وقد عمدت الدراسة لتحقيق أهدافها إلى اتباع منهجية البحث الوصفي وذلك بالرجوع الى أمهات الكتب والمصادر التاريخية ذات العلاقة، وتحليل محتواها والجمع بين متفرقاتها ومقارنتها معطياتها لتقديم صورة أوضح وأكثر تفصيلاً عن القضاء في تلك الفترة التاريخية المهمة في التاريخ الإسلامي، وفي بقعة مقدسة لدى عموم المسلمين ولها تأثيرها الأهم في تشكيل التنظيمات التشريعية. ونتيجة لذلك تم تقسيم الدراسة إلى عدة أجزاء رئيسة كالتالي: لمحة عامة حول القضاء في المدينة المنورة، منهجية اختيار القضاة ومراسم تعيينهم، مهام القاضي وصلاحياته، مجالس القضاء، رواتب القضاة ومخصصاتهم، لباس القضاة، أبرز قضاة المدينة المنورة بالعصر العباسي، الوظائف المساندة للقاضي، وختمت الدراسة بخاتمة بينت فيها أهم نتائج البحث التي تم التوصل إليها.

Abstract:

The administration of justice and appointing judges were an important issue during the history of human life. Since the existence of Islam, people who embraced Islam used to rely on main Islamic sources which are Quran and the tradition of the Prophet Muhammed peace be upon him as the main resource to administer justice among people. The aim of this study was to explore how was the administration of justice and the appointing of judges in Medina in the Abbasid era specifically. Also, the study investigated the role of the most important rights and privileges that characterized judges in Medina during the time of the Abbasid Caliphate in particular. The outcomes of the study revealed the judiciary in Islam and the most prominent Medina judges; how the judges were chosen and the appointing ceremony; judges salaries and titles; judges tasks and powers; judiciary locations; supporting jobs of the judges; and the study concluded with a summary showed the most important results that have been reached.

المقدمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد عليه أفضل السلام والتسليم، أما بعد، فلم يكن للعرب في عصر الجاهلية نظام قضائي معروف، بل كانت العادات والتقاليد هي المسيطرة على حل المشكلات والخصومات، ولما جاء الإسلام أمر الله -تعالى- أن يكون الحكم بين المسلمين على مبادئ الدين الإسلامي وأصبح الرسول -ﷺ- أول قاض في الإسلام وضع الأسس القضائية التي سارت عليها الدولة الإسلامية، ولقد تسارعت التغييرات والتطورات في الأنظمة والقوانين القضائية من عهد الرسول -ﷺ- حتى الخلافة العباسية، وذلك نتيجة لتزايد أعداد المعتنقين للإسلام وتوسع رقعة الخلافة الإسلامية، ونشوء المذاهب الفقهية، وتعدد اتجاهاتها الفكرية، واختلاف آرائها القضائية، وزيادة أعداد متبعيها وتعصبهم تجاهها. هذا كله، استوجب تطوير التنظيمات القضائية، حماية لحقوق الناس، وضبطاً لآليات اختيار القضاة، حتى لا يكون مدعاة للتنافس أو التوجيه من قبل طائفة ضد أخرى أو مذهباً فكرياً ضد آخر.

ورغم توسع رقعة الخلافة الإسلامية وانتقال عاصمتها إلى العراق ثم الشام ثم

العراق مرة أخرى ، إلا أن المدينة المنورة بقيت لها قيمتها المعنوية، وصدارتها الروحية، كونها موطن حياة الرسول - ﷺ - وصحابته الكرام، مما حفظ لها أن تكون مهوى لقلوب كثير من المسلمين من أرجاء المعمورة ، ومن بينهم علماء أجلاء آثروا العيش فيها ليكون فيها مثواهم الأخير في هذه الحياة الدنيا مجاورة للحبيب المصطفى ﷺ تسليماً كثيراً. هذه المميزات الخاصة للمدينة المنورة، أعطتها ميزة علمية أيضاً، حتى اشتهر في كتب الفقه مصطلح "عمل أهل المدينة" كأحد الحجج الفقهية والأحكام التي يبنى عليها، وذلك لاختصاص المدينة بنزول معظم الأحكام فيها وصلة المجتمع المدني بموروث النبي - ﷺ - ، واستيطان كثير من مشاهير الصحابة والتابعين وتابع التابعين فيها، لذا كان للقضاء في المدينة المنورة ميزته الخاصة ، وأهميته العظيمة، وتأثيره الواسع ليس فقط في نطاق المدينة المنورة وإنما على امتداد الخلافة الإسلامية.

مشكلة الدراسة وتحديد عناصرها :

من خلال القراءة في المصادر التاريخية نجد أن جُلَّ تركيز المؤرخين والباحثين توجه نحو قضاة بغداد كونها عاصمة العباسيين مع إغفال كبير عن قضاة المدينة المنورة زمن الدولة العباسية على الرغم من أهمية المدينة المنورة الروحية وتأثيرها العلمي الكبير على باقي الأمصار الإسلامية بما فيها بغداد وغيرها من المدن الرئيسية في تلك الفترة ، لذا جاءت هذه الدراسة لتسليط الضوء على القضاء والقضاة في المدينة المنورة خلال حقبة تاريخية مهمة من تاريخ القضاء عبر العصور الإسلامية، ألا وهي فترة الخلافة العباسية وتحديداً في الفترة (١٣٢هـ - ٧٥٠م إلى ٥٣٠هـ - ٩٤١م) حيث تميزت تلك الفترة بنشاط المذاهب الفقهية وبروز عدد من الاتجاهات الفكرية في المدينة المنورة على وجه الخصوص.

أهمية الدراسة :

١. أهمية المدينة المنورة وصدارتها الدينية الروحية في مجال القضاء.
٢. الأهمية الدينية والدينيوية للقضاء في الإسلام ومكانة القضاة عند خلفاء الدولة العباسية.
٣. قلة الدراسات البحثية المتخصصة الحديثة حول موضوع القضاء في المدينة المنورة في العصر العباسي.

٤. من المحتمل أن تفتح هذه الدراسة مجالاً أرحب للبحث في قضاء وقضاة المدينة المنورة في العصور الإسلامية المتنوعة.

الأهداف :

هدفت هذه الدراسة إلى تحقيق الآتي :

١. تحديد أهم معالم القضاء في المدينة المنورة خلال العصر العباسي.
٢. التعرف على منهجية اختيار القضاة ومراسم تعيينهم في المدينة المنورة خلال العصر العباسي.
٣. تحديد المهام التي حددتها تنظيمات القضاء للقاضي وصلاحياته خلال العصر العباسي.
٤. التعرف على رواتب القضاة ومخصصاتهم المالية في المدينة المنورة.
٥. التعرف على أهم الوظائف المساندة للقضاة في العصر العباسي.
٦. التعرف بأبرز قضاة المدينة المنورة في العصر العباسي.

الدراسات السابقة :

موضوع القضاء والقضاة خلال العصر العباسي حظي باهتمام لا بأس به من قبل الباحثين والمؤلفين إيماناً منهم بأهمية هذا الموضوع وحساسيته، إلا أن استكشاف حال القضاء والقضاة في المدينة المنورة لم يحظ بنفس الاهتمام. والمتبع للدراسات والمؤلفات في هذا الجانب يجد أنها اتسمت بكثير من العمومية دون الدخول في التفاصيل الدقيقة، كما أن أغلب ما كتب في هذا الموضوع نجده في بطون المصادر التاريخية وضمن سياقات عامة، وقلما تناوله باحثون معاصرون في دراسات بحثية متخصصة، وفي ضوء ذلك لعنا نلخص بعضاً من أهم التصنيفات العلمية التي تناولت طيفاً من هذا الموضوع حسب الأقدم في تاريخ الطباعة كالاتي:

١. عصام شبارو (القضاء والقضاة في الاسلام ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣م) وقد تحدثت الدراسة عن القضاء والقضاة بشكل شمولي عام لم يحدد فيه فترة مكان محدد أو فترة زمنية معينة بل تناولت القضاة خلال عهود الخلافة الإسلامية كافة .

٢. ميسون العنزي (الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ) ، جامعة اليرموك- الأردن، ٢٠٠٤م) وبالرغم من أن عنوان الرسالة مقارب لعنوان الدراسة إلا أن المادة العلمية حول القضاة والقضاء كانت مختصرة ومحددة ولم يتم الاستفادة منها إلا بشكل يسير جداً
٣. دراسة رحمن ابراهيم (مجلس القضاء في العهد العباسي ، الاستاذ " العدد ٢٠٢ - ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م " كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية - جامعة بغداد) وهذه الدراسة تناولت نواحي القضاء خلال العصر العباسي ولكن كان جل تركيز الدراسة على العراق وتحديداً مدينة بغداد ، وقد ضمت هذه الدراسة معلومات أخرى تناولها الباحث في دراسته لاسيما في موضوع مجلس القضاء والمساعدون ورسوم القضاء وغير ذلك.
٤. دراسة ماجستير لفاطمة قيطون (تطور نظام القضاء في الحضارة الإسلامية من عهد النبي ﷺ إلى العصر العباسي الأول، كلية الأدب واللغات- جامعة أبو بكر بلقايد ، الجزائر ، ١٤٣٣-١٤٣٤هـ) وقد تناولت هذه الدراسة القضاء بشكل عام في العصر العباسي الأول تحديداً ، كما أن أغلب ما ذكر كان حول قضاء العراق وبغداد على وجه الخصوص ولم تتطرق إلا بالقليل من المعلومات عن قضاء المدينة المنورة .

القضاء والقضاة في المدينة المنورة خلال العصر العباسي في الفترة (١٣٢هـ - ٧٥٠م) إلى (٣٣٠هـ - ٩٤١م)

لم يكن للعرب في عصر الجاهلية نظام قضائي معروف، بل كانت العادات والتقاليد هي المسيطرة على حل المشكلات والخصومات، ولما جاء الإسلام أمر الله -تعالى- أن يكون الحكم بين المسلمين على مبادئ الدين الإسلامي وأصبح الرسول ﷺ - أول قاضٍ في الإسلام وضع الأسس القضائية التي سارت عليها الدولة الإسلامية، حتى

أصبح القضاء ذو سلطة قوية تنفيذية^(١)، وأصبح لمنصب القاضي أهميته ومكانته في الدين الإسلامي حتى أصبح من واجبات الحكام والأئمة تعيين قضاة بالبلاد.^(٢)

ولقد تسارعت التغييرات والتطورات في الأنظمة والقوانين القضائية من عهد الرسول - ﷺ - حتى الخلافة العباسية، وذلك نتيجة لتزايد أعداد المعتنقين للإسلام وتوسع رقعة الخلافة الإسلامية، ونشوء المذاهب الفقهية، وتعدد اتجاهاتها الفكرية، واختلاف آرائها القضائية، وزيادة أعداد متبعيها وتعصبهم تجاهها. هذا كله، استوجب تطوير التنظيمات القضائية، حماية لحقوق الناس، وضبطاً لآليات اختيار القضاة، حتى لا يكون مدعاة للتناقص أو التوجيه من قبل طائفة ضد أخرى أو مذهباً فكرياً ضد آخر.

ورغم توسع رقعة الخلافة الإسلامية وانتقال عاصمتها إلى العراق ثم الشام ثم العراق مرة أخرى، إلا أن المدينة المنورة بقيت لها قيمتها المعنوية، وصدارتها الروحية، كونها موطن حياة الرسول - ﷺ - وصحابته الكرام، مما حفظ لها أن تكون مهوى لقلوب كثير من المسلمين من أرجاء المعمورة، ومن بينهم علماء أجلاء آثروا العيش فيها ليكون فيها مثواهم الأخير في هذه الحياة الدنيا مجاورة للحبيب المصطفى ﷺ تسليماً كثيراً. هذه المميزات الخاصة للمدينة المنورة، أعطتها ميزة علمية أيضاً، حتى اشتهر في كتب الفقه مصطلح "عمل أهل المدينة" كأحد الحجج الفقهية والأحكام التي يبنى عليها، وذلك لاختصاص المدينة بنزول معظم الأحكام فيها وصلة المجتمع المدني بموروث النبي - ﷺ -، واستيطان كثير من مشاهير الصحابة والتابعين وتابع التابعين فيها، لذا كان للقضاء في المدينة المنورة ميزته الخاصة، وأهميته العظيمة، وتأثيره الواسع ليس فقط في نطاق المدينة المنورة وإنما على امتداد الخلافة الإسلامية.

لهذا كله، جاء هذه الدراسة لتسليط الضوء على تاريخ القضاء في حقبة تاريخية مهمة من تاريخ القضاء عبر العصور الإسلامية، ألا وهي فترة الخلافة العباسية، لاسيما وأن العصر العباسي تميز بنشاط المذاهب الفقهية وبروز عدد من الاتجاهات

(١) كرمي، أحمد عجاج: الإدارة في عصر الرسول ﷺ، دار السلام - القاهرة، ١٤٢٧ هـ، ص ٢٢٢
(٢) الزحيلي، وهبة بن مصطفى: الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر - دمشق، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٧ هـ، ج ٨، ص ٦٢٢٢

الفكرية. ومن جانب آخر كان اختيار المدينة المنورة لدراسة تطور التنظيمات الخاصة بالقضاء والقضاة في هذه الحقبة التاريخية لكون جُلّ تركيز المؤرخين والباحثين توجه نحو قضاة بغداد كونها عاصمة العباسيين على الرغم من أهمية المدينة المنورة الروحية وتأثيرها العلمي الكبير على باقي الأمصار الإسلامية بما فيها بغداد وغيرها من المدن الرئيسية في تلك الفترة .

وقد عمدت الباحثة لتحقيق هذا الهدف بالرجوع إلى الكتب والمصادر التاريخية، بما تيسر من روايات بعض المؤرخين ونقولاتهم خلال تلك الفترة. ونتيجة لذلك تم تقسيم الدراسة إلى عدة أجزاء رئيسية جاءت على النحو الآتي: لمحة عامة حول القضاء بالمدينة المنورة، منهجية اختيار القضاة، ومراسم تعيينهم، مهام القاضي وصلاته، مجالس القضاء، رواتب القضاة ومخصصاتهم، أشهر قضاة المدينة المنورة، الوظائف المساندة للقاضي، وفي الختام تم تقديم مجموعة من الخلاصات المهمة المتعلقة بالتنظيمات القضائية في هذه الفترة التاريخية.

ولعله من المهم التنويه هنا إلى أن كثير من التنظيمات الوارد ذكرها في هذه الدراسة قد لا تكون مخصصة بالمدينة المنورة دون غيرها، وإنما لها وجه العموم على مستوى الخلافة، قد تم ذكرها من بين تنظيمات القضاء في المدينة المنورة ليس لخصوصيتها لها، وإنما لكون ذلك هو السائد في الخلافة العباسية حينها، وبالتالي يمكن اعتبار هذه التنظيمات سارية في المدينة المنورة كما في غيرها من الأمصار التابعة للخلافة.

لمحة عامة حول القضاء في المدينة المنورة

كان المتبع في العهد النبوي الشريف والخلفاء الراشدين حتى العصر الأموي، أن القضاء يعتمد في أحكامه على رؤية وفهم القاضي دون التزام بمذهب محدد؛ وذلك لكون العهد النبوي مرجعيته واحدة محددة وواضحة، وكذلك الأمر في العهد الراشدي. أما في العصر الأموي فقد استمر النهج القضائي على ما هو عليه في العصر الراشدي، مع تطور وتغيرات تدريجية وذلك لتوسع الدولة الأموية السريع، والاعتماد حينها على الثقات من الفقهاء والقضاة في إصدار الأحكام. وعلى الرغم من ظهور بعض المذاهب الإسلامية في العصر الأموي إلا أن تأثيرها في القضاء كان محدوداً نسبياً، حيث استمر القضاء وتنظيماته في صورة من البساطة النسبية التي كان عليها في العهد الراشدي.

أما في العصر العباسي، فقد كان للقضاء شأن آخر حيث تبلور ظهور المذاهب الفقهية المتنوعة، وكثر أتباعها، وأصبح للقضاء تأثيرات سياسية أيضاً قد تؤثر في مسيرة الدولة، لذا عمدت الخلافة إلى تنظيمه مركزياً، فجعلت لكل منطقة ومدينة قاض يحكم بها وفق مذهبه، بل كانت بعض المدن يحكم فيها على أكثر من مذهب بحسب القضاة^(١)، وقد نشأ وساد في المدينة المنورة مذهب الإمام مالك، الذي وُلد وعاش فيها حيث كانت مقراً له، ومنصة لانتشار مذهبه، لاسيما وأنه حظي بتأييد من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (٩٥هـ - ٧١٤م / ١٥٨هـ - ٧٧٥م) الذي كلفه بتصنيف مؤلف في الحديث لحفظ الأحاديث النبوية الصحيحة من الاختلاط بالمكذوبة، فقام الإمام مالك بن أنس بتأليف كتابه الموطأ، ثم اتبعه بكتابة المدونة، وهو ما ساعد على نشر علمه ومذهبه، فكانت سبباً لنشر المذهب المالكي ليس في داخل المدينة المنورة فحسب بل وخارجها عن طريق تلامذته^(٢)، وبالتالي كان لهذا المذهب تأثير مباشر على الأحكام القضائية في المدينة المنورة على وجه الخصوص وغيرها على وجه العموم.

منهجية اختيار القضاة ومراسم تعيينهم

في العهد النبوي كان الرسول الكريم ﷺ هو القاضي والحاكم بين الناس في المدينة المنورة وما حولها، أما المناطق البعيدة فكان الوالي هو من يقوم بالقضاء، وقد استمرت هذه الطريقة معمولاً بها في عهد أبي بكر الصديق وبدايات عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما^(٣)، ولكن خلال النصف الثاني من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعد أن توسعت البلاد الإسلامية، ولانشغاله بالعديد من أمور الدولة الإسلامية الواسعة، قام بتعيين القضاة وفصل الولاية عن القضاء، فأصبح القاضي هو من ينظر بأمور القضاء وهذا كان بداية استقلال القضاء كسلطة لوحدها^(٤).

- (١) الحميضي، عبد الرحمن إبراهيم: القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، مركز بحوث ودراسات جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ١٤٠٩هـ -، ص ٢٨٣
- (٢) شبارو، عصام محمد: القضاة والقضاء في الإسلام، دار النهضة العربية ببيروت، ١٩٨٢م، ص ١٣١
- (٣) وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت: ٣٠٦هـ): أخبار القضاة، مراجعة، سعيد محمد اللحام، عالم الكتب - بيروت، د.ت، ج ١، ص ١٠٥
- (٤) الكريشي، غالب عبد الكافي: أولويات الفاروق في الإدارة والقضاء، ج ١، ص ٨٦؛ طقوش، محمد سهيل: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، دار النفائس - الأردن، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص ٢٤٦

وفي العصر الأموي استمر هذا الأمر على ما هو عليه، حيث كان يتولى الخليفة زمام تقليد القضاة بنفسه^(١)، ولكن هذا التقليد طرأ عليه بعض التطورات في زمن الخلفاء العباسيين، وتحديدًا في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٩٤هـ - ٧٦٦م / ١٩٣هـ - ٨٠٩م)؛ فلم يعد حكراً على الخليفة فقط بل أصبح مسموحاً لمن دونه من رجال الدولة كالوزير والأمير وقاضي القضاة^(٢)، بل حتى ولاة المدن أصبح من صلاحياتهم تقليد قضاة الأقاليم والمدن التابعة لهم^(٣).

ولم تتغير شروط اختيار قضاة المدينة المنورة في الدولة العباسية عما كان عليه من قبل، فكان يتم اختيار القضاة غالباً بناءً على الشروط الأساسية المستمدة من القرآن والسنة التي يجب توفرها في القضاة، فالقاضي يجب أن يكون: ذكراً بالغاً مسلماً حراً سليم الحواس، عالماً بأمور الدين وأحكام الشريعة، كثير الورع والجد، نظيف السر والعلن^(٤)، ورغم ذلك فإنه من المتوقع أن يكون لاختيار القضاة في المدينة رمزية معنوية، ومزية خاصة، واهتمام مختلف لمكانة المدينة المنورة في نفوس المسلمين من جهة، ومن جهة أخرى لكثافة توفر الفقهاء والعلماء المؤهلين علمياً ومكانة اجتماعية فيها، وهذا لا يمنع من وجود استثناءات لظروف سياسية أو اجتماعية معينة.

ومن الملاحظ في زمن الخلافة العباسية كثرة التعيين والعزل للقضاة في المدينة المنورة^(٥)، فقد كان شائعاً أن يعين القاضي بالمدينة المنورة ثم يعزل بعد فترة، ثم يعاد

- (١) مدكور، محمد سلام: القضاة والقضاء في الإسلام، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص٦٤
- (٢) قاضي القضاة هو من يكون مكلف من الخليفة لاختيار القضاة وتعيينهم ثم توزيعهم على مدن وأمصار الدولة. مدكور: القضاة والقضاء في الإسلام، ص٤٧؛ عليان، شوكت محمد: السلطة القضائية في الإسلام، دار الرشيد للنشر والتوزيع - الرياض، ١٤٠٢هـ، ص٧٨
- (٣) وكيع: أخبار القضاة، ج١، ص١٤٨؛ مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (ت: ٤٢١هـ): تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تصحيح ه. ف. امدروز، مطبعة شركة التمدن الصناعية - مصر، ١٣٢٢هـ، ج٢، ص٨٣
- (٤) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت: ٤٥٠هـ): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٨هـ، ص٦٥؛ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت: ٤٥٠هـ): تسهيل النظر وتعميق الظفر، تحقيق: محي هلال السرحان، دار النهضة - بيروت، ١٩٨١م، ص٤٥٥
- (٥) وكيع: أخبار القضاة، ج١، ص٢٢٤، ٢٢٢

تعيينه مرة أخرى، إما بإرجاعه بتولي قضاء المدينة في ولاية خليفة عباسي آخر، أو بتعيينه قاضياً ولكن بمدينة أخرى^(١)، ومن أمثلة ذلك ما حدث مع القاضي عبد الله بن محمد بن عمران التيمي الذي ولي قضاء المدينة في حياة الخليفة المهدي (١٧٢-٧٤٥م/ ١٨٥-٧٧٥م) وبعدها تم عزله، ولكنه عاد لتولي منصب قضاء المدينة في عهد هارون الرشيد، الذي سرعان ما قام بعزله بعد فتره ليُجعله والياً لمكة المكرمة، ولكن لم يطل بقاءه بمكة إذ سرعان ما أرجعه الرشيد مرة أخرى إلى قضاء المدينة المنورة، ثم عاد وعزله عن ذلك وطلب صحبته حتى توفيه^(٢).

كثرة التعيين والعزل في المدينة المنورة أحد مؤشرات حساسية هذا المنصب لهذه المدينة، وصعوبة العمل فيها قاضياً، وقد يكون ذلك لأسباب تتعلق بكثرة العلماء المؤهلين لتولي هذه المهمة، وقد يكون بسبب التنافس الذي يمكن أن يكون عليها حال العلماء فيها، أو لأسباب أخرى تتعلق بالولاء للخليفة.

ولم يكن لقضاة المدينة المنورة في العصر العباسي عمر محدد لتولي القضاء، فكان يستقضى الرجل إن وجد فيه الفقه والورع^(٣)، وعادة ما يختار كبير السن لترجي سعة العلم والفقه، لذلك روي أن هناك من يعتمد إلى إظهار ما خفي عنده من شعر أبيض أو علامة كبر بالسن ليبدو بمظهر الهيبة والوقار وسعة العلم والمعرفة ليكون مؤهلاً لاختياره بمنصب القاضي^(٤). ومع ذلك فقد كانت هناك استثناءات أيضاً؛ حيث تم تعيين قضاة صغار السن نسبياً ممن يتمتعون بسعة العلم والتدين، كاستقضاء والي المدينة المنورة حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما^(٥)، للقاضي عبد الرحمن بن القاسم وكان وقتها دون الثلاثين من العمر^(٦).

(١) وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ١٤٨، ١٥٠

(٢) وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ٢٢٩

(٣) وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ١٤٥

(٤) التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ١٣٧

(٥) يكنى أبو محمد ثقة راوي للأحاديث، وولاه المنصور المدينة المنورة خمس سنين ثم تعقبه فعزله وسجنه فأخرجه المهدي ورد إليه أمواله، في الطريق إلى مكة للحج توفى سنة ١٦٨هـ. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (المتوفى: ٢٣٠هـ): الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتأبى أهل المدينة ومن بعدهم، المحقق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكماء المدينة المنورة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ، ص ٢٨٦.

(٦) وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ١٤٥

وقد استحدثت الخلافة العباسية مراسم خاصة لتعيين القضاة لم تكن موجودة قبلها، فكان هناك ما يعرف بمرسوم تقليد القضاة ويسمى "العهد" حيث يتم تعيين القاضي في احتفالات خاصة تسمى "التعيين"^(١)، وكانت تلك المراسم المتبعة لتقليد القضاة محددة ذات طابع رسمي، وقد يكون ذلك لإسباغ نوع من الأهمية والوقار لوظيفة القضاء، فكان يجلس الخليفة أو الوالي أو الأمير يقابله القاضي للمباشرة بالتقليد، فيقول الخليفة قلدتك أو وليتك القضاء فيرد القاضي قبلت^(٢)، عندها يخلع على القاضي بدراعة^(٣)، وطيلسان^(٤)، وعمامة^(٥) سوداء، وهو ما يعرف وقتها بخلعة القضاء^(٦)، فيلبسها القاضي ويخرج بها مع مجموعة من كبار القوم وأصحاب الشأن^(٧) حتى يصل للمسجد ويصلي فيه ركعتين وعندها يقوم أحد مرافقيه وأتباعه بقراءة نص ولايته للقضاء ثم يباشر عمله بعدها^(٨).

- (١) شبارو: القضاء، ص ٥٥، فاطمة، قيطون: تطور نظام القضاء في الحضارة الإسلامية من عهد النبي ﷺ إلى العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، كلية الأدب واللغات-جامعة أبو بكر بلقايد، ١٤٣٤-١٤٣٣هـ، ص ٨٨
- (٢) ابن أبي الدم، شهاب الدين أبو إسحاق إبراهيم (ت: ٦٤٢هـ): أدب القضاء أو الدرر المنظومات في الأفضية والحكومات، تحقيق: محمد مصطفى الزحيلي، د.ت، ص ٤٤
- (٣) الدراعة: هو قميص مفتوح من الأمام يعرف بالمغرب بالإزار وغالباً يكون واسعاً غير ضيق. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (المتوفى: ٧٦٤هـ): تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، حققه وعلق عليه وصنع فهرسه: السيد الشرفاوي، راجعه: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص ٢٥٨؛ ان دوزي، رينهارت بيتر: تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية ج ٤: محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة والإعلام - العراق، ٢٠٠٠م، ج ٤، ص ٣٣٠
- (٤) طيلسان: وهو لفظ فارسي يقصد به الكساء الذي يلتقى على الكتف، أو يحيط بالبدن بدون أي تفصيل أو خياطة ويعرف في اللهجة العامية المصرية بالمشال. مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، دار الدعوة - مصر، د.ت، ج ٢، ص ٥٦١، ٥٥٣
- (٥) عمامة: هي المفرد لعماثم وعمام وهي ما يلف على الرأس. عمر، أحمد مختار عبد الحميد (ت: ١٤٢٤هـ): معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب - القاهرة، ١٤٢٩هـ، ج ٢، ص ١٥٥٨
- (٦) الخلعة: هي من الخلع وخلع عليه إذا نزع ثوبه وطرحه عليه، وكساه الخلعة. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله (ت: ٥٢٨هـ): أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ، ج ١، ص ٢٦٢
- (٧) القرطبي، عريب بن سعد (ت: ٣٦٦هـ): صلة تاريخ الطبري، دار القلم - بيروت، د.ت، ج ١٢، ص ٢٢-٢٣.
- (٨) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت: ٣٣٥هـ): أخبار الراضي بالله والمتقي لله، دار المسيرة - بيروت، ١٣٩٩هـ، ص ١٠٩؛ ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت: ٦٢٦هـ): معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار المأمون - القاهرة، د.ت، ج ١٦، ص ٦٨

ولأنه من شروط ولاية القضاء؛ إعلام الناس بتقليد القاضي للاستجابة له ولطاعة حكمه وتنفيذ أوامره، كان يُقرأ العهد على رؤوس الناس، حيث يذكر فيه اسم القاضي ومكان ولايته للقضاء وآداب القضاء وأحكامه، والأمور الواجب على القاضي اتباعها^(١). وكان خلال الدولة العباسية تقليد متبع في جميع مناطق الدولة؛ فإن كان القاضي الذي اختير لقضاء المدينة من خارجها؛ فإن قاضي القضاة هو من يختبر علمه وقدرته ويعمل له الاحتفالات ثم يسلمه عهدته، ويرسله إلى المدينة^(٢)، وإن كان القاضي من داخلها فيقوم قاضي القضاة بإرسال العهد إليه في المدينة التي عين قاضياً فيها حيث يتم عمل الاحتفالات له هناك^(٣).

وإجمالاً يمكن القول إن الخلافة العباسية حرصت على أن يتوفر في قضاتها مواصفات معينة كأن يكون صاحب دين وخلق وسمعة طيبة، وأن يكون مشهوداً له بالتقوى والورع. وهذا لا يعني أن جميع من تم تعيينهم في منصب القضاء تتوفر فيهم جميع هذه المواصفات والخصائص، بل حدثت عدة اختراقات لهذه الآلية، وقد يكون ذلك بسبب ضعف السلطة المركزية وتزعزعها، وقد يكون منها ما له علاقة بالموازانات السياسية والمجاملات، ولم تكن المدينة المنورة بمنأى من هذه الاستثناءات، حيث روي أن من بين من تولوا القضاء في المدينة المنورة من اشتهر بسوء السمعة، وممن عرف عند بعض أهل الحديث بعدم أمانته في رواية ونقل أحاديث الرسول ﷺ كالقاضي أبو البخترى^(٤) وهب بن وهب^(٥)، والذي قال عنه هارون الرشيد "لولا أن هذا قد كفانا بعض ما يهمننا من أمر المدينة لم أكن أقبله يكذب على رسول الله ﷺ في مجلسي"^(٦).

- (١) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت: ٤٥٠هـ): أدب القاضي، تحقيق: محيي هلال السرحان، بغداد، ١٩٧١م، ص ١٧٧-١٧٩
- (٢) ابن طيفور البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت: ٢٨٠هـ): تاريخ بغداد، بيروت، د.ت، ج ١٤، ص ٢٥٨؛ العسقلاني، ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي (ت: ٨٥٢هـ): رفع الإصر عن قضاة مصر، بيروت، ١٩٠٨م، ص ٥١٨؛ التنوخي، القاضي أبو علي المحسن بن علي بن محمد (ت: ٢٨٤هـ): نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر - بيروت، ١٩٧٣م، ج ٥، ص ٢٠٤.
- (٣) الصولي: أخبار الراضي والمتقى، ص ٢٠٠؛ العسقلاني: رفع الإصر، ص ٥١٨
- (٤) ستمم ترجمته عند ذكر قضاة المدينة المنورة.
- (٥) وكيع: أخبار القضاة، ج ٣، ص ٢٦٩؛ اليماني: العواصم والقواصم، ج ٨، ص ٢٥٨
- (٦) وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ٢٤٤، ٢٥٢

ومن هذه الاستثناءات أيضاً أن يعين القاضي ليكون خلفاً لوالده قاضي المدينة المنورة السابق حتى أصبح يورث منصب القاضي بين أفراد الأسرة الواحدة ، كالقاضي عبد الأعلى بن عبيد الله بن محمد بن صفوان القرشي الجمحي، وهو في زمن الخليفة المهدي^(١)، والقاضي عبد الجبار بن سعيد بن نوفل ابن مساحق، صاحب مالك وكان ذلك زمن الخليفة المأمون (٥١٧٠-٧٨٦م/٥٢١٨-٨٣٣م)^(٢)، وكذلك القاضي إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، حيث كان خلفاً لوالده الذي كان قاضياً عليها^(٣)، كذلك أسرة عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي وهي إحدى الأسر التي تولى العديد من أفرادها مهنة القضاء في العصر العباسي بل وصلوا حتى منصب قاضي القضاة^(٤). كذلك أسرة يعقوب بن إسماعيل بن حماد الأزدي، نالت أسرته على ثقة خلفاء بني العباس فلم ينل أحد مثل ما ناله مبلغهم من مال وجاه وخطوة عند الخلفاء مما كان له الأثر في تعيين معظم أسرته بمجال القضاء في العصر العباسي حتى وصل أحفاده إلى منصب قاضي القضاة^(٥). هذا لا يعني أن القضاة الذين تم تعيينهم خلفاً لأبائهم لا تتوفر فيهم المواصفات والمعايير اللازمة للقضاء، وإنما يعني أن هناك معايير أخرى تتعلق بالقرابة أو المجاملات يمكن أن تكون مرجحة لبعض الأفراد على آخرين.

من الواضح أن منصب القاضي في زمن الخلافة العباسية من المناصب الجذابة والتي يطمع فيها كثير من الناس، ومع ذلك لم تخل تلك الفترة من علماء أجلاء يتورعون من السعي لهذا المنصب، بل ويتهربون منه إن تم عرضه عليهم إما ورعاً وتقوى وخوفاً من الله عز وجل كالفقيه الورع عبد الرحمن بن أبي ربيعة، الذي رفض قضاء المدينة حين عرض عليه^(٦)، أو بسبب تدخل بعض الخلفاء العباسيين في عمل القضاة

(١) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٣، ص١٣٠

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٩٠

(٣) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص١١٧-١١٨؛ العنزي، ميسون مزكي فردوس: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، كلية الآداب - قسم التاريخ، ٢٠٠٤م، ص٩١

(٤) وكيع: القضاة، ج١، ص١٦٦؛ شبارو: القضاة، ص٨٢، ٨٥

(٥) المالقي الاندلسي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ج١، ص٢٢؛ التنوخي: نشوار المحاضرة، ج٦، ص٢١، ٢٢، ٢٠٩

(٦) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت: ٥٩٧هـ): صفة الصفة، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث - القاهرة، ١٤٢١هـ، ج١، ص٢٨٢

ومضايقتهم لهم مما جعل بعضهم يزهد في هذه الوظيفة^(١)، حتى لو أدى زهده ورفضه لمنصب القضاء في أحيان كثيرة إلى إلحاق الأذى به كالزج بالسجن^(٢)، وهو ما حدث مع إسحاق بن إبراهيم بن طلحة الذي عرض عليه حسن بن زيد والي المدينة المنورة وقتها تولي القضاء، فرفض وتمنّع، فحاول الوالي أن يجبره على قبول القضاء بالقوة والإكراه حتى أنه قام بسجنه، وعندما وجد أن السجن لم يؤت نتيجة معه، طلب منه أن يتولى القضاء لساعات؛ حتى يبر بقسمه حيث أنه أقسم أن لا يخلي سبيله من السجن إلا بقبوله الجلوس بمجلس القضاء، وعندما قبل إسحاق وجلس بمجلس القضاء لساعة من الوقت فقط ليبر يمينه وبعدها تم عزله^(٣). وهناك من يحاول أن يجنب نفسه الأذى؛ وذلك بقبول منصب القضاء على مضض ولفترة وجيزة ثم يطلب الإعفاء بعد ذلك، كما حدث مع قاضي المدينة المنورة في عهد المهدي عثمان بن طلحة بن عمر التيمي الذي انتهز قدوم الخليفة المهدي للعمرة فقدم عليه وطلب منه إعفائه من منصب القضاء، فقبل المهدي طلبه، وأعفاه من منصبه واستقضى عبد الله بن محمد بن عمران بدلاً منه^(٤).

مهام القاضي وصلاحياته

كانت مهام القضاة والصلاحيات المعطاة لهم متقاربة في أنحاء مدن الدولة العباسية، فمنصب قاضي القضاة مثلاً الذي استحدث في العصر العباسي زمن الخليفة هارون الرشيد كانت له صلاحيات واسعة تميز بها عن بقية القضاة، فقد كان يقوم باختيار وتعيين معظم قضاة الدولة العباسية. ولم تقتصر مهمة قاضي القضاة على التعيين فحسب، بل كان يتأكد من حسن أداء القضاة في أحكامهم القضائية، وذلك بمتابعتهم ومراجعة أحكامهم وقضاياهم، وتفقد سير أحوالهم مع الناس، فإذا وجد خلل لدى أحدهم قام بعزله. وبهذا أصبح للقضاة في العصر العباسي ولاية خاصة

(١) الحميضي: القضاء ونظامه، ص ٢٨٣

(٢) وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ٢٢٦؛ التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ٧، ص ٣٥؛ مجهول: ألف ليلة وليلة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٨١م، ج ١، ص ٣٥٥.

(٣) وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ١٤٦

(٤) وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ١٤٨

بهم، يحكمهم رئيس، يهتم بهم وينظم شؤونهم ويتابع أمورهم^(١)، ويمكن اعتبار ذلك بداية التنظيم رسمي للفصل بين السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية في الخلافة الإسلامية. وعلى الرغم من أهمية المدينة المنورة الروحية والمعنوية، إلا أن هذا المنصب الرفيع كان مقره عاصمة الخلافة فقط، ولم يكن لها خاصية عن بقية مدن الخلافة فيما يتعلق بصلاحيات القاضي وتنظيمات القضاء.

وكان لقضاة المدينة المنورة كغيرهم من قضاة الدولة العباسية الحق في تولي منصب أو عدة مناصب مهمة بالدولة إضافة إلى منصب القضاء، كتولي ولاية المدينة وقيادة الجيوش ورئاسة الشرطة وغيرها، وبذلك يمكن أن يجمع القاضي مع القضاء منصبين أو أكثر بالدولة، بالإضافة إلى ذلك يقوم القضاة بدور توعوي وتثقيفي مهم للناس من خلال إعطاء دروس الفقه والحديث وإمامة الصلاة والإفتاء^(٢). ومن هؤلاء القضاة القاضي أبو البخخري وهب بن وهب الذي تولى ولاية المدينة المنورة مع قضائها سنة ١٩٢هـ^(٣)، وكذلك القاضي عبد الجبار بن سعيد المساحقي وذلك سنة (٥٢٠٢)هـ^(٤). وقد يضاف إلى مناصب القضاء وولاية المدينة منصب آخر، وهو قيادة الجيوش كما حدث مع القاضي عبيد الله بن صفوان الجمحي زمن الخليفة المهدي، وأيضا القاضي محمد بن عبد الله بن كثير بن الصلت الذي كان يتولى شرطة المدينة المنورة زمن المهدي، ثم قام بتعيينه على قضائها لفترة من الزمن حتى استبدله بعدها فجعله واليا للمدينة المنورة بعد أن عزل عنها واليها السابق^(٥)، ويبدو نظور بعض الناس وضيقهم من تلك المناصب الهامة التي تولوها والتي يجدون انه لا يستحقها حتى هجاه أحدهم و قال :

- (١) مدكور: القضاة والقضاء في الإسلام ، ص٤٧، ٢١.
- (٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ، ج٢، ص٢٢٤، ٢٣٨.
- (٣) ابن الأثير: الكامل ، ج٥، ص٣٩٠؛ اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (المتوفى: ٧٦٨هـ) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية - لبنان، ١٤١٧هـ ١٩٩٧ م، ص٣٥٤.
- (٤) وكيع: أخبار القضاة، ج١، ص٢٥٧.
- (٥) ابن خياط ، أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (المتوفى: ٢٤٠هـ): تاريخ خليفة بن خياط، المحقق: أكرم ضياء العمري، دار القلم ، مؤسسة الرسالةدمشق، الطبعة: الثانية، ص٤٤٠؛ التنوخي: نشوار المحاضرة ، ج٦، ص٦٣.

نقمناك شرطيا فأصبحت قاضيا وصرت أميرا (أبشري) قحطان
أرى نزوات بينهن تفاوت وللدهر أحداث وذا حدثان.

وليس من الضروري أن هجاء القاضي صادق وصحيح ، فهناك من القضاة من تم هجائهم غيرة وحسداً من قبل قضاة سابقين وجدوا أنهم سلبوهم مكانهم ووجاهتهم فيعمدوا إلى بعض الشعراء ممن يعرف بالهجاء ليهجو ذلك القاضي المنافس له وهو ما كان مع القاضي محمد بن عبد الله بن عمران حينما عزل عن منصب القضاء واستبدل مكانه بالقاضي هشام بن عبد الله بن عكرمة فجزع وغضب و طلب من الشاعر ابن الخياط أن يهجو ويسيء له ليشوه سمعته ومكانته فكتب فيه أبياتا من شعر الهجاء (١).

وكذلك كان للقضاة حق الجمع بين أكثر من قضاءين في وقت واحد؛ كقضاء المدينة المنورة ومكة المكرمة، فكان يقيم القاضي بمدينة ويستخلف عنه بالأخرى قاضياً ينوب عنه، كالقاضي أبو هاشم ابن أخي ابن أبي مسرة المكي في أيام الخليفة المعتمد (٢٥٦هـ - ٨٧٠م/٥٢٨٤-٨٩٢م) ، وكذلك القاضي محمد بن عبد الله بن علي بن أبي الشوارب الذي تولى قضاء المدينة ومكة سنة ٣٠١هـ (٢). ومن جهة أخرى، قد لا يكفي قاض واحد لتولي أمور القضاء في المدن الكبيرة، فيتم تعيين أكثر من قاضي في ذات الوقت حتى لا تتأخر القضايا ولا تزدهم عند القضاة، بالإضافة إلى اختلاف مذاهب الناس بها من زوار أو مقيمين، كما أن هناك العديد من القضايا يحتاج فيها الخصوم للاستعجال بالبت في الأحكام وعدم المماطلة أو التأخير فيها حتى لا تترتب عليها مشكلات وقضايا أكبر (٣)، ومما لا شك فيه أن للمدينة المنورة وضع يتطلب أكثر من قاض بها، وذلك لمساحة المدينة المنورة الكبيرة وكثرة الناس المقيمين فيها والوافدين إليها من الزوار مع اختلاف مذاهبهم.

وقد أعطي القاضي أهمية كبيرة ومكانة مرتفعة حين مُنح العديد من الصلاحيات التي ميزت قضاة العصر العباسي عن بقية العصور، فلم تقتصر وظيفة القاضي على

(١) وكيع : أخبار القضاة ، ج ١، ص ١٦٤، ١٤٧، ١٥٧

(٢) وكيع : أخبار القضاة ، ج ١، ص ٢٦٠، ٢٦١

(٣) ابراهيم ، رحمن حسين علي : مجلس القضاء في العهد العباسي ، الاستاذ " العدد ٢٠٣ - ٢٠٤ / ٥١٤٣٣ / ٢٠١٢م " كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية - جامعة بغداد ، ص ٥٥٢.

الفصل في الخصومات أو انتهاء المنازعات، بل أضيف إليها العديد من المهام الأخرى كالفصل والبت في القضايا المتعلقة بالأمرء وأصحاب السلطة والنفوذ حتى أمور الخطبة والزواج (١)، وكان الكثير من الأهالي من يطلب من القضاة الشفاعة لهم عند أصحاب الشأن والنفوذ لتيسير أمورهم وتسهيل مصاعبهم (٢).

مجالس القضاء

أقامت الخلافة العباسية للقضاء مجالس خاصة به لإقامة الدعوى بين المتخاصمين (٣)، والنظر في الشؤون الأخرى ذات العلاقة. ولقد كان القضاء في زمن الرسول -عليه الصلاة والسلام- والخلفاء الراشدين من بعده لا يعدوا أن يكون إما في المسجد أو في منزله ﷺ أو منزل أحد الصحابة أو في الطرقات أمام الناس في مكان الخلاف أو النزاع وذلك حتى تنزه المساجد حتى تنزه عن الحائض والجنب والذمي. (٤)، ولكن سرعان ما تغير الأمر بعد ذلك، فالتوسع في الفتوحات الإسلامية أدى لتنوع الأديان في الديار الإسلامية، وبالتالي وجود العديد من أهل الكتاب وغيرهم من الرعاع وسفهاء العقول الذين رأى بعض القضاة أن تنزه المساجد من دخولهم فيها عند فك أي خصومه أو خلاف. وقد خصص في زمن الخلافة العباسية للقضاء في المدينة المنورة أماكن ومجالس خاصة به تميزت بالرحابة والسعة، وفي أحايين كثيرة خصصت له قاعات ملحقة بالمساجد (٥)، ولكن بعد فترة عاد قضاة المدينة المنورة للقضاء في المسجد النبوي إضافة للأماكن السابقة، فأصبحت القضايا تعرض بشكل معلن في

- (١) وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ٢٠٩؛ أبو فارس: القضاء في الإسلام، ص ٧٨، ٧٩، ٨١، ٨٢؛ عليان: المظالم في الإسلام، ص ٤١.
- (٢) التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ١٢٦، الغرايبة، محمد حمد: نظام القضاء في الإسلام، دار الحامد للنشر والتوزيع - الأردن، ٢٠٠٨م، ص ٨٧.
- (٣) عالية، سمير: نظام الدولة والقضاء والعرف، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، ١٤١٨هـ، ص ٢٢٧.
- (٤) صحيح البخاري، ج ٩، ص ٨٠-٨٥؛ ابن قدامه، عبد الله بن أحمد (ت: ٥٦٢٠هـ): المغني ويليهِ الشرح الكبير، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٩٧٢م، ج ١١، ص ٢٨٩.
- (٥) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل: فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة ببيروت، ١٢٧٩، ج ١٢، ص ١٥٦؛ عالية: نظام الدولة والقضاء والعرف، ص ٢٢٨.

المسجد أمام الجميع (١). وقد يكون السبب في ذلك أن القضاة وجدوا أن مجلس القضاء عندما يكون في المسجد النبوي يتحلى بطابع رمزي خاص، لكونه المكان الذي كان رسول الله ﷺ يقضي فيه بين الناس. وجود مجلس القضاء في المسجد النبوي أتاح الفرصة لعموم الناس الحضور والاستماع إلى الدفوع، وحكم القاضي (٢). هذا الأمر أتاح ميزة خاصة للقضاء في المدينة المنورة عن سائر المعمول به في الخلافة العباسية، خاصة وأن عدداً من الفقهاء والعلماء يحضرون مجالس القضاء هذه ممن يصادف وجودهم في المسجد النبوي أثناء انعقاد تلك الجلسات، وهو ما دعا عدد من القضاة الاستئناس برأي من يحضر من الفقهاء في بعض الأحكام القضائية (٣).

وقد كانت هناك مراسم خاصة لمجلس القضاء تضي عليه الهيئة والوقار، وفي الوقت نفسه تجعل من العمل أكثر تنظيماً وسلاسة؛ فكان المتخاصمون يقومون بإعطاء حاجب القاضي (٤) - قبل قدوم القاضي لمجلس القضاء - رقاعاً فيها أسماؤهم وأسماء آبائهم، فيجمع الحاجب الرقاع منهم، ويسلمها للقاضي الذي يقوم بإنهاء ما يستطيع منها في ذلك اليوم - حسب طاقته وجهده - وما تبقى كان يؤجل لليوم التالي (٥).

ومن ترتيبات الجلسات القضائية، أن يجلس القاضي بمكان محدد في المسجد (٦) يكون خاصاً لجلسات القضاء، متشحاً بلباس السواد، متوسطاً الشهود عن يمينه ويساره (٧)، ويكون بحضرته صاحب الشرطة أو من ينوب عنه (٨)، وبجانبه يقف الكاتب،

- (١) البيهقي، إبراهيم بن محمد (ت: ٣٢٠هـ): المحاسن والمساوي، دار صادر - بيروت، ١٣٩٠هـ، ص ٤٩٨-٤٩٩
- (٢) السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة (المتوفى: ٤٨٣هـ): المبسوط، دار المعرفة - بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، ج ١٦، ص ٨٢؛ شبارو: القضاء، ص ١١
- (٣) ابن مازة البخاري، المعروف بالصدر الشهيد (ت: ٥٢٦هـ): شرح أدب القاضي للخصاف (ت: ٢٦١هـ)، تحقيق: محي هلال السرحان، بغداد، ١٩٧٧م، ص ٢١٧
- (٤) الحاجب سيتم التعريف بالمصطلح لاحقاً
- (٥) متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبوريدة، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٩٦٧م، ج ١، ص ٤١٢
- (٦) التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٣٥
- (٧) ابن أبي الدم: أدب القضاء، ص ٥٨؛ التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ٥، ص ١٧٧؛ آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٤٢٢
- (٨) الصولي: أخبار الراضي والمتقي، ص ١٠٩.

وقريباً منه يكون الحاجب لتلبية ما يأمره القاضي أو لإدخال الخصوم^(١). وقد كان الخصوم يعرضون قضاياهم على القاضي وهم وقوف بين يديه^(٢)، ولم يكن هناك أحد من الخصوم مستثنى من حضور جلسات القضاء مهما علت مكانته وارتفع شأنه^(٣). هذا التنظيم الخاص باللباس والجلوس كان هو السائد المتبع، إلا أنه لا يمنع من وجود استثناءات؛ حيث كان هناك من القضاة من يرفضون أن يتميزوا عن الناس في المكان أو الفرش، فيجلسون على ما يجلس عليه الخصوم دون تفرقة أو تمييز تواضعاً وحياءً^(٤). وبعد الاستماع للقضية وسماع رأي الشهود يقوم القاضي بإصدار حكمه في القضية، ولإثبات الحكم القضائي؛ يقوم كاتب القاضي^(٥) بكتابة التهمة وشهادة الشهود وحكم القاضي، ويوقع عليها القاضي والشهود حيث توضع تلك الورقة وتحفظ في صندوق خاص لحفظ المحاكمات والقضايا^(٦).

إجمالاً، يتضح أن مجلس القضاء زمن الخلافة العباسية كان له طابعه وتنظيماته ومراسمه وهيئته المنظمة والمقننة، وتميزت المدينة المنورة عن غيرها من مدن الخلافة العباسية أن مجلس القضاء فيها كان في الأغلب مقره مكان مخصص بالمسجد النبوي الشريف، وهو ما أضفى على هذا المجلس الامتياز المعنوي والروحي لكونه المكان الذي كان يجلس فيه خير البشر عليه أفضل صلاة وتسليم، كما أعطى مجلس القضاء فيها مزية أخرى تمثلت في الحضور الجماهيري لهذه الجلسات لكونها تقام في المسجد، إضافة إلى الحضور النوعي بحضور عدد من الفقهاء الذين يصادف تواجدهم في المسجد النبوي أثناء انعقاد الجلسات.

رواتب القضاة ومخصصاتهم

- (١) العسقلاني: رفع الإصر، ص ٥٢٢، ٥٦٩.
- (٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٤١٥.
- (٣) ابن عبد ربه، أبو عمر محمد (ت: ٢٢٨هـ): العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٥٢م، ج ١، ص ٦٥.
- (٤) السرخسي: المبسوط، ج ١٦، ص ٨٢: التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ٦، ص ١٩٠.
- (٥) كاتب القاضي ستم ترجمته في الوظائف المساندة للقاضي.
- (٦) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت: ٢٥٠هـ): الولاة والقضاة، تحقيق: ريفن كست، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢٩٠-٢٩٢: التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ١٤-١٥: إبراهيم: مجلس القضاء في العصر العباسي، ص ٥٥٦-٥٥٧.

تميز الخلفاء العباسيون بسخائهم مع القضاة، فحرصوا كل الحرص على إكرام القضاة وإغداق الهبات والأموال العظيمة عليهم^(١)، فكانت الدولة تلتزم بتأمين رزق القاضي بأن تصرف له رواتب شهرية، وقد حرصت الخلافة العباسية أن يكون ما يتقاضاه القاضي سخياً لضمان نزاهة القضاء، وعدم إتاحة الفرصة لضعاف النفوس لاستغلال الظروف المادية لبعض القضاة^(٢).

كانت رواتب القضاة تصرف من بيت مال المسلمين، أما تحديد مبلغ النفقة والرواتب فحسب ما يراه والي المدينة التي يتبعها القاضي، فكان للوالي الحرية في زيادة رواتب القضاة وإنقاصها حسب ما يرى وفق ما تقتضي المصلحة العامة، وقد كان بعض الخلفاء يزيد في عطائه لبعض القضاة كونه موكل بأمور إضافية كحفظ الموارث والاهتمام بها ورعايتها^(٣) وغيرها من المهام، ولقد كانت رواتب القضاة تصرف لهم مقدم كل شهر ولا تحتل التأخير في تسليمها إليهم^(٤)، وقد يكون ذلك لسد كفايتهم وحاجتهم لتحسينهم من الوقوع في المفاصد المالية كالرشاوى وغيرها.

وقد ارتفعت رواتب القضاة ومكافأاتهم منذ بداية العصر العباسي، واستمرت بالارتفاع حتى نهاية الدولة العباسية، لذا لم يكن هناك راتباً محدداً للقضاة طوال فترة الخلافة العباسية، حتى أصبح منصب القاضي وسيلة سريعة ومضمونة لتحسين الدخل والوضع المالي للقضاة بعد توليهم منصب القضاء^(٥)، فبالإضافة إلى الراتب المخصص لهم كانت هناك مداخيل مالية إضافية كرسوم المتخاصمين أو مكافأتهم من الأوقاف أو من هبات الخلفاء العباسيين وعطاياهم^(٦)، ونظراً لكثرة الأوقاف التي يتم إيقافها على المسجد النبوي، فمن المتوقع أن يكون للقضاة فيها ميزة إضافية

(١) أبو فارس، محمد عبد القادر: القضاء في الإسلام، دار الفرقان للنشر والتوزيع - الأردن، ٢٠٠٩م، ص ٢٢٢

(٢) عليان: المظالم في الإسلام، ص ٨٢: أبو فارس: القضاء في الإسلام، ص ٧٣

(٣) الخصري، محمد (ت: ١٢٤٥هـ): محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، تحقيق: عبده علي كشك، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ١٤٢٤هـ، ص ٢٢٠-٢٢١

(٤) عليان: المظالم في الإسلام، ص ١٦٣.

(٥) التوخي، القاضي أبو علي المحسن بن علي بن محمد (ت: ٣٨٤هـ): الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر - بيروت، ١٩٧٨م، ج ٢، ص ٣٢٣: التوخي: نشوار المحاضرة، ج ٦، ص ١٩٦

(٦) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٥، ص ٣٠٢

عن غيرهم من القضاة في أنحاء الخلافة للقيام بواجب النظارة على هذه الأوقاف، وبالتالي الحصول على دخل إضافي معتبر منها.

ولا يعني هذا أن جميع القضاة كانوا يعيشون في رغد من العيش، بل كان هناك من عاش في فقر وضيق وقد بلغ الحال ببعضهم أن يموت مديوناً لا يملك شيئاً^(١)، بل وكان بعض القضاة يتعفف عن قبول أي رواتب أو أموال من الدولة نظير قيامه بالقضاء، ومن أمثلة هؤلاء القضاة في المدينة المنورة القاضي عثمان بن طلحة التيمي الذي تولى قضاء المدينة المنورة زمن الخليفة العباسي المهدي، حيث لم يقبل أجراً مقابل عمله^(٢)، وقد يكون رفضه لقبول أي أجر عن القضاء هو نوع من الورع والتقوى الذي عرف عنه، بالإضافة إلى عدم حاجته للأموال فقد كان من أصحاب النعمة والقدر والثراء^(٣).

لباس القضاة

لم يكن للقضاة قبل العصر العباسي زي خاص يميزهم عن عامة الناس، غير ما تميزوا به من لبس البياض وهو لون ملابس الفقهاء، وأصحاب العلم^(٤)، ومع التوسع الحضاري في العصر العباسي الذي انعكس على ملابس الناس وأزيائهم أصبح لكل فئة لبس خاص بها يميزها عن غيرها، وقد رأى أبو يوسف قاضي القضاة زمن هارون الرشيد^(٥) أن يكون هناك نوعاً من الهيبة للقضاة أمام الناس بأن يميزوا بلباس خاص بهم، وحدد لونه بالسواد ليتناسب مع رمز الدولة العباسية واللبس الرسمي لخلفائها^(٦).

- (١) ياقوت الحموي: معجم الابداء، ج٥، ص٢٢٢؛ التنوخي: الفرج بعد الشدة، ج٢، ص١٥٠؛ التنوخي: نشوار المحاضرة، ج٥، ص٢٠٠
- (٢) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢، ص١٥٥؛ البغدادي: تاريخ بغداد، ج١١، ص٢٧٦-٢٧٧، فاطمة: تطور نظام القضاء في الحضارة الإسلامية، ص٩٥
- (٣) التنوخي: نشوار المحاضرة، ج٦، ص١٨٤؛ البغدادي: تاريخ بغداد، ج١١، ص٢٧٦-٢٧٧؛ وكيع: أخبار القضاة، ج١، ص١٤٨
- (٤) شبارو: القضاء، ص٦٥
- (٥) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب يلقب بأبي يوسف، كان حافظاً وصاحب حديث، تولى قضاء بغداد في خلافة هارون الرشيد حتى تولى سنة ١٨٢هـ. الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (المتوفى: ٢٧٦هـ): المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٢ م، ص٤٩٨.
- (٦) ابن ابي الدم: أدب القضاء، ص٥٨؛ مذكور: القضاة والقضاء في الإسلام، ص٢١

على اعتبار أن القضاة ممثلو الخليفة وأحد رموز الدولة. ويبدو أن القضاة حرصوا على لبس السواد في المناسبات الرسمية والمحافل الاجتماعية فقط، أما في الأيام العادية فالقضاة الحرية في لبس الملابس الملونة والتي تكون غالباً بيضاء اللون^(١). وعادة يشتمل لباس القضاة على قميص من فوقه الطيلسان وعمامة مبطنة^(٢). ولقد حرص القضاة خلال العصر العباسي على الظهور بهندام أنيق وملابس فاخرة ليتم تمييزهم عن عامة الناس؛ فتدخل هيبتهم في النفوس^(٣). من الواضح هنا أن قضاة المدينة المنورة مثلهم مثل غيرهم من قضاة الدولة العباسية فيما يتعلق باللباس، لا يتميزون عنهم بشيء.

أبرز قضاة المدينة المنورة بالعصر العباسي:

تعاقب عدد كبير من القضاة على قضاء المدينة المنورة زمن الخلافة العباسية، مما يجعل من حصرهم أمراً صعباً وغير ذي جدوى في مثل هذه الدراسة، ويمكن الاقتصار هنا على ذكر أبرز من تولى القضاء في مدينة رسول الله ﷺ خلال العصر العباسي، مرتبين بحسب التعاقب الزمني:

١. أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبره العامري، استقضاه والي المدينة المنورة زياد بن عبيد الحارثي زمن الخليفة العباسي أبو العباس السفاح (١٠٤هـ - ٧٢١م / ١٣٦هـ - ٧٤٣م) (سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠م)، ثم أقر أبو جعفر المنصور قضاءه، وبذلك يكون أول قاض للمدينة المنورة في العصر العباسي، وقد اشتهر بسعة علمه، وغزارة معرفته بسيرة الرسول ﷺ وبأيام الناس وأخبارهم^(٤).
٢. عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله بن المطلب بن مخزوم، تولى قضاء المدينة المنورة ومكة المكرمة فترة الخليفين المنصور والمهدي (سنة ١٤١هـ / ٧٥٨م)،

(١) ريان، أحمد علي طه: ملامح من حياة الفقيه المحدث مالك بن أنس إمام دار الهجرة، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، ص ١٠٢.

(٢) الجنابي، خلود مسافر: المجالس العلمية في عصري ما قبل الإسلام والرسالة والعصور الراشدية والأموية والعباسية، الدار العربية للموسوعات - لبنان، ٢٠١٢م، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٣) الصابئ، أبو الحسن هلال بن المحسن: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار فرج، لبنان - دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م، ص ٣٥٤.

(٤) وكيع: أخبار القضاة، ص ١٣١.

وينحدر القاضي عبدالعزيز من أسرة علمية، حيث يعد والده وأخوه من علماء المدينة وثقاتها، وقد عرف بالجوهر والكرم، وذاع صيته لسعة علمه بأمور القضاء^(١).

٢. أبو سليمان محمد بن عمران التيمي، كان قاضياً لبني أمية على المدينة، ثم ولاه أبو جعفر المنصور على قضاء المدينة، عرف عنه عند القضاء المرورة والصلابة والحزم وقلة الحديث، مات وهو على قضاء المدينة المنورة (ت ١٥٤هـ / ٧٧٠م)، وعند وفاته حزن عليه المنصور وقال اليوم استوت قريش^(٢).

٤. سعيد بن سليمان المساحقي، هو أول قاضي استقضاه المهدي على المدينة المنورة، لكنه عاد وعزله عن القضاء، ولكنه عاد لقضاء المدينة المنورة حينما تولى موسى بن المهدي الخلافة، واستمر قاضياً حتى خلافة الرشيد لفترة من الزمن، لكن الرشيد عاد وعزله عن القضاء مرة أخرى^(٣).

٥. عثمان بن طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، أحد أشرف قريش وساداتهم، اشتهر بالفقه وبحسن السيرة وطيب الذكر، روى بعض الأحاديث، عرض عليه قضاء المدينة المنورة زمن الخليفة المهدي فرفضه، ثم أكره عليه فقبله (سنة ١٦٥هـ / ٧٨١م)، ولم يأخذ عليه أجراً، وبعد فترة من توليه القضاء انتهز قدوم الخليفة المهدي للعمرة فطلب منه إعفائه من القضاء، وأصر على طلبه حتى استجاب له فأعفى^(٤).

(١) وكيع: أخبار القضاة، ص ٢٠٢

(٢) ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (المتوفى: ٢٣٠هـ): الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم، المحقق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ، ج ١، ص ٣٩٢؛ البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (المتوفى: ٢٧٩هـ): جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر - بيروت، ١٤١٧ هـ، ج ١٠، ص ١٣٢؛ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ج ٢، ص ٧٩٥.

(٣) وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ٢٣٢-٢٣٣

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٢٤٤؛ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب (ت: ٤٦٢هـ): تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٧ هـ، ج ١١، ص ٢٧٦-٢٧٧؛ وكيع، القضاة، ج ١، ص ٢٢٩

٦. عبد الله بن محمد بن عمران التيمي، تولى القضاء بتكليف من الخليفة المهدي بعد عثمان بن طلحة التيمي ولكنه صرفه عنها، وعندما تولى الرشيد أرجعه لقضاء المدينة مرة أخرى لكنه عاد وصرفه عنها حيث جعله والياً على مكة، وبعدها صرفه عن ولاية مكة حيث أرجعه لقضاء المدينة المنورة وبعدها استعفاه عن قضاء المدينة ولزم الرشيد حتى توفيه (ت ١٨٩هـ / ٨٠٤م) ^(١).

٧. أبو البخترى وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله، تولى قضاء العسكر عند المهدي، ثم ولاية المدينة المنورة وقضائها زمن الرشيد سنة (١٩٢هـ / ٨٠٧م)، ثم أصبح قاضي القضاة بعد أبي يوسف، كان جواداً كريماً، وبالرغم من توليه القضاء إلا أنه كان متهماً عند بعض أهل الحديث برواية وتأليف أحاديث كاذبة عن الرسول ﷺ، توفيه سنة مئتان من الهجرة ^(٢).

٨. إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، من العلماء الثقات عرف عنه ورعه وملازمته للمسجد فلا يخرج منه إلا قليلاً، روى العديد من الأحاديث الصحيحة، تولى قضاء المدينة زمن الرشيد خلفاً لوالده الذي كان قاضياً عليها، توفيه سنة مئتين وخمسة من الهجرة ^(٣).

٩. عبد الجبار بن سعيد بن سليمان القرشي المدني، صاحب الإمام مالك بن أنس وروى عنه وعن غيره من أهل المدينة، تميز بجمال الوجه والهيئة وحسن اللسان، تولى إمارة المدينة المنورة لأكثر من مرة، ثم خلف والده قضاء المدينة المنورة في عهد المأمون، (ت ٢٢٦هـ / ٨٤٠م) ^(٤).

١٠. يعقوب بن إسماعيل بن حماد الأزدي، كان والده من أبرز قضاة عصره ^(٥)، تولى قضاء المدينة ثم انتقل عنها إلى بغداد، عرف عنه الصدق في روايته

(١) وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ٢٢٩.

(٢) اليماني: العواصم والقواصم، ج ٨، ص ٢٥٨-٢٥٩؛ وكيع: أخبار القضاة، ج ١، ص ٢٤٤.

(٣) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ١١٧-١١٨؛ العنزي: الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ص ٩١.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٤٤٩-٤٥٠؛ العنزي: الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ص ٩٠.

(٥) المالثقي الأندلسي، أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن الحسن (ت: نحو ٧٩٢هـ):

المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الأندلس)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي

في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة: الخامسة، ١٤٠٢هـ، ج ١، ص ٣٢.

للأحاديث حيث أخذ الحديث عن مجموعة من الثقات، (ت ٢٩٧هـ / ٩٠٩م) ^(١).

١١. محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر المقدمي، تولى قضاء مكة المكرمة والمدينة المنورة سنة (٢٨٠هـ)، ثم أرسل إلى بغداد لتولي قضائها، ثم أعيد مرة أخرى سنة (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) لتولي قضاء مكة المكرمة وبقي قاضياً بها حتى سنة (٢٩٢هـ / ٩٠٤م) ^(٢).

١٢. محمد بن عبد الله بن علي بن أبي الشوارب، تولى قضاء مكة والمدينة سنة (٢٩٨هـ / ٩١٠م) خلفاً لوالده بعد أن أصيب بالفالج ^(٣) وبقي يقضي فيها حتى عزل عنها سنة (٣٠١هـ / ٩١٣م) ^(٤).

١٣. عبيد الله بن محمد بن صفوان بن أبي خلف القرشي الجمحي، كان عالماً أديباً، تولى قضاء بغداد زمن المنصور، وفي خلافة المهدي عزله عن قضاء بغداد حيث ولاه قضاء المدينة، وقيادة الجيش والإمامة فيها، وقد بقي بالمدينة المنورة حتى مات، ثم استخلف المهدي ابنه عبد الأعلى لقضاء المدينة خلفاً لوالده ^(٥).

الوظائف المساندة للقاضي

أدى اتساع الدولة الإسلامية زمن العباسيين، وكثرة المقيمين فيها والوافدين إليها مع اختلاف ثقافتهم ومذاهبهم إلى كثرة الخلافات والمشكلات القضائية، وهو ما أدى إلى ازدياد أعباء القضاة، فكان لابد من عمل هيكل تنظيمي للقضاء لتنظيم سير الأمور القضائية، فكان لابد له من أعوان ومساعدين حتى يسير العمل القضائي بطريقة سريعة ومكتملة ^(٦)، ونتيجة لذلك أصبح هناك جهاز خاص للقضاء، واستحدثت عدة وظائف

(١) البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ٢١٣، ج ١٦، ص ٤٠١؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ١١، ص ٢٥١-٢٥٢

(٢) وكيع: القضاة، ج ١، ص ٢٦٠

(٣) الفالغ: هو استرخاء أحد الجانبين من جسم الإنسان ويقال أفلج فلان إذا ذهب عنه الاحساس والحركة عن بعض أعضائه. الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ١٨٦.

(٤) وكيع: القضاة، ج ١، ص ١٦٦؛ شبارو: القضاة، ص ٨٥، ٨٢

(٥) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ١٣٠؛ التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ٦، ص ٦٣، ٦٠

(٦) أبو الحسن التُّسُولي، علي بن عبد السلام بن علي (المتوفى: ١٢٥٨هـ): البهجة في شرح التحفة ((شرح تحفة الحكام))، المحقق: ضبطه وصححه: محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية لبنان

١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ج ١، ص ٦٤؛ عليان: المظالم في الإسلام، ص ٨٢

تتبع القضاء، ولا تكتمل المحاكمة القضائية دونها، ولعل أهمها الآتي:

١ / **نائب القاضي وخليفته**: وجد هذا المنصب لكثرة الأعباء وازدياد المهمات لدى القضاة، وقد خصصت هذه الوظيفة للقضاة في المدن الرئيسية فقط، وحظيت المدينة المنورة بهذا المنصب لأهميتها المعنوية ولحجمها السكاني. ينوب نائب القاضي عن القاضي في حال غيابه أو انشغاله بسبب مرض أو سفر أو في مشاركة الخلفاء والولاة واجباتهم الاجتماعية والدينية والسياسية. ولقد كان معظم القضاة في ذلك هم من تولى وظيفة نائب قاضي بالسابق فكان ترتيب السلم القضائي يبدأ من نائب قاضي فقاضي حتى يصل لقاضي القضاة^(١).

٢ / **الكاتب**: هو من يقوم بكتابة سير القضايا والخلافات وغيرها، ويرجع تاريخ هذه المهمة إلى أيام الرسول ﷺ^(٢)، إلا أنها في العصر العباسي أصبح لها تنظيمًا خاصًا ومهام محددة، حيث لم تقتصر الكتابة في سجلات القضاء على المشكلات والمنازعات، بل أضيف إلى تلك السجلات قضايا الديون والأوقاف والوصايا^(٣). يتطلب الأمر من الكاتب أن يجلس قريباً من القاضي ليكتب كل ما يمليه عليه، وما يدور بين المتخاصمين. وعادة يقوم القاضي بالتأكد من صحة ما يكتبه ويدونه الكاتب في السجل^(٤).

٣ / **الحاجب**: ترجع هذه المهمة أيضاً إلى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكنها تطورت كثيراً في العصر العباسي حتى أصبحت من الوظائف الرئيسية لا غنى عنها عند القضاة؛ فهو منظم لدخول وجلس الخصوم فلا يحق لأحد الدخول إلا بعد إذنه، وذلك لمنع دخول الخصوم في نفس الوقت مما يسبب الفوضى والازدحام عند القاضي^(٥)، بالإضافة إلى أن وظيفة الحاجب تحفظ للقاضي هيئته ومكانته فيستعين

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة، ج٨، ص١٩٠؛ البغدادي: تاريخ بغداد، ج١٢، ص٤٧٩؛ شبارو: القضاء، ص٣٩

(٢) أبو فارس: القضاء في الإسلام، ص٦٠؛ عالية: نظام الدولة والقضاء والعرف، ص٣٢٨

(٣) السقلاني: رفع الإصر، ص٤٢٨؛ الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٧٤

(٤) السرخسي: المبسوط، ج١٦، ص٩٤؛ عليان: المظالم في الإسلام، ص٨٣-٨٤؛ عالية: نظام الدولة والقضاء والعرف، ص٢٣١

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١، ص١٢٦؛ الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، مطابع دار الصفوة مصر، ج٢٣، ص٢١٠؛ عليان: المظالم في الإسلام، ص٨٣-٨٤.

به للترفع عن استطالة السفهاء من المتخصصين في مجلس القضاء^(١). ويجب أن يتوفر بالحاجب الخوف من الله والأمانة والعدل في التعامل مع الناس^(٢).

٤ / **الترجمان**؛ وجدت هذه الوظيفة بشكل رسمي نتيجة لكثرة الوافدين إلى المدينة المنورة ممن لا يتحدثون العربية بشكل كاف، فكان لابد للقاضي من وجود مترجم دائم معه حتى يوضح له ما يعجز عن فهمه من لغات الخصوم لمساعدته في فهم كلامهم وشكواهم، وإن لم يستطع القاضي إيجاد مترجم يناسب لغة خصومه كان يسمح للخصوم باستدعاء مترجم لهم^(٣).

٥ / **المزكي**؛ هذه الوظيفة استحدثت أيضاً نتيجة لكثرة الوافدين إلى المدينة المنورة من غير أهلها، ولأنه من الصعب على القاضي أن يكون على معرفة وعلم بكل الشهود في جميع قضاياها، كان وجود المزكي في تلك الفترة أمراً ضرورياً في المحاكم القضائية. فالمزكي هو من يخبر القاضي بأحوال الشهود الذين يزيههم مستنداً على معرفة شخصية بهم أو معايشة أو سفر، ولهذا كان من المهم أن يكون المزكي نفسه معروفاً عند القاضي بصدقه وأمانته^(٤).

٦ / **القاسم أو خبير القسمة**؛ من مهمات القضاة الفصل بين المنازعات والحكم بين الناس، وقد يكون في حكمه تقسيم أموال أو أراض وغيرها، وهنا كان دور المقسم أو القاسم فهو يقوم بعمله بكل خبرة وسابق معرفة وعلم، ويتبع القاسم أهل الخبرة من أصحاب الحرف والصناعات والأطباء والتجار وغيرهم^(٥).

- (١) ابن الموصلي، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان بن عبد العزيز (المتوفى: ٧٧٤هـ): حسن السلوك الحافظ دولة الملوك، المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن بالرياض، د.ت، ص ١١٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٢٦؛ الموسوعة الفقهية الكويتية، ج ٢٢، ص ٢١٠؛ عالية: نظام الدولة والقضاء والعرف، ص ٢٢٠-٢٣١
- (٢) السبكي، أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي (المتوفى: ٧٥٦هـ): فتاوى السبكي، دار المعارف، د.ت، ج ١، ص ٢٠٧
- (٣) السرخسي: المبسوط، ج ١٦، ص ٩٤؛ عليان: المظالم في الإسلام، ص ٨٥؛ أبو فارس: القضاء في الإسلام، ص ٦٥
- (٤) السرخسي: المبسوط، ج ١٦، ص ٨٩؛ عليان: المظالم في الإسلام، ص ٨٦
- (٥) عليان: المظالم في الإسلام، ص ٨٦-٨٧

٧ / **الوكيل أو المحامي**؛ وهو من يوكل إليه الأمور^(١)، فهو يتكفل بالحضور للمحكمة ومناقشة القاضي وكالة عن الخصوم إما لجهلهم بأمر الشريعة أو لصعوبة حضورهم لانشغال بعمل أو مرض أو سفر. ومن أعمال الوكيل إنصاف المرأة من ظلم زوجها ومساعدتها على طلاقها منه^(٢)، ومساعدة المساجين بعد زيارتهم بالسجون ومحاولة إخراجهم منها^(٣)، ويأخذ الوكيل أموالاً من موكله وأصحاب القضايا بناءً على عمله هذا^(٤).

٨ / **الشهود**؛ أو ما يطلق عليهم لقب أخوان القاضي لقربهم منه وثقته فيهم^(٥)، وهم من يشهدون بأمر حدثت أمامهم وتحت سمعهم أو بصرهم في القضية المطروحة عند القاضي، وعادة تكون شهادتهم شفوية لكنها تكتب وتسجل. والشهود نوعان؛ نوع يعرف بالشهود الشرعيين، وهم بمثابة مساعدين للقاضي وكأنهم تابعون للمحكمة، وهؤلاء الشهود يعتمد عليهم القاضي في شهادتهم في تسجيل القرارات وعمل العقود للناس^(٦). وهناك أنواع من القضايا الجنائية أو قضايا الخلافات والمنازعات لا يكفي القاضي بشهادة واحدة للقضية فيطلب ما لا يقل عن شهادتين لزيادة الحرص على عدم التزوير أو التلاعب بحقائق القضية، وحتى يضمن ذلك يقوم القاضي باختيار بعض الأفراد الثقات المشهود لهم بالعدل والأمانة بعد التحري عنهم والتأكد من أمانتهم، فيعتمد أسماءهم في قضاياهم وهم من يسمون الشهود العدول، وعادة يكون أعدادهم بالعشرات من الرجال الثقات^(٧)، وهذا هو النوع الثاني من الشهادة وهو

- (١) الرازي، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ج٦، ص١٣٦
- (٢) التنوخي: نشوار المحاضرة، ج٧، ص٢٤١
- (٣) التنوخي: الفرج بعد الشدة، ج٢، ص١٥١-١٥٠
- (٤) التنوخي: نشوار المحاضرة، ج٣، ص٢٢١-٢٢٢
- (٥) التنوخي: نشوار المحاضرة، ج٢، ص٢٤
- (٦) الرومي الحنفي، قاسم بن عبد الله بن أمير علي القونوي (ت: ٩٧٨هـ): أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، تحقيق: يحيى حسن مراد، دار الكتب العلمية - بيروت، ٢٠٠٤م، ص٨٧؛ التنوخي: نشوار المحاضرة، ج٢، ص٧٧، ج٧، ص٢٢١؛ شبارو: القضاة، ص٤٥
- (٧) الأزهري، محمد بن أحمد الهروي، أبو منصور (ت: ٢٧٠هـ): تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ٢٠٠١م، ج٢، ص١٢٥؛ وكيع: أخبار القضاة، ج١، ص٢١٢؛ التنوخي: نشوار المحاضرة، ج٢، ص٢٦٩.

الذي استُحدث في الخلافة العباسية، ولم يكن معروفاً من قبل^(١). ولأن هؤلاء الشهود من اختيار القاضي ووفق رأيه وقناعته بهم؛ فعادة يكون أمرهم مرتبط به فهم يُعزلون بوفاة القاضي أو عزله^(٢).

٩ / أمين القاضي؛ هو من يستأمنه القاضي لحفظ أموال اليتامى القاصرين والاهتمام بالأوقاف وإدارتها، ويحرص القضاة عند تعيينهم لهؤلاء الأمناء على أن يتصفوا بالأمانة والثقة ليقوموا بمهامهم على أفضل وجه^(٣). وقد حرصوا على متابعتهم ومحاسبتهم لتدارك أي قصور أو خطأ قد يصدر منهم بدون عمد، بل ومعاقتهم إن وجدوا أدنى تقصير خلال قيامهم بعملهم، كعدم الحرص على أموال الأوقاف أو الإسراف عند الصرف على الأيتام^(٤)، وقد كان أمناء القاضي يستلمون رواتبهم من الدولة، من أموال الأوقاف والصدقات المتنوعة^(٥).

١٠ / مُحضِر الخصوم؛ هو أحد أعوان القاضي لأن مجلس القضاء يحتاج للهبة فهم من يقوم باستدعاء الخصوم إلى مجلس القضاء، وإعلامهم بوقت النظر في قضيتهم، وينهى ويزجر من يستحق النهي في مجلس القضاء^(٦).

معظم الوظائف الوارد ذكرها أعلاه لم تختص بالمدينة المنورة، بل هي عامة لتنظيم القضاء في الدولة العباسية كلها، إلا أن هناك بعض الوظائف تتأكد أكثر فيها نتيجة لطبيعة المدينة المنورة وأهميتها ونوعية قاطنيها أو الزائرين إليها مثل وظيفة نائب القاضي والمترجم والمزكي.

(١) العسقلاني: رفع الاصر، ص ٤٢٨

(٢) الماوردي: الاحكام السلطانية، ص ١٢٨

(٣) التنوخي: الفرغ بعد الشدة، ج ٣، ص ٢٦٥، ٧٦

(٤) التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ٣، ص ٢٢٢

(٥) التنوخي: الفرغ بعد الشدة، ج ٣، ص ٢٦٧، ٢٦٦، ٢٦٥

(٦) الموسوعة الفقهية الكويتية، ج ٢٢، ص ٢١٠؛ عليان: المظالم في الإسلام، ص ٨٧

الخاتمة

مما لا شك فيه أن العصر النبوي هو النواة التي انطلقت منها التنظيمات القضائية عبر عصور الدول الإسلامية المتعاقبة، حيث تطور تدريجياً من جهة التفصيلات والتدوين في العصر الراشدي، وبعدها العصر الأموي، حتى وصل أعلى درجات الاهتمام بالتفاصيل خلال العصر العباسي، حيث ظهر اهتمام خاص بتطوير الأنظمة القضائية المتوارثة، أو بسن قوانين وأنظمة جديدة لم تكن موجودة من قبل كاستحداث عدة وظائف تتبع النظام القضائي.

وقد احتلت المدينة المنورة موقعاً استثنائياً من حيث مكانتها الروحية في نفوس المسلمين، إضافة إلى ذلك كله يفض إلى المدينة المنورة جموع غفيرة من المسلمين من مختلف الطوائف واللغات والاتجاهات المذهبية، ذلك كله يشكل تحدياً للقضاة لا يمكن تغافله، مما جعل من اختيار قضاتها وتعيينهم أمراً مهماً في الدولة العباسية، أضف إلى ذلك، نظرة المسلمين من كافة أنحاء المعمورة إلى أن فتوى أهل المدينة لها تقدير خاص. هذه المزايا الخاصة بالمدينة المنورة استدعى أن يكون لها مزية خاصة في تعيين قضاتها إذ غالباً ما يتولى الخليفة نفسه اختيار قاضي المدينة المنورة وإصدار مرسوم تعيينه فيها.

أوجدت هذه المكانة لقضاة المدينة تنافساً غير محمود على تولي القضاء في المدينة المنورة خاصة مع إمكانية تولي قضاة المدينة المنورة مناصب إدارية هامة بالدولة مع القضاء، وكذلك إمكانية تولي قضاء المدينة المنورة مع مكة المكرمة في نفس الوقت، حتى وصل الحرص على نيل هذا المنصب قيام بعض القضاة بجعله أمراً متوارثاً في أسرهم من خلال تهيئة أبنائهم للقضاء خلفاً عنهم. بطبيعة الحال هذا الأمر لا يشمل العموم من القضاة فهناك من العلماء ممن رفض تولي منصب القضاء زهداً وورعاً فيه بالرغم من المحاولات والضغوط التي مارسها عليهم بعض الخلفاء العباسيين للقبول بالمنصب.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأوضاع العامة لقضاة المدينة المنورة خلال العصر العباسي لم يكن مختلفاً عن بقية مدن الدولة العباسية في الكثير من الأمور، إلا أن المكانة الروحية الدينية للمدينة المنورة والرمزية التي يحملها من يتولى منصب القضاء فيها أكسبت هذا المنصب بريقاً خاصاً ميزته عن غيره في بقية المدن الأخرى. وقد كان ذلك سبباً كافياً لخلفاء بني العباس لإعطاء أهمية خاصة وعناية بالغة في اختيار من يتولى هذا المنصب حيث يراعون فيه جوانب متعددة ليست فقط الكفاءة العلمية والنزاهة فحسب، بل تتجاوز إلى الميول السياسية والاعتدال الفقهي والقبول المجتمعي.

المراجع

١/ قائمة المصادر

١. ابن ابي الدم ، شهاب الدين ابو اسحاق ابراهيم (ت: ٦٤٢هـ)
أدب القضاء أو الدرر المنظومات في الاقضية والحكومات ، تحقيق: محمد مصطفى الزحيلي ، د.م ، دن، د.ت.
٢. ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت: ٥٩٧هـ)
صفة الصفوة ، تحقيق: أحمد بن علي ، دار الحديث - القاهرة ، ١٤٢١هـ .
٣. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، المحقق: محمد عبد القادر عطا ، مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م .
٤. ابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (المتوفى : ٢٣٠هـ)
الطبقات الكبرى ، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم ، المحقق: زياد محمد منصور ، مكتبة العلوم والحكماء مدينة المنورة ، الطبعة: الثانية ، ١٤٠٨ هـ .
٥. ابن طيفور البغدادي ، أحمد بن أبي طاهر (ت: ٢٨٠هـ)
تاريخ بغداد ، بيروت ، دن ، د.ت .
٦. ابن عبد ربه ، أبو عمر محمد (ت: ٣٢٨هـ)
العقد الفريد ، تحقيق: محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .
٧. ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (المتوفى : ٥٧١هـ)
تاريخ دمشق ، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م .
٨. ابن قدامة ، عبد الله بن أحمد (ت: ٥٢٠هـ)
المغني ويليهِ الشرح الكبير ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ١٩٧٢ م .

٩. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (المتوفى: ٧٧٤هـ)
٩. البداية والنهاية، المحقق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨، هـ ١٩٨٨ م.
١٠. ابن مازة البخاري، المعروف بالصدر الشهيد (ت: ٥٢٦هـ)
١٠. شرح أدب القاضي للخصاف، تحقيق: محي هلال السرحان، بغداد، ١٩٧٧ م.
١١. ابن الموصلي، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان بن عبد العزيز (المتوفى: ٧٧٤هـ)
١١. حسن السلوك الحافظ، دولة الملوك، المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن بالرياض، د.ت.
- الأزهري، محمد بن أحمد الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ)
٢١. تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ٢٠٠١ م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦هـ)
١٢. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ
- البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب (ت: ٤٦٣هـ)
١٤. تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٧هـ.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (المتوفى: ٢٧٩هـ)
١٥. جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر - بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٦ م.
- البيهقي، إبراهيم بن محمد (ت: ٣٢٠هـ)
١٦. المحاسن والمساوي، دار صادر - بيروت، ١٣٩٠هـ.
- التنوخي، القاضي ابو علي المحسن بن علي بن محمد (ت: ٣٨٤هـ)
١٧. الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر - بيروت، ١٩٧٨ م.
١٨. نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر - بيروت، ١٩٧٣ م.

الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت: ٣٨٧هـ)
١٩. مفاتيح العلوم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، الطبعة: الثانية، د.ت.

الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (المتوفى: ٢٧٦هـ)
٢٠. المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٢ م

الرازي، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)
١٢. معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

الرومي الحنفي، قاسم بن عبد الله بن أميرعلي القونوي (ت: ٩٧٨هـ)
٢٢. أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، تحقيق: يحيى حسن مراد، دار الكتب العلمية- بيروت، ٢٠٠٤م.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله (ت: ٥٣٨هـ)
٢٣. أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ.

السبكي، أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي (المتوفى: ٧٥٦هـ)
٢٤. فتاوى السبكي، دار المعارف، د.ت.

السخاوي، شمس الدين محمد (ت: ٩٠٢هـ)
٢٥. التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، مكتبة ابن الجوزي - الأحساء، د.ت.

السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة (المتوفى: ٤٨٣هـ)
٢٦. المبسوط، دار المعرفة - بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

الصابئ، أبو الحسن هلال بن المحسن
٢٧. تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار فرج، لبنان - دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٨م.

الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أبيك (المتوفى: ٧٦٤ هـ)
٢٨. تصحيح التصحيف وتحريير التحريف، حققه وعلق عليه وصنع فهارسه: السيد
الشرقاوي، راجعه: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٤٠٧
١٩٨٧ م.

الصولي ، ابو بكر محمد بن يحيى (ت: ٣٣٥ هـ)
٢٩. أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، دار المسيرة - بيروت ، ١٣٩٩ هـ.

العسقلاني ، ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي (ت: ٨٥٢ هـ)
٣٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد
الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار
المعرفة بيروت، ١٣٧٩.

٣١. رفع الإصر عن قضاة مصر ، بيروت ، ١٩٠٨ م.

القرطبي ، عريب بن سعد (ت: ٣٦٦ هـ)
٢٢. صلة تاريخ الطبري ، دار القلم - بيروت ، د.ت.

الكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف (ت: ٣٥٠ هـ)
٢٣. الولاة والقضاة ، تحقيق: ريفن كست ، بيروت ، ١٩٨٠ م.

المالقي الاندلسي ، أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن الحسن (ت: نحو ٧٩٢ هـ)
٣٤. المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الأندلس)، تحقيق
لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة -
بيروت، الطبعة: الخامسة، ١٤٠٣ هـ.

الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت: ٤٥٠ هـ)
٣٥. أدب القاضي، تحقيق: محيي هلال السرحان، بغداد ، ١٩٧١ م.
٣٦. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٣٩٨ هـ.
٣٧. تسهيل النظر وتعجيل الظفر ، تحقيق: محيي هلال السرحان، دار النهضة -
بيروت ، ١٩٨١ م.

مسكوية ، أبو علي احمد بن محمد (ت: ٤٢١هـ)
٢٨. تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تصحيح هـ. ف. امدروز ، مطبعة شركة التمدن
الصناعية - مصر ، ١٣٣٢هـ .

وكيع ، محمد بن خلف بن حيان (ت: ٣٠٦هـ)
٢٩. أخبار القضاة ،مراجعة: سعيد محمد اللحام، عالم الكتب - بيروت ، د.ت.

اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (المتوفى: ٧٦٨هـ)
٤٠. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع
حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية - لبنان، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت: ٦٢٦هـ)
٤١. معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب الى معرفة الأديب ، دار المأمون - القاهرة
، د.ت.

اليمني ، الوزير محمد بن ابراهيم (ت: ٨٤٠هـ)
٤٢. العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ، حققه وخرج أحاديثه : شعيب
الأرنؤوط ، بيروت- مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥هـ.

٢ / قائمة المراجع :

ابراهيم ، رحمن حسين علي

١. مجلس القضاء في العهد العباسي ، الاستاذ " العدد ٢٠٣ - ١٤٢٣هـ / ٢٠١٢م " -
كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية - جامعة بغداد .

آدم متر

٢. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو
ريدة، مكتبة الخانجي - القاهرة ، ١٩٦٧م .

ان دوزي، رينهارت بيتر

٣. تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية ج ٤: محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة والإعلام - العراق، ٢٠٠٠م.

أبو الحسن التُّسُولي، علي بن عبد السلام بن علي (المتوفى: ١٢٥٨هـ)

٤. البهجة في شرح التحفة (شرح تحفة الحكام)، المحقق: ضبطه وصححه: محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية لبنان، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

أبو فارس، محمد عبد القادر

٥. القضاء في الإسلام، دار الفرقان للنشر والتوزيع - الأردن، ٢٠٠٩م.

الحميضي، عبد الرحمن ابراهيم

٦. القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، مركز بحوث ودراسات جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ١٤٠٩هـ.

الخضري، محمد (ت: ١٣٤٥هـ)

٧. محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، تحقيق: عبده علي كشك، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ١٤٣٤هـ.

ريان، أحمد علي طه

٨. ملامح من حياة الفقيه المحدث مالك بن أنس إمام دار الهجرة، دار الاعتصام بالقاهرة، د.ت.

الزحيلي، وهبة بن مصطفى

٩. الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر - دمشق، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٧هـ.

شبارو، عصام محمد

١٠. القضاة والقضاء في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣م.

عالية، سمير

١١. نظام الدولة والقضاء والعرف، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، ١٤١٨هـ.

عليان، شوكت محمد

١٢. السلطة القضائية في الإسلام، دار الرشيد للنشر والتوزيع - الرياض، ١٤٠٢هـ.

عمر، أحمد مختار عبد الحميد وآخرون

١٣. معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب - لبنان، ١٤٢٩ هـ.

العنزي، ميسون مزكي فردوس

١٤. الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ) الأردن، جامعة اليرموك، كلية الآداب - قسم التاريخ، ٢٠٠٤م.

الغرايبة، محمد حمد

١٥. نظام القضاء في الإسلام، دار الحامد للنشر والتوزيع - الأردن، ٢٠٠٨م.

فاطمة، قيطون

١٦. تطور نظام القضاء في الحضارة الإسلامية من عهد النبي ﷺ إلى العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، الجزائر، كلية الأدب واللغات - جامعة أبو بكر بلقايد، ١٤٣٤-١٤٣٣هـ.

كرمي، أحمد عجاج

١٧. الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، دار السلام - القاهرة، ١٤٢٧ هـ.

مدكور، محمد سلام

١٨. القضاء في الإسلام، دار النهضة العربية - القاهرة، د.ت.

مرتضى الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت: ١٢٠٥هـ)

١٩. تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ت، د.م.

مصطفى، إبراهيم وآخرون

٢٠. المعجم الوسيط، دار الدعوة - مصر، د.ت.

٢١. مجهول، ألف ليلة وليلة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٨١م.

المسائل النحويّة التي حكم عليها سيبويه بالقلّة عرضاً ودراسة

الدكتور / مشعان بن نازل الجابري

الأستاذ المساعد بجامعة طيبة

وكيل كلية المجتمع بالمهد بمنطقة المدينة المنورة

المقدمة

الحمدُ للهَ حمداً يليقُ بجلالِ وجهه وعظيمِ سُلطانِه، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آله، وصحبه وجميعِ إخوانه، وبعد:

فإنَّ كتابَ سيبويه بحرٌ من بحورِ العربيَّةِ زاخرٌ، تسابق إليه العلماء، وعدّوا معرفته من المفاخر، فمنهم من بلَّ بفهمه صداه، ومنهم حال موجُ الكتاب دون مبتغاه.

وقد كان ولا يزال هذا الكتاب من مفاخر العربيَّة، وكلُّ يغترف بحسب استطاعته، وقد يسَّر الله شرحه لجماعة، ومنهم مَنْ جعل له عليه ((تعليقة))، وآخرُ شرح مواضع. ومن المتأخِّرين من حاول معرفة الكُشف عن منهجه، وبعضهم اكتفى بدراسة تراجمه، ولا زالت الدراسات تترى، والبحرُ لا ينضب!

وهذه الدِّراسة تحاول الوقوف على جزء يسير من الكتاب، وتهدف إلى حكم أطلقه سيبويه في مواضع من كتابه، وكُشف مراده به، ألا وهو (القليل)، وقد اقتصرْتُ على بعض مسائل القسم النحويِّ، وسميَّته بـ(المسائل النحويَّة التي حكم عليها سيبويه بالقلَّة عرضاً ودراسة).

وقد سرْتُ في هذا البحث ودراسة مسائله على المنهج التالي:

- وُضِعَ عنوان للمسألة.
 - إيراد نصِّ سيبويه.
 - شرح المسألة بإيجاز؛ معتمداً على شروح الكتاب وغيرها من الكتب النحويَّة.
 - ربط المسألة بالبَاب الذي أوردها سيبويه فيه، من خلال ذكر مختصر للبَاب.
 - محاولة دراسة المسألة دراسة تاريخيَّة، من خلال تتبُّع ورودها في كتب العلماء مراعيًا التسلسل الزمني، من لدن سيبويه إلى السيوطي، وتدوين التغيرات التي طرأت على ذلك الحكم:
١. استمرَّ وصف القلَّة.

٢. اندثر وصف القلّة، وأصبحت من المسائل الشائعة.

٣. اندثرت المسألة.

٤. وقع تفصيل وتوسيع للمسألة.

ولا أدعي الإحصاء، والإحاطة، بل بذلت ما في الوسع، والتوفيق من الله.

- لم أتوسّع كثيراً في دراسة المسألة؛ بذكر الحجج والردّ عليها، ومناقشتها والترجيح؛ لأنّ ذلك ليس من أهداف هذا البحث.
- جعلت ترتيب المسائل كما وردت في كتاب سيبويه.
- ختمتُ البحث بخاتمة ضمّنتها أبرز ما توصل إليه البحث، ثم المصادر والمراجع التي استقى منها البحث مادته.

وأشيرُ هنا إلى ثلاثة أمور:

الأوّل: لم أقف على دراسة تناولت موضوع هذا البحث - على كثرة الدراسات التي قامت على سيبويه وكتابه -.

الثاني: ليس هدف هذا البحث حصر مسائل القليل، ولا دراستها بالطريقة المعهودة؛ إذ ليس ثمّ مسألة من مسائل النحو إلا ودُرست قديماً وحديثاً، وإنما أردت أن أعرض بعض المسائل، ثمّ أحاول أن أدرسها دراسة تاريخيّة، وبخاصّة حكم سيبويه وصداه في كتب النحو.

والجانبُ التاريخي في الدّراسات النحويّة، وكشّف ما يعترى المسائل من زيادة أو نقصان لا يزال بحاجة إلى دراسات كثيرة، والأبحاث التي تناولته قليلة، إلا ما كتب براجشتراسر في التطوّر النحوي، وقد ذكر أنّ الغرض من تلك المحاضرات^(١) (هو) دَرَس اللسان العربيّ من الوجهة التاريخيّة، أي: من جهة نشأته وتكوّنه وأصول حروفه وأبنيته، وأشكال الجملة فيه، والتغيّرات التي وقعت فيه، مع توالي الأزمان^(٢)، إلا أنّ

(١) هي محاضرات ألقاها في التطوّر النحويّ للغة العربيّة بالجامعة المصريّة ١٩٢٩م. ينظر: مقدّمة د. رمضان عبد التّوّاب للكتاب نفسه.

(٢) التطوّر النحويّ: ٧.

دراسة براجشتراسر فيما قبل سيبويه، ومقارنتها بالساميات الأخرى، وهذه الدراسة لما بعد سيبويه.

الثالث: من أسباب اختيار هذا الموضوع محاولة كشف مراد سيبويه من القليل. والله أسأل العلم النافع والعمل الصالح الخالص.

د. مشعان بن نازل الجابري

المدينة النبوية

تمهيد

المُرَاد بِالْقَلِيلِ:

هذه المفردة من المفردات التي يُفْهَمُ مُجْمَلُ دَلَالَتِهَا لَكِن لَيْسَ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ وَالْإِطْرَادِ.

فَيُقَالُ فِي اللُّغَةِ: شَيْءٌ قَلِيلٌ، وَجَمَعَهُ قَلِيلٌ، مِثْلَ سَرِيرٍ وَسُرُرٍ. وَقَوْمٌ قَلِيلُونَ وَقَلِيلٌ أَيْضًا. وَقَدْ قَلَّ الشَّيْءُ يَقِلُّ قَلًّا، وَأَقْلَهُ غَيْرُهُ وَقَلَّلَهُ فِي عَيْنِهِ، أَيْ: أَرَاهُ إِيَّاهُ قَلِيلًا. وَالْقَلَالُ بِالضَّمِّ: الْقَلِيلُ (١).

قال الراغب: ((القلّة والكثرة يستعملان في الأعداد، كما أنّ العظم والصّغر يستعملان في الأجسام، ثمّ يستعار كل واحد من الكثرة والعظم، ومن القلة والصّغر للآخر)) (٢).

وقال أبو البقاء الكفوي: ((كلّ شيءٍ في القرآن "قليلًا" (٣)، و"إلا قليل" (٤)، فهو دون العشرة)) (٥).

أمّا ابن هشام، فقد أراد أن يجعل للأحكام اللغوية حدودًا متميزة، فيقول: ((اعلم أنّهم يستعملون غالبًا وكثيرًا ونادرًا وقليلًا ومُطرِدًا:

١. فالمطرِدُ لا يتخلف.
٢. والغالبُ أكثر الأشياء، ولكنّه يتخلف.
٣. والكثيرُ دونه.
٤. والقليلُ دونه.
٥. والنادرُ أقل من القليل.

(١) تاج اللغة وصحاح العربيّة: ١٨٠٤/٥ (ق ل ل).

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٦٨١. وينظر: تاج اللغة وصحاح العربيّة: ١٨٠٤/٥ (ق ل ل).

(٣) وردت في أكثر من سورة، منها في سورة البقرة: ٤١.

(٤) وردت في أكثر من سورة، منها في سورة آل عمران: ١٩٧.

(٥) الكلبيّات: ٧٠٢/١.

فالعشرون بالنسبة إلى ثلاثة وعشرين غالباً، والخمسة عشر بالنسبة إليها كثيرٌ لا غالباً، والثلاثة قليلٌ، والواحد نادرٌ، فاعلم بهذا مراتب ما يقال فيه ذلك^(١).

ولا يعني أنّ ذلك حدٌّ وضابطٌ لا يُحد عنه ولا يختلف بتقدير الأشخاص، بل هو للتقريب^(٢)، وإلا فالأربعة، والخمسة بالنسبة إلى العشرين قليلٌ. يُضاف إلى ذلك أنّ المسائل اللغويّة مبنية على التقدير لا الحصر.

مفهوم القليل عند سيبويه :

المتبّع لكلام سيبويه يكاد يقطع بأنّ مراده بالقليل هو ما يقابل الكثير، وقد استعمل كلا الأسلوبين. أمّا الأوّل (القليل) فسيمرّ معنا في مسائل هذا البحث، وأمّا الثاني (ليس بالكثير)، فقد قال: ((... وهذا أيضاً ليس بالكثير في كلامهم؛ والأكثر في كلامهم...))^(٣). وبهذا تتضح معالم القليل عند سيبويه بأنّه يقع مقابل الكثير، وأقلّ منه ((لا يكاد يُعرَف))^(٤).

وقد يقرن مع الـ ((قليل))، وصفاً آخر، وهو ((لا يكاد يُعرَف))^(٥).

والذي يظهر أنّ استقراء ابن هشام للأحكام النحويّة السابقة موافقٌ لأحكام سيبويه.

وينقسم القليل عند سيبويه إلى قسمين :

الأوّل: قليلٌ في الكلام المنثور، وعليه غالب المسائل التي قام عليها هذا البحث.

الثاني: قليلٌ في الشعر، قال سيبويه: ((وقد تدخل النون بغير ما في الجزاء، وذلك قليلٌ في الشعر))^(٦).

(١) الاقتراح: ١١٦، وفيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح: ٥٦٠/١.

(٢) ينظر: أصول النحو عند ابن مالك: ١٨٤.

(٣) الكتاب: ٢٦٥/٢.

(٤) الكتاب: ٦٠/١، ١٤٧.

(٥) الكتاب: ١٤٧/١.

(٦) الكتاب: ٢٥٠/٤.

القياس على القليل :

ليس من شرط المقيس عليه الكثرة فقد يقاس على القليل لموافقته للقياس، ويمتدح على الكثير لمخالفته له.

مثال الأول: قولهم في النسب إلى ((شَنُوءة)): ((شَنُئي)) . فلك أن تقول في ((رَكُوبة)): ((رَكُبي)) ، وفي ((حَلُوبة)): ((حَلُبي)) ؛ قياسًا على ((شَنُئي)) ، وذلك أنهم أجروا ((فَعُولة)) مُجْرَى ((فَعِيلَة)) ؛ لمشابهتها إياه من أوجه:

- أن كلاً منها ثلاثي.

- وأنَّ ثالثه حرفٌ لين.

- وأنَّ آخره تاءُ التأنيث.

- وأنَّ ((فَعُولاً)) و ((فَعَيْلاً)) يتواردان نحو: أثيم وأثوم ورحيم ورحوم ومشى ومشو ونهي عن الشيء ونهوه.

فلما استمرَّت حال فعيلة وفعولة هذا الاستمرار جرت واو شنوءة مجرى ياء حنيفة فكما قالوا حنفي قياسًا قالوا: ((شَنُئي)) قياسًا.

قال أبو الحسن: فإن قلت: إنَّما جاء هذا في حرفٍ واحدٍ يعني ((شنوءة)) ؟
فالجواب: أنَّه جميع ما جاء^(١).

قال ابنُ جنِّي: ((وما أَلطف هذا الجواب ومعناه أن الذي جاء في فعولة هو هذا الحرف ، والقياس قابله ولم يأت فيه شيء ينقضه . فإذا قاس الإنسان على جميع ما جاء ، وكان أيضًا صحيحًا في القياس مقبولًا فلا غرو ولا ملام))^(٢).

(١) ينظر: الخصائص: ١/١١٥، والاقتراح: ١٥٩.

(٢) الخصائص: ١/١١٦.

المسألة الأولى: حَمَلُ (ليس) على (ما)

قال سيبويه: ((وقد زعم بعضهم أنّ (ليس) تجعل ك(ما)، وذلك قليل لا يكاد يُعْرَفُ. فهذا يجوز أن يكون منه: ليس خَلَقَ اللهُ أشْعَرَ منه^(١)، و: ليس قالها زيد. قال حميد الأرقط^(٢):

فأصْبَحُوا والنَّوَى عَالِي مُعْرَسِهِمْ وليسَ كُلِّ النَّوَى تُلْقِي المَسَاكِينُ^(٣)
وقال هشام أخو ذي الرّمة^(٤):

هِيَ الشِّفَاءُ لِدَائِي إِنْ ظَفِرْتُ بِهَا وليسَ مِنْهَا شِفَاءُ الدَّاءِ مَبْدُولُ^(٥)
هذا كله سُمِعَ من العرب. والوجه والحدّ أن تحمّله على أنّ في (ليس) إضماراً وهذا مبتدأ، كقوله: إنه أمة الله ذاهبة. إلاّ أنهم زعموا أنّ بعضهم قال: ليس الطيب إلاّ المسك^(٦)، وما كان الطيب إلاّ المسك^(٧).

(١) هكذا في طبعتي باريس، وهارون، وفي طبعة بولاق والنسخة التي شرحها السيرافي ((ليس خلق الله مثله)). وينظر: جهود الزجاج في دراسة كتاب سيبويه: ٢٦٨/١. وقد أوردها بهذه الصيغة الأخيرة سيبويه في موضع متقدم على هذا الموضع فقال: ((فمن ذلك قول بعض العرب: ليس خلق الله مثله. فلولا أنّ فيه إضمار لم يجز أن تذكر الفعل ولم تعمله في اسم، ولكن فيه الإضمار مثل ما في إنه. وسوف نبين حال هذا في الإضمار وكيف هو إن شاء الله)). الكتاب: ٧٠/١.

(٢) هو: حميد بن مالك بن ربيعي بن مخاشن بن قيس التميمي. شاعر إسلامي مجيد من شعراء الدولة الأموية، لقب بالأرقط؛ لأنار كانت بوجهه. تنظر: ترجمته في: معجم الأدباء: ١٢٢٥/٢، والخزاعة: ٢٩٥/٥.

(٣) يُنظر في: المقتضب: ١٠٠/٤، والأصول: ٨٦/١، والتذييل: ١٤٠/٤. وقد كان حميد يُبْخَل، وفي هذا البيت يصف أضيافاً نزلوا به فقراهم تمرّاً، فلما أصبحوا فإذا نوى التمر كومة مرتفعة، مع أنهم لم يكونوا يرمون كل نواة يأكلون تمرها، بل كانوا يلقون بعض النوى ويبلعون بعضاً؛ إشارة إلى كثرة ما قدم لهم منه، وكثرة ما أكلوا، وشرههم.

والشاهد فيه: نصب (كل) وجعل (ليس) بمعنى (ما) كأنه قال: ما يلقي. ينظر: شرح سيبويه للسيرافي: ٦/٢. (٤) هو: هشام بن نبيس بن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيعة العدوي، كان شاعراً مجيداً. تنظر ترجمته في: معجم الأدباء: ٢٦٨٢/٦.

(٥) يُنظر في: الجمل المنسوب للخليل: ١٤٦، والمقتضب: ١٠١/٤، وسفر السعادة: ٨٠٢/٢.

(٦) ضبط المسك في تحقيق هارون، ود. البكاء بالرفع، والصواب بالنصب، كما نبّه على ذلك د. عياد الثبتي في تعليقه على البسيط لابن أبي الربيع: ٧٠٨/٢.

(٧) الكتاب: ١٤٧/١.

دراسة المسألة :

حكى سيبويه عن ((بعضهم)) ، ولم يبيِّن من المراد به ، وكذلك سار سيره شُراح كتابه. وفي طبعتي باريس^(١) وبولاق^(٢) : ((وقد زعموا أن بعضهم يجعل (ليس) ك(ما))) ، وكذلك أبهم أبو عليِّ الفارسيُّ إذ قال: ((ذُكِرَ أَنَّ قَوْمًا يَجْرُونَ (ليس) مُجْرَى (ما) ...))^(٣). وهي أولى من الذي في طبعة هارون؛ لأنه قسم العربي قسمين: منهم من يرفع، ومنهم من ينصب.

وهذه المسألة أوردتها سيبويه مُدرجةً مع غيرها تحت (باب حروف أُجريت مُجرى حروف الاستفهام وحروف الأمر والنهي) وقد أبان مُرادَه بهذه الترجمة قوله إثر ذلك: (وهي حروف النَّفْيِ شَبَّهَوهَا بحروف الاستفهام) ودلالة هذه الترجمة وبابها جلاها السيراي في بقوله: "قَدَّمَا أَنَّ قَوْلَكَ: ((زَيْدٌ ضَرَبَتْه)) ، وقولك: ((أَزِيدًا ضَرَبَتْه)) في الاستفهام أجود من قولك: ((أَزِيدٌ ضَرَبَتْه)) ، وقد تَوَسَّطت هذَيْن البابين حروف يتقاربُ النَّصْبُ فيها والرفْعُ ، وهي (ما) و(لا) ، تقول: ((ما زِيدًا ضَرَبَتْه)) ، و(ما) زِيدٌ ضَرَبَتْه)) .

وإنما تقارب فيها النَّصْبُ فيها والرفْعُ؛ لأنَّها تشبه حروف الاستفهام بدخولها على المبتدأ فتخرجه من حدِّ الإيجاب إلى حدِّ النفي، كما أنَّ حروف الاستفهام أخرجت ما دخلت عليه من الإيجاب إلى الاستفهام، وتشبه المبتدأ من جهة؛ لأنَّها نقيضة المبتدأ، ونفيٌّ له"^(٤).

أمَّا مسألتنا فقد أبان أبو سعيد السيرايُّ مراد سيبويه بها بقوله: يعني أن بعضهم يجعل (ليس) محمولةً على (ما) فيلغي عملها. ولا يجوز أن يكون الذي يفعل هذا من العرب إلا مَنْ كانت من لغته في (ما) إلغاؤها، فتحمل (ليس) على (ما) ، وتجعلها حرفاً لا تعمل في اللفظ شيئاً كما لم تعمل (ما) . وليس على هذه اللغة دليل قاطع، ولا حجة تقطع العذر؛ لأنَّ كلَّ ما يستشهد به يحتمل التأويل؛ لأنَّه إذا احتجَّ محتجِّ بقولهم: ((ليس

(١) ٦٢/١ .

(٢) ٧٤/١ .

(٣) البغداديات: ٢٨٢ .

(٤) ينظر: شرح كتاب سيبويه للسيراي: ٢٤-٢٥ .

خلق الله مثله)) فقال: (خلق) فعل، ولو كانت (ليس) فعلاً لما وليها الفعل^(١)، فللقائل أن يقول في: (ليس) ضمير الأمر والشأن، و(خلق) وما بعده جملة في موضع الخبر؛ فلذلك قال سيبويه: ((فهذا يجوز أن يكون منه لهذا المعنى))^(٢).

أقوال العلماء:

للعلماء في هذه المسألة قولان:

الأول: يجوز أن تحمّل (ليس) على (ما) فيلغى عملها، وهو قليل. وبذلك قال سيبويه^(٣)، وأبو عليّ الفارسي^(٤)، فقد خرّج قولهم: ليس الطيب إلا المسك بأنه كقولهم ما الطيب إلا المسك، مستدلاً برفعهم (المسك) كما رفعوا خبر (ما). والمالقي^(٥)، وابن هشام^(٦)، فقد أورد في الباب الثامن قاعدة^(٧) عنونها بـ(من ملح كلامهم تقارض اللفظين في الأحكام) وذكر منه: إعطاء (ليس) حكم (ما) في الإهمال عند انتقاض النفي بإلا كقولهم: ((ليس الطيب إلا المسك))، وهي لغة بني تميم.

وقال في موضع آخر: وتلازم^(٨) رفع الاسم ونصب الخبر. وقيل: قد تخرج عن ذلك في مواضع، منها: أن يقترن الخبر بعدها بـ(إلا)، نحو: ليس الطيب إلا المسك بالرفع؛ فإن بني تميم يرفعونه حملاً لها على (ما) في الإهمال عند انتقاض النفي كما حمل أهل الحجاز (ما) على ليس في الإعمال عند استيفاء شروطها^(٩).

(١) يُشير إلى الخلاف في فعلية (ليس)، وللنحاة فيها قولان:

الأول: مذهب أبي بكر بن شقير، وأبي عليّ الفارسي في أحد قوليه، وجماعة من أصحابه، أنها حرف.

الثاني: مذهب الجمهور أنها فعل. ينظر: الكتاب: ٢٧/٢، ومعاني القرآن للضراء: ٤٣/٢، والحليّات:

٢٢٢، والبصريّات: ٨٢٣/٢، والتذيل: ١١٧/٤.

(٢) شرح كتاب سيبويه للسيرا في: ٢٨/٤.

(٣) ينظر: الكتاب: ١٤٧/١.

(٤) ينظر: البغداديات: ٢٨٤.

(٥) رصف المبانى: ٣٠١، والجنى الداني: ٤٩٤.

(٦) مغني اللبيب: ٥٥٨/٣، و٧٢٤-٧٢٥.

(٧) وهي القاعدة الحادية عشرة.

(٨) أي: ليس.

(٩) مغني اللبيب: ٥٥٨/٣.

الثاني: جماعة من العلماء يظهر عدم موافقتهم لسيبويه، ومنهم السيراقي؛ فقد قال: ((ولا يجوز أن يكون الذي يفعل ذلك من العرب إلا من كانت من لغته في (ما) إلغائها، فتحمل (ليس) على (ما)، وتجعلها حرفاً لا تعمل في اللفظ شيئاً كما لم تعلم (ما). وليس على هذه اللغة دليل قاطع، ولا حجة تقطع العذر؛ لأن كل ما يُستشهد به يحتمل التأويل))^(١)، وكذلك الرّماني يرى أنه ((مذهب ضعيف؛ من أجل أنه يكفي فيما يوجبه الشبه منع التصرف، كما يكفي في (ما) أن تعمل إذا ترتب الخبر في موضعه على أصله. وأمّا قول هشام^(٢) فلا يُحمل على هذا المذهب الضعيف، ولكن على الإضمار في (ليس) وكذلك قول حميد))^(٣)، وأبو عليّ الشلوبين، فقد قال كما روي عنه: ((فلا ينبغي أن يُحمل عليه ما وجدت مندوحة))^(٤).

وثمّ فريق ثالثٌ حكوا قول سيبويه ولم يبدوا رأياً برّد ولا موافقة، ومنهم: ابن الشجري^(٥)، وابن يعيش فقد حكى أقوال العلماء فيها دون أن يرجح فقال: ((ليس) فيها خلاف، فمنهم من يُغلب عليها جانب الحرفية، فيُجرى مجرى (ما) النافية؛ فلا يُجيز تقديم خبرها على اسمها، ولا عليها، لا يقولون: ((ليس قائماً زيد))، و((لا قائماً ليس زيد))، وعليه حمل سيبويه قولهم: ((ليس الطيب إلا المسك))، و((ليس خلق الله أشعر منه))، أجزاها مجرى (ما).

ومنهم من أجاز تقديم خبرها عليها نفسها، نحو: ((قائماً ليس زيد))، وهو قول سيبويه، والمنتدّمين من البصريين، وجماعة من المتأخرين كالسيراقي، وأبي عليّ، وإليه ذهب الفراء من الكوفيين^(٦).

(١) شرح كتاب سيبويه للسيراقي: ٢٨/٤.

(٢) يعني هشاماً أبا ذي الرّمة، وقد تقدّم تخريجه.

(٣) شرح كتاب سيبويه للرّماني: ٢٨٤/١-٢٨٥ (رسالة).

(٤) التذييل: ١٤٩/٤، وتمهيد القواعد: ١٠٩٨/٣، ولم أقف عليه فيما بين يدي من كتبه المطبوعة. ونقل عنه الدماميني في تعليق الفرائد: ١٨٦/٣ أنه يجيز ((إلغاء (ليس) وجعلها حرفاً بمنزلة (ما)، وذلك قليل جداً، وممن نصّ على ثبوته سيبويه)).

(٥) ينظر: أمالي ابن الشجري: ٣٠٢/١.

(٦) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش: ٣٦٩/٤.

ونلاحظ هنا أنّ ابن عيش جعل قول سيبويه واحداً، أمّا ابن مالك فيرى أنّ سيبويه أجاز الرأيين إذ قال: ((أشار سيبويه إلى جواز ذلك^(١) وأجاز في قول من قال: ((ليس خلق الله أشعر منه)) كون (ليس) فعلاً متحملاً ضمير الشأن اسماً وكونها حرفاً^(٢) مهملاً^(٣) .

وهنا أمور لا تكتمل دراسة المسألة إلا بتجليتها :

الأول : رأي سيبويه واختياره في هذه المسألة قد يتبادر إلى الذهن أنّه واضح أبانه قوله: ((والوجه والحدّ أن تحمله على أنّ في ليس إضماراً وهذا مبتدأ، كقوله: إنه أمة الله ذاهبة))^(٤) وقال في باب الإضمار: ((قول بعض العرب: ليس خلق الله مثله. فلولا أنّ فيه إضماراً لم يجز أن تذكر الفعل ولم تعمله في اسم، ولكن فيه الإضمار مثل ما في إنّه))^(٥). إلا أنّ قوله: ((إلا أنّهم زعموا أنّ بعضهم قال: ليس الطيب إلا المسك))^(٦)، وقال في باب الإضمار: ((فجاز هذا إذ كان معناه ما الطيب إلا المسك))^(٧)، فقوله هذا يفهم منه غير ذلك، بل صرح أبو عليّ الفارسي بأنّ ((سيبويه لم يتأول (ليس) على أنّ فيه ضمير القصة والحديث))^(٨).

وقد شنع على سيبويه وعلى السيرافي ووصفهما بالتخبّط في هذه المسألة ملك النحاة^(٩)، وتصدّى له ابن بري^(١٠)، وعلم الدين السخاوي^(١١).

والذي يظهر لي أنّ سيبويه يفرّق بين (ليس) إذا وليها فعل، وبينها في نحو قولهم: ((ليس الطيب إلا المسك))، فالوجه عند سيبويه إذا وليها فعل أنّ (ليس) فيها إضماراً،

(١) الكتاب: ٧٠/١.

(٢) السابق: ١٤٧/١.

(٣) شرح التسهيل: ٣٧٩/١.

(٤) الكتاب: ١٤٧/١.

(٥) الكتاب: ٧٠/١.

(٦) الكتاب: ١٤٧/١.

(٧) الكتاب: ٧١/١.

(٨) البغداديات: ٣٨٤، وينظر: الشيرازيات: ٢٦١/١.

(٩) ينظر: جواب المسائل العشر: ٣٩، وسفر السعادة: ٧٩٩/٢.

(١٠) ينظر: جواب المسائل العشر: ٤٤-٥٢.

(١١) ينظر: سفر السعادة: ٨٠٢/٢.

ودليلُ هذا قوله المتقدم، وقوله في باب الإضمار بعد إيراد بيت حميد الأرقط: ((فلو كان (كل) على (ليس) ولا إضمار فيه لم يكن إلا الرفع في كل))^(١). وأما في قولهم: ((ليس الطيب إلا المسك)) فليس فيه إضمار، كما حكاه أبو عليّ الفارسي. -والله أعلم-.

ثم وقفتُ بأخرة على نصّ لأبي عليّ الفارسيّ يعرّز ما ذهبْتُ إليه، وهو قوله: ((حكى سيبويه قولهم: ((ليس الطيب إلا المسك)) وذهب فيه إلى أنه بمنزلة (ما) ولم يحمله على أن في (ليس) ضمير القصة والحديث كما حمل قوله: ((ليس خلق الله أشعر منه)) على هذا الضمير))^(٢).

الثاني: الذي يظهر لي أنّ القول بحمل (ليس) على (ما) متفرّع عن القول بحرفيّتها؛ لأنّ الفعل لا يحمل على الحرف، والذي رأيتُه في باب التقارض حمل النظائر على بعضها، وفي التضمنين تضمين الفعل معنى فعل آخر. يؤيد هذا قول أبي سعيد السيرافيّ المتقدم: ((.. وتجعلها حرفاً لا تعمل في اللفظ شيئاً كما لم تعلم (ما)))^(٣)، وقول ابن هشام: ((وأما ليس خلق الله مثله ففي (ليس) أيضاً ضمير لكنه ضمير الشأن والحديث وإذا قيل بأن (ليس) حرف فلا إشكال، وكذا إذا قيل: فعل يشبه الحرف))^(٤). وزعم بعضهم عن قائل ذلك أنه قدرها حرفاً وأنّ من ذلك قولهم: ليس خلق الله مثله وقوله:

هِيَ الشِّفَاءُ لِدَائِي لَوْ ظَفَرْتُ بِهَا وَلَيْسَ مِنْهَا شِفَاءُ النَّفْسِ مَبْدُولٌ^(٥).

الثالث: نلاحظ من قول ابن هشام المتقدم حصر حمل (ليس) على (ما) في قولهم: ((ليس الطيب إلا المسك))، خلافاً لسيبويه، فقوله عامٌّ؛ لأنّه القائل: ((وقد زعم بعضهم أنّ (ليس) تجعل ك(ما)، وذلك قليل لا يكاد يُعرّف فهذا يجوز أن يكون

(١) الكتاب: ٧١/١.

(٢) الحليّات: ٢١٠. وينظر: ٢٢٠، ٢٧٠.

(٣) شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ٥/٢، وينظر: شرح المقرّب (التعليقة) لابن النحاس: ١/٣٩٧.

(٤) مغني اللبيب: ١/٣٦٧.

(٥) مغني اللبيب: ٢/٥٦٤.

منه: ليس خَلَقَ اللهُ أَشْعَرَ مِنْهُ ((. ففي مثاله لم ينتقض نفي (ليس) بـ(إلا) . ومثل رأي سيبويه رأي المالقي فقد قال: ((والذي ينبغي أن يقال فيها، إذا وجدت بغير خاصية من خواصّ الأفعال، وذلك إذا دخلت على الجملة الفعلية، أنها حرف لا غير، كـ(ما) النافية. كقول الشاعر:

يَهْدِي كِتَابَ خُضْرًا لَيْسَ يَعْصُمُهَا إِلَّا ابْتِدَارٌ إِلَى مَوْتٍ بِإِلْجَامٍ^(١)

الرابع: لم يستمرّ الوصف بالقلّة عند غير سيبويه - حسب بحثي - بل انصرف الحديث إلى دراسة المسألة، حتى يأتي القرن السابع فتجد عالماً أندلسياً وهو أبو عليّ الشلوين؛ فقد نقل الدماميني إجازته إلغاء (ليس) وجعلها حرفاً بمنزلة (ما) ووصف ذلك بأنه قليل جداً، واستشهد بإثبات سيبويه لها^(٢). واكتفى ابن مالك بنقل كلام سيبويه ووصفه بالقلّة، دون تعقيب^(٤). وبهذا يظهر الفرق بين سيبويه وبين من جاء بعده، فسيبويه يصف الظواهر اللغويّة التي سمعها من العرب مباشرة أو رواها عن العلماء الذين سمعوها، وغيره اهتم بدراسة المسائل النحويّة لا أنها ظواهر لغويّة.

المسألة الثانية: الرفع على إضمار مبتدأ

قال سيبويه: ((ومن ذلك قول العرب: مَنْ أَنْتَ زَيْدًا، فزعم يونس أنه على قوله: مَنْ أَنْتَ تَذَكَّرُ زَيْدًا، ولكنه كثرفى كلامهم واستعمل واستغنوا عن إظهاره... ولا يكون مَنْ أَنْتَ زَيْدًا إِلَّا جَوَابًا، كَأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: أَنَا زَيْدٌ، قَالَ: فَمَنْ أَنْتَ ذَاكِرًا زَيْدًا.

وبعضهم يرفع - وذلك قليل - كأنه قال: مَنْ أَنْتَ كَلَامُكَ أَوْ ذَكَرُكَ زَيْدٌ. وإنما قلّ الرفع؛ لأنّ إعمالهم الفعل أحسن من أن يكون خبراً لمصدر ليس له^(٥)، ولكنه يجوز على سعة الكلام، وصار كالمثل الجاري، حتّى إنهم ليسألون^(٦) الرجل عن غيره، فيقولون

(١) للناطقة في ديوانه: ١٠٦، وأشعار الشعراء السّنة الجاهليين: ٢٢٦/١، والجنى الداني: ٤٩٤. وقد ورد في

بعض المصادر كالجنى الداني (كأسياف)، والمثبت هو الموافق لرواية الديوان.

(٢) رصف المبانى: ٣٠١.

(٣) ينظر: تعليق الفرائد: ١٨٦/٣.

(٤) ينظر: شرح الكافية الشافية: ٤٢٥/١.

(٥) في طبعتي باريس: ١٢٢/١، وبولاق: ١٤٧/١ (به).

(٦) في طبعتي باريس: ١٢٢/١، وبولاق: ١٤٧/١ (يسألون).

للمسؤول^(١): مَنْ أَنْتَ زَيْدًا، كَأَنَّهُ يَكَلِّمُ الَّذِي قَالَ: أَنَا زَيْدٌ، أَي: أَنْتَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ الَّذِي قَالَ: أَنَا زَيْدٌ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ زَيْدًا؟ كَمَا تَقُولُ لِلرَّجُلِ^(٢): ((أَطْرِي إِنَّكَ نَاعِلَةٌ))^(٣)، و((أَحْمَقِي))^(٤).

أَي: أَنْتَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا هَذَا))^(٥).

دراسة المسألة :

حكى سيبويه أن ((بعضهم)) يرفع، وكما مرَّ في المسألة السابقة لم يبيِّن مَنْ المراد به، وكذلك نحا نحوه شراح كتابه، وتابعوهم.

وهذه المسألة أوردها سيبويه تابعة لمسألة من مسائل باب سَمَاهُ (هذا باب ما ينتصب على إضمار الفعل للمتروك إظهاره في غير الأمر والنهي)^(٦)، وعرض مسأله

(١) في طبعتي باريس: ١٢٢/١، وبولاق: ١٤٧/١ (فيقول القائل منهم).

(٢) أَي: أَنَّهُ جَرَى كَالْمَثَلِ إِذْ سَمِعَ عَرَبِيٌّ يَذْكُرُ رَجُلًا فَقَالَ لِرَجُلٍ: سَأَلْتُكَ مَنْ أَنْتَ زَيْدًا؟ أَي: أَنْتَ فِي تَرْكِكَ الْبَيَانَ عَنِ هَذَا الْمَذْكُورِ بِمَنْزِلَةِ الَّذِي قِيلَ لَهُ: ((مَنْ أَنْتَ زَيْدًا؟)) فَهَذَا مِثْلٌ عَلَى نَحْوِ: ((أَطْرِي إِنَّكَ نَاعِلَةٌ)). شرح الكتاب للرَّمَانِي: ٦٠٢/٢ (رسالة).

(٣) مِثْلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يُؤَمِّرُ بَارْتِكَابَ الْأَمْرِ الشَّدِيدِ لِاقْتِدَارِهِ عَلَيْهِ. وَيَسْتَوِي فِيهِ خُطَابُ الْمَذْكُورِ وَالْمُؤَنَّثِ وَالْجَمْعِ وَالْإِثْنَيْنِ عَلَى لَفْظِ التَّأْنِيثِ.

وَالْإِطْرَارِ: أَنْ تَرْكَبَ طَرَزَ الطَّرِيقِ، وَهِيَ نَوَاحِيهِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَدْلِي، وَقِيلَ: أَجْمَعِي. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: مَعْنَاهُ أَرْكَبُ الْأَمْرَ الشَّدِيدَ فَإِنَّكَ قَوِيٌّ عَلَيْهِ، وَأَصْلُهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَاعِيَةٍ لَهُ كَانَتْ تَرَعِي فِي السَّهْوَةِ وَتَدْعُ الْحَزُونَ: أَطْرِي، أَي خَذِي طَرَزَ الْوَادِي وَهِيَ نَوَاحِيهِ، فَإِنَّ عَلَيْكَ نَعْلَيْنِ، قَالَ: أَحْسَبُهُ عَنِي بِالنَّعْلَيْنِ غَلَطَ جَلْدَ قَدَمَيْهِمَا. يَنْظُرُ فِي: الْأَمْثَالِ لِأَبِي عُبَيْدٍ: ١١٥، وَإِصْلَاحُ الْمَنْطِقِ: ٢٨٨، وَكِتَابُ تَهْذِيبِ الْأَلْفَاظِ لِأَبْنِ السَّكَيْتِ: ١٦٠/١، وَالْمُنْجِدُ فِي الْلُغَةِ: ٢٥٢، وَجُمْهُرَةُ الْأَمْثَالِ: ٥٠/١، وَالْمَحْكَمُ: ١٢٦/٩، وَالْمُسْتَقْصَى: ٢٢١/١، وَالْمَشُوفُ الْمَعْلَمُ: ٤٨٢/١، وَاللِّسَانُ: ٥٠٠/٤.

(٤) فِي طَبْعَتِي بَارِيسَ وَبَوْلَاقَ ((أَطْرِي إِنَّكَ نَاعِلَةٌ وَأَحْمَقِي)).

وَقَدْ رَأَاهَا هَارُونَ تَحْرِيفًا، وَذَكَرَ أَنَّ الصَّوَابَ: ((وَأَجْمَعِي)). وَالصَّوَابُ أَنَّهُ مِثْلُ آخِرٍ. كَمَا سَبَّأْتِي. وَهُوَ جَزْءٌ مِنَ الْمِثْلِ ((أَحْمَقِي وَتَيْسِي)) أَي: كَوْنِي فِي الْحَمَقِ كَالْتَيْسِ، هِيَ سَبَةٌ لِلْمَرْأَةِ فِي الْأَصْلِ ثُمَّ يُقَالُ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ حَمَقٍ. وَهُوَ فِي: تَهْذِيبِ الْلُغَةِ: ٣٢/١٢، وَغَرِيبِ الْحَدِيثِ لِلْخَطَّابِيِّ: ١٧٥/٢-١٧٦، وَتَاجُ الْعُرُوسِ: ٨٨/١٥.

وَأُورِدَهُ سَيْبُويَهُ تَبَعًا لِلسَّابِقِ: -وَأَنَّ كَانَ أَصْلُهُ لِخُطَابِ الْمَرْأَةِ- عَلَى أَنَّهُ يُطَلَقُ لِلذَّكَرِ وَالْأُنْثَى؛ لِأَنَّ الْأَمْثَالَ لَا تَغْيَرُ. يَنْظُرُ: شَرْحُ الْكِتَابِ لِلسَّيْرَانِيَّةِ: ٦٢/٥.

(٥) الْكِتَابُ: ٢٩٢/١.

(٦) الْكِتَابُ: ٢٩٠/١.

حتى وصل إلى مسألة ((من أنت زيداً)) وذكر أنّ مذهب العرب فيها النصب، وبين وجه النصب، والتعليل له^(١) ثمّ أردفه بمسألة الرفع ((من أنت زيد))، ووصفها بالقلة، وبين وجه الرفع كأنّه قال: مَنْ أنت كلامك أو ذكرك زيد. ثمّ علّل قلة الرفع؛ بأنّ إعمالهم الفعل أحسن من أن يكون خبراً لمصدر ليس له، ولكنّه يجوز على سعة الكلام، وصار كالمثل الجاري^(٢).

وأصل هذا: أنّ رجلاً غير معروف بفضل تسمّى بـ (زيد)، وكان زيد مشهوراً بالفضل والشجاعة، فلما تسمّى الرجل المجهول بزيد الذي هو معروف بالفضل، دُفع عن ذلك، وأنكر عليه، فقيل له: من أنت زيداً؟ على جهة الإنكار أو التحقير، كأنّه قال: من أنت تذكر زيداً، أو ذاكرًا.

وبعض العرب يرفع ذلك، فيقول: ((من أنت زيد؟)) فيكون خبراً عن مصدر محذوف، كأنّه قال: ((من أنت، كلامك زيد؟)) فإن قيل: كيف يجوز أن يكون خبر المصدر، والخبر إذا كان مفرداً يكون هو المبتدأ في المعنى، وليس الخبرها هنا المبتدأ؟ قيل: ثمّ مضاف محذوف، والتقدير: من أنت كلامك زيد، أو ذكرك ذكر زيد، ثمّ حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه توسعاً على حدّ "وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ" [يوسف: ٨٢]^(٣).

أقوال العلماء:

لم أقف على قول يمنع رفع تلك المسألة، بل يوردونها لتخريج رفعها، ومن المجيزين لها: سيبويه، والسيرافي^(٤)، والرّماني^(٥)، وأبو السعادات ابن الأثير^(٦)، والأعلم^(٧)، وابن

(١) الكتاب: ١٩٢/١.

(٢) ينظر: الكتاب: ٣٩٢/١.

(٣) ينظر: شرح الكتاب للسيرافي: ٦٣/٥، وشرح المفصل لابن يعيش: ٣٩٥/١، وهمع الهوامع: ١٨/٢.

(٤) شرح الكتاب للسيرافي: ٦٣/٥.

(٥) ينظر: شرح الكتاب للرّماني: ٦٠٣/٢ (رسالة).

(٦) ينظر: البديع في علم العربية: ١٤٣/١.

(٧) ينظر: النكت: ١٦٦.

يعيش^(١)، وابن مالك^(٢)، وأبو حيان^(٣)، وبهاء الدين السبكي^(٤)، وابن هشام، وناظر الجيش^(٥)، لكن ابن هشام يخالف سيبويه في التقدير؛ إذ يُقدِّره ((مذكورك زيد)) ويراه أولى من تقدير سيبويه: كلامك زيد^(٦)؛ ((لأنَّ المعاني لا يُخبر عنها بالذوات؛ ولأنَّ (زيداً) ليس بكلام لعدم تركيبه. وأجيب بأنَّه من باب إطلاق الكلام على المفرد، وهو جائز لغة، كما جاء عكسه وهو إطلاق الكلمة على الكلام))^(٧)، وهو عند السيرافي^(٨) وابن يعيش^(٩) على حذف مضاف تقديره: ((كلامك ذكرُ زيد))، و((كلامك اسمُ زيد))؛ ثمَّ حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه توسُّعاً على حدِّ "وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ" [يوسف: ٨٢].

وقدَّره الرُّمانيُّ بـ ((من أنت ذكرُك اسمُ زيد))^(١٠).

وقال ابنُ طاهر^(١١) في الرفع والتقدير: المذكورك زيد، فيكون المقدر في الرفع من لفظ المقدر في النصب، والتزم حذف الرفع، كما التزم الناصب، نصَّ عليه سيبويه، وأفاد ذلك تعظيم زيد وإجلاله، وتحقير المخاطب وإذلاله^(١٢).

ويُلاحظ من خلال استعراض آراء العلماء السابقين اختفاء الوصف بالقلَّة بعد سيبويه، ثمَّ يتجدد الوصف بالقلَّة في القرن السابع فنجد أن أبا السعادات ابن الأثير يُجيز رفعه، ومع ذلك يصفه بأنه ((قليل))^(١٣).

(١) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش: ٢٩٥/١.

(٢) ينظر: شرح التسهيل: ٢٨٨/١.

(٣) ينظر: التذييل: ٣١٧/٢.

(٤) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: ١٦١/١.

(٥) ينظر: تمهيد القواعد: ٩١٥/٢.

(٦) ينظر: أوضاع المسالك: ١٩٨/١.

(٧) ينظر: التصريح: ٢٢٣/١.

(٨) ينظر: شرح الكتاب للسيرافي: ١٨٩/٢.

(٩) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش: ٢٩٥/١.

(١٠) شرح الكتاب للرُّماني: ٦٠٣/٢ (رسالة).

(١١) ينظر: التصريح: ٢٢٣/١.

(١٢) ينظر: التصريح: ٢٢٣/١.

(١٣) ينظر: البديع في علم العربية: ١٤٢/١.

المسألة الثالثة: النَّصْبُ فِي نَحْوِ (كَيْفَ أَنْتَ وَزَيْدًا)، عَلَى إِضْمَارِ فِعْلٍ.

قال سيبويه: ((وزعموا أن ناساً يقولون: كيف أنت وزيداً، وما أنت وزيداً. وهو قليل في كلام العرب، لم^(١) يحملوا الكلام على (ما) ولا (كيف)، ولكنهم حملوه على الفعل، على شيء لو ظهر حتى يلفظوا به لم ينقض ما أرادوا من المعنى حين حملوا الكلام على (ما)، و(كيف)، كأنه قال: كيف تكون أنت وقصة من تريد؟ وما كنت وزيداً؟ لأن (كنت) و(تكون) يقعان هاهنا كثيراً، ولا ينقضان ما تريد من معنى الحديث. فمضى صدر الكلام وكأنه قد تكلم بها- وإن كان لم يلفظ بها- لوقوعها هاهنا كثيراً. ومن ثم أنشد بعضهم:

فما أنا والسَّيرُ في مَتَلَفٍ يَبْرَحُ بِالذِّكْرِ الضَّابِطِ؟^(٢)

لأنهم يقولون: (ما كنت) هنا^(٣) كثيراً، ولا ينقض هذا المعنى. وفي (كيف) معنى يكون، فجرى (ما أنت) مجرى (ما كنت)، كما أن (كيف) على معنى (يكون)^(٤).

((وزعم أبو الخطاب^(٥) أنه سمع بعض العرب الموثوق بهم^(٦) ينشد هذا البيت نصياً:

أَتُوْعِدُنِي بِقَوْمِكَ^(٧) يَا بَنَ حَجَلٍ^(٨) أَشَابَاتٍ يُخَالُونَ الْعِبَادَا

(١) الواو مثبتة في طبعة هارون، وبدونها في طبعتي باريس: ١٢٧/١، وبولاق: ١٥٢/١.

(٢) لأسامة بن الحارث بن حبيب الهذلي. وهو في: ديوان الهذليين: ١٩٥/٢، وشرح أشعار الهذليين: ١٢٨٩/٣، والتبصرة ٢٦٠/١، وشرح المفصل: ٥٢/٢.

(٣) و(المتلف): القفر الذي يتلف فيه من سلكه. و(يبرح): يجهد، من برح به الأمر تبريحاً: أجهده. و(الذكر): يقصد الذكر من الإبل. و(الضابط): القوي.

(٤) هكذا في طبعة هارون، وفي طبعتي باريس وبولاق (هاهنا).

(٥) الكتاب: ٣٠٢/١-٣٠٤.

(٦) عبد الحميد بن عبد المجيد أبو الخطاب الأخصس الأكبر. كان إماماً في العربية قديماً، لقي الأعراب وأخذ عنهم، وعن أبي عمرو بن العلاء وطبقته. أخذ عنه سيبويه والكسائي ويونس وأبو عبيدة، وكان ديناً ورعاً ثقة. ينظر: بغية الوعاة: ٧٤/٢.

(٧) في طبعتي باريس وبولاق بعريتهم، ونسب هارون إلى أن الذي في باريس (بحريتهم) ! وكلا الأسلوبين (بهم- بعريتهم) له حظ من الذكر في الكتاب.

(٨) في طبعة باريس (قتك).

(٩) في طبعات سيبويه (حجل) وهو الأكثر وروداً في المصادر، وورد عند أبي علي القالي، والأسود الغندجاني، وابن الشجري، والأمدي، ونور الدين اليوسي، أنه (جحل)، وهو جحل بن نضلة أحد بني عمرو بن عبد بن قتيبة بن أعصر، له الأصمعية (٤٢) كانت بينه وبين شقيق مهاجاة أورد شيئاً منها الأسود

بما جَمَعْتَ مِنْ حَضْنٍ وَعَمْرٍو وما حَضْنٌ وَعَمْرٌو والجِياداً^(١)

وزعموا أَنَّ الرَّاعِي كان يُتَشَدُّ هذا البيت نصباً:

أزْمَانٌ قَوْمِي وَالْجَمَاعَةَ كَالَّذِي مَنَعَ^(٢) الرَّحَالََةَ أَنْ تَمِيلَ مَمِيلًا^(٣)

كَأَنَّهُ قَالَ: أَزْمَانٌ كان قومي والجماعة^(٤)، فحملوه على (كان): لَأَنَّهَا^(٥) تقعُ في هذا الموضع كثيراً، ولا تتقضى ما أرادوا من المعنى حين يحملون الكلام على ما يرفع، فكأنه إذا قال: أَزْمَانٌ قومي، كان معناه: أَزْمَانٌ كانوا^(٦) قومي والجماعة كالذي، وما كان حَضْنٌ وَعَمْرٌو والجِياداً. ولولم يقل: أَزْمَانٌ كان قومي، لكان معناه إذا قال: أَزْمَانٌ قومي، أَزْمَانٌ كان قومي^(٧)؛ لَأَنَّهُ أَمْرٌ قد مضى^(٨).

الغندجاني في فرحة الأديب: ٤٨-٤٩. قال الأمدي: من يقال له جحل وجحل: فأما جحل فهو من باهلة، وهو جحل بن نضلة أحد بني عمرو بن عبد بن قتيبة بن معن بن أعصر وهو القائل: جاء شقيق عارضاً رمحه xxx إن بني عمك فيهم رماح.

يعني شقيق بن جزء بن رباح بن عمرو بن عبد شمس بن أعيأ أحد بني قتيبة بن معن وأما جحل فوجدته في كتاب فزارة ذكر أنه عبد بني مازن من فزارة. ينظر: المؤلف والمختلف: ١٠٢، والأمالي للقالي: ٩٧/٢، وفرحة الأديب: ٤٨، وأمالي ابن الشجري: ١٠٠/١، وزهر الأكم: ١٤٤/٢.

(١) نسبه صاحب الحماسة البصريّة: ١٠٣/١، وابن السيراني في شرح أبيات سيبويه: ٢٥٣/١ والأسود في فرحة الأديب: ٤٩ لشقيق بن جزء الباهلي، وهو بلا نسبة في: شرح أبيات سيبويه لابن السيراني: ٢٥٣/١، وأمالي ابن الشجري: ١٠٠/١، وشرح التسهيل لابن مالك: ٢٥٩/٢. و(حَضْنٌ)، بفتح الحاء والضاد: قبيلة من تغلب، و(الأشابات): الأخلاط من الناس الذين لا خير فيهم والشاهد إنه نصب (الجِياد): لَأَنَّهُ مفعول معه، والعامل فيه مقدر محذوف تقديره: وما يكون حَضْنٌ وعمرو والجِياداً، أي: مع الجِياد.

(٢) رواية الديوان: لزم.

(٣) (للراعي النميري في ديوانه: ٢٣٤، والأزهية: ٧١، وشرح التسهيل: ١٩٥/١، والارتشاف: ١١٩١/٣.

(٤) قال السيراني: ((أراد: أَزْمَانٌ كان قومي مع الجماعة، وحذف (كان): لَأَنَّهُم يستعملونها كثيراً في مثل هذا الموضع ولا لبس فيه، ولا يغيّر معنى)). شرح الكتاب: ٧٧/٥. وينظر: شرح أبيات سيبويه للنحاس: ٩٨، وشرح الكافية الشافية: ٦٩١/٢، وشرح ألفية ابن مالك لابن الناظم: ٢٨٢، وتمهيد القواعد: ١١٧٢/٣، والتصريح: ٢٥٨/١.

(٥) في طبعة هارون (أنها)، وما أثبت موافق لطبعتي باريس وبولاق.

(٦) في طبعتي باريس وبولاق (كان). وبعدها سقط فيهما استدركه هارون.

(٧) قال الرّماني: ((فأضمر (كان) في الخبر؛ وإنما جاز ذلك؛ لَأَنَّهُ تذكير بحال قومه، والتذكير بأمر ليس بحاضر كالأستفهام، فلماذا جاز إضمار (كان)). ينظر: شرح الكتاب للرّماني: ٦٢٥/٢ (رسالة).

(٨) الكتاب: ٣٠٤-٣٠٥ (هارون)، ٢٨٨/١ (البكاء).

دراسة المسألة :

أورد سيبويه مسألتنا ذه مع جملة من مسائل باب ابتداء بقوله (هذا باب معنى الواو فيه كمعناها في الباب الأول إلا أنها تعطف الاسم ههنا على ما لا يكون ما بعده إلا رفعاً على كل حال)^(١).

ويعني بالباب الأول الباب الذي سبقه وهو (باب ما يظهر فيه الفعل وينتصب فيه الاسم؛ لأنه مفعول معه، ومفعول به)^(٢) ومن مسأله: (ما صنعت وأباك، ولو تركت الناقة وفصيلها لرضعها، إنما أردت: ما صنعت مع أبيك، ولو تركت الناقة مع فصيلها. فالفصيل مفعول معه، والأب كذلك، والواو لم تغيّر المعنى، ولكنها تعمل في الاسم ما قبلها)^(٣).

قال أبو سعيد شارحاً ترجمة مسألتنا: (هذا الباب معنى الواو فيه كمعناها في الباب الأول؛ لأنهما بمعنى (مع)، إلا أن الباب الأول في أوله فعل يعمل فيما بعد الواو على الترتيب الذي ذكرته، وهذا الباب فيه اسم معطوف على اسم بالواو التي معناها: (مع)، فيعطف ما بعد الواو على ما قبلها لفظاً، والمعنى فيه الملاسة)^(٤).

ومن هذا يظهر أن باب مسألتنا مبني على الرفع؛ لأن الاسم معطوف على الاسم بالواو التي معناها: (مع)، فيعطف ما بعد الواو على ما قبلها لفظاً^(٥). وقد ساق سيبويه مسأله ووجه نصبها، واستكمالاً للباب أتبعه بمسألتنا وهي على الرفع، وهي مسألة لم يتدعها خياله، ولم يفترضها فكره، بل أسندها إلى العرب، غير مكثف بذلك بل حاول إيجاد وجه تستقيم به فقال: (لم يحملوا الكلام على (ما)، ولا (كيف)، ولكنهم حملوه على الفعل، على شيء لو ظهر حتى يلفظوا به لم ينقض ما أرادوا من المعنى حين حملوا الكلام على (ما) و(كيف)، كأنه قال: كيف تكون وقصة من تريد، وما كنت وزيداً)^(٦).

(١) الكتاب: ٢٩٩/١.

(٢) الكتاب: ٢٩٧/١.

(٣) الكتاب: ٢٩٧/١.

(٤) شرح الكتاب: ٧٢/٥.

(٥) ينظر: شرح الكتاب: ٧٢/٥.

(٦) الكتاب: ٣٠٥/١.

وقال في الباب الذي يليه: ((وَمَنْ قَالَ: مَا أَنْتَ وَزَيْدًا، قَالَ: مَا شَأْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَزَيْدًا. كَأَنَّهُ قَالَ: مَا كَانَ شَأْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَزَيْدًا، وَحَمَلَهُ عَلَى (كَانَ)؛ لِأَنَّ (كَانَ) تَقَعُ هَهُنَا))^(١).

أقوال العلماء:

غالب مَنْ جاء بعد سيبويه من العلماء - مِمَّنْ وَقَفْتُ عَلَى كَلَامِهِمْ - حَذَا حَذْوَهُ، وَمَا وَجَدْتُ لَهُ مُخَالَفًا وَلَا مُنَازَعًا بَلْ هُمْ لِقَوْلِهِ شَارِحُونَ، وَلِرَأْيِهِ مُتَّبِعُونَ، وَبِمِزَاجِهِ مُسْتَشْهِدُونَ. وَمِنْهُمْ: ابْنُ السَّرَّاجِ^(٢)، وَأَبُو سَعِيدِ السَّيرِافِيِّ^(٣)، وَالرَّمَّانِيُّ^(٤)، وَابْنُ السَّيرِافِيِّ^(٥)، وَالصَّيمِرِيُّ^(٦)، وَالْأَعْلَمُ الشَّنْتَمِرِيُّ^(٧)، وَالْعُكْبَرِيُّ^(٨)، وَابْنُ مَالِكٍ^(٩)، وَالنَّحَّاسُ^(١٠)، وَابْنُ هِشَامٍ^(١١)، وَابْنُ الْقَيْمِ الْحَفِيدُ^(١٢)، وَأَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ الْمُرْتَضَى^(١٣)، وَالْجَوْجَرِيُّ^(١٤)، وَالسِّيُوطِيُّ^(١٥).

إِلَّا مَا ذَكَرَهُ الْمُبَرِّدُ فِي الْكَامِلِ^(١٦) فِي نَحْوِ: ((فَمَا أَنْتَ وَعِثْمَانُ)) فَالرَّفْعُ فِيهِ فِيهِ الْوَجْهُ؛ لِأَنَّهُ عَطَفَ اسْمًا ظَاهِرًا عَلَى اسْمٍ مُضْمَرٍ وَأَجْرَاهُ مُجْرَاهُ، وَلَيْسَ هَهُنَا فِعْلٌ فَيُحْمَلُ عَلَى الْمَفْعُولِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: ((فَمَا أَنْتَ وَمَا عِثْمَانُ؛ هَذَا تَقْدِيرُهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ)) . وَمَا نَسَبَهُ

- (١) الكتاب: ٣٠٩/١، ٣١١.
- (٢) ينظر: الأصول: ٢٥١/٢.
- (٣) ينظر: شرح الكتاب: ٧٥/٥، ٧٧.
- (٤) ينظر: شرح الكتاب للرماني: ٦٢٣/٢، ٦٢٤ (رسالة).
- (٥) ينظر: شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي: ٢٥٣/١.
- (٦) ينظر: التبصرة والتذكرة: ٢٥٩/١.
- (٧) ينظر: النكت: ١٧٠/١.
- (٨) ينظر: اللباب في علل البناء والإعراب: ٢٨٣/١.
- (٩) قال في ألفيته:
- وبعد (ما) استفهام، أو (كيف) نَصَبٌ××× بِفِعْلِ كَوْنٍ مُضْمَرٍ بَعْضُ الْعَرَبِ.
- ينظر: ألفية ابن مالك: ١٠٩، البيت (٣١٣).
- (١٠) ينظر: التعليقة (شرح المقرَّب): ٥٥٧/١.
- (١١) ينظر: أوضح المسالك: ٢١٠/٢.
- (١٢) ينظر: إرشاد السالك: ٣٧٧/١.
- (١٣) ينظر: تاج علوم الأدب: ٢٨٦.
- (١٤) ينظر: شرح شذور الذهب: ٤٤٢/٢.
- (١٥) ينظر: همع الهوامع: ٢٤٤/٢.
- (١٦) ٤٣١/١.

أبو حيّان لبعض المتأخّرين فقال: ((ما ترجّح فيه العطف، وهو أن يتقدم الواو جملة متضمّنة معنى الفعل، وبعد الواو اسمٌ لا يتعدّز عليه العطف، نحو: ما شأن عبد الله وزيد، ويجوز النصب، نصّ عليه سيبويه، ومنعه بعض المتأخّرين))^(١). ومن المتأخّرين الذين أشار إليهم أبو حيّان: ابن عصفور^(٢)، فقد زعم أنّ هذا مما يجب فيه النصب على المعية، فقال: ((ولا يجوز التشريك؛ لأنّه يلتبس بالسؤال عن حال كلّ واحد منهما على الانفراد))^(٣).

قال ابن الضائع: ((وهذا غلط، بل قد نصّ س على اختيار الرفع، وذلك أنّك إذا سألت من بينه وبين زيد اختلاط والتباس فهم المقصود، فلا يقع لبس، فقد كان ينبغي ألا يجوز فيه النصب؛ إذ لا ناصب له، لكن زعم س أنّه جارٍ على توهم كان أو تكون))^(٤).

والسبب في منعهم هذه المسألة أنّهم وقفوا مع ظاهر قول سيبويه: ((فإذا أظهر الاسم فقال ما شأن عبد الله وأخيه يشتمه فليس إلا الجرّ؛ لأنّه قد حسن أن تحمل الكلام على عبد الله؛ لأنّ المظهر المجرور تحمل عليه المجرور. وسمعنا بعض العرب يقول: ما شأن عبد الله والعرب يشتمها))^(٥).

وهذا وهمٌ من النّحاة عند أبي حيّان؛ نظروا إلى كلام سيبويه أوّلاً، ولم ينظروا إليه آخرًا، فقول سيبويه: ((فليس إلا الجر)) يعني في الأوضح، ويدلّ على هذا التقييد بالأوضح قول سيبويه بعد ذلك: ((ومن قال ما أنت وزيداً؛ قال ما شأن عبد الله وزيداً، وحمله على (كان)؛ لأنّ (كان) تقع ها هنا، والرفع أجود وأكثر، والجرّ في قولك: ما شأن عبد الله وزيد أحسن وأجود، كأنّه قال: ما شأن عبد الله وشأن أخيه، ومن نصب أيضاً قال: ما لزيد وأخاه)) . فهذا نصّ من سيبويه على ترجيح العطف وتجويز النصب على أنّه مفعول معه، وكلام سيبويه في هذا بين^(٦).

(١) ارتشاف الضرب: ١٤٨٨/٢. وينظر: التذييل: ١٢٤/٨-١٢٥.

(٢) ينظر: شرح الجمل لابن عصفور: ٤٢٢/٢.

(٣) التذييل: ١٢٥/٨.

(٤) السابق: ١٢٥/٨-١٢٦.

(٥) الكتاب: ٣٠٩/١.

(٦) ينظر: التذييل: ١٢٤/٨.

الوصف بالقلّة :

قد اختفى الوصف بالقلّة في مسألتنا ذه بعد سيبويه حتى جاء ابن مالك فقال: ((وربما نُصِبَ بفعل مُقدَّر بعد (ما) ، أو (كيف) ، أو زمن مضاف))^(١) ، وقال: ((والرفع في ما أنتَ وزيداً ، وكيف أنتَ وقصعة من تريد هو الجيد))^(٢) . قال أبو حيان شارحاً كلام ابن مالك السابق: ((ربّما) تفيد القلّة)^(٣) .

المسألة الرابعة : نُصِبَ ما بعد (أما) في نحو: ((أما العبيد فذو عبيد)) .

قال سيبويه: ((وزعم يونس أن قوماً من العرب يقولون: أمّا العبيد فذو عبيد ، وأمّا العبد فذو عبد ، يُجرونه مُجرى المصدر سَوَاءً . وهو قليلٌ خبيثٌ))^(٤) .

دراسة المسألة :

أورد سيبويه هذه المسألة مع غيرها من مسائل (باب ما يختار فيه الرفع ويكون فيه الوجه في جميع اللغات) ، وقد عدّد المسائل التي بنى عليها الباب وبين ((إنما اختير الرفع؛ لأنّ ما ذكرت في هذا الباب أسماءً، والأسماءُ لا تجري مجرى المصادر. ألا ترى أنك تقول: هو الرجل علماً وفقهاً، ولا تقول: هو الرجل خيلاً وإبلاً. فلما قبح ذلك جعلوا ما بعده خبراً له، كأنهم قالوا: أمّا العبيد فأنت فيهم أو أنت منهم ذو عبيد، أي: لك من العبيد نصيبٌ، كأنك أردت أن تقول: أمّا من العبيد أو أمّا في العبيد فأنت ذو عبيد. إلا أنك أشرت (في) و(من) وأضمرت فيهما أسماءهم))^(٥) .

حتى انتهى إلى مسألة النصب (أمّا العبيد فذو عبيد) ، وقد حكم عليه بأنّه قليلٌ خبيثٌ ، واعتمد في حكمه بالقلّة والخبث على السماع الذي أورده الخليل عن العرب بـ ((أنهم شبهوه بالمصدر كما شبهوا الجماء الغفير بالمصدر، وشبهوا خمستهم بالمصدر. كأنّ هؤلاء أجازوا: هو الرجل العبيد والدراهم، أي: للعبيد وللدراهم، وهذا^(٦)

(١) التسهيل: ٩٩ .

(٢) شرح التسهيل لابن مالك: ٢٥٨/٢ .

(٣) التذيل: ١٢٤/٨ .

(٤) الكتاب: ٢٨٩/١ .

(٥) الكتاب: ٢٨٨/١ .

(٦) في طبعة بولاق: ١٩٤/١ (فهذا) .

لا يُتكلّم به، وإنّما وجهه وصوابه الرفع، وهو قول العرب وأبي عمرو ويونس، ولا أعلم الخليل خالفهما. وقد حملوه على المصدر، فقال النحويون: أمّا العليم والعبيد فذو علم وذو عبيد. وهذا قبيح؛ لأنك لو أفردته كان الرفع الصواب؛ فخبث إذ أجري غير المصدر كالمصدر، وشبهوه بما هو في الرداءة مثله، وهو قولهم: ويل لهم وتبُّ (١).

وقد اتّبعه أبو سعيد السيرافي في بيان مسائل الباب بقوله: ((قوله: أمّا العبيد فذو عبيد؛ فرفع (العبيد) هو الوجه؛ لأنّ العبد ليس بمصدر فيقدر له فعل من لفظه ينصبه على ما تقدّم في المصادر، فوجب رفعه بالابتداء، وما بعده يكون خبراً له، والعاثد إليه محذوف تقديره: أمّا العبيد فأنت منهم، أو فيهم، أو نحو هذا ذو عبيد)) (٢).

أمّا الرّماني فقد جعل عنوان الباب (باب اسم الجنس الجاري على طريقة كذا فكذا) (٣)، وذكر أنّ غرض سيبويه من هذه الترجمة ((أنّ يبيّن ما يجوز في اسم الجنس الجاري على طريقة (أمّا كذا فكذا) ممّا لا يجوز)) (٤). ويجوز النصب على ضعف؛ لشبهه بالمصدر بأنّه جنسٌ كما أنّ المصدر جنس، إلا أنّ المصدر جنسُ الفعل وقد وقع موقعه في أمّا فجاز نصبه لهذه العلة، ولا يجوز إذا كان على تعريف العهد فيه إلا الرفع؛ لأنّه قد بطل شبهه بالمصدر (٥).

أقوال العلماء :

للعلماء في النصب وتوجيهه مذاهب :

الأول: يجوز النصب على ضعف، إلا أنّ يكون العبيد بغير أعيانهم ليلحق بالمصادر المبهمة، فلو قال: أمّا العبيد الذين عندك أو الذين في دارك، أو هؤلاء العبيد، لم يجز النصب، وهذا مذهب سيبويه (٦)، والرّماني (٧)، وذهب أبو سعيد السيرافي إلى أنّه جعل (العبيد) - وهو اسم - مكان (التعبيد) وهو مصدر، والعرب قد استعملت (العبيد) في

(١) الكتاب: ٢٨٩/١.

(٢) ينظر: شرح الكتاب: ١٧٣/٥.

(٣) شرح الرّماني للكتاب: ٦٩٣/٢ (رسالة).

(٤) السابق: ٦٩٣/٢ (رسالة).

(٥) ينظر: شرح الرّماني: ٦٩٣/٢ (رسالة).

(٦) الكتاب: ٣٩٠/١، وينظر: شرح الكتاب للسيرافي: ١٧٣/٥.

(٧) ينظر: شرح الرّماني: ٦٩٣/٢ (رسالة).

تصريف الفعل من العبد، قال رؤبة:

وَالنَّاسُ عِنْدِي كَثَمَامِ التَّمِي يَرْضُونَ بِالتَّعْبِيدِ وَالتَّأْمِي^(١)

فعلى هذا يُجْعَلُ (العبيد) مكان (التعبيد)، كما جُعِلَ (الشُّراب) وهو اسم للمشروب في موضع المصدر؛ فقالوا: شَرِبْتُ شَرَابًا، بمعنى شَرِبْتُ شُرْبًا^(٢)، وقالوا: أعطيته عطاءً؛ بمعنى: إعطاءً، والعطاءُ: اسمٌ للشيء الذي يُعْطَى؛ فعلى هذا يكون النَّصْبُ، ولا يجوز: هو الرجل خيلاً وإبلاً، كما جاز هو الرجل علماً وعقلاً؛ لأنَّ علماً وعقلاً في موضع الحال، أو المفعول له على أحد التقديرات^(٣). وهذا هو ظاهر قول سيبويه؛ لأنَّه قال: ((يجرونه مُجْرَى المصدر))^(٤). وقال في قولهم: أمَّا العلم والعبيد: ((حملوه على المصدر))^(٥)، أي: عطفوه عليه. ونظره بـ ((ويل له وتبُّ))^(٦) من حيث كان (التَّبُّ) بابُه النَّصْبُ؛ فرفعوه حملاً على (الويل)، وهنا كان (العبيد) بابُه الرَّفْعُ، فنصَّب حملاً على العلم، شبَّهوه بالمصدر فنصَّبوه^(٧).

الثاني: لا يجوز النَّصْبُ وليس له وجهٌ، وإليه ذهب المبرِّد^(٨).

الثالث: أنه على حذف مضاف تقديره: أما ملك العبيد، وهو مفعول له، وبه قال الزجاج^(٩).

الرابع: أنه مفعولٌ به لفعل محذوف، وتقديره: مهما تذكر العبيدَ فهو ذو عبيد، ومهما تذكر العبدَ فهو ذو عبدٍ، وهذا الرأي يُنسَبُ إلى الكوفيين^(١٠)، واختاره ابنُ

(١) لرؤبة بن العجاج، في ديوانه: ١٤٢، والمبهج: ٢٠٧، والتذييل: ٥٩/٩.

(٢) قال الفيروزآبادي: ((...وبالضم والكسر: اسْمَانِ، وبالفتح: القَوْمُ يَشْرَبُونَ)). القاموس المحيط: ١٠٠ (ش ر ب).

(٣) ينظر: شرح الكتاب: ٢٨٠/٢.

(٤) الكتاب: ١٧٤/٥.

(٥) الكتاب: ٢٨٩/١.

(٦) الكتاب: ٢٨٩/١.

(٧) ينظر: التذييل: ٥٨/٩.

(٨) ينظر: شرح الكتاب للسيبويه: ١٧٢/٥، والتذييل: ٥٨/٩، والارتشاف: ١٥٧٥/٣.

(٩) ينظر: شرح الكتاب للسيبويه: ١٧٤/٥.

(١٠) ينظر: الارتشاف: ١٥٧٣/٣.

مالك^(١)، وضعّفه أبو حيان^(٢).

الوصف بالقلّة :

هذه المسألة كسابقاتها اختفى الوصف لها بالقلّة بعد سيبويه، وتوجّه حديث النّحاة إلى توجيهه النصب، دون النظر إلى كثرته وقلّته، إلا ما ذكره أبو حيان^(٣) من وصف سيبويه له بالقبح، وكذلك ابن هشام^(٤) ذكر أن سيبويه أنكره.

المسألة الخامسة : تقديم الرجال على صاحبها النكرة

قال سيبويه : (وتقول: عليك أميراً زيدٌ؛ لأنّه لو قال: عليك زيدٌ، وهو يريد الإمرة كان حسناً. وهذا قليل في الكلام كثير في الشعر؛ لأنّه ليس بفعل. وكلّمّا تقدّم كان أضعف له وأبعد، فمن ثمّ لم يقولوا: قائماً فيها رجل، ولم يحسن حسن: فيها قائماً رجلاً)^(٥).

دراسة المسألة :

أورد سيبويه هذه المسألة ضمن مسائل باب سَمَاهُ : (هذا باب ما ينتصب؛ لأنّه قبيحٌ أن يوصف بما بعده ويبنى على ما قبله)، وذلك قولك: هذا قائماً رجلاً، وفيها قائماً رجلاً. لما لم يجر أن توصف بالاسم وقبح أن تقول: فيها قائمٌ، فتضع الصفة موضع الاسم، كما قبح مررت بقائمٍ وأتاني قائمٌ، جعلت القائم حالاً وكان المبني على الكلام الأوّل ما بعده^(٦).

قال أبو سعيد السيرافي شارحاً هذه الترجمة : جملة هذا الباب أن يكون اسمٌ منكورٌ له صفةٌ تجري عليه، ويجوز نصب صفته على الحال، والعامل في الحال شيءٌ متقدّمٌ لذلك المنكور، ثمّ تتقدّم صفة ذلك المنكور عليه؛ لضرورة عرضت لشاعر إلى تقديم تلك الصفة، فيكون الاختيار في لفظ تلك الصفة أن تحمل على الحال، مثال ذلك: هذا رجلٌ قائمٌ، وفي الدار رجلٌ قائمٌ، (هذا) مبتدأ، و(رجلٌ) خبره، و(قائمٌ)

(١) ينظر: شرح التسهيل لابن مالك: ٢٣٠/٢.

(٢) ينظر: التذييل: ٥٤/٩.

(٣) ينظر: التذييل: ٢٣٢/٧.

(٤) ينظر: أوضح المسالك: ١٩٧/٢.

(٥) الكتاب: ١٢٥/٢.

(٦) الكتاب: ١٢٢/٢.

نعت (رجل). وفي الدار رجل قائم، (رجل) مبتدأ، و(في الدار) خبر مقدم، و(قائم) نعت (رجل)، ويجوز نصب (قائم) في المسألتين جميعاً. أمّا في (هذا رجل قائماً)، فالعامل فيه التنبية أو الإشارة، وأمّا (في الدار رجل قائماً)، فالعامل فيه الظرف، والاختيار الصفة، فلما احتاج إلى تقديم الصفة على الموصوف، ولم يصلح أن ترتفع على الصفة لشيء بعدها؛ لأن الصفة لا تكون إلا بعد الموصوف، وكانت الحال تتقدم وتتأخر، نُصبت على الحال، وعامل الحال قد تقدم^(١).

وقال شارحاً مسألتنا: وكذلك إذا قلت: زيدٌ عليك، جاز أن يكون عليك يعتمد، وعليك ينزل، وعليك يثني، ونحو ذلك. فإذا قلت: زيدٌ بك، وأنت تريد (مأخوذ) أو زيدٌ عليك، وأنت تريد (نازل)، ثم حذف مأخوذاً ونازلاً بطل الكلام؛ لأنهما خبران لا بدّ منهما، وإنما جاز أن تقول: زيدٌ في الدار أو في السوق أو ما أشبه ذلك من الأماكن؛ لأن هذه الأشياء محال لزيد، وأن القصد فيها أنه قد استقرّ فيها أو حلّها، ولا يذهب الوهم في قولك: زيدٌ في الدار أو في السوق، أنه يرغب في الدار أو يزهد فيها لما قد عُرف بالعادة من أن القصد إلى حله فيها. فصار قولك: (في الدار) خبراً يتمّ الكلام به بعد زيد، وقد عُرف أيضاً بالعادة أن يُقال: زيدٌ على البصرة، يريدون: وال عليها، وإذا تمّ الكلام بظرف وصار خبراً جاز نصب ما بعده من الصفات على الحال؛ ولهذا جاز نصب: عليك أميراً زيدٌ، ولا يجوز: عليك نازلاً زيد.

وقوله في آخر الباب: ((وهذا قليل في الكلام كثير في الشعر)) يريد تقديم الحال على الاسم الذي منه الحال إذا كان العامل ظرفاً ليس بكثير في الكلام، والكثير أن يكون الحال بعد الظرف والاسم جميعاً، ألا ترى أنك لا تكاد تجد في كلام العرب: إن في الدار قائماً زيداً، كما تجد: إن في الدار زيداً قائماً وأن زيداً في الدار قائماً. والذي وجد في القرآن قد تقدّم فيه الأسماء على الأحوال، كقوله عز وجل^(٢): "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ" [الذاريات: ١٥-١٦]، "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ" [الطور: ١٧-١٨]. والله أعلم^(٣).

(١) ينظر: شرح الكتاب للسيرة في: ٥٨/٧.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفرّاء: ٨٢/٣، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥٢/٥، والدّر المصون: ٤٤/١٠.

(٣) ينظر: شرح الكتاب للسيرة في: ٦٢/٧.

وعَلَّلَ الرَّمَّانِيُّ لحكم سيبويه: ((وهذا قليلٌ في الكلام كثيرٌ في الشعر)) بقوله: ((لأنَّ الشُّعْرَ يحتاج فيه إلى التقديم من أجل إقامة الوزن، وليس كذلك غيره من الكلام فيجري على الترتيب))^(١).

كما بين وجه جواز مسألتنا ((عليك أميراً زيد))؛ لأنك لو قلت: عليكلى معنى الإمرة- لأن (عليك) تقتضي الاستعلاء بالإمرة، ومع ذلك يضعف تقديم الحال على الاسم مع الظرف، ولا يضعف مع الفعل؛ لقوّة عمل الفعل حتى جاز أن يتقدّم معموله عليه^(٢).

وأجاز سيبويه: فيها قائماً رجل؛ لتقدّم العامل عليها، ولم يُجز: قائماً فيها رجل؛ لأنّ الحال لا تتقدّم على العامل الذي لا يتصرّف؛ لضعفه عن منزلة العامل الذي يتصرّف، ولا يجوز أن يسوّى بينهما في قوّة العمل؛ لأنّه إخراج الشيء عن حقّه الذي يجب له^(٣).

وبيّن ما تقدّم من كلام السيرائي: ((وإذا تمّ الكلام بظرف وصار خبراً جاز نصب ما بعده من الصفات على الحال)) قول المبرد: وتقول: زيدٌ في الدار قائماً، فتصب (قائماً) بمعنى الفعل الذي وقع في الدار؛ لأنّ المعنى استقر عبد الله^(٤) في الدار ولذلك انتصبت الظروف.

فإن جعلت (في الدار) للقيام ولم تجعله لزيد قلت: زيدٌ في الدار قائماً؛ لأنك إنّما أردت: زيدٌ قائماً في الدار فجعلت (قائماً) خبراً عن زيد وجعلت (في الدار) ظرفاً لقائمه. فمن قال هذا قال: إن زيدا في الدار قائماً.

ومن قال الأوّل^(٥) قال إن زيدا في الدار قائماً، فيكون في الدار الخبر، ثمّ خبر على أية حال وقع استقراره في الدار، فقال قائماً، أي، على هذه الحال. ولما قال (قائمه) إنّما

(١) شرح الكتاب للرّماني: ١٤١٩/٣ (رسالة).

(٢) ينظر: شرح الكتاب للرّماني: ١٤٢١/٣ (رسالة).

(٣) ينظر: شرح الكتاب للرّماني: ١٤١٩/٣ (رسالة).

(٤) هكذا في المقتضب، والمذكور في المثال (زيد).

(٥) أي: زيدٌ في الدار قائماً.

قَالَ: (في الدُّار)؛ ليخبر أَيِّ مَوْضِعٍ وَقَعَ قِيَامُهُ^(١). ولا بن السَّرَّاجِ كلامَ نحوه، بل يكاد يكون بنصّه^(٢).

قال ابنُ جنِّي: إذا حضر عندك ضرورتان لابدَّ من ارتكاب إحداهما فأبقر بهما وأقلهما فحشاً، وذلك كواو (ورنتل) ... وكذلك إذا قلت: (فيها قائماً رجلٌ) لما كنت بين أن ترفع (قائماً) فتقدم الصفة على الموصوف وهذا لا يكون بحال وبين أن تنصبه حالاً من النكرة، وهو على قلته جائزٌ حملت المسألة على الحال فنصبت^(٣).

أقوال العلماء:

أجاز هذه المسألة، المبرد^(٤)، وابن السَّرَّاجِ^(٥)، والرَّمَّاني^(٦)، والسيرافي^(٧)، وابنُ جنِّي^(٨)، وابن السيد البطليوسي^(٩)، وابن يعيش^(١٠)، وابن مالك^(١١)، وأبو حيان^(١٢)، وغيرهم.

الوصف بالقلَّة:

ظهر الوصف بالقلَّة مُجدِّداً بعد سيبويه بقرنين عند فقيه العربيَّة ابن جنِّي إذ حكم على (فيها قائماً رجلٌ) بأنّه ((على قلته جائزٌ))^(١٣). كما ظهر في القرن السادس عند ابن الخشاب؛ إذ قال: "...وأكثر ما يجيء هذا في الشعر، واستعماله في الكلام

(١) ينظر: المقتضب: ١٦٦-١٦٧/٤، و ٣١٧/٤.

(٢) ينظر: الأصول: ٢١٦-٢١٧/١.

(٣) ينظر: الخصائص: ٢١٤/١ (باب في الحمل على أحسن الأقبحين).

ونقل هذا الكلام السيوطي في الاقتراح: ٢٤١ (الكتاب السادس/ في تعارض قبيحين)، وأبو البقاء الكفوي في الكليات: ٣٧٩/١.

(٤) ينظر: المقتضب: ١٦٦-١٦٧/٤، و ٣١٧/٤.

(٥) ينظر: الأصول: ٢١٦-٢١٧/١.

(٦) ينظر: شرح الكتاب للرَّمَّاني: ١٤٢١/٣ (رسالة).

(٧) ينظر: شرح الكتاب للسيرافي: ٤٥٤/٢.

(٨) ينظر: الخصائص: ٢١٤/١ (باب في الحمل على أحسن الأقبحين).

(٩) ينظر: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب: ١٤٢/٢.

(١٠) شرح المفصل: ٥٢/٢.

(١١) شرح التسهيل لابن مالك: ٣٢٣/٢.

(١٢) ينظر: التذييل: ٦٤/٩.

(١٣) ينظر: الخصائص: ٢١٤/١.

يقول...^(١)، وفي القرن السابع يحكي ابن أبي الرّبيع وصف سيبويه بالقلّة^(٢)، ثمّ يتجدّد الوصف بالقلّة في القرن الثامن عند أبي حيّان الأندلسي؛ إذ يرى أنّ ((نصب الحال المتقدّمة من النكرة لا يكون إلا في قليل من الكلام))^(٣)، وكذلك كرّر هذا الحكم السيوطي في القرن العاشر ناسباً له إلى ابن جنّي^(٤).

ملحوظتان:

الأولى: ممّا يُمكن أن يُدوّن بعد تتبّع هذه المسألة من لدن سيبويه إلى السيوطي نجد أنّ المثال الذي ذكره سيبويه (عليك أميراً زيد) قد غاب عن كتب من جاء بعد سيبويه - حسب بحثي -. واستمرّت دراسة المثال الآخر الذي نظر به سيبويه (فيها قائماً رجلاً).

الثانية: توسّعت وانصرفت دراسة هذه المسألة إلى أمر آخر لم ينصّ عليه سيبويه، ولم يعقد له الباب، وهو من صاحب الحال؟

يُجلبّي لنا ذلك أبو حيّان فيقول: ويظهر من كلام س أنّ صاحب الحال في نحو: (فيها رجل قائماً) هو المبتدأ.

وذهب قومٌ إلي أنّ صاحبه الضمير المستكنّ في الخبر. قال المصنّف في الشرح^(٥): ((وقول س هو الصحيح؛ لأنّ الحال خبرٌ في المعنى، فجعلهُ لأظهر الاسمين أولى من جعله لأغمضهما))^(٦). وهذا الذي ذكره يستقيم لو تساوينا، وأمّا إذا كان أحدهما معرفةً والآخر نكرةً فجعله حالاً للمعرفة أولى.

وزعم ابنُ خروف أنّ الخبر إذا كان ظرفاً أو جاراً ومجروراً لا ضمير فيه عند س والفرّاء إلا إذا تأخّر، وأمّا إذا تقدّم فلا ضمير فيه. واستدلّ على ذلك بأنّه لو كان

(١) المرتجل: ١٦٦.

(٢) البسيط: ٥١٩/١.

(٣) التذييل: ٦٤/٩.

(٤) ينظر: الاقتراح: ٢٤١.

(٥) أي: ابن مالك.

(٦) شرح التسهيل لابن مالك: ٣٢٣/٢.

فيه ضميرٌ إذا تقدّم لجاز أن يؤكّد، وأن يُعطّف عليه، وأن يُبدّل منه، كما فعل ذلك مع المتأخّر^(١).

المسألة السادسة: توجيه رفع الفعل الواقع في الجزاء

قال سيبويه: ((وتقول: مُرّه يحضّرُها، وقُلْ له يَقُلْ ذاك. وقال الله عز وجل^(٢): "قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ" [إبراهيم: ٢١]. ولو قلت: مُرّه يحضّرُها على الابتداء كان جيّداً. وقد جاء رفعه على شيء هو قليل في الكلام، على (مُرّه أَنْ يحضّرُها)، فإذا لم يذكرُوا (أَنْ)، جعلوا المعنى بمنزلة في (عَسِينَا نَفْعَلُ). وهو في الكلام قليل، لا يكادون يتكلّمون به، فإذا تكلموا به فالفعل كأنه في موضع اسم منصوب، كأنه قال: عسى زيد قائلاً، ثمّ وضع (يقول) في موضعه^(٣). وقد جاء في الشعر، قال طرفة بن العبد:

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضُرِ الْوَعْيَ وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي^(٤) ((٥)

دراسة المسألة:

أورد سيبويه هذه المسألة ضمن مسائل باب أسماء: ((هذا باب من الجزاء ينجزم فيه الفعل إذا كان جواباً لأمرٍ أو نهيٍ أو استفهامٍ أو تمنٍّ أو عرضٍ))^(٦).

- (١) ينظر: التذييل: ٦٤/٩.
- (٢) في طبعة البكاء: ٢٢١/٤ (تعالى جدّه وتبارك).
- (٣) في طبعة البكاء: ٢٢٢/٤ (في موضع قائل) وذكر أنّ في إحدى نسخه زيادة: وقد جاء ليس للفعل يعني المصدر، ولكنّه للفعل ثمّ وضع (يقول) في موضعه.
- (٤) لطرفة بن العبد في: ديوانه: ٢٥، وفي: الجمل المنسوب للخليل: ١٦٥، والمقتضب: ٨٥/٢، وشرح أبيات سيبويه لابن النحاس: ١٦٩، وشرح الكتاب للسيرا في: ٢٩٩/٣.
- (٥) الشاهد فيه: أنّه حذف (أَنْ) من قوله: (أَنْ أَحْضُرِ الْوَعْيَ). فإنّ قال قائل: وما الذي أحوج إلى تقدير (أَنْ)، قيل له: معنى الكلام أحوج إلى هذا؛ لأنّ الزاجر لطرفة زجره عن شيء من أفعاله، فـ (عن) مقدّرة و (أَنْ) حذفت من الكلام. و (عن) من حروف الجرّ ولا يدخل على الأفعال، وإنما يدخل على الأسماء، و (أَنْ والفعل) في تأويل اسم هو مصدر.
- (٦) فأصل الكلام: أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ عَنْ أَنْ أَحْضُرِ الْوَعْيَ. يريد عن حضور الوعى، وحذف (عن) فصار (أَنْ أَحْضُرِ الْوَعْيَ) ثمّ حذف (أَنْ) ورفع الفعل.
- وقوم من أهل الكوفة، يرون النصب في هذا الفعل بعد حذف (أَنْ). ينظر: شرح أبيات سيبويه لابن السيرا في: ٥٠/٢.
- (٥) الكتاب: ٩٩/٣.
- (٦) الكتاب: ٩٩/٣.

قال السيرافي شارحاً لهذه المسألة: وقوله مره يحضرها، وقل له يقل ذلك على وجهين:

أحدهما: على الجواب كأنه قال: مره إن تأمره يحضرها، وإن تقل له يقل ذلك؛ ثقة بأن الثاني يقع إذا وقع الأول، أو تغليباً للظن في ذلك.

والوجه الثاني: أن يكون حكاية فعل الأمر وهو مبني؛ وزيدت فيه الياء لأنه غائب، وهو مستقبل كأنه قال: مره: احضرها وقل له: قل ذلك، ودخلت الباء؛ لأن صاحب الفعل غائب، كما تقول: حلف زيد ليخرجن، ولفظ يمينه لأخرجن، ومثله قول الله عز وجل:-
"قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ"^(١)، على الوجهين:

أحدهما: قل لهم إن تقل يقيموا وينفقوا؛ لأن دعاء النبي -ﷺ- للمؤمنين وقوله لهم سبب إقامتهم للصلاة وإنفاقهم^(٢)، وإن كان بعض من دعي لم يفعل ذلك.

(١) قال السمين الحلبي: قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فيه أوجه: أحدها: أن (يقيموا) مجزوم بلام أمر محذوفة تقديره: ليقيموا، فحذفت وبقي عملها. الثاني: أن (يقيموا) مجزوم على جواب (قل)، وإليه نحا الأخفش والمبرد. وقد ردّ الناس عليهما هذا بأنه لا يلزم من قوله لهم: أقيموا أن يفعلوا، وكم من تخلف عن هذا الأمر. وقد أجيب عن هذا: بأن المراد بالعباد المؤمنون، ولذلك أضافهم إليه تشريفاً، والمؤمنون متى أمرهم امتثلوا. الثالث: أنه مجزوم على جواب القول المحذوف تقديره: قل لعبادي: أقيموا وأنفقوا، يقيموا وينفقوا. قال أبو البقاء: وعزاه للمبرد، كذا ذكره جماعة ولم يتعرضوا لإفساده. وهو فاسد لوجهين، أحدهما: أن جواب الشرط يخالف الشرط: إما في الفعل أو في الفاعل أو فيهما، فأما إذا كان مثله في الفعل والفاعل فهو خطأ كتقولك: قم تتم، والتقدير على ما ذكر في هذا الوجه: إن يقيموا يقيموا. والوجه الثاني: أن الأمر المقدّر للمواجهة و (يقيموا) على لفظ الغيبة وهو خطأ، إذا كان الفاعل واحداً. الرابع: أن التقدير: إن تقل لهم: أقيموا، يقيموا، وهذا مروى عن سيبويه فيما حكاه ابن عطية. قلت: وهذا هو القول الثاني.

الخامس: قال ابن عطية: ((ويحتمل أن يكون (يقيموا) جواب الأمر الذي يعطينا معناه قوله (قل)؛ وذلك أن تجعل قوله (قل) في هذه الآية بمعنى بلغ وأد الشريعة يقيموا)).
السادس: قال الفراء: الأمر معه شرط مقدّر تقول: ((أطع الله يدخل الجنة)).
والفرق بين هذا وبين ما قبله: أن ما قبله ضمن فيه الأمر نفسه معنى الشرط، وفي هذا قدر فعل الشرط بعد فعل الأمر من غير تضمين.

السابع: قال الفارسي: ((نه مضارع صرف عن الأمر إلى الخبر ومعناه: (أقيموا))). وهذا مردود؛ لأنه كان ينبغي أن يثبت نونه الدالة على إعرابه. وأجيب عن هذا بأنه بني لوقوعه موقع المبني، كما بني المنادي في نحو: (يا زيد)؛ لوقوعه موقع الضمير، ولو قيل بأنه حذفت نونه تخفيفاً على حدّ حذفها في قوله: ((لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا)). ينظر: الدرّ المصون: ١٠٦/٧.

(٢) في طبعتي دار الكتب القومية بالقاهرة، والكتب العلمية (اتفاقهم)!

والوجه الآخر: إنه أمرٌ دخل في أوله الياء لما ذكرته لك من غيبة الفاعلين، كأنه قال: قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا، وهذا قولٌ لم يذكره سيبويه، ولا من تقدم من أصحابنا، وذكره الفراء^(١)، ورأيت الزجاج يحكيه عن المازني^(٢)، وقواه الزجاج^(٣)، ولعل المازني أخذَه عن الفراء، ورأيت أبا العباس المبرد ذكر - في المقتضب - "وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن" [الإسراء: ٥٣] وفيما ذكره تخطيط فكرهت ذكره^(٤).

وإذا قلت: مره يحضرها، ونحو ذلك جازي في (يحضرها) الرفع من وجهين - فيما ذكره سيبويه - أحدهما: على الابتداء والاستئناف، فكأنه قال: مره فإنه يحضرها ولا يخالف.

والوجه الآخر: على معنى مره أن يحضرها، وأسقط (أن) ورفع، كما تقول: عسينا أن نفعل، ثم تقول: عسينا نفعل، ومثله:

ألا أيهدا الزاجري أحضر الوغى^(٥)

والمعنى أن أحضر الوغى، وإذا رُفِع صار تقديره اسم فاعل، وإذا ظهرت (أن) ونُصِب صار تقديره تقدير مصدر، فإذا قلت: مره أن يحضرها^(٦)، فتقديره: مره

(١) ينظر: معاني القرآن، للفراء: ٧٧/٢.

(٢) ينظر كلام الزجاج عن هذه الآية في: ١٤٢/١، و١٦٢/٣. ولم أقف للمازني على ذكر حول هذه الآية في المعاني وإعرابه، والذي فيه (بعض النحويين).

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١٤٢/١، و١٦٢/٣.

(٤) قال المبرد: وأما قوله: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ ومما أشبهه فليس (يقولوا) جواباً لـ (قل) ولكن المعنى - والله أعلم - قل لعبادي قولوا يقولوا وكذلك ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلوة﴾ وإنما هو قل لهم يفعلوا يفعلوا. وتقول مره يحضرها ومره يحضرها، فالرفع على ثلاثة أوجه والجزم على وجه واحد وهو أجود من الرفع؛ لأنه على الجواب كأنه إن أمرته حضرها وأما الرفع فأحد وجوهه أن يكون يحضرها على قولك: فإنه ممن يحضرها كما كان لا تدن من الأسد يأكلك. ويكون على الحال كأنه قال مره في حال حضره فلو كان اسماً لكان مره حافراً لها. ويكون على شيء هو قليل في الكلام وذلك أن تريد مره أن يحضرها فتحذف أن وترفع الفعل لأن عامله لا يضمرو بعض النحويين من غير البصريين يُجيز النصب على إضمار أن والبصريون يابون ذلك إلا أن يكون منها عوض. المقتضب: ٨٤-٨٥. وقد أورد ابن عيش نحو هذا التخريج. ينظر: شرح المفصل: ٢٨٠-٢٨١/٤.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) في المطبوع من شرح السيراني في: ١٢٨/١٠ (يحضرها). ولعل الصواب ما أثبت.

بحضرها، وإذا قلت: مره يحضرها على معنى (أن) فتقديره: حافر لها، كأنه ظهرت فيه أمانة النية في حضرها والعزم عليه فصار كأنه حافر^(١).

أقوال العلماء:

هذه المسألة مبنية على مسألة من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، وقد عقد لها أبو البركات الأنباري المسألة السابعة والسبعين من إنصافه.

وقد ذهب البصريون إلى أن (أن) لا تعمل في الفعل المضارع النصب مع الحذف من غير بدل، وذهب الكوفيون إلى أنها تعمل في الفعل المضارع النصب مع الحذف من غير بدل^(٢).

الوصف القلّة:

ظهر الوصف بالقبح في القرن الرابع؛ إذ نقله ابن الورّاق عن البصريين^(٣)، وهو مغاير لوصف سيبويه.

أمّا الوصف بالقلّة فقد جاء في القرن الثالث عند المبرد^(٤)، وظهر في القرن السابع عند ابن يعيش^(٥)، وابن مالك^(٦). المسألة السابعة: استعمال الصفات أسماء

قال سيبويه: ((وكذلك جنوب^(٧)، وشمال^(٨)، وحرور^(٩)، وسُموم^(٩)، وقبول^(١٠)،

(١) ينظر: شرح الكتاب للسيرافي: ١٠/١٢٧-١٢٨.

(٢) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف: ٤٥٦/٢.

(٣) ينظر: علل النحو: ٤٤٢.

(٤) المقتضب: ٨٤/٢-٨٥.

(٥) ينظر: شرح المفصل: ٤/٢٨٠-٢٨١.

(٦) شرح التسهيل لابن مالك: ٤/٥٠.

(٧) وتسمى الأزيب، والنعامي. ينظر: المنتخب من غريب كلام العرب: ١/٥٧٦، والإبانة في اللغة العربية:

٤/٣٧٨، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٢/٣٢٤.

(٨) الشمال هي التي تأتي من قبل الحجر. المخصّص: ٢/١٣٤.

(٩) قال أبو عبيدة: السُموم بالنهار وقد تكون بالليل، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار. وهي ريح حارة.

ينظر: إصلاح المنطق: ٢٣٦، وإيضاح شواهد الإيضاح: ١/٥٢٠.

(١٠) القبول التي تأتي من تلقاء الكعبة وهي الصبا. ينظر: المخصّص: ٢/٤١٣.

وَدَبُورٌ^(١)، إِذَا سَمَّيْتَ رَجُلًا بِشَيْءٍ مِنْهَا صَرَفْتَهُ؛ لِأَنَّهَا صِفَاتٌ فِي أَكْثَرِ كَلَامِ الْعَرَبِ. سَمِعْنَا هُمْ يَقُولُونَ: هَذِهِ رِيحٌ حَرُورٌ، وَهَذِهِ رِيحٌ شَمَالٌ، وَهَذِهِ الرِّيحُ الْجَنُوبُ^(٢)، وَهَذِهِ رِيحٌ سَمُومٌ، وَهَذِهِ رِيحٌ جَنُوبٌ. سَمِعْنَا ذَلِكَ مِنْ فَصْحَاءِ الْعَرَبِ، لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَهُ. قَالَ الْأَعَشَى:

لَهَا زَجَلٌ^(٣) كَحَفِيفِ الْحَصَا دِ صَادَفَ بِاللَّيْلِ رِيحًا دُبُورًا^(٤)
وَيُجْعَلُ اسْمًا، وَذَلِكَ قَلِيلٌ، قَالَ الشَّاعِرُ:

حَالَتْ وَحِيلَ بِهَا وَغَيْرَ آيَهَا صَرَفُ الْبَلَى تَجْرِي بِهِ الرِّيْحَانِ
رِيحُ الْجَنُوبِ مَعَ الشَّمَالِ وَتَارَةً رَهْمُ الرَّبِيعِ وَصَائِبُ التَّهْتَانِ^(٥) ((^(٦))).

دراسة المسألة:

أورد هذه المسألة سيبويه ضمن باب أسماء ((هذا باب تسمية المذكر بالمؤنث))^(٧)، ذكر فيه شيئاً من مسائل الممنوع من الصرف. ابتدأه بحكم المذكر إذا سمي بمؤنث رباعي فأكثر، ثم أتبعه بالتسمية بصفة المؤنث، ثم أورد مسألتنا هذه، تلاها التسمية

- (١) الدُّبُورُ هِيَ الَّتِي تَأْتِي مِنَ دُبْرِ الْكَعْبَةِ، أَي مِنَ الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ. يَنْظُرُ: الْمَخْصُصُ: ٤١٣/٢، وَتَحْفَةُ الْمَجْدِ الصَّرِيحِ: ٢٢٧/١.
- (٢) لَيْسَتْ فِي بُولَاقٍ: ٢٠/٢.
- (٣) رِوَايَةُ الدِّيَوَانِ (جَرَس).
- (٤) لِلْأَعَشَى، فِي: دِيَوَانِهِ: ٩٩، وَفِي: شَرْحِ أَيْبَاتِ سَيْبَوِيهِ لِابْنِ النَّحَّاسِ: ١٧٦، وَالْمَحْكَمُ: ٢١٣/٩، وَشَرْحُ الْكَافِيَةِ الشَّافِيَّةِ: ١٤٨٨/٣.
- وَالْمَعْنَى: أَنَّ صَوْتَ الدَّرُوعِ - الْمَذْكُورَةَ فِي الْبَيْتَيْنِ السَّابِقِينَ لِهَذَا الْبَيْتِ - إِذَا تَحَرَّكَتْ عَلَى لَابِسِهَا كَصَوْتِ الْحِصَادِ إِذَا هَبَتْ عَلَيْهِ الدَّبُورُ. يَنْظُرُ: شَرْحُ أَيْبَاتِ سَيْبَوِيهِ: ١٦٥/٢.
- (٥) لِرَجُلٍ مِنْ بَاهِلَةَ، وَهُوَ فِي: شَرْحِ أَيْبَاتِ سَيْبَوِيهِ: ١٧٦، وَالْمَخْصُصُ: ١٠١/٥، وَتَحْفَةُ الْمَجْدِ الصَّرِيحِ: ٢٢٩/١، وَشَرْحُ الْكَافِيَةِ الشَّافِيَّةِ: ١٤٨٨/٣. وَالرَّهْمُ: الْأَمْطَارُ اللَّيْنَةُ وَاحِدَتُهَا رَهْمَةٌ، وَ(صَائِبٌ): نَازِلٌ، وَ(التَّهْتَانُ): مَصْدَرُ هَتَّتِ السَّمَاءَ: صَبَّتْ أَمْطَارَهَا.
- وَالشَّاهِدُ فِيهِ: أَنَّهُ أَضَافَ (رِيحُ الْجَنُوبِ) وَجَعَلَ (الْجَنُوبَ) اسْمًا لِهَذِهِ الرِّيحِ الَّتِي تَجِيءُ مِنْ يَمِينِ الْكَعْبَةِ، وَلَوْ كَانَتْ صِفَةً لَمْ يُضَفْ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يُضَافُ إِلَى صِفَتِهِ كَمَا لَا يُضَافُ إِلَى نَفْسِهِ. يَنْظُرُ: شَرْحُ أَيْبَاتِ سَيْبَوِيهِ لِابْنِ السَّرِيزِيِّ: ٢١٥/٢، وَشَرْحُ الْكِتَابِ لِلْأَعْلَمِ: ٤٤٤/٢.
- (٦) الْكِتَابُ: ٢٣٧/٣-٢٣٨.
- (٧) السَّابِقُ: ٢٣٥/٣.

بمؤنّث مُشتقّ، وذكره بعد التسمية بما لا يختصّ بالمؤنّث، وأردفه بالتسمية بالمؤنّث الذي يقع على الجميع، والتسمية بجمع المؤنّث.

قال السيرافي شارحاً عبارة سيبويه: ((ومعنى قول سيبويه: (سمعنا ذلك من فصحاء العرب) أي: من جماعة منهم فصحاء لا يعرفون غيره))^(١)، (فمن أضاف إليها جعلها أسماء، ولم يصرف شيئاً منها اسمَ رجل، وصارت بمنزلة: الصُّعُود والهَبُوط والحدُور والعروُض). وهذه الأسماء أماكن، وقعت مؤنّثة، وليست بصفات^(٢).

أقوال العلماء:

قال أبو جعفر^(٣): ((وهل هذه الألفاظ أسماء أم صفات؟ فإنّ سيبويه قال: هي صفات في أكثر كلام العرب، سمعناهم يقولون: هذه ريحٌ شمّالٌ، وهذه ريحٌ سمومٌ، وهذه ريحٌ جنُوبٌ، سمعنا ذلك من فصحاء العرب لا يعرفون غيره))^(٤). وقد أجاز استعمال صفة المؤنّث اسماً جماعةً من العلماء، منهم: سيبويه^(٥)، والمبرد^(٦)، والسيرافي^(٧)، وابن السيرافي^(٨)، والأعلم^(٩).

ومنهم من أجاز وقوعها اسماً وصفةً - وكان ذلك من أصل وضعها - ومن أولئك ابن الأعرابي^(١٠)، وأبو عليّ الفارسي^(١١).

-
- (١) شرح الكتاب للسيرافي: ٥٤/١٢.
 - (٢) شرح الكتاب للسيرافي: ٥٤/١٢.
 - (٣) هو أحمد بن يوسف اللبلي المتوفى ٦٩١ هـ شارح كتاب الفصيح.
 - (٤) تحفة المجد الصريح: ٢٢٩/١.
 - (٥) ينظر: الكتاب: ٢٢٧/٢-٢٢٨.
 - (٦) ينظر: الكامل: ٩٥٧/٢، ٩٦٢.
 - (٧) ينظر: شرح الكتاب: ٥٤/١٢.
 - (٨) ينظر: شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي: ٢/٢١٥.
 - (٩) ينظر: النكت: ٤٤٤/٢.
 - (١٠) ينظر: لسان العرب: ٢٧٢/٤ (د ب ر).
 - (١١) ذكر أنّه قاله في التذكرة. ولم أقف عليه في مختار التذكرة. ينظر: المحكم: ٣١٢/٩، وتاج العروس: ٢٥٨/١١ (د ب ر).

الوصف بالقلّة :

لم يتجاوز وصف القلّة - حسب بحثي - سيبويه وكتابه.

المسألة الثامنة : فتح (أمس).

قال سيبويه: ((وقد فتح قومٌ (أمس) في (مُدّ) لما رفعوا، وكانت في الجرّ هي التي ترفع، شَبَّهوها بها. قال:

لقد رأيتُ عَجَبًا مُدًّا أَمَسًا عَجَائِزًا مِثْلَ السَّعَالِي خَمَسًا^(١)
وهذا قليلٌ))^(٢).

دراسة المسألة :

أورد سيبويه مسألتنا ذه تبعاً للتسمية بـ(أمس) في (باب الظروف المبهمة غير المتمكنة)^(٣)، ولا يرى الدكتور محمد كاظم البكاء أنّ لها صلةً بالباب، فقال: ((استطرده سيبويه في الكلام على (أمس)، وهي ظرفٌ وليست من أمثلة هذا الباب الذي عُقد على الأسماء المبهمة، وإنّما موضعها في الباب الذي يليه، ولكنّ (أمس) اسم رجل عوملت معاملة (لا) وهي التي جرت عليها أمثلة هذا الباب فهي مثلها، وكذلك (سحر)^(٤).

أمّا السيراني في فيري أنّ ثمّ صلةٌ قال: ((اعلم أنّ الأصل في المبنيات كلّها إذا سُمِّي بشيءٍ منهنّ رجلٌ أعرب ولم يغيّر حكمه أنّ أصله مبنياً. و(أمس) مبنياً على الكسر، فإذا سُمِّيَ به رجلاً أعربناه كما نعرّبه إذا سُمِّيَ به (أين)، وإنّما بُني؛ لأنّه ظرفٌ في الأصل، وصار فيه معنى الإشارة؛ لأنّك إذا قلت: (أمس) فإنّما تشير إلى اليوم الذي تاليه يومك، فإذا انقضى اليوم لم يلزمه هذا الاسمُ فصار بمنزلة شيءٍ حاضرٍ تشير

(١) للعجاج، في ديوانه: ٤٠٠، وفي: نوادر أبي زيد: ٥٧، وأسرار العربية: ٣٢، والمساعد ٥٢٠/١. و(العجائز): جمع عجوز، و(السعالي): جمع سعلاة بكسر السين المهملة، وهي أخبت الغيلان، وقيل: هي ساحرة الجن.

والشاهد: في قوله: (مدّ أمسا) حيث أعرب إعراب ما لا ينصرف على لغة بني تميم؛ ولهذا جر بالفتحة، والألف فيه للإطلاق. ينظر: المقاصد النحويّة: ٤/١٨٢٤.

(٢) الكتاب: ٢٨٤-٢٨٥.

(٣) الكتاب: ٤/٢٨٠.

(٤) كتاب سيبويه تحقيق البكاء حاشية: ٤/٤٥٤.

إليه فتقول: ذا، فإذا زال عن الحضرة لم تقل: ذا.

ويجوز أن يكون بمنزلة الضمير؛ لأنه لا يُعرَف ولا يُسمَّى إلا باليوم الذي أنت فيه، فأشبه الضمير الذي لا يُسمَّى إلا بأن يجري ذكره، أو يحضر فيكون متكلماً أو مخاطباً. فَعْمَلُ بـ (أمس) إذا سُمِّيَ به ما عمل بـ (غاق) إذا سُمِّيَتْ به رجلاً، تقول: هذا أَمْسٌ وِغَاقٌ، ورأيت أَمْسًا وِغَاقًا، ومررت بأَمْسٍ وِغَاقٍ، ولا يختلفان، وإن كان (أمس) اسماً، و(غاق) صوتاً^(١).

وقد بين السيرافيُّ مراد سيبويه بـ ((قوم)) في قوله: ((وقد فتح قومٌ (أمس) في (مذ)))، فقال: ((هم بعض بني تميم، وإنما فعلوا ذلك؛ لأنهم تركوا صرفه))^(٢).

ثم بين معنى قول سيبويه: ((وكانت في الجر هي التي ترفع، شبهوها بها)) قائلاً: ((ما بعد (مذ) يُرْفَعُ وَيُخْفَضُ،

فلَمَّا ترك بعضٌ مَنْ يرفع صرْفَه بعد (مذ) ترك أيضاً مَنْ يجر صرْفَه بعدها، فكانت مشبهة بنفسها))^(٣).

ثم أبان وجه القلّة عند سيبويه: ((لأنَّ الخفض بعد (مذ) قليل))^(٤).

وقال البكاء معنى قوله: ((وكانت في الجر هي التي ترفع، شبهوها بها)) أي: أن (مُذ) تَجْرُ أو ترفع ما بعدها، فاختير في (أمس) بعدها أحد أمرين: الضمُّ أو الفتح؛ شبهوها بما يجيء بعد (مُذ) في الاختيار^(٥).

وقال النحاس: ((قوله: قد فتح قومٌ أمسٍ في مذ...)) هذا من كلام سيبويه مشكلاً يحتاج إلى الشرح.

وشرحه علي بن سليمان بقوله: أهل الحجاز على ما حكاه النحويون يكسرون

(١) شرح الكتاب للسيرافي: ١١٨/١٢-١١٩.

(٢) شرح الكتاب للسيرافي: ١٢١/١٢.

(٣) شرح الكتاب للسيرافي: ١٢١/١٢.

(٤) شرح الكتاب للسيرافي: ١٢٢/١٢.

(٥) ينظر: الحاشية الثالثة من تحقيق البكاء للكتاب: ٤٥٦/٤.

(أمس) فِي الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَالخَفْضِ، وَبَنُو تَمِيمٍ يَرْفَعُونَهُ فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ بِلا تَنْوِينٍ يَجْعَلُونَهُ بِمَنْزِلَةِ مَا لَا يَنْصَرَفُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ سَبِيلَ الظَّرْفِ أَنْ يَرْفَعُ لِأَنَّ الْأَخْبَارَ لَيْسَتْ عَنْهُ فَلَمَّا أَخْبَرُوا عَنْهُ زَادُوهُ فَضْلَةً فَأَخْرَجُوهُ مِنَ الْبِنَاءِ إِلَى مَا لَا يَنْصَرَفُ فَلَمَّا اضْطُرَّ الشُّاعِرُ أَجْرَاهُ فِي الْخَفْضِ مَجْرَاهُ فِي الرَّفْعِ وَقَدَرُ (مذ) هَذِهِ الْخَافِضَةُ وَفَتْحُهُ لِأَنَّهُ لَا يَنْصَرَفُ^(١).

أقوال العلماء :

قال سيبويه: (أمس) متى دَخَلَتْ عَلَيْهِ أَلْ أَوْ أُضِيفَ أُعْرِبَ، وَمتى عَرِيَ مِنْهُمَا فَأَهْلُ الْحِجَازُ يَبْنُونَهُ، وَالتَّمِيمِيُّونَ يَمْنَعُونَهُ الصَّرْفَ^(٢).

قال الكسائي: بُني (أمس) على الكسر؛ لِأَنَّهُ فَعَلَ سَمِّي بِهِ، وَهُوَ عِنْدَهُ مَا خُوذَ مِنْ قَوْلِهِمْ: (أمس)، فَتَرَكْتَ السِّينَ عَلَى كَسْرَتِهَا، وَهُوَ اسْمٌ مَبْنِيٌّ وَمَعْرِفَةٌ بغير: (ألف)، ولا: (لام)، نَحْوُ هُنَيْدَةَ، وَشُعُوبٌ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَبْنِيَّاتِ الْمَعْرِفَةُ بِغَيْرِ اللَّامِ.

وقال الفراء: ومن العرب من يخفض الأمس وإن أدخل عليه الألف واللام^(٣).

قال القرطبي: ((وحكى سيبويه وغيره أن من العرب من يُجْري (أمس) مُجْرى ما لا ينصرف في موضع الرفع خاصة، وربما اضطرَّ الشاعر ففعل هذا في الخفض والنصب))^(٤).

الوصف بالقلَّة :

انحرف وصف سيبويه بالقلَّة عند بعض من جاء بعده؛ فقد نسب إليه الجوهري أنه قال: ((قد جاء في ضرورة الشعر مذ أمس بالفتح))^(٥).

(١) ينظر: خزانة الأدب: ١٧٠/٧.

(٢) ينظر: الدرر المصون: ٦٥٩/٨، واللُّباب لابن عادل: ٢٣١/١٥.

(٣) ينظر: التفسير البسيط للواحي: ٣٦٠-٣٦١/١٧.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٥-٢٦٦/١٣.

(٥) الصحاح: ٩٠٤/٣.

المسألة التاسعة: توكيد الفعل المضارع في الجزاء بالنون الخفيفة

قال سيبويه: ((وقد تدخل النون بغير (ما) في الجزاء - وذلك قليل في الشعر^(١) - شبّهوه بالنّهْي؛ حين كان مجزوماً غير واجب. وقال الشاعر:

نَبْتُمْ نَبَاتَ الْخَيْزُرَانِي فِي الثَّرِي حَدِيثًا مَتَى مَا يَأْتِكِ الْخَيْرُ يَنْفَعَا^(٢)
وقال ابن الخرع^(٣) :

فَمَهْمَا تَشَأْ مِنْهُ فِزَارَةٌ تُعْطِكُمْ وَمَهْمَا تَشَأْ مِنْهُ فِزَارَةٌ تَمْنَعَا^(٤)))^(٥).

- (١) قال ابن مالك في الكافية الشافية متبعا رأي سيبويه: وترّكّه من بعد (إمّا) قلّما xxx تفضيه إلا في كلام نظما. لكنّه قال في التسهيل: ((وقد تلحق جواب الشرط اختياراً))، قال ناظر الجيش: ((وأعطى قوله: (اختياراً))) أنّ ذلك جائز في الكلام)). وقال الأشموني: ((مقتضى كلامه أن ذلك جائز في الاختيار وبه صرح في التسهيل فقال: وقد تلحق جواب الشرط اختياراً، وذهب غيره إلى أن دخولها في غير شرط إمّا وجواب الشرط مطلقاً ضرورة)).
- وقال الرضي بمثل قول ابن مالك. ينظر: تسهيل الفوائد: ٢١٦، وشرح الكافية الشافية: ١٢٩٩/٢، وشرح الكافية للرضي: ١٤٤١/٢ (تح: يحيى مصري)، وتمهيد القواعد: ٢٩٢٤/٨، وشرح الأشموني: ٤١٠/٣.
- (٢) للنجاشي الحارثي في ديوانه: ١١٠، وشرح الكتاب للسيرايفي: ٢٥٠/٤، وخرزانه الأدب: ٢٨٧/١١. و(نبات الخيزراني) يريد به الخيزران. وأدخل عليه ياءً في النسب، و(حديثاً) أي: عن قرب. يريد أنهم ليس لهم قديم، (متى ما يأتك الخير ينفعاً)، يقول: إذا أدرك الخير انتفع به. والمعنى: أنّ الخيزران لا يعلو ولا يسمو ولا يرتفع، إنّما هو يسير ويمتد في الأرض؛ والمراد أنهم لا يعلون ولا يُذكرون بشيء من المفاخر. قاله يهجو بني عامر بن صعصعة.
- و(الشاهد) في إدخاله النون الخفيفة في جواب الشرط. ينظر: شرح أبيات سيبويه لابن السيرايفي: ٢٠٥/٢.
- (٣) هو: عوف بن عطية بن عمرو الملقب بالخرع ابن عبس بن وديدة التيمي، من تيم الرباب، من مضر: شاعر جاهلي. أدرك الإسلام، وعده ابن سلام في الطبقة الثامنة من الإسلاميين. تنظر: ترجمته في: معجم الشعراء للمرزباني: ١١١، والأعلام: ٩٦/٥.
- (٤) للكميت بن معروف في ديوانه: ١٩٥، وحماسة البحترى: ١٥، وشرح أبيات سيبويه: ١٨٦/٢، وشرح ابن الناظم: ٤٤٤/١.
- وللكميت بن ثعلبة في خزنة الأدب: ٢٨٧/١١، ٢٨٨، ٣٩٠، ولسان العرب ٢٧٣/٨ (قزع). ولكميت بن معروف أو للكميت بن ثعلبة الفقعسي في المقاصد النحوية: ١٨٠٧/٤.
- ولعوف بن عطية بن الخرع في الدرر: ١٦٥/٥.
- وبلا نسبة في شرح الأشموني: ٥٠٠/٢، وهمع الهوامع ٧٩/٢، خزنة الأدب: ٥٠٩، ٥١٠.
- و(الشاهد) أنّه أراد: (تمنن) مؤكداً بالنون الخفيفة ثم أبدلها ألفاً للوقف، والفعل جواب شرط. ينظر: البديع في علم العربية: ٦٦٦/١، وشرح ابن الناظم: ٤٤٤/١.
- (٥) الكتاب: ٥١٥/٣.

دراسة المسألة :

أورد سيبويه مسألتنا ذه في باب أسماء (هذا باب النون الثقيلة والخفيفة) ^(١) ابتداء بقاعدة عامة في دخول النون الخفيفة والثقيلة، ثم ذكر مواضع دخولها، وأعقبه ببعض مسائلها، وشواهدا في القرآن، وفي أشعار العرب. أعقب ذلك بوقوعها في الفعل بعد العرض، والتحضيض. ثم مجيئها بعد أسماء الشرط واستشهد لرأيه بشواهد من كتاب الله، ثم أتبعه بمسألتنا .

أقوال العلماء :

يجوز أن تدخل نون التوكيد اختياراً في جواب الشرط إذا كان الشرط ممّا يجوز دخولها فيه. وهو أقل من دخولها في الشرط ^(٢).

وكل من وقت على رأيه من العلماء، يجيز توكيد الفعل المضارع الواقع جواباً للشرط، ومن القائلين بالجواز: الخليل ^(٣)، وأبو بكر بن الأنباري ^(٤)، وابن السيراني ^(٥)، وصاحب الإبانة ^(٦)، وابن عصفور ^(٧)، وابن مالك ^(٨)، والرضي ^(٩). وغيرهم.

الوصف بالقلّة :

غاب وصف القلّة بعد سيبويه، ثم ظهر في القرن الرابع عند السيراني حكاية لقول سيبويه ^(١٠)، وفي بداية القرن العاشر يحكي الشيخ خالد الأزهرّي ^(١١) قول سيبويه كما حكاها السيراني.

(١) الكتاب: ٥٠٨/٢.

(٢) الخزانة: ٣٨٨/١١.

(٣) ينظر: الجمل المنسوب للخليل: ٢٥٧.

(٤) ينظر: شرح القوائد السبع الطوال الجاهليات: ١٧.

(٥) ينظر: شرح أبيات سيبويه: ١٨٦/٢.

(٦) ينظر: الإبانة: ٨٠/٢.

(٧) ضرائر الشعر لابن عصفور: ٣٠.

(٨) ينظر: التسهيل: ٢١٦، شرح الكافية الشافية: ١٣٩٩/٢.

(٩) ينظر: شرح الكافية للرضي: ١٤٤١/٢ (تح: يحيى مصري).

(١٠) ينظر: الكتاب: ٢٥٠/٤.

(١١) ينظر: التصريح: ٣٠٧/٢.

أمّا ابن مالك فقد قال:

والشرط بعد غير (إمّا) أكّداً نزرأ كذا الجواب -أيضاً- ورداً^(١)
وفي القرن الثامن ينحى ابن هشام الأنصاريّ منحىً أشدّ من وصف سيبويه
فمسألتنا عنده ((أقلّ من القليل))^(٢).

(١) شرح الكافية الشافية: ١٣٩٩/٣.

(٢) ينظر: أوضح المسالك: ٩٨/٤.

الخاتمة

الحمد لله الذي يسّر دراسة هذه المسائل، والغوص في لُجج كتاب سيبويه، وقد ظهرت لي بعد دراسة هذا البحث أمور، أبرزها:

١. حاول البحث الكشف عن المراد بالقليل عند سيبويه، وما يقاربه من الأحكام، وما يصادّه، وخلص إلى أنّ القليل عند سيبويه هو ما يقع مقابل الكثير، وأقل منه ((لا يكاد يُعرَف)) .

٢. قد يقرن سيبويه مع الـ ((قليل))، وصفاً آخر، وهو ((لا يكاد يُعرَف)) .

٣. ينقسم القليل عند سيبويه - حسب البحث - إلى قسمين: الأول: قليل في الكلام المنثور، وعليه غالب المسائل التي قام عليها هذا البحث. الثاني: قليل في الشعر.

٤. كثرة أحكام سيبويه التي يحكم بها على المسائل النحويّة، والصرفيّة، ومنها القليل.

٥. أنّ سيبويه يحكي قضايا لغوية، ثم يعالجها: فتراه يحكي عن العرب ثم يصف ((وذلك قليل))، مبيّناً بعد ذلك سبب القلة، أو يخرج الشائع.

٦. سيبويه يصف الظواهر اللغويّة التي سمعها من العرب مباشرة أو رواها عن العلماء الذين سمعوها، وغيره اهتم بدراسة المسائل النحويّة لأنّها ظواهر لغويّة.

٧. اعتماد سيبويه في مسأله على المسموع قبل التعميد، من ذلك قوله: ((من ذلك قول العرب ..))، و: ((زعم أبو الخطّاب أنّه سمع بعض العرب الموثوق بهم يُنشد هذا البيت نصّاً:))

٨. أتوعِدني بقومك يا بن حجلٍ ××× أشاباتٍ يخالون العبادا)) .

٩. و ((زعموا أنّ الراعي كان يُنشد هذا البيت نصّاً:))

١٠. أَرْمَانَ قَوْمِي وَالْجَمَاعَةَ كَالَّذِي ((

١١. توجيه الشواهد من ذلك: كأنّه قال: أَرْمَانَ كَانَ قَوْمِي وَالْجَمَاعَةَ، فحملوه على ((كان))؛ لأنّها تقع في هذا الموضع كثيراً، ولا تتقضى ما أرادوا من المعنى حين يحملون الكلام على ما يرفع، فكأنّه إذا قال: ((أَرْمَانَ قَوْمِي، كان معناه: أَرْمَانَ كانوا قومي والجماعة كالذي، وما كان حَضَنٌ وَعَمَرُوٌ وَالْجِيَادَا...)).

١٢. التوازن عند سيبويه فيلحظ أنّه لا يردّ بعض المسائل، بل يحكم عليها بالضعيف خلافاً لمن يمنع بالكلية أو يجيز بالكلية، ومن ذلك المسألة الرابعة التي مرّت معنا، منعها المبرد، وأجازها الكوفيون وتوسّط سيبويه؛ والعلة في ذلك أنّه يجمع بين السماع والأصول اللغويّة.

١٣. أنّ النحو بعد سيبويه نحى منحى آخر، إلا أنّ بعض المتأخّرين حاول أن ينهج نهج سيبويه، ومنهم: ابن مالك.

١٤. كتاب سيبويه لازال بحاجة إلى شرح تامّ لجميع مسائله وفقراته، وقد اتّضح من خلال بعض المسائل السابقة إغفال الشراح لبعض المسائل.

ثبت المصادر والمراجع

١. الإبانة، للصحاري العوتبي، تحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة وآخرين، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ط (١) ١٤٢٠هـ.
٢. ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان، تحقيق الدكتور رجب عثمان، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط (١) ١٤١٨هـ.
٣. الأزهية في علم الحروف، لعي بن محمد الهروي، بتحقيق عبد المعين الملوحي، منشورات المجمع العلمي بدمشق ١٣٩١هـ.
٤. أشعار الشعراء الستة الجاهليين، للأعلم الشنتمري، تحقيق لجنة إحياء التراث، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ط (٢) ١٤٠١هـ.
٥. إصلاح المنطق، لابن السكيت، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة: دار المعارف، ط (٤) ١٩٨٧م.
٦. الأصول في النحو، لابن السراج، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط (٤) ١٤٢٠هـ.
٧. أصول النحو عند ابن مالك، للدكتور خالد شعبان، القاهرة: مكتبة الآداب، ط (٢) ٢٠٠٩.
٨. الأعلام، للزركلي، بيروت: دار العلم للملايين، ط (١٧) ٢٠٠٧م.
٩. الاقتراح في علم أصول النحو، للسيوطي، القاهرة: مكتبة الآداب، ط (٢) ١٤٢٨هـ.
١٠. الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لابن السيد البطليوسي، تحقيق مصطفى السقا، والدكتور حامد عبد المجيد، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٦م.
١١. أمالي ابن الشجري، تحقيق الدكتور محمود الطناحي، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط (٢) ١٤٢٧هـ.
١٢. الأمالي النحوية (أمالي القرآن الكريم)، لابن الحاجب، تحقيق الدكتور فخر صالح قدارة، عمان: دار عمّار، وبيروت: دار الجيل، ط (١) ١٤٠٩هـ.
١٣. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، صيدا بيروت: المكتبة العصرية، ط (١) ١٤٢٧هـ.

١٤. الأمثال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، بتحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٠٠هـ.
١٥. إيضاح شواهد الإيضاح، لأبي عليّ الحسن بن عبد الله القيسيّ، دراسة وتحقيق الدكتور محمّد بن حمود الدّعجانيّ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط (١) ١٤٠٨هـ.
١٦. البديع في علم العربيّة، لأبي السّعادات بن الأثير، تحقيق الدكتور فتحي أحمد عليّ الدين وآخرين، مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث بجامعة أم القرى، ط (١) ١٤٢٠هـ.
١٧. البسيط في شرح جمل الزجاجي، لابن أبي الربيع، بتحقيق الدكتور عياد الثبتي، دار الغرب، بيروت، ١٤٠٧هـ.
١٨. البغداديات، لأبي عليّ الفارسي، تحقيق صلاح الدين عبد الله السنكاوي، بغداد مطبعة العاني.
١٩. بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة، للسيوطي، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، صيدا بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٤هـ.
٢٠. تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، تحقيق جماعة من المحقّقين، الكويت: مطبعة حكومة الكويت بتواريخ مختلفة.
٢١. تاج علوم الأدب وقانون كلام العرب، لأحمد بن المرتضى، القاهرة: دار سعد الدين، ط (١) ١٤٢٨هـ.
٢٢. التبصرة والتذكرة، للصّيمريّ، تحقيق الدكتور فتحي أحمد مصطفى عليّ الدين، دار الفكر، دمشق، ط (١) ١٤٠٢هـ.
٢٣. تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح، تحقيق الدكتور عبد الملك بن عيضة الثبتي، القاهرة: مكتبة الآداب، ١٤١٨هـ.
٢٤. التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيّان الأندلسي، تحقيق الدكتور حسن هنداوي، دمشق: دار القلم، والرياض: كنوز إشبيليا، ط (١) بتواريخ مختلفة.
٢٥. تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لابن مالك، حقّقه وقدم له محمّد كامل بركات، دار الكاتب العربي، ١٣٨٧هـ.

٢٦. التّصريح بمضمون التّوضيح، للشيخ خالد الأزهرى، بيروت: دار الكتب العلميّة، ط (٢) ١٤٢٧هـ.
٢٧. التطوّر النحوي في اللغة العربيّة، لبرجشتراسر، ترجمة الدكتور رمضان عبد التّوّاب، مكتبة الخانجي.
٢٨. تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، للدّماميني، تحقيق الدّكتور محمّد عبد الرحمن المفضّى، ط (٢) ١٤٢٥هـ.
٢٩. التّعليقة على كتاب سيبويه، للفارسي، تحقيق وتعليق الدّكتور عوض القوزي، ط (١) ١٤١٠هـ.
٣٠. تلخيص الشواهد، وتلخيص الفوائد، لابن هشام الأنصاري، تحقيق الدكتور عباس الصّالحي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط (١) ١٤٠٦هـ.
٣١. تمهيد القواعد، لناظر الجيش، تحقيق الدكتور علي محمد فاخر وآخرين، القاهرة: دار السّلام، ط (١) ١٤٢٨هـ.
٣٢. كنز الحفّاظ في تهذيب الألفاظ، لابن السّكّيت، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي (د. ت.).
٣٣. تهذيب اللغة، للأزهرى، بتحقيق محمد عوض، بيروت: دار إحياء التراث، ط (١) ٢٠٠١م.
٣٤. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي تحقيق الدّكتور عبد الله بن عبد المحسن التّركي وآخرين، بيروت: مؤسسة الرّسالة، ط (١) ١٤٢٧هـ.
٣٥. الجمل في النحو، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق الدّكتور فخر الدّين قباوة، بيروت: مؤسسة الرّسالة، ط (١) ١٤٠٥هـ.
٣٦. جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، بيروت: دار الجيل، ودار الفكر، ط (٢) ١٤٠٨هـ.
٣٧. الجنى الدّاني في حروف المعاني، للمراذي، تحقيق الدّكتور فخر الدّين قباوة ومحمّد نديم فاضل، بيروت: دار الكتب العلميّة، ط (١) ١٤١٣هـ.
٣٨. جهود الزّجاج في دراسة كتاب سيبويه، للدكتور عبد المجيد الجار الله، الرياض: طار التدمريّة، ط (١) ١٤٣٥هـ.
٣٩. جواب المسائل العشر، لابن برّي، تحقيق الدكتور محمّد أحمد الدالي، دمشق: دار البشائر، ط (١) ١٤١٨هـ.

٤٠. الحماسة البصرية، لصدر الدّين البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، بيروت: عالم الكتب، ط (٣) ١٤٠٣هـ.
٤١. خزّانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، للبيدادي، تحقيق عبد السّلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط (٤) ١٤١٨هـ.
٤٢. الخصائص، لابن جنّي، تحقيق محمّد عليّ النّجّار، عالم الكتب بيروت، ط (٣) ١٤٠٣هـ.
٤٣. الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسّمين الحلبي، تحقيق الدّكتور أحمد الخرّاط، دمشق: دار القلم، ط (٢) ١٤٢٢هـ.
٤٤. الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، حيدر آباد ١٩٥٠.
٤٥. الدّرر اللوامع على همع الهوامع، لأحمد بن الأمين الشنقيطي، تحقيق الدّكتور عبد العال سالم مكرم، القاهرة: عالم الكتب، ١٤٢١هـ.
٤٦. ديوان الأدب، لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي، تحقيق الدّكتور أحمد مختار عمر، دمشق: مجمع اللغة العربية.
٤٧. ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، شرح وتعليق الدّكتور محمّد محمّد حسين، القاهرة: مكتبة الآداب بالجماهير، (د.ت).
٤٨. ديوان الحماسة، لأبي تمام، تحقيق الدّكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان، الرياض: جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية، ط (١) ١٤٠١هـ.
٤٩. ديوان النّابغة الذّبياني، تحقيق وشرح كرم البّستاني، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ.
٥٠. ديوان الهذليين، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب، القاهرة: الدّار القومية للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ.
٥١. ديوان رؤبة ضمن (مجموع أشعار العرب)، بعناية وليم بن الورد، دار ابن قتيبة، الكويت، (د.ت).
٥٢. ديوان طرفة بن العبد، بيروت: دار الكتب العلمية، ط (١) ١٤٢٣هـ.
٥٣. رصف المباني في شرح حروف المعاني، للمالقي، تحقيق أحمد الخرّاط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، (د.ت).
٥٤. سفر السّعادة وسفير الإفادة، لعلم الدّين السّخاوي، تحقيق محمّد أحمد الدّالي، دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٤٠٣هـ.

٥٥. شرح أبيات سيبويه، لابن السِّيرافي، تحقيق الدكتور محمد الريح هاشم، بيروت: دار الجيل، ط (١) ١٤١٦هـ.
٥٦. شرح أبيات سيبويه، لأبي جعفر أحمد بن محمد النَّحَّاس، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد، بيروت: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربيَّة، ط (١) ١٩٧٤م.
٥٧. شرح أشعار الهذليين، للسكري، بتحقيق عبد الستار فرّاج، ومراجعة محمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة، ١٩٨٤م.
٥٨. شرح الأشمونيّ على ألفية ابن مالك، تحقيق الدكتور عبد الحميد السيّد، القاهرة: المكتبة الأزهرية، (د.ت).
٥٩. شرح التسهيل، لابن مالك، تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيّد والدكتور محمد بدوي المختون، القاهرة: هجر للطباعة والنشر، ط (١) ١٤١٠هـ.
٦٠. شرح التسهيل، للمرادي، تحقيق محمد عبد النبي عبيد، المنصورة: مكتبة الإيمان، ط (١) ١٤٢٧هـ.
٦١. شرح القصائد السبع الطوال، لأبي بكر الأنباري، القاهرة: دار المعارف، ط (٦) ٢٠٠٥م.
٦٢. شرح الكافية الشافية، لابن مالك، تحقيق الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي، دمشق: دار المأمون للتراث، ط (١) ١٤٠٢هـ.
٦٣. شرح المفصل، لابن يعيش، تحقيق الدكتور إميل يعقوب، بيروت: دار الكتب العلمية، ط (١) ١٤٢٢هـ.
٦٤. شرح المقرَّب المسمّى ((التعليقة))، لابن النَّحَّاس الحلبي، تحقيق الدكتور خيرى عبد الرّاضي عبد اللطيف، المدينة المنورة: مكتبة دار الزّمان، ط (١) ١٤٢٦هـ.
٦٥. شرح جمل الزّجاجي، لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق الدكتور صاحب أبو جناح، بيروت: عالم الكتب، ط (١) ١٤١٩هـ.
٦٦. شرح شذور الذهب، للجوجري، تحقيق الدكتور نواف الحارثي، المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط (٢) ١٤٢٩هـ.
٦٧. شرح كتاب سيبويه، للرّماني، تحقيق محمد إبراهيم شيبه، مكة المكرمة: كلية اللغة العربيَّة بجامعة أمّ القرى، ١٤١٥هـ.
٦٨. شرح كتاب سيبويه، للسِّيرافي، تحقيق رمضان عبد التّوّاب وآخرين، القاهرة: الهيئة المصريَّة العامّة للكتاب، بتواريخ مختلفة.

٦٩. الشيرازيّات، لأبي علي الفارسي، تحقيق الدكتور حسن هنداوي، الرياض: كنوز أشبيليا، ط (١) ١٤٢٤هـ.
٧٠. الصحاح، تاج اللّغة وصحاح العربيّة، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، ط (٤) ١٩٩٠م.
٧١. ضرائر الشعر، لابن عصفور، تحقيق السيّد إبراهيم محمد، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت ط (٢) ١٤٠٢م.
٧٢. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، بيروت: المكتبة العصريّة، ط (١) ١٤٢٣هـ.
٧٣. علل النّحو، للورّاق، تحقيق الدكتور محمود جاسم محمّد الدرويش، الرّياض: مكتبة الرّشد، ط (١) ١٤٣٠هـ.
٧٤. غريب الحديث، للخطّابي، تحقيق الدكتور عبد الكريم الغرباوي، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٢هـ.
٧٥. فُرحة الأديب، للأسود الغندجاني، تحقيق الدكتور محمّد علي سلطاني، دمشق: دار النّبراس، ١٤٠١هـ.
٧٦. القاموس المحيط، للفيروزآبادي، بيروت: مؤسسة الرّسالة، ط (٧) ١٤٢٤هـ.
٧٧. الكامل، للمبرد، تحقيق الدكتور محمّد الدّاليّ، بيروت: مؤسسة الرّسالة، ط (٤) ١٤٢٥هـ.
٧٨. الكتاب، لسيبويه، تحقيق عبد السّلام هارون بيروت: دار الجيل، ط (١) (د.ت).
٧٩. كشف الظّنون، لحاجّي خليفة، مكّة المكرّمة، المكتبة الفيصليّة، (د.ت).
٨٠. الكلّيّات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق الدكتور عدنان درويش ومحمّد المصري، بيروت: مؤسسة الرّسالة، ط (٢) ١٤١٣هـ.
٨١. الكناش في فنّي النّحو والصرف، للملك المؤيّد صاحب حماه، تحقيق الدكتور رياض الخوام، بيروت: المكتبة العصريّة، ٢٠٠٠م.
٨٢. لبّاب الألباب في شرح أبيات الكتاب، لسليمان بن بنين بن خلف، تحقيق انجا بنت إبراهيم اليماني، مكّة المكرّمة: كليّة اللّغة العربيّة بجامعة أمّ القرى، ١٤١٧هـ.
٨٣. اللّباب في علل البناء والإعراب، للعكبري، تحقيق غازي مختار طليّمات والدكتور عبد الإله نبهان، دمشق: دار الفكر، ط (١) ١٩٩٥م.

٨٤. لسان العرب، لابن منظور، بيروت: دار صادر، ط (٤) ٢٠٠٥ م.
٨٥. المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة، لابن جني، دمشق: دار الهجرة، ط (١) ١٤٠٨ هـ.
٨٦. المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، تحقيق الدكتور عبد الحميد هندأوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط (١) ١٤٢١ هـ.
٨٧. المخصّص، لابن سيده، بيروت: دار الكتب العلمية، مصوّر عن طبعة بولاق ١٤١٨ هـ.
٨٨. المسائل البصريّات، لأبي عليّ الفارسي، تحقيق الدكتور محمد الشاطر أحمد، القاهرة: مطبعة المدني، ط (١) ١٤٠٥ هـ.
٨٩. المسائل الحليّات، لأبي عليّ الفارسي، تحقيق الدكتور حسن هندأوي، دمشق: دار القلم، ودار المنارة، بيروت ط (١) ١٤٠٧ هـ.
٩٠. المساعد على تسهيل الفوائد، لابن عقيل، بتحقيق الدكتور محمد كامل بركات، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٠٥ هـ.
٩١. المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري، بيروت: المكتبة العلمية، ط (٢) ١٩٨٧ م.
٩٢. المشوف المعلم في ترتيب الإصحاح على حروف المعجم لأبي البقاء العكبري، تحقيق ياسين محمد السّواس، مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث بجامعة أم القرى، ١٤٠٣ هـ.
٩٣. معاني القرآن وإعرابه، للزّجاج، تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي، بيروت: عالم الكتب، ط (١) ١٤٠٨ هـ.
٩٤. معاني القرآن، للفرّاء، تحقيق محمد عليّ النّجار وأحمد نجاتي، لقاهرة: دارالكتب المصرية، ط (٣) ١٤٢٢ هـ.
٩٥. معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، لياقوت الحموي، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط (١) ١٩٩٣ م.
٩٦. معجم الشعراء، للمرزباني، تصحيح كرنكو، بيروت: دار الجيل، ط (١) ١٤١١ هـ.
٩٧. مغني اللبيب عن كتب الأعراب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق وشرح الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، الكويت، ط (١) ١٤٢١ هـ.
٩٨. مفردات ألفاظ القرآن، للرّاغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دمشق: دار القلم، ط (٣) ١٤٢٣ هـ.

٩٩. المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، للشاطبي، تحقيق الدكتور عبد الرحمن العثيمين وآخرين، ط (١) ١٤٢٨هـ.
١٠٠. المقاصد النحويّة في شرح شواهد شروح الألفيّة، بـ (شرح شواهد الكبرى))، لبدر الدين العيني، تحقيق الدكتور علي محمد فاخر وآخرين، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر، ط (١) ١٤٢١هـ.
١٠١. المقتضب، للمبرّد، تحقيق محمّد عبد الخالق عزيمة، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، ١٤١٥هـ.
١٠٢. المنتخب من غريب كلام العرب، لأبي الحسن الهنائي (المعروف بكراع النمل) تحقيق الدكتور محمد بن أحمد العمري، مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث بجامعة أم القرى، ط (١) ١٤٠٩هـ.
١٠٣. المنجد في اللغة، عليّ بن الحسن الهنائي المشهور بـ (كراع النمل))، تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر، والدكتور ضاحي عبد الباقي، القاهرة: عالم الكتب، ط (٢) ١٩٨٨م.
١٠٤. المؤتلف والمختلف، للآمدي، صحّحه وعلّق عليه، الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، بيروت: دار الجيل، ط (١) ١٤١١هـ.
١٠٥. النكت في تفسير كتاب سيبويه، للأعلم الشنتمريّ، تحقيق الدكتور يحيى مراد، بيروت: دار الكتب العلميّة، ط (١) ١٤٢٥هـ.
١٠٦. النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، بيروت: المكتبة العلميّة، ١٣٩٩هـ.
١٠٧. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط (٢) ١٤٠٧هـ.

جماليات الوصف

في شعر سحيم عبد بني الحساس

الدكتور/ حمد فهد محمد جنبان القحطاني

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية
جامعة الطائف فرع تربة

مُلخَصُ البَحْثِ :

- يهدف هذا البحث الكَتِّف عن جماليات الوصف في شعر سحيم عبد بني الحساس؛ متخذًا غرض الوصف ودلالته، علامة بارزة على اهتمام الشاعر بإيراد التصوير الوصفي للتعبير عن تجربته الإبداعية.
- واعتمدت على المنهج التحليلي الوصفي. واشتملت الدراسة على: (مقدمة، وتمهيد، وبحثين، وخاتمة). تناولت المقدمة (مشكلة البحث، وأسباب اختياره، وأهميته، وأهدافه، وخطة البحث، ومنهجيته، وأدواته وإجراءاته، وحدوده)، وتعرض التمهيد: لنبذة مختصرة عن الشاعر، وحدود المصطلح الوصفي عند علماء اللغة والنقد.
- ويحوي المبحث الأول على: الوصف الخارجي المتمثل في الطبيعة والحيوان والمحبوبة. والثاني: الوصف الداخلي الناتج عن مدى الأثر النفسي الذاتي المتمثل في اللون والعذاب والسجن والحرمان من المحبوبة.
- وتكشف الخاتمة عن أهم النتائج التي انتهى إليها.

كلمات مفتاحية :

الوصف، سحيم عبد بني الحساس، الطبيعة، الحيوان، اللون، العذاب والحرمان.

Aesthetics description

The importance of the image stems from its own way of presenting meaning and its effect on the recipient, but what are the dimensions of that effect? How much do we interact with?.

The peculiarity of the artistic image lies in the way we are charged with a kind of attention to the meaning that it presents. It does not expose it to self-isolation and self-sufficiency, but rather presents it with a series of references to other elements whose meaning can not be denoted. For these reasons, our study came to the poet Suhaim Abdi Bani al-Hasas.

He is a veteran of the Jaahiliyyah, a black Negro who died in the 40s. This study was presented in two sections: The first topic: descriptive external. And the second topic: the internal psychological description. By external description, I mean the beauty of nature and its manifestations. I mean by internal depiction suffering and deprivation.

مقدمة

شكّل فنُّ الوصف لدى الشعراء العرب القُدّامى نوعاً من العشق التصويريّ، فكان جُلُّ شعرهم لا يخلو من الوصف ولو بلمحة بسيطة أو شاهد قليل، وذلك في أغراض الشعر المختلفة كالمدح، والغزل، والهجاء، وغير ذلك.

وكان للوصف طابعٌ ذاتيٌّ يعكس وجدان الشاعر على نصوصه المختلفة، فعبّر عن نفسه وفلسفته في الحياة بطريقته الخاصة التي تناسب فكره وعقله ومشاعره وثقافته، وكان الشعر عندئذ تصويراً للمعاناة الفردية التي تختلف من شاعر لآخر.

وقد نتج عن الوقوف أمام الطبيعة بمفرداتها العامّة والخاصّة دلالات أنتجت عند بعض الشعراء سمات تعبيرية خاصة ينبغي للباحثين الوقوف أمامها بالتأمل والقراءة والتفسير والدراسة والبحث، مثل ذلك: الوقوف أمام الطبيعة، والمرأة، والحيوان.

ولقد كان لكلِّ شاعر حياته التي عاش فيها بكلِّ مفرداتها المتباينة، وأدى هذا الاختلاف إلى اختلاف موقف الشاعر تجاه القضايا الفنية المختلفة التي عالجها، فمنهم من نقل صورة متفائلة للحياة التي رآها أو تمنّاها، ومنهم من طبع شعره التشاؤم والرفض والثورة والغضب، ومنهم من استسلم لهذه الحياة مؤثراً موقفاً سلبياً ربّما ينال السّلامة والمنافع.

من هنا اهتم كثير من شعراء العرب القُدّامى والمُحدثين بآليات الوصف لكشف عمق ذات الشاعر ونفسه وتصوراتهِ ونظرته للكون ومشكلاته، وهذه الآليات تباينت بين الوصف الخارجي والوصف الداخلي.

ومن شعراء العرب القُدّماء الذين برزَ في شعرهم الوصفُ بكلِّ دلالاته الشاعر العربيُّ المُخزرم سحيم عبد بني الحساس، ذلك الشاعر الذي عاش في ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية خاصة صبغت شعره بسمات فنية مميزة له عن شعراء جيله وعصره، جعلت الباحث يقف أمام شعره بالتحليل والدراسة لفظاً وتركيباً.

وهذه الدراسة - في رأي الباحث - تُعدُّ جديدة في موضوعها وشكلها ومعالجتها، نظرًا لأن ظاهرة الوصف عند الشاعر سحيم عبد بني الحسحاس، لم تدرس من قبل، وخاصة الوصفي - الخارجي والداخلي - في شعره؛ مما جعلنا نولي اهتمامًا خاصًا بهذا الشاعر، وفي هذا الجانب من شعره.

والبحث يثير في مضماره بعض التساؤلات التي تتطرق لذهن المتلقي عند تعرضه للبحث: ما الوصف الأكثر تأثيرًا في شاعريته؟، وما الوصف الذي أثر على شعر سحيم؟، وما دلالة ذلك؟ وما الخصوصية التصويرية التي تميز بها شعره؟، وكيف أثر ذلك الصراع على نفسيته الداخلية؟

وحاول هذا البحث في إشكالياته أن يكشف عن الدلالات الخاصة بالوصف في ديوان الشاعر "سحيم عبد بني الحسحاس"، من خلال التصوير الذي كشف عن معاناة الشاعر تجاه الذات والآخر، مما أسهم في إثراء تجربته الإبداعية.

وقد اعتمدت في بحثي لشعر الشاعر على المنهج التحليلي الوصفي، حيث يقوم هذا المنهج على تحليل النصوص الشعرية وبيان دلالاتها.

وتطرقت في بحثي على أدوات أهمها دراسة النصوص الشعرية التي تتعلق بجماليات الوصف في ديوان "سحيم عبد بني الحسحاس" دراسة علمية تحليلية كاشفًا من خلالها نتائج البحث وأهم مضامينه، كما كان للأعمال النقدية المتعلقة بالموضوع دورًا بارزًا في ذلك.

وعرضت لبعض الإجراءات المهمة في هذا البحث، منها: الحديث عن سيرة الشاعر والمصطلح الوصفي والدراسات السابقة، ثم الحديث عن الوصف للطبيعية ودلالاتها، كالرياح، والبرق والمطر، بالإضافة إلى وصف الحيوان من الناقة، والثور الوحشي وكلاب الصيد وغيرها، وأوردت الشواهد على ذلك، ثم تعرضت لدراسة وصف الجيش والمحبوبة، وحللت شواهداها، ثم تناولت الوصف الداخلي المتمثل في اللون، والذي يعكس دلالة نفسية وأخرى جمالية، وختمت ذلك بتناول الشاعر الوصف للحبس والعذاب والحرمان والشوق اللذين كان له أثر على نفسيته مما جعله يفتخر بشاعريته ويلجأ إلى

اللهو والمجون حتى ظهرت عنده الندية للتحرر من الحالة القهرية، فأوردت شواهدا وبينت خصائصها وحلّت نماذجها.

ويتكون البحث من (تمهيد، ومبحثين، وخاتمة). فأما التمهيد؛ فتناولت فيه: سيرة الشاعر والمصطلح الوصفي.

ويتعرض المبحث الأول؛ للوصف الخارجي، المتمثل في الطبيعة والحيوان والمحبوبة.

ويتناول الآخر: التصوير الداخلي الناتج عن مدى الأثر النفسي الذاتي المتمثل في اللون والعذاب والسجن والحرمان من المحبوبة.

تمهيد

ويتناول التمهيد:

١- نبذة مختصرة عن حياة الشاعر وثقافته:

يعد الشاعر "سحيم عبد بني الحساس"^(١) واحداً من الشعراء العرب المتميزين المصورين، وكنت أجد عسراً في سبر أغوار معانيه فلما صبرت على غريب استعاراته تكشف لي بديع تصاويره ولفقاته، فقد وصل إلينا من شعره ما تم جمعه في ديوان صغير الحجم حققه عبد العزيز الميمني الرئيس الأسبق لقسم اللغة العربية في جامعة عليكرة بالهند، وقد طبعته دار الكتب المصرية عام ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.

والشاعر هو أبو عبد الله، وقيل: اسمه حَيْةٌ^(٢)، ومولاه جندل بن معبد من بني الحساس^(٣)، وسحيم تصغير الأسحم بمعنى الأسود^(٤)، وهو زنجي أسود توفّي في حدود الأربعين للهجرة^(٥)، من المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام^(٦).

- (١) الحساس هو الحساس بن نفاثة بن سعد بن عمرو بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة، (ينظر: أبو الفرج، علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، م٢٢، ص ٢١٣، وينظر: الديوان، ص ١٥)، والحساس من الحساسة، يقال: حسسته النار ولوحت، (الديوان، ص ١٥).
- (٢) الديوان، ص ٥، وينظر: أبو الفرج، الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، مرجع سابق، م ٢٢، ص ٢١٣، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، الوايف بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، ج ١٥، ص ٧٧، وينظر: محمد شاکر الکتبي (ت ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، م ٢، ص ٤٣.
- (٣) عبد القادر عمر البغدادی (ت ١٠٩٣هـ)، خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ط٤، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ١٠٤.
- (٤) الديوان، ص ٥.
- (٥) الصفدي، الوايف بالوفيات، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٧٦، وينظر: الکتبي (ت: ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات والذيل عليها، مرجع سابق، م ٢، ص ٤٣.
- (٦) الصفدي، الوايف بالوفيات، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٧٦، وينظر: الکتبي (ت: ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات والذيل عليها، مرجع سابق، م ٢، ص ٤٣، وينظر: عبده بدوي، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، ص ٨٩.

شاعريته

وضعه ابن سلام في الطبقة التاسعة من الجاهليين^(١)، وكان عبداً أسوداً نوبياً أعجمياً مطبوعاً في الشعر^(٢)، وفي سواده يقول:

وما ضرَّ أثوابي سوادي وإنني لكالمسك لا يسلو عن المسك ذائقه
كيستُ قميصاً ذا سواد وتحته قميصٌ من القوهي بيض بنائقه^(٣)

وقيل: إن أول ما تكلم به عبد بني الحسحاس من الشعر أنهم أرسلوه رائداً فقال:

أنعتُ غيثاً حسناً نباته كالحبشي حوله بنائه^(٤)

فقالوا: شاعر والله، ثم انطلق بالشعر بعد ذلك.

وقيل إنه أدرك النبي ﷺ، وقد تمثل بشيء من شعره في قوله: (كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً)، وقيل: إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال له: لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك^(٥). وقيل أنشد رسول الله ﷺ قول "سحيم عبد بني الحسحاس":

الحمد لله حمداً لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع^(٦)

فقاً: أحسنَ وصدق، وإن الله يشكر مثل هذا، ولئن ولان سدد وقارب إنه لمن أهل الجنة^(٧).

- (١) محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٢١)، طبقات فحول الشعراء، مع تمهيد للناشر الألماني: جوزف هل، ودراسة: طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص ٧١.
- (٢) أبو الفرج، الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، مرجع سابق، م ٢٢، ص ٢١٣.
- (٣) السابق، م ٢٢، ص ٢١٣.
- (٤) أبو الفرج، الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، مرجع سابق، م ٢٢، ص ٢١٤.
- (٥) الديوان، ص ٥، وينظر: أبو الفرج، الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، مرجع سابق، م ٢٢، ص ٢١٤، ٢١٥، وينظر: أبو بكر محمد بن هشام (ت ٣٨٠هـ)، وأبو عثمان سعيد بن هشام (ت ٣٩١هـ)، كتاب الاشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالدين، تحقيق: السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ج ٢، ص ٢١.
- (٦) ينظر: البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، خزانة الأدب ولب لسان العرب، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٠٤.
- (٧) السابق، الصفحة نفسها.

ويستشهد ابن منظور في لسان العرب - على معنى الوصف - بيت لشاعرنا "سحيم"، الذي نحن في صدد الدراسة عنه، مما يؤكد أهمية البحث وارتباطه برصد هذه الظاهرة في شعره، وذلك في قوله: (اتصافاً) الذي هو من الوصف في قوله:

وَمَا دُمِيَّةٌ مِنْ دُمَى مَيْسَنَا نَ مُعْجِبَةٌ نَظَرًا وَاتِّصَافًا^(١)

٢- الوصف في اللغة:

سأعرض باختصار لحدود هذا المصطلح ليكون مدخلاً لدراستي، أولاً الوصف في اللغة:

فالوصف لغة: وصف ووصفت الشيء وصفاً وصفةً، وتواصفاً الشيء من الوصف، واتصفت الشيء، أي: صار متواصفاً^(٢)، واستوصفه الشيء: سأله أن يصفه له، واتصفت الشيء: أمكن وصفه^(٣).

والوصف هو البيان والإظهار لشيء ما في صورة محسوسة تكشف ذلك الشيء (الموصوف)، أو تظهره في بلون أو شكل يضيفي على ذلك الشيء جمالاً وأبهتاً ورونقاً، ويشترط في هذا الوصف ليكون رائعاً وجميلاً أن يكون أعمق بياناً ولفظاً من الموصوف، كما قد يصنع هذا مقارنةً أو تشبيهاً تشكل صورة بلاغيةً جديدةً سواء أكانت هذه الصورة مقصودةً في ذاتها أو في غيرها.

وينقسم الوصف إلى حسي وخيالي؛ "فالحسي: هو الذي يتناول المحسوسات فيصورها بصورة رائعة، فالشاعر يأخذ المرئيات التي أمامه في رسمها كما يراها ويشاهدها، فهمُّ الشاعر اكتشاف التشابيه التي تشخص مشهدين مختلفين، وهذا النوع من الوصف هو المرحلة الأولى من مراحل الوصف، وهو محاولة تجسيد الظاهرة

(١) جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، م، ٩، ص ٣٥٦، مادة وصف، وينظر الديوان: ص ٤٣.

(٢) إسماعيل حماد الجوهري (ت: ٣٩٣هـ)، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ج ٤، ص ١٤٢٨، مادة: وصف، وينظر: ابن منظور، لسان العرب، م، ٩، ص ٣٥٦، مادة وصف.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، م، ٩، ص ٣٥٦، مادة وصف.

كما تبدو للحواس... أما الوصف الخيالي فهو النظر إلى ما وراء المحسوسات، والشاعر الذي يتصف بسعة الخيال لا يقف عند ما يراه، بل يتعداه إلى إجاد أشياء يفتحها خياله أمامه بحيث يجعل المرئيات أساساً لغير المرئيات، ويولد من المحسوسات صوراً مجردة يرسمها للناس^(١).

٣- الدراسات السابقة :

هناك العديد من الدراسات والرسائل التي تناولت شعر سحيم، ولعل من أبرزها ما يلي:

أولاً: الأداء باللون في شعر سحيم عبد بني الحسحاس لمحمود الجادر^(٢)

فهو بحث جيد صغير الحجم لا يتجاوز التسع صفحات. وقد أشار فيه الباحث إلى (اللون)، حيث يرى أن السواد كان عقدة تحطمه من الداخل بينما نرى أن الشاعر كان شخصاً سوياً يعيش بين قبيلته، ولم يكن السواد مؤثراً عائقاً واضحاً وملحوظاً.

ثانياً: عقدة اللون وأثرها في شعر سحيم دراسة وتحليل، لراضية طرسون^(٣)

تناولت الباحثة في هذه الدراسة وضعية الرقيق الأسود في المجتمع العربي قبل الإسلام وبعده، وعقدة اللون من خلال الفروسية والمرأة والهجاء والموت، بالإضافة إلى الخصائص اللغوية والأسلوبية والموسيقية. كما أشارت الباحثة للصورة الشعرية من تشبيه واستعارة وغير ذلك، وتناولت أيضاً الأسلوب القصصي باعتباره من وجهة نظرها يتعلق بشعر العبيد، وتعد دراستها في الصورة أقرب للنمط التقليدي التعليمي.

ثالثاً: الأبعاد السيميائية في شعر سحيم عبد بني الحسحاس، للباحثة إيمان عصام^(٤)

هذه الدراسة رسالة دكتوراه، تحدثت فيها الباحثة عن المنهج السيميائي وطبقته على شعر سحيم، وذكرت فيه مفهوم السيميائية في فصل كامل عند العلماء بشكل أقرب

(١) عبد الله سليمان العقل، البحري وشعره في الوصف، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ١٩٧٤م، ص ٦٤.

(٢) محمود الجادر، الأداء باللون في شعر سحيم عبد بني الحسحاس، نشر بمجلة المورد العراقية، ع ٤، ١٩٩٩م.

(٣) راضية طرسون، عقدة اللون وأثرها في شعر سحيم، رسالة ماجستير، جامعة الاسكندرية، ٢٠١٤م.

(٤) إيمان عصام خلف كامل علي، الأبعاد السيميائية في شعر سحيم عبد بني الحسحاس، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠١٦م، ٥١٤٢٨.

للعرض التاريخي للنظرية، والفصل الثاني طبقت مفهوم السيميائية على شعر سحيم، فتحدثت فيه عن شفرات الطبيعة. وأما الفصل الثالث فتحدثت فيه عن سيميائية الألوان وشفراته، وفصل آخر أشارت لسيميائية الموت والقهر، وفي الفصل الأخير أشارت لسيميائية الصورة عند الشاعر ومعروف أن السيميائية تقوم على دراسة علم الدلائل وتفسير الرموز والإشارات، وفك شفرات النص، وأشارت الباحث لسيميائية الصورة لتعريفها وماهيتها، ووسيميائية الصورة اللونية، وسيميائية الصورة القبلية، معتمدة على المنهج السيميائي في التطبيق.

وقد تمثلت موضوعات بحثنا في جماليات الوصف من تصوير خارجي متمثل في الطبيعة والحيوان والمحبوبة، والتصوير الداخلي الناتج عن مدى الأثر النفسي الذاتي المتمثل في اللون والعذاب والسجن والحرمان من المحبوبة، حتى نخرج من التقليدية في دراسة الشعر القديم.

أولاً: الوصفي الخارجي

يعد فن الوصف من الأغراض المهمة التي عرف بها "سحيم" في تجربته الشعرية، حيث إن طبيعة الشعراء القدماء من الجاهليين والمخضرمين وغيرهم يتميزون بفن الوصف عن غيره من الأغراض الشعرية الأخرى لأن الوصف "مرتبط في أساسه بحقيقة الشعر، خاصة أن هذا الفن لم يكن موضوعاً مستقلاً عند القدماء أو هدفاً في حد ذاته بل كان الشعر في عمومه عملاً وصفيًا، سواء أكان الشاعر يتحدث عن عاطفة خاصة، أو عن حدث خارجي، فهو من أبرز ضروب الشعر، وأغناها... فالوصف هو الشعر وبقية الألوان تجيء تابعة له متفرعة عنه^(١).

"ويعد الوصف من أقدم هذه الأغراض التي عرفها الناس، ولم يأت فناً منفرداً، وإنما أتى في صياغة القصائد وحناياها وتسرب إلى تضاعيفها"^(٢)، ولما كان الوصف

(١) خديجة ابراهيمي، الوصف في شعر بشار بن برد، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة محمد خضير بسكرة، قسم اللغة العربية، ٢٠١٢/٢٠١٣م، ص ب.

(٢) محمد صديق حسن عبد الوهاب، الصحراء في الشعر الجاهلي، أطروحة دكتوراة، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية الدراسات العربية، قسم الدراسات الأدبية والفنية، ١٤٢٨هـ، ١٤٢٩هـ، ص ١٩٠.

عند العرب أشبه بالحقيقة العلمية... فإن الشاعر قد يتفرد في بعض الأوصاف، وذلك من جهة العلم لا من جهة الصياغة، فكلما كان أعلم بأجزاء الموصوف وحالاته، وأقدر على استقصاء هذا العلم في شعره، كان أبلغ في الوصف وأولى بالتقديم فيه^(١).

ولا يخفى أن شاعرنا كان رقيقاً مما جعله يتأثر بالطبيعة، وخاصة عند خلوته، فيصف الريح والبرق والسحاب والمطر، والخيل والناقة والثور الوحشي، والليث، وكلاب الصيد، وبيض النعام، والمحبوبة ولقاءاتها به، وقد أضفى الشاعر على وصفه تصويراً خيالياً مزج فيه بين التشبيهات والواقعية في أسلوب قصصي شاعري، ويتضح ذلك جلياً خلال عرضنا.

١ - وصف الطبيعة

تتميز الطبيعة بصورها الخلابة ومناظرها الجميلة التي يضفي عليها الشعراء تصويراً خيالياً فريداً، لا سيما إذا عاش الشاعر هذا التصوير الوصفي لهذه المناظر، ولمس وجدانه وتأثر بمشاعره.

فالتبيعة ميدان خيال الشاعر ومثار تأملاته ومهوى تصوراته... حيث وصف الشعراء كل ما وقعت عليه أعينهم من شتى ألوان البيئة التي عاشوا فيها، ومظاهر الحياة التي ألفوها في بيئتهم، فرافق الوصف الإنسان منذ إطلالته على الدنيا^(٢).

فالشعراء العرب على رأس الفنانين الذين اهتموا بالطبيعة في مختلف الأوقات والأزمان، قد أكثروا من وصفها والحديث عن عناصرها وأجزائها ومكوناتها؛ تعبيراً عن إعجابهم وفتنتهم بها، فنشأ بذلك فن وصف الطبيعة في الشعر العربي^(٣). وشاعر الطبيعة الجاهلي بسيط في أسلوبه، صادق في التعبير عن إحساسه.. وهو ذاتي يمثل نفسه بآلامها وأحزانها وخواطرها^(٤).

(١) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، راجعه: عبد الله المنشاوي، ومهدي البحقيري، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ١٣٥٩هـ، ١٩٤٠م، ج ٢، ص ١١٠.

(٢) عبد الله سليمان العقل، البحري وشعره في الوصف، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٣) محمد عايش محمد أمين، الوصف والغزل في شعر الوأواء دمشقي، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، نابلس، فلسطين، ٢٠١٢م، ص ١٣.

(٤) سيد نوفل، شعر الطبيعة في الأدب العربي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، ط ٢، ١٩٧٨م، ص ٧٠، ٧٢.

ولا سيما أن شعراء القبائل والبادية ينتقلون بين الصحراء فلا يجدون غير جمال الطبيعة والحيوان ولقاء الأحبة، وربما لا يكون الشاعر القديم عاشقاً للطبيعة إنما كان مجبراً على وصفها لا سيما أن الصراع دائر بينهما فالطبيعة بقوتها وصعوبتها ومخاطرها تعاند الشاعر وتحاول النيل منه، والشاعر هو الآخر لا يجد وسيلة للترفيه أو التعبير عن آلامه سوى الطبيعة بقبحها وجمالها. فنجد سحيمًا يصور الريح ويصف المطر والسحاب في خطابه لمحبوته بقوله:

أَغَاضَرَ حَيَّاكَ الْإِلَهَ وَأَسْقَيْتَ بِلَادُكَ صَوْبَ الرَّائِحِ الْمُتَحَيِّرِ
مَسَاعِيرُ مَا حَرَبَ وَأَيْسَارُ شَتْوَةٍ إِذَا الرِّيحُ أَلَوَتْ بِالكَنِيفِ الْمُسْتَرِّ (١)

فالشاعر يثني على من يخاطبها بتحية الإله لها، وذلك بسقيا بلادها من السحاب الذي ينصب منه المطر وهو يروح ويرجع، وفي هذا الدعاء تصوير استعاري، حيث صور السحاب بإنسان متحير يروح ويجيء، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو قوله: "رائح متحير"، وإثبات هذا الوصف للسحاب تخييل. ثم يثني الشاعر على قوم المخاطبة في مدحهم بالشجاعة، فهم يشعلون الحرب إذا حان موعدها، وإذا حان السلام في الشتاء فإنهم يجلسون من أجل اللهب بضرب القداح، بينما تعصف الرياح في الخارج بالأشجار الملتفة، ولعله أراد أن يصور فتكهم في الحرب بالريح الشديدة التي تلوي مجموعة الشجر على بعض ثم تقتلعه، وفي هذا التصوير دلالة على قوة الريح وسرعتها؛ حيث تقلع مجموعة الأشجار المتقاربة التي يستتر فيها من يدخلها من إنسان وحيوان، فهذه الريح تقتلعه من جذوره، ودلالة الاقتلاع^(٢) - وخصوصاً في تصوير الشجر - هي الجذع الذي هو ثابت بجذوره على شدة القوة المضاعفة.

وكلتا الصورتين: وصف تصوير الريح مرة بالهدوء والتحير، وأخرى بالسرعة تدل على صفات إيجابية لأهل من يمدحها، مع اختلاف الدلالة والمعنى، لكنها تصب في مديح الفرد والجماعة؛ لتوضيح الصورة المراد رسمها عند الشاعر.

(١) الديوان، ص ٥٢.

(٢) الاقتلاع: هو انتزاع الشيء من أصله... وقيل: كما يقلع النبات من الأرض ونحوه. (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٨، ص ٢٩٠، ٢٩٣).

وهناك علاقة متكررة بين الريح والسحاب، وذلك في التصوير الوصفي للمطر عند "سحيم"، حيث يقول:

فَمَا حَرَّكَتُهُ الرِّيحُ حَتَّى حَسِبْتُهُ بَحْرَةَ لَيْلَى أَوْ بِنَخْلَةَ ثَاوِيَا^(١)

ثم استمر الشاعر في وصف السحاب الممطر الذي يتحكم الريح في مسيرته؛ حيث توقع الشاعر من سرعته أنه يمطر فوق "حرة ليلى"، أي: حرة بني سُلَيْمٍ أو نخلة، وهو موضع قريب من مكة المكرمة^(٢)، وهنا يصور الشاعر السحاب الممطر بإنسان يقيم في مكان، ويحذف (الإنسان)، ويرمز إليه بشيء من لوازمه، وهو قوله: (ثاويًا) بمعنى مقيمًا، واثبات الثواء للريح تخييل.

ثم أكد عليه بتصريف الريح لهذا السحاب في التنقل المكاني بالمرور على الأنهاء، وجبال طيء والفراة وغيرها^(٣).

وفي موضع آخر يصف الشاعر دور الريح في تصريف السحاب في قوله:

مَرَّتْهُ الصَّبَا وَانْتَحَتْهُ الْجَنُوبُ بٌ^(٤) تَطَحَّرُ عَنْهُ جَهَامًا خَفَافًا
فَأَقْبَلَ يَزْحَفُ زَحْفَ الْكَسِيرِ يَجْرُ مِنَ الْبَحْرِ مُزْنًا كَثَافًا
فَلَمَّا تَنَادَى بِأَنَّ لَا بَرَا حَ وَانْتَجَفَتْهُ الرِّيحُ أَنْتِجَافًا^(٥)

يصف الشاعر تصوير هذه الريح وعلاقتها بالسحاب في تنقله وتحوله، فجعل الرياح التي تهب من الشرق تمره والرياح الجنوبية تحيه، أي: تسوقه بسرعة وقوة، وهي ترمي عنه ما كان خفيفًا وما فرغ منه الماء، ثم نجد الشاعر يصور إقبال هذا

(١) الديوان، ص ٣١.

(٢) السابق، الصفحة نفسها.

(٣) الديوان، ص ٣٢.

(٤) يقول ابن عباس: الشمال ما بين الجدي ومغرب الشمس، والجنوب ما بين مطلع الشمس وسهيل، والصبأ ما بين مطلع الشمس إلى الجدي، والدبور ما بين مغرب الشمس إلى سهيل، (ينظر: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا البغدادي (ت: ٢٨١هـ)، المطر والرعد والبرق والريح، تحقيق: طارق محمد سكلوع العمودي، دار ابن الجوزية، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، ص ١٤٧.

(٥) الديوان، ص ٤٧.

السحاب مشبهاً إياه تشبيهاً بليغاً بزحف الكسير، وذلك في ثقلها وهدوئها، ولم يقل الشاعر: زحف الصغير مع أن ذلك لا يخل بالوزن، ولكن مغزى الشاعر كان لدلالة بلاغية أعمق، وهي: الثقل والكبر، كما أن هناك دلالة في الزحف بين الصغير الذي ربما يكون أسرع من الكسير وليس أمامه ما يعوقه، وقد وفق الشاعر في هذا التصوير التشبيهي الوصفي بربط العلاقة بين زحف الكسير وزحف السحاب، سيما أنه استخدم التشبيه البليغ؛ ليدل على قوة الشبه بين زحفه وزحف الكسير، وكأنه لا فرق بينهما.

ويضيف الشاعر على هذا التصوير وصفاً آخر هو وصف السحاب بأنه آلة قوية قادرة على جر (سحب) الماء من البحر بوصف استعاري جاء على طريقة الاستعارة المكنية في قوله: (يجر من البحر)، وفي هذا التصوير دلالة على كثرة الماء الذي يحمله السحاب.

وقد وصف الشاعر علاقة الريح بالسحاب في إداره ونقله بالسرعة في الانتحاء، ثم بالتأني والركود عندما أراد أن يفرغ ماءه ويسكبه، ففي هذا المكان أفرغ الريح ما بالسحاب. من مياه، ووصف ذلك بالانتجاف، وهو "استخراج أقصى ما في الضرع من اللبن"^(١)، وجواب (فلما تنادي) يأتي بعد بيتين في قوله: "فألقي مراسيه واستهل"^(٢).

٢- وصف البرق

تناول الشاعر وصف البرق في بداية حديثه عن وصف المطر والسحاب، وذلك في قوله:

أَحَارِ تَرَى الْبَرْقَ لَمْ يَغْتَمُضْ يُضِيءُ كَفَافاً وَيَجْلُو كَفَافاً
يُضِيءُ شَمَارِيخَ قَدِ بَطَّنَتْ مَثَافِيدَ رِيْطاً وَرِيْطاً سَخَافاً^(٣)

يصور الشاعر البرق باللمعان المستمر الذي شبهه بالعين التي لم تغمض، وذلك باستخدامه الفعل المضارع الدال على الاستقبال في قوله: "لم يغتمض"، وباستخدامه

(١) الديوان، ص ٤٧.

(٢) الديوان، ص ٤٨.

(٣) الديوان، ص ٤٦-٤٧.

الفاعلين (يضيء ويجلو) بصيغة المضارع؛ لاستحضار الصورة في ذهن السامع، وكأن صورة البرق تحدث أمامه، ويراهها بعينه؛ حيث يصف الشاعر إضاءة ما تعلق من السحاب وبرز البرق من خلاله، فهو يضيء بعضه، ويجلو البعض الآخر، ثم يؤكد باستخدامه للفعل المضارع "يضيء" مرة أخرى على ذلك، أي: على ما تعلق من السحاب مشبهاً إياه بالشماخيخ في عدم استوائها وارتفاعها ونزولها، وهي مبطنة بسحب متراكمة تشبه الثياب البيض التي تراكب بعضها على بعض.

وفي موضع آخر يقول سحيم:

فَدَعْ ذَا وَلَكِنْ هَلْ تَرَى ضَوْءَ بَارِقٍ يُضِيءُ حَبِيًّا مُنْجِدًا مُتَعَالِيَا
يُضِيءُ سَنَاهُ الْهَضْبَ هَضْبَ مُتَالِعٍ وَحُبَّ بِنَاكِ الْهَضْبِ لَوْ كَانَ دَانِيَا
نَعَمْتُ بِهِ عَيْنًا وَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ يَحْطُ الْوَعُولَ وَالصُّخُورَ الرَّوَاسِيَا^(١)

يدخل سحيم في وصف البرق بدقة مذهلة تطاوعه لغة وقريحة دفاقة، وقد انفلت إلى تصوير البرق في حسن تخلص سلس (فدع ذا ولكن)، والتصوير الوصفي للبرق يظهر عند الشاعر في الاعتلاء، وذلك في قوله: "متعالياً ومنجداً وحبيياً" فكل هذه الكلمات دالة على ما علا من الأرض وارتفع، وأكد بذلك في قوله: "يضيء سناه" والسنا دلالة على رأس ضوء هذا البرق، فكأن الشاعر يقول إن أقصى ما يضيء البرق لدى هضب "متالع"^(٢)، الذي أكد بأنه ليس قريباً عنده، ثم ربط الشاعر هذا التصوير الوصفي بين العين والضوء الساطع من سناء البرق؛ حيث جعل العين تنعم به، وهنا دلالة نفسية متأثرة بحب المطر الناتج عن التفاؤل بهذا البرق الذي توقع بأنه ينتج منه مطر يحط الوعول والصخور الراسية من عاليات الجبال، وفي هذا التصوير دلالة على الكثرة والغزارة.

وقد ربط العرب بين الوعل والجبل، وذلك محاولة لمقاومة الخطر الذي يتهدد الوعل في الأودية والسهول على أيدي الناس، أو نتيجة السيول، ولكن المطر الغزير حينما

(١) الديوان، ص ٣١.

(٢) متالع جبل بنجد وفيه عين يقال لها الخراة، (ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، ٥م، ص ٥٢).

ينسكب على الجبال يصبح الخطر على حياة هذه الوعول، فجعل الشعراء موت الوعل وتحدره مع الوادي دلالة على كثرة المطر^(١).

٣- وصف المطر

تظهر لنا في هذه الجزئية صورة ممتدة للمطر، رسمها الشاعر "سحيم"، بدأها بالحديث عن وصف المطر بمتابعة رؤيا البرق والسحاب ثم الريح التي تتحكم في انتقاله ومسيرته، وكل ذلك بقدره القادر العزيز الحكيم، ثم ينتقل الشاعر للحديث عن انسكاب المطر، والأماكن التي ينزل عليها رابطاً بين دلالة المكان، وكثرة السيول والمياه، فيقول:

فَمَرَّ عَلَى الْأَنْهَاءِ فَالْتَجَّ مُزْنُهُ فَعَقَّ طَوِيلًا يَسْكُبُ الْمَاءَ سَاجِيَا
رُكَامًا يَسُحُّ الْمَاءَ مِنْ كُلِّ فَيْقَةٍ كَمَا سُقَّتْ مَنْكُوبَ الدَّوَابِرِ حَافِيَا
وَمَرَّ عَلَى الْأَجْبَالِ أَجْبَالٌ طَيِّئٌ فغَادَرَ بِالْقَيْعَانِ رَنْقًا وَصَافِيَا
أَجَشُّ هَزِيمٌ سَيْلُهُ مَعَ وَدْقِهِ تَرَى خَشَبَ الْغُلَّانِ فِيهِ طَوَافِيَا^(٢)

هنا بدأ الوصف لمسيرة السحاب؛ حيث لا يعوقه شيء، واستخدم الشاعر لذلك كلمة (مر) بصيغة الماضي التي تدل على مجرد العبور، وعدم البقاء، لكن هذا العبور لم يكن سريعاً خالياً، وإنما كان بطيئاً منتجماً؛ حيث وصف الغيم الأبيض على الغدران بتكثير الماء، ثم يصور هطول المطر من المزن بالانسكاب، فكأن الغيم انشق نصفين، فانسكب الماء على الغدران، ثم يصف هذا الانشقاق بالطول؛ حيث يسكب الماء وهو ساكن لا يتحرك، مؤكداً الشاعر على ذلك بكثرة السحاب في وصفه، وذلك بقوله: "ركاماً"، أي: متراكباً غليظاً، ثم يشبه مسيرته بالفرس المنكوب من الحجارة في مآخير الحوافر، فيمشي رويداً رويداً، ويسح الماء من كل طرف وجهة، وهو تشبيه محسوس بمحسوس؛ ليقرب الصورة للسامع، وكأنه يراها ماثلة أمام عينيه.

ثم يصف الشاعر مرور السحاب على جبال طيء، وقد غادر قيعانها وهي مليئة

(١) ينظر: جريدي بن سليم المنصوري، شاعرية المكان، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص ٣٩، ٤٠. وقد شاهدت وعلاً ميثاً في أسفل وادي طريف بالحصاة قبل قرابة خمسة عشر

عاماً، من قوة السيل وغزارته، وعرف أهل المنطقة بذلك.

(٢) الديوان، ص ٣٢.

بالماء الكدر والصايف، ثم يصف الشاعر صوته ويصوره بكدره الصوت الذي به بحة، مصوراً ذلك بتشبيه بليغ؛ ليؤكد على عدم الفرق بين صوت هذا السحاب وصوت الأجر، ولا يخفى أن الشاعر جمع في أبياته بين التصوير الحركي والسمعي، مؤكداً على ذلك بوصف سرعة وقع قطر المطر الذي سال في الأودية ذات الشجر، وفي هذا التصوير دلالة على سرعة سقوط قطرات المطر، حيث جرى الوادي مع أولها، وهو لا يزال يسكب المطر، والخشب يطفو فوق سيله، وفي هذا دلالة على سرعة الهطول وغزارته، ثم واصل الشاعر وصفه للسحاب، بقوله:

فَأَصْبَحَتِ الثِّيرَانُ غَرَقَى وَأَصْبَحَتِ نِسَاءُ تَمِيمٍ يَلْتَقِطْنَ الصَّيَاصِيَا^(١)

وفي هذا البيت تصوير لغزارة الماء وقوته وكثرتة؛ حيث إن هذه الغزارة أغرقت الثيران والأبقار الوحشية، لدرجة أنه لم يظهر منها إلا صياصيه تجرها نساء بني تميم بقرونها؛ لتنقذها، وربما أراد الشاعر أن هذه الثيران غرقت بالفعل، ولم يبق منها ما يستفاد منه إلا الصياصي؛ لاستخدامها في الحياكة، وغير ذلك.

وفي وصف آخر للمطر يتكرر وصف اقتلاع السيل في قوله:

يَكْبُ الْعِضَاهُ لِأَذْقَانِهَا كَكَبِّ الْفَنِيقِ لِلِقَاحِ الْعِجَافَا^(٢)

في البيت يستخدم الشاعر الفعل المضارع "يكب" ليدل به على الاستمرار من جهة، وليصور به الحال من جهة أخرى، ويستحضرها جلية أمامنا، فيصوره بأنه يقتلع الشجر من جذوره فتقلب الأشجار على رؤوسها مثلما يقلب فحل الإبل النوق المهازيل على وجهها، وجاء قوله (لأذقانها) تجسيدياً للأشجار متوافقاً مع بقية الصورة التي ترسم الناقة الهزيلة حين يقلبها الفحل، وفي هذا التصوير ما يدل على قوة السيل وسرعته التي جعلت الشجر يتساقط من دون أن يتمايل يمينا، أو شمالاً، أو حتى على أحد جانبيه.

(١) الديوان، ص ٣٣.

(٢) السابق، ص ٤٨، وكَبَّ الشَّيْءُ يَكْبُهُ، وكَبَّه: قلبه، (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ١، ص ٦٩٥).

٤- وصف الجيش والخييل

وصف "سحيم" جيش قومه في ثلاثة أبيات وصفًا تصويريًا موجزًا، أبرز بها قوة قومه، وشجاعتهم بقوله:

وَنَحْنُ جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ جَانِبِ الْغَضَى إِلَى أَنْ تَلَاقَتْ بِالرِّشَاءِ جُنُودَهَا
بِمَلْمُومَةٍ كَاللَّيْلِ رَعْنَاءَ فَخِمَةٍ وَرَقْرَاقَةً يُعْشَى الْعَيْونَ حَدِيدَهَا
إِذَا فَزِعُوا طَارُوا إِلَى كُلِّ نَهْدَةٍ وَأَجْرَدٌ نَهْدٌ مَا تَجِفُّ لُبُودَهَا^(١)

يصف الشاعر جيش قومه بالكتيبة المجتمعة التي تشبه الليل بسوادها وكثافتها وكثرتها، لها مقدمة كرعن الجبل كبيرة براقاة بالسلاح تغشى العيون بالخوف لمن يراها بسبب لمعان أسلحتها، وهنا نلاحظ أن الشاعر قد استخدم الفعل المضارع "تعشى" الدال على الاستمرار، ثم يصف هذا الجيش عند الفزع بسرعة الركوب على الخيل الضخمة المشرفة، والفرس القصيرة الشعر؛ حيث لم يجف شعرها من كثرة الغزو والغارات، وبالتالي لم تجف لبودها^(٢)، ولعل هذا الوصف يوحي بكثرة جيش قومه وقوته وفتكهم في المعارك بعدوهم؛ حيث وصفهم بالجبل والليل والبرق وسرعة العدو والكثرة، وكلها أوصاف تخيف العدو، فالجبل يدل على القوة، والليل يدل على الرهبة والخوف، وكذا البرق وسرعة العدو على خيول مدربة على الحرب في كل أوقاتها، وربما أراد الشاعر تشبيه الكتيبة بالليل؛ ليدل بهذا التشبيه على كثرة الغبار الذي تثيره حوافر الخيول، فتجعل النهار كأنه مظلم. و"أحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع"^(٣). كما نجد ذلك في وصف آخر للخييل يتقارب المعنى، حيث يقول:

وَلَمْ تَزَعْ الْخَيْلَ الْمُغِيرَةَ بِالضُّحَى عَلَى هَيْكَلِ نَهْدِ الْمَرَائِلِ أَجْرَدًا
طَوِيلِ الْقَرَا غَمْرِ الْبَدِيهَةِ لَاحَهُ طَرَادُ هَوَادِي الْوَحْشِ حَتَّى تَخْدُدَا

- (١) الديوان، ص ٤٩، ٥٠، يذكر الشاعر اليوم الذي كان لبني أسد على بني عامر؛ حيث قتل شريح يومئذ، وكان رئيس القوم، (ينظر: الديوان، ص ٤٩)
- (٢) واللبد ما يوضع تحت السرج، قيل ألبد الفرس، وضع اللبد على ظهره، ينظر: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، ص ٥٤٩.
- (٣) ابن رشيق القيرواني (ت ٥٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٥، ٥١٤٠١، ١٩٨١م، ص ٢٩٤.

يَرُدُّ عَلَيْنَا الْعَيْرَ مِنْ دُونِ الْفِهِ وَثِيرَانَ رَوْضَاتِ الْقَصِيمَةِ عُنْدًا^(١)

تتقارب هذه الأبيات مع الأبيات السابقة في وصف الشاعر لفرسه؛ حيث وصفه بالطول والضخامة، وقصر الشعر، وأضاف إلى ذلك طول ظهره، وكثرة جريه أثناء الصيد حتى غيَّره جريه إلى المتقدِّمات من الوحوش بكثرة الطرد مما جعله يهزل قليلاً، ثم يصفه بلحوق حُمِّ الوحش وردھا لدرجة أن الثيران الوحشية التي هربت في الرمال التي تثبت شجر الغضا؛ كان الفرس يردھا، حتى ذلك الثور الوحشي الذي كان يعاند لشدة سرعته كان يدركه الفرس، وقد استعان في ذلك بالكنايات دون التصريح، كقوله: (طَوِيلُ الْقَرَا، غَمْرُ الْبَدِيهَةِ، طِرَادُ هَوَادِي الْوَحْشِ).

وفي الحقيقة أن شاعرنا يكثر من وصفه للخيل بتصوير دقيق؛ فقد "يكون أكثر وصف الشعراء يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني، كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها"^(٢)، ف"أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصوِّر الموصوف فتراه نصب عينيك"^(٣)، ومن ذلك قوله:

وَخَيْلٌ تَكَدَّسُ بِالْأَدَارِعِ نَ مَشِي الْوَعُولِ تَوْمُ الْكِهَافَا
ضَوَامِرٌ قَدْ شَفَّهَنَّ الْوَجِي فُ يَثْرَنَ الْعَجَاجَةَ دُونِي صَفَافَا
تَقَدَّمَتْهُنَّ عَلَى مَرَجَل يَلُوكُ اللَّجَامَ إِذَا مَا اسْتَهَافَا
يُبَارِي مِنَ الصَّمِّ خَطِيئَةً مُقَوِّمَةٌ قَدْ أَمَرَّتْ ثِقَافَا^(٤)

في الأبيات السابقة يصور الشاعر الخيل بمشية الوعل، وذلك في السرعة؛ حيث يرمي الفرس بنفسه إلى الأمام مثلما يمشي الوعل، ثم يصفها بالضمير التي أهزلهن كثرة السير السريع؛ فيثار الغبار خلفها غير مصطف، ثم يكمل الشاعر وصفه في مسيرته

(١) الديوان، ص ٤٢.

(٢) قدامه بن جعفر (ت: ٥٢٢٧هـ)، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٣٠.

(٣) أبو هلال الحسن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبلاهي، دار إحياء الكتب العلمية، ط ١، ١٣٧١هـ، ١٩٥٢م، ص ١٢٨.

(٤) الديوان، ص ٤٥-٤٦.

مع هذه الخيل التي يتقدمها فرسه النشط كأنه يغلي مثلما يغلي القدر يلوك لجامه، وهو يطير في ركضه، وفرسه ينافس الرماح القوية المستقيمة،^(١) المنسوبة إلى بلدة الخط في البحرين، وهي قرية في البحرين مشهورة بصناعة الرماح^(٢)، وقد استعان الشاعر في هذا الوصف بتشبيه الخيل في مشيتها بمشي الوعل^(٣)، وهو تشبيه بليغ؛ لأن المعنى تكس كمشي الوعل، إلا أن الشاعر أسقط أداة التشبيه ووجه الشبه؛ لقوة الشبه بينهما، وهذا الشبه يعكس لنا في صورة بليغة قوة ذلك الفرس، وإقدامه من دون مهابة، وقامت تلك الأوصاف على الكنايات التي من شأنها إعمال الفكر، كقوله: (قَدْ شَفَّهَنَّ الْوَجِيفُ، يُثِرَنَّ الْعَجَاجَةَ، مِرْجَلُ يَلُوكُ الْجِجَامَ).

٥- وصف الناقة

تنوع الوصف عند "سحيم" بين الطبيعة والحيوان والمحبوبة، وكانت الناقة من أهم ما تناولها الشاعر في وصف الرحلة؛ حيث يقول:

فَدَعَ ذَا وَسَلَّ الْهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ جُمَالِيَّةٌ تُنْبِي الْقُتُودَ ضُلُوعُهَا
مُضْبِرَةٌ تَضْرِي إِذَا مَا زَجَرْتَهَا وَلَمْ يُثْنَنَّ إِذْ كَلَّتْ إِلَيْهَا قَطِيعُهَا
وَلَيْسَ لَهَا فَحْلٌ تَنْوُءُ لِرِزِّهِ وَلَا رُبْعٌ وَسَطَ الْعَشَارِ يَصُوعُهَا^(٣)

تخلص الشاعر - من مدح قومه بالشجاعة والكرم - بفعل الأمر (دع)، وهو أمر ليس على حقيقته، وإنما هو من قبيل التجريد، فهو جرد من نفسه شخصاً آخر يحدثه عن مآثر القوم، وما تتصف به ناقته في قوتها وشدتها التي تشبه البعير في خلقه، وتحمل خشب الرحل فوق جنبها بخلق طيب، وتضري الأرض من دون ضرب بسوط سواء أتعبت أم لم تتعب، فممشاها واحد، ثم يصفها بالوحدة؛ حيث ليس لها فحل تنهض لصوته، ولا عشار تدعوها فتؤثر على مسيرها في الرحلة، مستعيناً في ذلك كله بالكناية، ففي

(١) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، ص ٢٠٣.

(٢) الوعل: بفتح الواو، وكسر العين المهملة: الأروى... وهو النيس الجبلي، والأنثى تسمى أروية، وهي شاة الوحش، والجمع: أوعال ووعول، (كمال الدين محمد بن موسى الدميري (ت: ٥٨٠هـ)، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط ١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، ج ٤، ٢١٥)، التكدس أن يرمي بنفسه إلى قدام، وكذلك تمشي الوعول، (الديوان، ص ٤٥).

(٣) الديوان، ص ٥٢، ٥٤.

قوله: (جُمَالِيَّةٌ تُتَبَى الْقُتُودَ ضُلُوعُهَا) ، كناية عن وصفها بالقوة التي لا تقل عن قوة البعير الضخم، وفي قوله: (مُضَبَّرَةٌ تَقْرَى إِذَا مَا زَجَرْتُهَا) كناية عن السرعة والنشاط من دون زاجر لها.

٦- وصف الثور الوحشي

وفي وصف ناقته في رحلتها نجد الشاعر يتخلص من الحديث عن محبوبته، وينتقل إلى وصف الثور الوحشي والصيد بقوله:

فَعَزَيْتُ نَفْسِي وَاجْتَنَبْتُ غَوَايَتِي وَقَرَّبْتُ حُرْجُوجَ الْعَشِيَّةِ نَاجِيَا
مَرُوحًا إِذَا صَامَ النَّهَارُ كَأَنَّمَا كَسَوْتُ قُتُودِي نَاصِعَ اللَّوْنِ طَاوِيَا^(١)

في هذين البيتين يصف الشاعر رحلته على ناقته الطويلة السريعة مشبهًا إيّاها بالثور الوحشي؛ مستعينًا في ذلك بكثير من الألوان البلاغية التي تصور لنا المشهد، كما تصور لنا نهار سفره عليها في طولها وشدته حتى لكأن هذا اليوم الطويل الحار من شدة حره كأنه واقف.

ويصور ناقته بالثور الوحشي في تحملها وضمورها وسرعتها؛ مستعينًا في ذلك بالاستعارة المكنية، حيث "قد جاء الشعر الجاهلي صورة ناطقة بأهمية الصيد في حياة العرب، فكثرت في شعرهم ذكره وذكر حيوانه"^(٢).

وبعد أن استغرق الشاعر في وصف ناقته انتقل إلى وصف الثور الوحشي ووصف مبيته واعتراكه مع القناص وكلاب الصيد بقوله:

شَبُوبًا تَحَامَاهُ الْكِلَابُ تَحَامِيَا هُوَ الْلَيْثُ مَعْدُوًّا عَلَيْهِ وَعَادِيَا
حَمَتُهُ الْعِشَاءَ لَيْلَةً ذَاتُ قَرَّةٍ بَوَعَسَاءَ رَمَلٍ أَوْ بِحَزْنَانَ خَالِيَا
يَثِيرُ وَيُبْدِي عَن عُرُوقٍ كَأَنَّهَا عِنَّةُ خَرَّازٍ جَدِيدًا وَبَالِيَا

(١) الديوان ص ٢٨

(٢) ليلي سالم محمد بانبجي، الوصف في شعر عبد الله بن المعتز العباسي، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، ١٤٠٩/٥١٤٠٩م، ص ٢٦.

يُنَحِّي تَرَابًا عَنْ مَبِيتٍ وَمَكْنَسٍ
فَصَبَّحَهُ الرَّامِي مِنَ الْغُوثِ غُدُوَّةً
فَجَالَ عَلَى وَحْشِيَّهِ وَتَخَالَهُ
يَذُودُ ذِيَادَ الْخَامِسَاتِ وَقَدْ بَدَتِ
رُكَّامًا كَبَيْتِ الصَّيْدَانِي دَانِيَا
بَأَكْلِبِهِ يُغْرَى الْكِلَابَ الضَّوَارِيَا
عَلَى مَتْنِهِ سَبًّا جَدِيدًا يِمَانِيَا
سَوَابِقُهَا مِنَ الْكِلَابِ غَوَاشِيَا^(١)

إن هذا الثور الوحشي كبير بلغ عند الشاعر مبلغاً عظيماً من الشدة والقوة لدرجة أن كلاب الصيد تتحاشاه لقوته ومنعته، وتتقيه إن عدا عليها، ويتقيها إن عدت عليه، فحالهما كَرٌّ وفَرٌّ. ثم إن هذا الثور الوحشي قد بات في رمل "حزنان"^(٢)، وهو يحضر الأرض ليَكْتَنُّ فيه من البرد والمطر بحوافره الصلبة القوية، فيحضر عن عروق الشجرة، ويبعد التراب عن بيته الذي هو مدخل في الشجر يأوي إليه، ويُنَحِّي التراب فيجعله ركاماً مثلما يفعل الثعلب في بيته، ويضع لنفسه بيتاً آمناً.

وحين جاء الصباح يصور لنا الشاعر بأن الرامي يأتي إلى هذا المكان؛ لينال منه دون جدوى مع أن الرامي من قبيلة غوث التابعين لقبيلة طيء المشهورة بأن رجالها من أمهر الرماة.

وهنا أضفى الشاعر على تجربته الكثير من الصور فصي الضخامة والقوة شبهه بالليث تشبيهاً بليغاً؛ ليؤكد للسامع أنه لا فرق بينهما، فالليث هو ذلك الثور في ضخامته، والثور هو ذلك الليث في قوته، وحين وصف مبيته صور قوته التي تظهر عروق الشجر التي تشبه أعنة الخراز تشبيه محسوس بمحسوس؛ مستعيناً في ذلك بالتضاد في قوله: (جديداً وبالياً)، وهذا الطباق ليس المقصود منه مجرد التحسين والزينة في اللفظ، وإنما هو يفيد في هذا الموضع التأكيد على قوة هذا الثور الذي استطاع أن يتجاوز عروق الشجر الظاهرة ويصل بحوافره إلى العروق الطرية الرطبة المدفونة في باطن الأرض. وهنا يظهر قول صاحب العمدة: "إن الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل

(١) الديوان، ص ٢٩-٣٠.

(٢) حزنان: لغة: كالحزم، وهو ما غلظ من الأرض، وهو وصف، ثم عرف به مواضع كثيرة مضافة إلى سكانها، (ينظر: محمد موسى الحازمي (ت ٥٨٤هـ)، الأماكن، أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٥٤١٥هـ، ج ١، هامش، ص ٢٤٥).

إلى حصره واستقصائه، وهو مناسب للتشبيه... والفرق بين الوصف والتشبيه أن هذا إخبار عن حقيقة الشيء، وأن ذلك مجاز وتمثيل^(١).

ومن ذلك تشبيه الشاعر بيت الثور الذي استقر فيه بيت "الصيداني"^(٢) في شدته وإحكامه؛ حيث لا يستطيع الوصول إليه أحد، ويؤكد على معنى القوة قوله: (شَبُوبًا تَحَامَاهُ الْكِلَابُ تَحَامِيَا)، وقوله: (فَصَبَّحَهُ الرَّامِي مِنَ الْغَوْتِ غُدْوَةً)، قلما أن الكلاب الضواري لا تستطيع الوصول إليه، فكذلك المهرة من الصيادين لا يستطيعون الوصول إليه؛ لقوته ومنعته، فكلاب الصيد لا تجدي معه نفعاً، فهو ثور قوي يشبه ظهره الثوب اليماني في شدة بياضه، وهو لا يقصد بهذا الشبه نقل صورته لنا، وإنما يقصد دلالة على سمنه وقوته، وينقل لنا الشاعر دفاعه عن نفسه بصورة تشبيهية، وهو يذود زياد الإبل التي قد وردت الماء لخمس، وصاحبها يطردها؛ حتى لا تزدحم على الحوض؛ حيث يكون منعها شديداً لشدة عطشها، وهنا لا شك في أن الصورة تنقل لنا المشهد إلى واقع محسوس، "وقد اعتمد الشعراء في غالبية حديثهم عن البقرة الوحشية أو الثور الوحشي على البناء الدرامي القصصي، القائم على الصراع والشخص الذين تمثلوا في البقرة والصابئ وكلاب الصيد والسباع"^(٣).

٧- وصف المحبوبة

يعد وصف المحبوبة من الوصف الخارجي الذي تناوله "سحيم" في قصائده، وقد تنوع وصف المحبوبة عند الشاعر بين الوصف الجسدي الخَلْقِي كوصف الشعر والوجه والجيد وغيره، وهذا الوصف هو "الذي يقوم على التقاط الشبه الحسي بين ظاهرتين مختلفتين، وهو يعني باستحضار وتمثيل الملامح الخارجية للموصوف، وليس بالضرورة أن يعتمد على قوة الخيال والامتزاج العاطفي"^(٤)، والوصف الأخلاقي لمحبوبته الذي

(١) ابن رشيقي القيرواني (ت ٥٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، مصدر سابق، ص ٢٩٤.

(٢) الصيدناني: الثعلب (الديوان، ص ٢٩)، وقيل: الصيدناني: دويبة، قال أبو عبيد: تعمل لنفسها بيتاً في الأرض وتُعَمِّيه، ويقال: الثعلب، (ينظر: إسماعيل حماد الجوهري (ت ٥٩٢هـ)، الصحاح، مصدر سابق، ج٦، ص ٢١٥١، مادة: صدن.

(٣) حمد فهد جنبان القحطاني، المها في "حومل" عند الشعراء-دراسة تحليلية، مجلة جذور، من إصدارات النادي الأدبي الثقافي بجدة، العدد ٤٣، رجب ١٤٢٧هـ، إبريل ٢٠١٦م، ص ٥٧.

(٤) خديجة ابراهيمي، الوصف في شعر بشار بن برد، مرجع سابق، ص ١٦.

خرج فيه إلى توصيف اللقاء والحوار وتبادل المشاعر بينهما، وهو: "ما كانت الصورة فيه تعبر عن حالة نفسية من جهة، ومشهد حسي... وقد يقوم على وحدة التأثير النفسي بين فكرة في الذهن ومشهد في الحواس"^(١)، ومن الوصف الخلقى للمحبوبة قول الشاعر:

تُرِيكَ غَدَاةَ الْبَيْنِ كَفًّا وَمِعْصَمًا وَوَجْهًا كَدِينَارٍ الْأَعِزَّةِ صَافِيَا^(٢)

فهو يصف وجه محبوبته في استدارته وصفائه بالدينار مستعيناً في ذلك بأسلوب الشبه الذي يجمع بين المشبه والمشبه به ووجه الشبه والأداة، فهو شبه مكتمل الأركان يناسب وجه محبوبته المكتمل في جماله وصفائه، ثم يؤكد الشاعر على صفاء وجه محبوبته بتشبيهه تمثيلي في قوله:

فَمَا بَيْضَةُ بَاتِ الظَّلِيمِ يَحْفُهَا وَيَبْرَعُ عَنْهَا جُوجُؤًا مُتَجَافِيَا
وَيَجْعَلُهَا بَيْنَ الجَنَاحِ وَدَقِّهِ وَيُفْرِشُهَا وَحْفًا مِنَ الزَّفِّ وَافِيَا
فَيَرْفَعُ عَنْهَا وَهِيَ بِيضَاءُ طَلَّةٌ وَقَدْ وَاجَهَتْ قَرْنًا مِنَ الشَّمْسِ ضَاحِيَا
بِأَحْسَنِ مِنْهَا يَوْمَ قَالَتْ أَرَا حِلًّا مَعَ الرِّكْبِ أَمْ ثَاوِ لَدِينَا لِيَاثِيَا^(٣)

يصف الشاعر بيض النعام بصورة خيالية فريدة؛ حيث صور لنا ذكر النعام، وهو يحف البيض ويرفع عنه صدره، ويجعله بين جناحيه فارساً له ريشه؛ ليسكب عليه الدفء ويحميه من الهواء وحرارة الشمس، مصوراً لنا ذلك بكل الوسائل التي يفعلها ذلك الظليم لحمايته، وهو لا يهدف من تصويره هذه الحماية إلى وصف البياض، وإنما يهدف إلى الصورة التي وصل إليها وجه محبوبته في بياضه ونعومته وصفائه، وبدل على ذلك قوله: (بِأَحْسَنِ مِنْهَا يَوْمَ قَالَتْ أَرَا حِلًّا)، و"قد يكون تشبيه المرأة بالبيضة من قبل الملاسة والاستواء، وقد يكون رمزاً للخصوبة والتوالد، فالبيضة ترمز إلى الحياة المتجددة"^(٤).

(١) المرجع السابق، ص ٨.

(٢) الديوان، ص ١٨.

(٣) الديوان، ص ١٨.

(٤) سمر الديوب، الصورة الفنية عند شعراء البادية في عصر صدر الإسلام، أطروحة ماجستير، جامعة البعث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، ١٩٨٥، ١٩٩٨م، ص ٢٠٦.

وقد عرفت النعامة بشفقتها على حب بيضها ورأفتها به، فإذا "تركت بيضها وذهبت تلتمس الطعام، تجد بيضَ أخرى فتحضنه، وربما حضنت هذه بيض تلك، وربما ضاع البيض بينهما"^(١)، فربما قصد "سحيم" تشبيهه رأفة الظليم ببيضة النعام وحمائته وحنائته لها بجمال محبوبته وحنائتها ورأفتها به حينما سألته عن رحلته وبقائه.

عُمَيْرَةٌ^(٢) وَدَعَّ إِن تَجَهَّزَتْ غَادِيَا
جُنُونًا بِهَا فِيمَا اعْتَشَرْنَا عُلَالَةَ
لِيَالِي تَصْطَادِ الْقُلُوبِ بِفَاحِمِ
وَجِيدِ كَجِيدِ الرَّيْمِ لَيْسَ بِعَاطِلٍ
كَأَنَّ الثَّرِيًّا عُلِقَتْ فَوْقَ نَحْرِهَا
إِذَا انْدَفَعَتْ فِي رَيْطَةٍ وَخَمِيصَةٍ
كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا
عَاقِلَةً حُبِّ مُسْتَسِرًّا وَبَادِيَا
تَرَاهُ أَثِيثًا نَاعِمَ النَّبْتِ عَافِيَا
مَنْ الدَّرُّ وَالْيَاقُوتُ وَالشَّدْرُ حَالِيَا
وَجَمْرٌ غَضِيٌّ هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ ذَاكِيَا
وَلَاثَتْ بِأَعْلَى الرَّدْفِ بُرْدًا يَمَانِيَا^(٣)

يريد الشاعر أن يكون عفيفاً في وداع محبوبته، إن لم ينهه عن فعل ذلك حبه ووفاءه لمحبوبته كفاه الشيب والإسلام رادعاً. فهو محبُّ لها إلى حد الجنون وظل يقرب هذا الحب بين جوانحه زماناً طويلاً يخفيه تارةً ويبيديه أخرى.

وقد وصف الليالي التي كان يقضيها معها مقرناً ذلك بشعرها الأسود الناعم الكثيف، معبراً عن ذلك بطريقة الكناية، ويبدو أن الشاعر لم يترك شيئاً في محبوبته إلا وصفه، فقد بدأ برأسها حيث وصف شعرها بالنعومة والكثرة؛ لينتقل منه إلى وصف جيدها من دون فاصل، فيقول: (وجيد كجيد الريم)؛ حيث شبه جيدها بجيد الريم حال كونه ليس بعاطل؛ لأن اللآلي والياقوت تزينه، وتشبيه جيدها بجيد الريم كناية عن

(١) عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٢، ١٢٨٥هـ،

١٩٦٦م، ج ٤، ص ٣٢٨.

(٢) عُمَيْرَةٌ: تصغير عَمْرَةٍ، وعمرة: مؤنث عَمْرٍ، واحد العمور، وهي أصول الأسنان والأضراس، وكانت صاحبة سحيم التي شغف بها اسمها غالبية، وهي من أشرف تميم بن مُرٍّ، ولم يتجاسر على ذكر اسمها، (الديوان، ص ١٦).

(٣) الديوان، ص ١٦، ١٧، ١٨.

جمال هذه المرأة ورشاقتها؛ لأن "الريم"^(١) هو الظبي الخالص البياض جميل الشكل رشيق القوام خفيف الحركة.

ثم يصف نحرها وقد علقت عليه الزينة بتشبيه تمثيلي يصور هذا الجيد بجمر الغضى الذي هبت عليه الريح، فأصبح ذاكياً لامعاً، وربما عكس هذا التصوير شدة الحب ولهفة الشوق الذي رمز إليه بالحنية، والحرارة التي يعكسها جمر الغضى في شدة الإشتعال وقوة الحرارة، ثم ينتقل من وصف جيدها ونحرها إلى وصف جسدها المزين بالثياب الفخمة، فيصفها بأنها تلف فوق ردفها برداً يمانياً؛ ليجمع بهذا الوصف بين زينة الحلي وزينة الثياب. فالوصف هو "ذاك النوع من الفن الذي يأخذ العاطفة من قلب الشاعر فيرسم بها هيئات الموصوف"^(٢).

وفي موضع آخر يقول في وصف محبوبته:

أَلَمْ خَيَالٌ عَشَاءٌ فَطَافَا وَتَمَّ يَكُ إِذْ طَافَ إِلَّا اخْتِطَافَا
وَمَا دُمِيَّةٌ مِنْ دُمَى مَيْسَنَا نَ مُعْجِبَةٌ نَظَرًا وَاتِّصَافَا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا غَدَاةَ الرَّحِي لَ قَامَتِ تُرَائِيكَ وَحَفَا غَدَا
وَجِيدًا كَجِيدِ الْغَزَالِ النَّزِي فِ يَأْتَلِفُ الدُّرُّ فِيهِ ائْتِلَافَا
وَعَيْنِي مَهَاةَ بَسَقَطِ الْجَمَا دَ تَعَطَوُ نَعَافًا وَتَقَرُّو نَعَافَا
وَبِيضًا كَأَنَّ حَصَا مُزْنَةَ تَهَادَى بِهِ صَرَّخِدِيًّا رِصَافَا
كَأَنَّ الْقَرْنَفَلَ وَالزَنْجَبِي لَ وَالْمِسْكَ خَالَطَ جَفْنَا قَطَافَا
يُخَالَطُ مِنْ رِيْقِهَا قَهْوَةً سَبَاهَا الَّذِي يَسْتَبِيهَا سُلَافَا
بَعُودٍ مِنَ الْهِنْدِ عِنْدَ التَّجَا رَ غَالٍ يُخَالَطُ مَسْكَ مُدَافَا
يُخَالَطُهُ كُلَّمَا ذُقْتَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَرَدَتْ اِرْتِشَافَا
وَأَبَدَتْ مَعَاصِمَ مَمْكُورَةً تَزِينُ أَنْامِلَهُنَّ اللَّطَافَا^(٣)

(١) الرِّيمُ: الظَّبِّيُّ الأَبْيَضُ الخَالِصُ البَيَاضِ، (ابن منظور، لسان العرب، م١٢، ص ٢٦٠، مادة ريم).

(٢) فؤاد أفرام البستاني، الشعر الجاهلي - نشأته - فنونه - صفاته، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٧م، ص ٣٧.

(٣) الديوان، ص ٤٢، ٤٣، ٤٤.

يقول "سحيم" إن خيال محبوبته قد زاره زيارة، مصوراً جمالها الفاتن الذي لا يفوقه شيء حتى دمي "ميسنان"^(١) التي يضرب بها المثل عندهم في الجمال، بجمالها في صورتها وصفاتها، فعند قيامها يظهر شعرها الأسود الفاحم، ثم يشبه جيدها في زينته بجيد الغزال حال كونه ينزف دمًا، ووجه الشبه بينهما هو البياض الذي تخالطه حمرة، ثم يصور الشاعر عينيها الواسعتين الجميلتين مشبههما بعيون المها حال كونها تتناول أوراق الشجر من الجبال والنعاف، فهو لا يشبه عيونها بعيون المها على إطلاق، وإنما قيده بكونه وقت التقاط أوراق الشجر المرتفعة حين ترمقه بعينها أو حين تلتقط النبات الصغير، وهي تنظر إلى أسفل. ثم يشبه بياضها بالثلج المتساقط من الغيم، تتهادى به مياه صافية في أرض حجرية، ف"وصف المرأة بالبياض، كان يعيدها مباشرة إلى الشمس والزهرة، وتشبيهها بالبيضة والدرة والمهابة ليس المراد به مجرد اللون، بل إننا لنلمح صفات أهم تنتقل عبر اللونين، أهمها .. الخلود"^(٢)، والبياض هنا "ليس تأكيداً للون صاحبه فحسب، بل هو تأكيد لرغبة الشاعر العميقة التي تفضل هذا اللون في المرأة التي يجب، بالإضافة إلى أن الشاعر أعطى هذه الفتاة صفات أخرى تصوّر مدى جمالها، فالبياض بحد ذاته لا يشكل جمالاً إذا لم ترافقه أشياء أخرى"^(٣)، مثل تشبيهه روائح القرنفل والزنجبيل التي خالطت العنب، والمقصود أن رائحتها وريقها قد خالط الخمر، وأضيف لهما روائح العود الهندي الممزوج بالمسك، ثم تصوير معاصمها الممتلئة التي تزين الأنامل اللطاف لهؤلاء النسوة.

وقد تكرر من الشاعر وصف محبوبته بالدمى فيقول:

وَلَمْ تَلْهُ بِالْبَيْضِ الْكَوَاعِبِ كَالدُّمَى زَمَانًا وَلَمْ تَقْعُدِ مِنَ الْأَرْضِ مَقْعَدًا^(٤)

- (١) ميسنان: بزيادة نون أخرى بين السين والألف، وهو موضع ينسب إليه ضربٌ من الثياب الجياد.. وقد نسب إليه سحيم العبد جيد الدمى، (ينظر: أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي) ت: ٤٨٧هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ج ٤، ص ١٢٨٤)، وقيل: ميسنان: موضع بالشام، (الديوان، ص ٤٢) .
- (٢) ينظر: إبراهيم محمد علي، اللون في الشعر العربي قبل الإسلام- قراءة ميثولوجية، مرجع سابق، ص ١٢٧.
- (٣) أمل نصير، صورة المرأة في الشعر الأموي، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ٧٢.
- (٤) الديوان، ص ٤٢.

يقول كأنك لم يجمعك اللهب بالنساء البيض الجميلات في زمن فأتت، و" سياق المرأة ربما كان ألصق السياقات بالبيض ذلك أن هذا اللون قد اكتسب كثيراً من التعلق بأجواء الصفاء والإشراق والحب"^(١)، وفي موضع آخر يقول:

لَهْنِدٍ وَأَتْرَابٍ لَهَا شَبَهُ الدُّمَى يَصِدْنَ فَمَا يَنْجُو لَهْنٌ سَلِيمٌ^(٢)

حيث شبه "سحيم" هؤلاء النساء بالتماثيل الجميلة التي تتوافر فيها أرقى مقاييس الجمال الجسدي.

كما تكرر وصف محبوبته بالدمى تكرر كذلك وصف ريقها، في قوله:

كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا بَعْدَ هَجْعَةٍ مِنْ اللَّيْلِ نَامَتَهَا سُلافاً مُبَرِّداً
سُلافاً دَنُّ أَوْ سُلافاً ذَارِعٍ إِذَا صَبَّ مِنْهُ فِي الزُّجَاجَةِ أَزْبَداً^(٣)

هنا يقول الشاعر إنها بعد أن تنام قليلاً من الليل، ثم تستيقظ من نومتها يكون ريقها مثل السلاف الذي هو أول ما يسيل من عصير العنب، وقد أراد أن يقول إن ريقها يشبه الخمر الباردة.

وهذه السلافة من وعاء خمر كبير أو ما يشبه الجرة الطويلة، فإذا صب في الزجاج تكون مثل الزبد في تلك الزجاج، فهو يقول إن ريقها يسكره، وقد استخدم الشاعر أداة التشبيه (كأن) دون غيرها من أدوات التشبيه؛ ليؤكد على قوة التشبيه بين ريقها وبين السلاف الذي وصفه.

ثانياً- الوصف الداخلي النفسي:

لم يكتف "سحيم" بالوصف الخارجي للمحبوبة، أو وصف الحيوان من خيل وناقة وثور وحشي، أو وصف الصياد، ولم يكتف بوصف الطبيعة من ريح وبرق ومطر - بحسب ما بيّنا في المبحث الأول- وإنما اتجه "سحيم" إلى الوصف الداخلي النفسي من خلال

(١) محمد عبد المطلب، شاعرية الألوان عند امرئ القيس، مجلة فصول القاهرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، م، ٢٤، ١٩٨٥، ص ٥٩.

(٢) الديوان، ص ٣٧.

(٣) الديوان، ص ٤٠.

الوصف اللوني من سواد وبياض، ووصف القهر والعذاب من سجن وجلد وعبودية وترقب الموت والإحساس بالقتل، وأيضاً وصف الحب والشوق والحرمان، ومما لا شك فيه أن تلك الآثار النفسية المنعكسة على الشاعر، هي نتاج انفعالات من الواقع الذي يعيشه، والمؤثرات البيئية التي تحيط به.

ويسمى بالوصف الوجداني حيث إن الصورة يصف فيها الشاعر ذاته من خلال الأشياء... ويتأثر تأثراً قوياً بقلق وتعصب الإنسان الذي يعتريه كثير من التساؤل أمام مفاهيم الكون وحدوده^(١)

١ - الدلالة اللونية

يعد اللون من المؤثرات الذاتية لدى الإنسان، وهناك دلالات رمزية يعبر كل لون عن شيء ما، ربما يتفق عليه وقد يختلف. ف"التأثير النفسي للون أمرٌ مألوفٌ، أقرّه العلم، وأثبتته التجربة الإنسانية، ولما كان الأدب جزءاً من تلك التجربة؛ فإنه لم ينفصم عن مقدماتها ولا عن نتائجها، وأصبح مما لا شك فيه أن للألوان قيمةً فنيةً ونفسيةً جليلةً في مجال الأدب"^(٢)، ويأتي اللون بوصفه لغة خاصة تعبّر عن عوالم شعرية وسيعة... يكون الباب إليها هو الاختيار اللوني الخاص الذي يعمد إليه الشاعر^(٣).

وقد استخدم "سحيم" عدداً من الألوان في شعره، وكان لكل لون دلالة معنوية ودلالة نفسية، مثال ذلك قوله:

فَلَوْ كُنْتُ وَرْدًا لَوْنُهُ لَعَشَقْتَنِي^(٤)

فهو يقول إنه لو كان ذا لون أحمر مائل إلى الصفرة؛ لعشقتة النساء لجمال هذا اللون، ويستخدم "سحيم" لفظة (اللون)، في قوله:

مَاذَا يُرِيدُ السَّقَامُ مِنْ قَمَرٍ كُلُّ جَمَالٍ لَوَجْهِهِ تَبَعُ

(١) خديجة ابراهيمي، الوصف في شعر بشار بن برد، مرجع سابق، ص ١٧.

(٢) يونس شنون، اللون في شعر ابن زيدون، منشورات جامعة اليرموك، إربد، ١٩٩٩م، ص ١٠٥.

(٣) السابق، ص ٣١.

(٤) الديوان، ص ٢٦.

غَيْرَ مِنْ لَوْنِهَا وَصَغَرَهَا فَزِيدَ فِيهِ الْجَمَالُ وَالْبَدَعُ^(١)

هذه صورة لونية بديعة، يقول "سحيم" ما الذي يريد المرض من قمر جميل، يتبع وجهه كل جمال موجود؟.. إن هذا المرض قد غيّر من لون الحبيبة، وأنحل جسمها، لكن ذلك لم يؤد إلى قبحها، بل زادها جمالاً وإبداعاً.

كما نجده يستخدم اللون الذهبي في وصفه الخاتم^(٢)، واللون الأشقر في وصفه الفجر^(٣)، لكن في هذين المثالين تخلو الدلالة النفسية بينما يظهر التأكيد على الصورة الجمالية ذاتها.

لونان سائدان / الأسود.. والأبيض

تعددت الألوان في شعر "سحيم"، ولعل اللونين الأسود والأبيض الأساسيان في التعبير عند الشعراء؛ حيث يرى كثير من علماء الألوان أن الأسود مع الأبيض هما أول لونين وضعت لهما أفاضل في معظم لغات العالم^(٤)، والأبيض والأسود لونان متناقضان؛ يمثل أحدهما القوة والآخر الضعف؛ ولذا فإن الجمع بينهما يشير إلى الشمول والإحاطة^(٥)، ولكل منهما دلالاته المعنوية ودلالاته النفسية وإيحاءاته. وقد استخدم "سحيم" هذين اللونين بكثافة في شعره، ومن الطبيعي أن يكون استخدامه للأسود أكثر من استخدامه للأبيض، فقد عانى من سواد بشرته، وفي ذلك يقول:

رَأَتْ قَتَبًا رَثًّا وَسَحَقَ عَبَاءَةً وَأَسْوَدَ مِمَّا يَمْلِكُ النَّاسُ عَارِيًا^(٦)

لم يقل عبداً أسود، وإنما قال (أسود.. مما يملك الناس) فإن كلمة العبودية كانت ثقيلة على نفسه، ولم يذكرها إلا في حالة تحقير، فهو يدرك أنه يفقد الكثير بسبب سواد بشرته، ومن ذلك قوله:

(١) الديوان، ص ٥٤.

(٢) انظر: الديوان، ص ٢٦.

(٣) انظر: الديوان، ص ٢٧.

(٤) إبراهيم محمد علي، اللون في الشعر العربي قبل الإسلام - قراءة ميثولوجية، دار جرجوس، (د.ت) ص ١٦٥.

(٥) أمل محمود عبد القادر أبو عون، اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي - شعراء المعلقات نموذجاً، أطروحة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، قسم اللغة العربية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٣م، ص ٩١.

(٦) الديوان، ص ٢٥.

فَلَوْ كُنْتُ وَرَدًا لَوْنُهُ لَعَشَقَنِي وَلَكِنْ رَبِّي شَانِي بِسَوَادِيَا^(١)

والسواد متعمق في نفسه يقاسي منه ويعاني، وهو يعايشه مضطراً، وتطارده ملحقات السواد من صفات وأفعال. حيث استخدم "سحيم" صفة الزعانف والزعانف: السُّودُ القِصَارُ واحدهم: زِعْنَفَةٌ^(٢) فقال:

أَلَمْ تَعَلَّمُوا أَنَا فَوَارِسُ نَجْدَةٍ إِذَا خَامَ فِي الْهَيْجَا الضِعَافُ الزَعَانِفُ^(٣)

يعلن "سحيم" بأنهم الفرسان الذين يجدون من يستغيث بهم في الشدة إذا جبن وتقاعس السود القصار قاصداً تحقيرهم، وهنا دلالة على شجاعتهم، وقوة بأسهم.

ويستخدم صفة (أسحم) فيلحقها بالغيوم^(٤)، كما استخدم الأسود فعلاً حين استخدم الفعل اَرَبَدْتُ، أي: اَسْوَدْتُ^(٥). كما استخدم صفة السمرة في وصفه لجميلين قوين جاء عليهما غلاماً أم عمرو، أحدهما أحمر اللون، والثاني آدم اللون، أي: أسمر اللون^(٦). وفي الصفتين الأخيرتين والفعل دلالة جمالية على تصوير سحيم الوصفي، والتي تخلو من دلالات نفسية تنعكس على ذاتيته.

وكان أبو مَعْبَدٍ جَنْدَلٌ قد خرج بـ "سحيم" إلى السلطان بالمدينة، فسجنه وضربه ثمانين سوطاً، ثم خرج به راجعاً إلى بلاده، فقال "سحيم" ذاكراً العبودية:

أَبَا مَعْبَدٍ بئسَ الفَرَاضَةُ لِفَتَى ثمانونَ لَمْ تَتْرَكَ لِحِلْفِكُمْ عَبْدَا^(٧)

وبالرغم من كل معاناته من سواد بشرته إلا أنه أحياناً يميل إلى التفاوض مدافعاً عن نفسه عالية الهمّة؛ حيث لا يضيرها لونها الأسود، فيقول:

(١) الديوان، ص ٢٦.

(٢) الديوان، ص ٥١.

(٣) الديوان، الصفحة نفسها.

(٤) انظر: الديوان، ص ٤٩.

(٥) انظر: الديوان، الصفحة نفسها.

(٦) انظر: السابق، ص ٦١.

(٧) السابق، ص ٦٦.

لَيْسَ يُزْرَى السَّوَادُ يَوْمًا بَدَى الدُّبُّ وَلَا بِالْفَتَى اللَّيْبِ الأَدِيبِ
إِنْ يَكُنْ لِلسَّوَادِ فِي نَصِيبٍ فَبِأَيُّ الأَخْلَاقِ مِنْهُ نَصِيبِي^(١)

جمع الشاعر هنا بين سواد البشرة وبياض الأخلاق مقارناً بينهما، مؤكداً أن سواد بشرته لا يقلل من قيمته ولا يشينه ما دام فتى عاقلاً أديباً.

بل إنه يذكر العبودية، ويذكر لونه الأسود، ويقول إن هذا السواد ليس له قيمة في الحكم عليه ما دام إنساناً صاحب أخلاق كريمة وصفها بالبياض أيضاً، "وهنا نوع من المواجهة الذاتية؛ إذ يحاول أن يواسي نفسه، فيوهمها بما يعوّض النقص الذي يعترها.. فيقابل بين العبودية والحرية، وبين سواد اللون وبياض الأخلاق"^(٢)، وهذه الصورة "تقوم على الترتيب المنطقي بين المتضادات، وتكشف عن مركب النقص لديه"^(٣)، وذلك في قوله:

إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَمًا أَوْ أَسْوَدَ اللّوْنِ إِنِّي أَبْيَضُ الخُلُقِ^(٤)

هكذا قرن "سحيم" بين السواد والبياض في بعض أبياته، لكنه في أبيات أخرى ذكر البياض وحده سواء أكان ذلك بالتصريح أم بالكناية؛ فتجده يصور النساء الكواعب بالتماثيل الجميلة^(٥)، ويرمز لهن بالبياض مرة^(٦)، وأخرى بالبييض^(٧).

ويستخدم الشاعر "سحيم" ملحقات البياض من الشيب الذي يتجلى في بياض الشعر ويدل على معانيه الشعر الذي أبيض مع مرور السنين؛ حيث يقول سحيم:

- (١) الديوان، ص ٥٤، ٥٥.
- (٢) رباح عبد الله علي، مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي، أطروحة ماجستير، جامعة تشرين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، د.ت، ص ٤٩، ٥٠.
- (٣) سمر الديوب، الصورة الفنية عند شعراء البادية في عصر صدر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٧٠.
- (٤) الديوان، ص ٥٥.
- (٥) انظر: السابق، ص ٤٢.
- (٦) انظر: الديوان، ص ٤٤، وانظر: الديوان، ص ٦٢.
- (٧) انظر: الديوان، ص ٥٢.

فإِذَا تَرَيْنِي عَالَنِي الْمَشِيءِ بٌ وَأَنْصَرَفَ اللَّهُ عَنِّي أَنْصِرَافًا^(١)
واستخدم "سحيم" اللون الأبيض صفة للثياب؛ حيث استخدم السب اليماني،
والسب نوع من الثياب البيض^(٢).

ونلاحظ مما سبق أن الشاعر لم يذكر اللون الأسود ذكرًا مفردًا صريحًا، وإنما
يقابله باللون الأبيض، وكأنه يفر من ذكر اللون الأسود مجردًا، ذلك نظرًا للون بشرته
بل إنه في بعض الأحيان يحوّل لنا اللون الأسود إلى لون نعشق منه صفاته، وذلك في
مقابلة سواد اللون ببياض الخلق.

كما نلمح في مبحث الوصف اللوني بعض الإشارات الدالة التي انعكست على طبيعة
الشاعر الاجتماعي، فوصف اللون صراحة مرة، فانعكست العبودية على لونه الأسود،
ومرة أخرى وصفها عن طريق الكناية لترك أثرًا دلاليًا على نفسه.

لكن هناك دلالات لونية كثيرة غير ذلك أراد بها الشاعر تأكيدًا فلسفيًا على
تصويره دون التعبير على آثار نفسية عليه؛ فاللون فيها لم يكن ظاهرة عند الشاعر
يهدف من ورائها تصوير علاقة نفسية حالة، بل إحداث دلالة جمالية من خلال الحديث
عن المحبوبة وجمالها، ووصف الجمل، ووصف الثياب، وكنايته عن النساء بالبيض،
وتشبيهه لهن بالدمى وغير ذلك.

وقد جرى هذا الوصف دون توسع أو إطالة، وربما كان هذا مقصودًا لدى الشاعر
حتى لا يشغل حيزًا لغويًا كبيرًا يثير أزمة نفسية خاصة بلون السواد الذي يضعه الشاعر
في مخيلته دائمًا.

٢- وصف القهر والعذاب

وصف "سحيم" مشاعره وما يتحرك في نفسه من أحاسيس مصورًا القهر والعذاب
والمعاناة التي تعرض لها، واصفًا حاله في السجن، وتحت سياط الجلاد، وما قاساه من
عبودية، وما شعر به من اقتراب الموت وإحساسه بأنه مقتول، فنجدّه يصور إحساسه

(١) الديوان، ص ٤٥.

(٢) انظر: الديوان، ص ٢٧، وانظر: ص ٣٠.

بالقهر في غياهب السجن والشدة قائلاً:

فإن تحبسوني تحبسوا ذا وليدة
وإن تطلقوني تطلقوا أسداً ورداً
وما الحبس إلا ظل بيت سكنته
وما الجلد إلا جلدة قارنت جلداً^(١)

والأسد الورد هو الأسد الأحمر. إنه هنا يهون على نفسه السجن من ناحية والضرب بالسوط من ناحية أخرى، فهو قد جعل السجن وهو المكان المعادي - بالتأكيد - مكاناً أيضاً، فكان سكناً له حين عاش فيه فترة من الزمن، أما الجلد فهو مجرد جلدة من السوط تلاقت مع جلد جسمه، هكذا سَفَّهُ "سحيم" ما يفعلونه به من حبس وضرب بالسياط، بالرغم من أن الحبس يؤلمه بالتأكيد، وكذلك الجلد، لكنه أبدى عدم اهتمامه بذلك.

إن الشاعر هنا قد انطلق من قوته التي منحه إياها شعره فأعطاه المكانة التي تعوّضه عن كرم الأصل وعن الثراء أيضاً، ويتضح ذلك في قوله:

أشعارُ عبدِ بني الحساسِ قمنَ له
يَوْمَ الفَخارِ مقامَ الأصلِ والورقِ^(٢)
وهو يعتز بأنه ذا نفس حرة كريمة؛ حيث يقول:

إن كنتُ عبداً فنفسِي حُرَّةٌ كَرَمًا
أو أسودَ اللونِ إنِّي أبيضُ الخُلُقِ^(٣)
وقد قرن "سحيم" بين الحب والعذاب، فإن الحبيبة هي التي تعذبه، وفي ذلك يقول:

المالُ مالُكم والعبدُ عبدُكم
فهل عذابِك عني اليومَ مصروفُ^(٤)

يتضح هنا القهر والإحساس بالعبودية ومعاناة العذاب، وقد قال ابن الأعرابي: عَرَضَ "سحيم" على عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال عبد الله بن أبي ربيعة

(١) الديوان، ص ٥٧، وقد ورد هذان البيتان بصياغة أخرى في صفحة ٦٦.

(٢) الديوان، ص ٥٥.

(٣) السابق، الصفحة نفسها.

(٤) الديوان، ص ٦٢.

المخزومي - وكان عاملاً لعثمان على الجند-: "إنه شاعر يُرغب في مثله، فقال: لا حاجة لنا فيه؛ لأنه إن شيع شبيب بنساء أهله، وإن جاع هجاهم" (١).

وصدق عثمان -رضي الله عنه، فقد قتل "سحيم" بسبب تغزله في امرأة جندل وفي غيرها، حيث يقول:

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى جَنْدَلًا خَابَ جَنْدَلُ عَلَى مِثْلِهَا وَالظَّنُّ يُخْطِئُ وَيُخْلَفُ
أَعَالِي إِنْ تَنَأَى فَمَوْعِدُ بَيْنِنَا وَبَيْنَ الْمَنَائِي مَرَّرْ رَثِيثَ يَخْدَفُ
أَعَالِي قَدْ بَاحَ الْمُجْمَعُ فَاعْلَمِي عَلَى رَغَمِ أَنْفِ تَكْتُ وَتَرْعُفُ
فَلَوْ أَوْقَدُوا نَارًا تُحَسُّ بِسَاعِدِي وَكَفَى مَا أَقْلَعْتُ مَا دُمْتُ أَطْرَفُ (٢)

فقد تغزل بإمرأة جندل وعرض بجندل كذلك مصرحاً باسمها منادياً لها (أعالي) مكرراً ذلك، وفي التكرار دلالة واضحة، فهو يتلذذ بذكر محبوبته، وأقسم بأنه لن يترك أمرها، ولو أوقدوا ناراً تحض ساعده وتحرق كفه، فإنه لن يترك ذلك ما دام حياً يرمش له طرف جفنه، وهذا تصوير طريف.

فلما سمع القوم شعره هذا جمعوا له حطباً كثيراً، وقرروا قتله فأوثقوه كتأفاً، وقرّبوه من نار كانوا يصطلون عندها، وجعلوا يحملون عيدان العرفج الرطب ويضربونه (٣).

وكان القوم حين عزموا على قتل "سحيم" قد جمعوا حطباً كثيراً كما أسلفنا، وجعلوا هذا الحطب في حظيرة ضخمة (٤)، ثم أوثقوه برجله ويده، ثم أدخلوه الحظيرة، وأرسلوا النار في الحطب، فسمع وهو يقول:

لَعَمْرُ أَبِي الْمَذْكُورِ وَالْمُضْرَمِ الَّذِي يَشْبُ وَلَا يَأْلُو عَلَى جَهَنَّمَا

(١) الديوان، ص ٥٥، وينظر: ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٢٨٦هـ، ١٩٦٧م، ج ١، ص ٤٠٨، وينظر: أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٢١٢هـ، ١٩٩٢م، ص ١٤١.

(٢) الديوان، ص ٦٤.

(٣) السابق، ص ٥٨، ٥٩.

(٤) الحظيرة ما أحاط بالشئ، وهي تكون من قصب وخشب، ينظر: لسان العرب، م ٤، ص ٢٠٢.

لئن ورثوها^(١) مُشعلين لربما جَعَلْتُ لَهُمْ فَوْقَ الْعَرَانِينَ مِيسَمًا^(٢)

يقول "سحيم" إنه ترك علامة العار على أنوفهم بتعامله مع نسائهم، فإشعال النار فيه وإحراقه لن يزيل ما لحق بهم من عار، وهو يدرك حقيقة الموت.

هناك صفات مهمة في "سحيم" يمكننا أن نجعلها في نقطتين أساسيتين، جعلتا منه رجلاً قادراً على مقاومة أزمة العبودية في نفسه؛ وهما:

أ- لهوه ومجونه

كان النساء يهوينه بالرغم من أنه عبد أسود، ولعل في أسماء النساء، وحكاية كل منهن معه^(٣)، ما يدل على كثرتهن، فهناك من يحبها، وهناك من أتهم بها، هؤلاء وغيرهن قد جعلن منه رجلاً واثقاً بنفسه، فكادت تغطي هذه الثقة على إحساسه بالعبودية، بل إنه يرغب - أحياناً - في العبودية كي يكون قريباً ممن يهواها، فيقول:

وددتُ على إبغاضي الرِّقَّ أنني^(٤) أَكُونُ لِأَجْمَالِ ابْنِ أَيْمَنَ رَاعِيَا
وَفِي الشَّرْطِ أَنِّي لَا أَبَاعُ وَأَنْهُمْ يَقُولُونَ غَبُّقُ يَا عَسِيفُ الْعَدَارِيَا^(٥)

وهو لا يتوب عن الفحشاء حتى بعد العقاب، فحين شَبَّبَ بنساء بيت سيده أبي مَعْبَدٍ جَنْدَلٍ وخرج به إلى سلطان المدينة فضربه ثمانين سوطاً عاد "سحيم"، وهو يقول:

أَبَا مَعْبَدٍ وَاللَّهِ مَا حَلَّ حُبِّهَا ثَمَانُونَ سَوْطًا بَلْ تَزِيدُ بِهَا وَجَدًا^(٦)

فهو مصمم على الاستمرار في حب من يعشقها وتعشقه، وقد جاءت أسماء نساء كثيرات في أشعار "سحيم" التي تضمنها ديوانه.

(١) ورثوها: أوقدوها.

(٢) الديوان، ٦٥.

(٣) ينظر: الديوان، ص ٥٩، المقطوعة الأولى والمقطوعة الثانية، وينظر: الديوان، ص ٦٠، المقطوعة الأولى والمقطوعة الثانية، وينظر: الديوان، ص ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٧، ٢٨.

(٤) ويروي: فَيَا لَيْتَنِي مِنْ غَيْرِ بَلْوَى تُصِيبُنِي.

(٥) الغُبُوقُ: شَرِبُ العَشِيِّ، والعَسِيفُ: الأجير، (انظر: الديوان، ص ٥٦، ٥٧).

(٦) السابق، ص ٦٦.

وقد لا يكون تصويره في التغزل بنساء قومه، وذكرهن بالفحش والفجور صحيحاً؛ ولكن ليفيظ القوم، وينكد بهم، ويركب عليهم العار؛ لعدم قبولهم إياه، ورفضهم له، وعدم الرضاء عنهم، ويؤكد ذلك رفض النساء له، وعدم قبوله في قوله:

أَتَيْتُ نِسَاءَ الْحَارِثِيِّينَ غُدُوَّةً بَوَجْهِ بَرَاهُ اللَّهُ غَيْرَ جَمِيلٍ
فَشَبَّهَنِي كَلْبًا وَلَسْتُ بِضَوْقِهِ وَلَا دُونَهُ أَنْ كَانَ غَيْرَ قَلِيلٍ^(١)

ويذكر استهجان المرأة له، وسخريتها منه في موضع آخر:

أَشَارَتْ بِمَدْرَاهَا وَقَالَتْ لِتَرْبِهَا أَعْبُدْ بَنِي الْحَسْحَاسِ يَزْجِي الْقَوَافِيَا
رَأَتْ قَتْبًا رَثًّا وَسَحَقَ عَبَاءَةً وَأَسْوَدَ مِمَّا يَمْلِكُ النَّاسُ عَارِيَا^(٢)

فنساء القوم يتعالين عليه ويحتقرونه؛ لأنه دونهن والبيئة القبلية تتعالى على العبيد، ومما لا شك فيه أن مثل ذلك يؤثر في نفسه، ويجعله ينتقم برمي نساء القوم بالعهر والفحش، مما يطفى لهيب عبوديته واحتقارهم له، والشعراء يقولون ما لا يفعلون.

شاعريته

يشعر "سحيم" أنه يقاوم العبودية بشعره؛ لأنه سوف يخلد اسمه على الملأ إلى الأبد، وفي يوم الفخر تكون أشعاره كافية وشاهدة له، فشعره من وجهة نظره يقوم مقام الأصل العريق والحسب والنسب والمال، وذلك في قوله:

أَشْعَارُ عِبْدِ بَنِي الْحَسْحَاسِ قُمْنَ لَهُ يَوْمَ الْفَخَارِ مَقَامَ الْأَصْلِ وَالْوَرَقِ^(٣)

وتشهد الأشعار التي قالها في الموقف الأخير قبل موته بأنه كان غزير الإنتاج كثير القول في الشعر، فهو يهاجم من ضحكت شامته به، ويشير لمن اتهموه بها، ويقول للقوم أن يشدوا وثاقه بقوة، حتى لا يفلت منهم، ويعيرهم بأنه تعامل مع نسائهم وعاشرهن،

(١) عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٢، ١٢٨٤هـ،

١٩٦٥م، ج ١، ص ٢٥٥، وفي الديوان ضمنت هذه الأبيات تحت المنحول من شعره.

(٢) الديوان، ص ٢٥.

(٣) الديوان، ص ٥٥.

على الرغم من علمه بأنهم سيقتلونه بسبب ذلك، لكنه نكأ جراحهم بشعره حتى وهم يستعدون لقتله، بل وأنشد بيتين من الشعر، وهو يحترق في النار، كل ذلك يشير إلى غزارة إنتاجه الشعري، فإذا كان يقول الشعر وهو يساق إلى القتل، بل وهو يُقتل محروقاً، فكيف كان وهو في ظروف أقل عنفاً من مثل هذه الظروف؟ لذلك نظن أن الذي وصل إلينا من شعر "سحيم" أقل بكثير مما قال، وخصوصاً أنه:

١. تم تدوينه بعد مقتل "سحيم" بما يقارب ستة قرون، فقد جاء في آخر الديوان: "كتبه أحمد بن أبي السعود الرصافي في ذي القعدة من سنة ثلاث عشرة وستمائة" (١).

٢. كان تسجيل آداب العرب وعلومهم عن طريق الرواية، ولم يكن عبد بني الحساس ممن يُحتفى بتراثهم الأدبي، ويهتم الناس بحفظ ما قالوه، فقد كان ذلك في أواخر عهد الخلفاء الراشدين على الأرجح، أو أوائل العهد الأموي؛ حيث كان الإسلام قريباً، ولم يكونوا يستحسنون رواية الأشعار التي تنشر الفاحشة مثل كثير من شعر "سحيم"، بالإضافة إلى كونه رقيقاً، فجلوسه مع أجدانه العبيد أكثر من غيره، وهم لا يهتمون بحفظ الشعر ورواياته، وهو لا يظهر في المجالس التي يلقي فيها الشعر، وفوق ذلك فإنه لم يؤثر عنه أنه حقق بطولات حربية حتى تحفظ أشعاره، وتخلد مثل ما وصلنا منها؛ ولعل اعتزازه بشعره يدل على كثرته.

وبناء على ما فات نظن أن ما ورد في ديوان "سحيم" لا يمثل كل ما قال من شعره، وقد كان متمكناً من الحديث عن العشق، ووصف الحب والشوق والحرمان.

٢- وصف الحب والشوق والحرمان

يكثر "سحيم" من قول الشعر في قصائد الغزل بما يضم من أشواق وحرمان ووصال، ومن قصائده البديعة في ذلك قصيدته الميمية، وقصة هذه القصيدة أن مولاه قد اتهمه بابنته، فجلس في موضع كان "سحيم" يقيل فيه بعد رعيه، وذات مرة قضى القيلولة فيه، فلما اضطجع تنفس الصعداء، ثم قال:

(١) الديوان، ص ٦٧.

يَا ذِكْرَةَ مَالِكَ فِي الْحَاضِرِ تَذَكُّرُهَا وَأَنْتَ فِي الصَّادِرِ^(١)

فظهر له سيده من المكان الذي كمن فيه وسأله: مالك يا سحيم؟.. فلجلج في كلامه. فلما رجع أجمع على قتله. وخرجت إليه صاحبه التي كان يهواها، فحادثته، وأخبرته بما يراد به، فقام ينفض ثوبه، ويزيل أثره وهو يقول^(٢):

أَتُكْتَمُ حَيِّتُمْ عَلَى النَّأْيِ تَكْتَمَا تَحِيَّةً مِّنْ أَمْسَى بِحُبِّكَ مُغْرَمًا
وَمَا تُكْتَمِينَ أَنْ تَكُونِي دَنِيئَةً وَلَا أَنْ تَكُونِي يَا ابْنَةَ الْخَيْرِ مَحْرَمًا^(٣)
وَمِثْلِكَ قَدْ أَخْرَجْتُ مِنْ خَدْرِ بَيْتِهَا إِلَى مَجْلِسٍ تَجْرُ بُرْدًا مُسَهَّمًا^(٤)
وَمَاشِيَةَ مَشَى الْقَطَاةِ اتَّبَعْتُهَا مِنْ السُّنْثَرِ نَخَشَى أَهْلَهَا أَنْ تَكَلَّمَا
فَقَالَتْ لَهُ: يَا وَيْحَ غَيْرِكَ إِنِّي سَمِعْتُ كَلَامًا بَيْنَهُمْ يَقَطُرُ الدَّمَا^(٥)

يصف الشاعر هنا حركة تخفيها إذ كانت تمشي على أطرافها كمشي القطاة خشية أن يعلم أهلها بأمره فتسيل الدماء، ونلمح هنا في خطابه معرفته بصفات النساء وخبرته بهن وبطرائقهن وألفاظهن، كما في قوله: "يا ويح غيرك"، فجاء تصويره بارعاً دقيقاً مفعماً بالحركة نابضاً بالحياة.

ويصف عشقه للجماليات من خلال وصف حبيته هند وصاحباتها، فيقول:

وَمَا لَيْلَةٌ تَأْتِي عَلَيَّ - طَوِيلَةٌ بِأَقْصَرِ مَنْ حَوْلَ طَبَاهُ نَعِيمٌ
وَقَدْ كُنْتُ أَشْكَى لِلْعَزَاءِ فَشَاقَنِي لِهَنْدٍ بِصَحْرَاءِ الْجَبِيلِ رُسُومٌ
لِهَنْدٍ وَأَتْرَابٍ لَهَا شَبَهُ الدُّمَى يَصْدِنُ فَمَا يَنْجُو لَهْنٌ سَلِيمٌ

(١) الديوان، ص ٢٤.

(٢) الديوان، ص ٢٤، وينظر: أبو الفرج، الأصفهاني (ت: ٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، مرجع سابق، م ٢٢، ص ٢١٦، ٢١٧.

(٣) يعني أنه ما يكتمها لدناءتها، ولا كراهية أن تكون محرماً له، (انظر: الديوان، ص ٣٥).

(٤) المسهم: المخطط، (انظر: الديوان، ص ٣٥).

(٥) الديوان، ص ٣٤، ٣٥، ٣٦.

كَوَاعِبَ أَتْرَابٍ لَهْنٌ بِشَاشَةٍ إِذَا عَلِقَتْ شَيْئًا فَلَيْسَ يَرِيمُ^(١)

يقول "سحيم" إنه لا يأتي عليه ليلة طويلة هي في حقيقتها أقصر من عام يستميله النعيم، وقد كنت أنسب للعزاء فاشتقت إلى ديار هند في صحراء الجبيل، اشتقت لهند وصاحباتها اللاتي يُشَبَّهْنَ التماثيل الجميلة التي تصيد القلوب فلا تبقى من يسلم من الوقوع في عشقتها، وهن فتيات كاعبات بارزة، في سن واحدة، وفي حديثهن بشاشة ومرح وأمل، لكنهن إذا أوقعن أحداً في حباتهن فإنه لا يبرح مكانه. ثم ينتقل إلى فراق الأحبة، فيقول:

هُمَا جَارَتَاكَ الْيَوْمَ شَطَطَتْ نَوَاهُمَا وَأَصْبَحَ يُبْكِي ذَا الْهَوَى طَلَلَاهُمَا
وَفَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مِنِّي وَلَا أَرَى نَوَى الْحَيِّ يُدْنِيهَا جَمِيعًا بُكَاهُمَا^(٢)

يصف "سحيم" فراق الأحبة وتحولهم من دار قريبة إلى دار بعيدة، مما جعل الدموع تسيل وقت لا يجدي البكاء نفعاً؛ لأنه لا يعود من رحل عن الديار.

(١) الديوان، ص ٣٧.

(٢) السابق، ص ٦٠.

الخاتمة

وبعد هذه الدراسة يتبين لنا أن شعر "سحيم" وصف خارجي ووصف داخلي، ففي الوصفي الخارجي وجدناه قد وصف الطبيعة مصوراً الريح والبرق والمطر والمحبوبة، والجيش، كما وصف الحيوان من خيل وناقة وثور وحشي وغيره، أما في الوصف الداخلي النفسي فنجد الشاعر قد تعرّض اللون من بياض وسواد وشقرة وغيرها، كما وقف الوصف أمام السجن والجلد والعبودية وأثر ذلك على نفسه، كذلك صور الإحساس بالقتل واقترابه من الموت، أيضاً وصف الشاعر الحب والشوق والحرمان وأثر ذلك على نفسه.

وقد استطاع الشاعر مواجهة العبودية وتوابعها وآثارها في نفسه بسلاحين، أولهما: لهوه ومجونته الذي أفرغه في تعامله على الرغم من سواد بشرته وموقعه الاجتماعي بوصفه عبداً، ثانيهما: شاعريته التي كانت أهم مصدر قوة واجه بها العبودية، فكان شعره صاحبه في جميع مواقف حياته التي عبّر عنها بقصائد شعرية رفيعة المستوى، تضعه في مصاف الشعراء الكبار.

وشعر سحيم لم يُجمع كله، ومن الواضح أن عبوديته ودعوته للرذيلة في أشعاره لم تحفز الرواة في عصره على رواية أشعاره، حيث لم يبق غير القليل الذي تم تدوينه فيما بعد، وضمته مخطوطة كتبت بعد وفاته بما يقرب من ستة قرون، ومع ذلك فقد والضياع فإن الذي وصلنا من شعره يدل على قوّته وتميزه.

وكانت نظرة الشاعر -على الرغم من سواد لونه- تجاه القبيلة كان فيها نوع من المقاومة في كثير من الأحيان، ثم حاول أن يستغل كثيراً سواد لونه لينال بعض المكاسب أو الخروج من بعض المآزق، وأحسب أن تشبيهه بالنساء أو أن تغزله بنساء القبيلة من الحرائر وكريمات القبيلة لم يكن من باب العبث وإنما كان صدى لحالته النفسية لصرف إحساس الدونية عنه، تلك التي برزت في شعره من خلال الوصف الخارجي والداخلي.

ومن خلال الوصف الشعري الخارجي نلمح الكثير من المعاني ذات الطرافة والجدّة التي لم يسبق إليها، وإن كان الشاعر ملتزماً بالصفات التي سبق إليها من القداما إلا أن شخصيته ونفسيته بدت بينة للمتأمل في وصفه للريح والسحاب والبرق.

أما وصفه النفسي فلم يكن بالعمق المتوقع من شاعر عانى ما عانى من سواد لونه وفقره، ونبذ واستنكار المجتمع لكثرة لهوه ومجونه، فلم يغص في كثير من قضايا الفلسفة وتعقيداتنا.

كذلك عبر الشاعر عن الظلم الاجتماعي الذي وقع عليه بطريقة خاصة تختلف عن كثير من الشعراء الذين وقع عليهم ذلك الظلم، واذكر على سبيل المثال: عنتره بن شداد وسواد لونه، وطرفه بن العبد في لهوه ومجونه تلك التي عبر عنها في معلقته.

ورأيت أن الوصف الخارجي كان أقوى وأكثر جزالة في صورته ومعانيه؛ لأنه كان نابعاً من نفس شاعرة صادقة، أما وصفه الداخلي لم يكن بقوة العاطفة التي بدأت ظاهرة للعيان في وصفه الخارجي، ولعل ذلك يعود إلى أن معاناة الشاعر تجاه المجتمع لم تكن بالقوة التي عاناها من قبل بعض الشعراء القدماء في العصر الجاهلي.

وقد تنوع الوصف عند سحيم في القصيدة الواحدة، كما اعتمد الوصف عنده على المقطوعات، وخاصة الوصف الداخلي الوجداني؛ ولم يقف الشاعر "سحيم" بالتدقيق والتفسير والتحليل والتأمل أمام بعض المقطوعات الشعرية ربما لأن بعض هذه المقطوعات كانت ارتجالاً في حين وقف أو أطال الوقف مع مواقف أخرى لشرح معاناته والتخفيف من مواجهه وإيلاء خصومه وقهرهم. وفي اعتماده على الوصف الخارجي يصور المقاربة بين الأشياء بدقة، وذلك سواء بالتصريح أو التشبيهات والكنائيات التي أضفت على التصوير نوعاً من الجمال والكمال.

كذا عرف "سحيم" في وصفه بالواقعية، فوصف الريح والسحاب والمطر والناقة والمحبوبة، كما هي بل أضفى عليها من الصور الخيالية التي زادت جمالاً ودقة، ولا سيما الوصف الداخلي الوجداني الذي كشف عن ستار معاناته مع اللون والحبس والعذاب.

هذا وقد امتاز "سحيم" في وصفه الخارجي بجمال الصور، حيث صور الأشياء، وكأنها ماثلة رؤيا العين بدقة يشوبها السلاسة والوضوح من خلال التنقل بين مشاهد متنوعة سواء أكان ذلك في مقطوعة أم في قصيدة، في حين اعتمد على التصوير المباشر من خلال لمحات وإشارات في الوصف الوجداني كان لها أثر نفسي على الشاعر عبر الأحداث التي مرت به فصورها تصويراً عابراً مباشراً يخلو من الصور الجمالية بحد كبير.

المصادر والمراجع

١. سحيم عبد بني الحسحاس، ديوانه، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.
٢. إبراهيم محمد علي، اللون في الشعر العربي قبل الإسلام - قراءة ميثولوجية، دار جرجوس، د.ط، د.ت.
٣. أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا البغدادي (ت ٢٨١هـ)، المطر والرعد والبرق والريح، تحقيق: طارق محمد سكلوع العمودي، دار ابن الجوزية، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
٤. أبو بكر محمد بن هشام (ت ٣٨٠هـ)، وأبو عثمان سعيد بن هشام (ت ٣٩١هـ)، كتاب الاشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالدين، تحقيق: السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
٥. أبو الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
٦. أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، د.ط، د.ت.
٧. أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٣١٢هـ، ١٩٩٢م.
٨. أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧هـ)، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.
٩. أبو هلال الحسن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد الجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلمية، ط١، ١٣٧١هـ، ١٩٥٢م.

١٠. ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط ٢، ٥١٣٨٦، ١٩٦٧م.
١١. إسماعيل حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ٥١٣٩٩، ١٩٧٩م.
١٢. أمل محمود عبد القادر أبو عون، اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي-شعراء المعلقات نموذجاً، أطروحة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، قسم اللغة العربية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٣م.
١٣. أمل نصير، صورة المرأة في الشعر الأموي، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ٢٠٠٠م.
١٤. إيمان عصام خلف كامل علي، الأبعاد السيميائية في شعر سحيم عبد بني الحسحاس، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠١٦م، ٥١٤٣٨.
١٥. جريدي بن سليم المنصوري، شاعرية المكان، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط ١، ٥١٤١٢، ١٩٩٢م.
١٦. جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد الخطيب القزويني (ت ٥٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العربية، بيروت، ط ١، ٥١٤٢٤، ٢٠٠٣م.
١٧. جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
١٨. خديجة ابراهيمي، الوصف في شعر بشار بن برد، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة محمد خضير بسكرة، قسم اللغة العربية، ٢٠١٢/٢٠١٣م.
١٩. حمد فهد جنبان القحطاني، المها في "حومل" عند الشعراء-دراسة تحليلية، مجلة جذور، من إصدارات النادي الأدبي الثقافى بجدة، العدد ٤٣، رجب ٥١٤٣٧، إبريل ٢٠١٦م.
٢٠. راضية طوسون، عقدة اللون وأثرها في شعر سحيم، رسالة ماجستير، جامعة الاسكندرية، ٢٠١٤م.
٢١. رباح عبد الله علي، مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي، أطروحة ماجستير، جامعة تشرين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

٢٢. سمر الديوب، الصورة الفنية عند شعراء البادية في عصر صدر الإسلام، أطروحة ماجستير، جامعة البعث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
٢٣. سيد نوفل، شعر الطبيعة في الأدب العربي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، ط٢، ١٩٧٨م.
٢٤. صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
٢٥. عبد القادر عمر البغدادي (ت١٠٩٣هـ)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ط٤، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
٢٦. عبد الله سليمان العقل، الباحثري وشعره في الوصف، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ١٩٧٤م.
٢٧. عبده بدوي، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.
٢٨. علي بن الحسين الأصفهاني، أبو الفرج (ت٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
٢٩. عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الجاحظ، مصر، ط٢، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٦م.
٣٠. فؤاد أفرام البستاني، الشعر الجاهلي - نشأته - فنونه - صفاته، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٧م.
٣١. كمال الدين محمد بن موسى الدميري (ت٥٨٠هـ)، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
٣٢. محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١)، طبقات فحول الشعراء، مع تمهيد للناشر الألماني: جوزف هل، ودراسة: طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٢٢هـ، ٢٠٠١م.
٣٣. محمد شاکر الکتبی (ت٧٦٤هـ)، فوات الوفيات والذیل علیها، تحقیق: إحسان عباس، دار صادر، بیروت.

٣٤. محمد صديق حسن عبد الوهاب، الصحراء في الشعر الجاهلي، أطروحة دكتوراة، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية الدراسات العربية، قسم الدراسات الأدبية والفنية، ٥١٤٢٨، ٥١٤٢٩.
٣٥. محمد عايش محمد أمين، الوصف والغزل في شعر الوأواء الدمشقي، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، نابلس، فلسطين، ٢٠١٢م.
٣٦. محمد عبد المطلب، شاعرية الألوان عند امرئ القيس، مجلة فصول القاهرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، م٥، ٢٤، ١٩٨٥م.
٣٧. محمد موسى الحازمي (ت٥٨٤هـ)، الأماكن، أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ٥١٤١٥.
٣٨. محمود الجادر، الأداء باللون في شعر سحيم عبد بني الحسحاس، نشر بمجلة المورد العراقية، ٤٤، ١٩٩٩م.
٣٩. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، راجعه: عبد الله المنشاوي، ومهدي البحيري، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ٥١٣٥٩، ١٩٤٠م.
٤٠. المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، سنة ٥١٤١٥، ١٩٩٤م، مصر.
٤١. ليلي سالم محمد بابنجي، الوصف في شعر عبد الله بن المعتز العباسي، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، ٥١٤٠٩/١٩٨٩م.
٤٢. ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ٥١٣٩٧، ١٩٧٧م.
٤٣. يونس شنوان، اللون في شعر ابن زيدون، منشورات جامعة اليرموك، إربد، ١٩٩٩م.

اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو دور التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم

الدكتور / خالد عواض عبدالله الثبيتي

أستاذ الإدارة والتخطيط التربوي المشارك
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الملخص:

هدفت الدراسة إلى التعرف على اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو دور التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم، والكشف عن الصعوبات التي تواجه تنمية قدراتهم، وتقديم مقترحات تسهم في تنمية قدراتهم، واعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي المسحي، وقد تكون مجتمع الدراسة من أعضاء هيئة التدريس رجالاً ونساءً الذين التحقوا ببرامج تدريبية عن بعد عن طريق المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد خلال العام الدراسي ١٤٣٦/١٤٣٧هـ والبالغ عددهم (١٠٥٧) عضواً، تم اختيار عينة ممثلة للمجتمع بطريقة عشوائية بلغت (٣٥٠) عضو هيئة تدريس، وتم تصميم استبانة إلكترونية تم توزيعها بطريقة إلكترونية على عينة الدراسة.

وتوصلت الدراسة إلى عدد من النتائج أبرزها: أن اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية عينة الدراسة نحو دور التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم نحو البعد الإداري والتنظيمي كانت بدرجة عالية ومتوسط حسابي (٥٤، ٢)، وبدرجة عالية نحو البعد المهني ومتوسط حسابي (٧٦، ٢)، وبدرجة عالية نحو البعد التقني ومتوسط حسابي (٦٩، ٢)، وأن أهم الصعوبات هي ضعف اعتماد التدريب عن بعد في الجامعات والمؤسسات التعليمية، افتقاد التفاعل المطلوب في البرنامج التدريبي، ومن المقترحات توفير برامج تدريبية عن بعد متزامنة وغير متزامنة، والمزج بين التدريب التقليدي والتدريب عن بعد.

في ضوء النتائج قدمت الدراسة عدداً من التوصيات من أهمها: وضع السياسات والإجراءات الإدارية والتنظيمية التي تدعم وتشجع برامج التدريب عن بعد في الجامعات السعودية، التكامل والترابط والتنوع في تصميم البرامج التدريبية.

الكلمات المفتاحية:

التدريب عن بعد، اتجاهات أعضاء هيئة التدريس، الجامعات السعودية.

Abstract:

The study aimed to identify the attitudes of faculty members in Saudi universities toward the role of distance training in developing their abilities, uncover the difficulties facing their development, and submit procedural proposals that contribute to activating the use of distance training to develop members abilities in Saudi universities. The Researcher used the descriptive approach, the study society content of faculty members men and women who enrolled in distance training programs through the National Center for e-learning and distance education during the academic year 1436/1437 AH (1057) members. The Researcher selected representative sample of Combine randomly amounted to 350 faculty members, an electronic questionnaire was distributed electronically.

The study results: A attitudes of the faculty members in the Saudi universities towards the role of distance training in developing their abilities towards the administrative and organizational dimension was high by average (2.54), high degree towards the professional dimension by average (2.76), and high degree towards the technical dimension by average (2.69). The most important difficulties are weak adoption of distance training in universities and educational institutions, and lack of interaction in the training program. Procedural proposals: Provide training programs for distance training synchronous and non-asynchronous, and a combination of traditional training and distance training.

recommendations: development of administrative and organizational policies and procedures that support and encourage distance training programs in Saudi universities; integration, interdependence and diversity in the design of training programs.

Keywords: distance training, attitudes of faculty members, and Saudi universities.

المقدمة :

إن التطور الهائل والسريع والضخم الذي يشهده العالم في الألفية الثالثة أحدث تغييرات جذرية في المفاهيم والأدوات والطرق والأساليب الإدارية والتنظيمية، وأصبح للتكنولوجيا دور مهم ورئيس في حدوث التغييرات والتحويلات التي شملت مختلف المجالات.

ومن أكثر المجالات التي تأثرت بهذه التطورات التقنية والتكنولوجية مجال التعليم والتدريب، فقد ظهرت طرق حديثة تتيح للمتعلم والمتدرب فرص التعليم والتدريب في أي مكان وزمان، متجاوزة كل الحدود التي تعيق وتؤثر على عمليات التدريب.

على الرغم من أهمية التدريب التقليدي والحاجة إليه وضرورته إلا أنه أصبح غير قادر على تلبية حاجات ورغبات المنظمات والمتدربين، والذين يرغبون في التدريب على مهارات معينة وفي وقت قصير، بالإضافة إلى كثرة أعداد المتدربين وزيادتهم وما تتطلبه المؤسسات الحكومية من تطوير لمهارات وقدرات منسوبيها، وهذا جعل مؤسسات التعليم العالي في مختلف الدول توظف تقنيات ووسائل التعليم عن بعد لأغراض التدريب.

ويعد التدريب عن بعد من الطرق والأساليب الفاعلة في عمليات التدريب وأصبح اتجاهًا عالميًا حديثًا، والتدريب لا يركز فقط على العاملين الجدد في المنظمة من أجل إكسابهم المهارات والمعارف، ولكنه عملية مستمرة باستمرار وبقاء المنظمة (تريسي، ٢٠٠٤).

والتدريب مفيد لكل من الفرد والمنظمة فهو يضيف للمنظمة قيمة جديدة من خلال اكساب الأفراد لمهارات وقدرات وأفكار جديدة ومعرفة أوسع وأشمل في مجال عملهم (الخطيب، ٢٠٠٢).

في ظل قلة الفرص التدريبية المتاحة للموظف في القطاع العام، يتميز التدريب عن بعد عن الأساليب التقليدية في تلبية الاحتياجات التدريبية للأعداد الكبيرة من الموظفين بالمملكة العربية السعودية (السنبلي، ٢٠٠٣).

ويمكن التوجه نحو التدريب عن بعد كأسلوب تكنولوجي جديد لمواجهة التحديات الحالية؛ لأنه يمثل شكلاً متطوراً من أنواع وأساليب التدريب، ويعتبر أسلوب متجدد

لتقديم برامج وأنشطة التنمية المهنية ذات الكفاءة العالية، مع الحرص على تحقيق التفاعل بين المدرب والمتدرب إلى جانب تطوير محتوى التدريب باستمرار.

مشكلة الدراسة :

يمثل التدريب الإلكتروني أهمية بالغة في هذا العصر، فقد أشار كل من نيكلسون (Nicholson, 2010) ومركز التدريب الإلكتروني العالمي (Global e-Training center, 2011) إلى أنه يمثل مستقبل عملية التدريب لما يتمتع به من خصائص جعلته مطلباً ضرورياً للعديد من المؤسسات خاصة أثناء الخدمة، حيث يساهم في التغلب على الكثير من المشكلات من أهمها نقص الإمكانيات المادية والبشرية المتعلقة بتنفيذ البرامج التدريبية، كما أنه يكسر حواجز الزمان والمكان بين المتدربين ومكان التدريب، إضافة إلى توظيف العديد من الوسائط أثناء التدريب.

وقد أكدت دراسة قنديل (٢٠١٠م) أن أساليب التدريب التقليدية لا تتماشى مع التطورات العالمية والثورة المعرفية والتكنولوجية، وأن التدريب التقليدي لا يحقق الهدف منه، ويجب الاتجاه إلى أسلوب جديد يتناسب مع التطوير المطلوب، والاستفادة من الوسائل التكنولوجية، ووسائل الاتصال الحديثة.

وفي ظل المشكلات الإدارية والتنظيمية والإجرائية والتحويلية التي يعاني منها التدريب، تم ابتكار طرق وأساليب حديثة توظف التكنولوجيا والتقنية في تقديم البرامج التدريبية التي يحتاج إليها أعضاء هيئة التدريس.

وينبغي تنمية مهارات أعضاء هيئة التدريس في الاستفادة من تكنولوجيا التعليم الإلكتروني الحديثة وتحسين البيئة التعليمية داخل الجامعة، وتعزيز المناهج الدراسية والتربوية والبرامج الأكاديمية (Dee & Daly, 2009)

ونظراً لانشغال معظم أعضاء هيئة التدريس في تقديم المحاضرات بالإضافة إلى الأعمال الأكاديمية التي يقومون بها فقد لا يجد كثير منهم الوقت الكاف لحضور البرامج التدريبية التقليدية (وجهاً لوجه) ضمن أوقات محدودة، فقد تم تصميم برامج تدريبية عن بعد تقدم لأعضاء هيئة التدريس لتنمية مهاراتهم وقدراتهم.

ومن أجل تتغلب وزارة التعليم ممثلة في الجامعات ومؤسسات التعليم العالي على المشكلات والصعوبات التي تواجه التدريب التقليدي، اتجهت نحو تفعيل واستخدام التدريب عن بعد لتدريب وتطوير أعضاء هيئة التدريس، وقد أنشأت وزارة التعليم العالي المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد الذي من أهدافه تسخير كل الامكانيات لدعم تميز العملية التعليمية وتسهيل التواصل العلمي، من خلال التوظيف الأمثل لتقنيات المعلومات والنظم الحديثة، بما يعزز التواصل والتفاعل في هذه العملية، لتحقيق الأهداف التعليمية والعملية.

ويعتبر التدريب عن بعد من الأساليب الحديثة على الجامعات والمؤسسات التعليمية والذي يقوم على عدد من المتطلبات التي تضمن نجاحه، وبالتالي لا يمكن للجامعات أن تقدم مثل ذلك النوع دون أن تكون لديها الإمكانيات والاستعدادات الضرورية واللازمة لنجاحه، فأصبح المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد كمرکز يتبع لوزارة التعليم "التعليم العالي" هو الجهة التي تملك كل متطلبات تقديم التدريب عن بعد لأعضاء هيئة التدريس.

ولتنمية مهارات وقدرات أعضاء هيئة التدريس بالجامعات السعودية كأحد مجالات التنمية الإدارية، قام المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد بتقديم العديد من الدورات التدريبية لأعضاء هيئة التدريس بأساليب تدريبية متنوعة ومنها أسلوب وطريق التدريب عن بعد.

واستناداً على ما سبق تتحدد مشكلة الدراسة في تحديد اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم

أسئلة الدراسة:

سعت الدراسة للإجابة عن السؤال الرئيس التالي: ما اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم، من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية:

1. ما اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم؟

٢. ما الصعوبات التي تواجه تنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس باستخدام التدريب عن بعد؟
٣. ما المقترحات الإجرائية التي تسهم في تفعيل استخدام التدريب عن بعد لتنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية؟

أهداف الدراسة :

سعت الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية :

- التعرف على اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم من خلال ثلاثة محاور: البعد الإداري والتنظيمي والبعد المهني والبعد التقني.
- الكشف عن الصعوبات التي تواجه تنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس باستخدام التدريب عن بعد.
- تقديم مقترحات إجرائية تسهم في تفعيل استخدام التدريب عن بعد لتنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية.

أهمية الدراسة :

تتبع أهمية الدراسة من أهمية تنمية مهارات وقدرات أعضاء هيئة التدريس بالجامعات السعودية، وما يقدمه التدريب عن بعد كأسلوب حديث وإستراتيجية متقدمة من فوائد ومزايا في تطوير المنظمات والأفراد، وقد تمثلت أهمية الدراسة في العناصر التالية:

- معرفة الدور الذي يقوم به التدريب عن بعد في تطوير وتنمية مهارات وقدرات أعضاء هيئة التدريس بالجامعات السعودية في المجالات الإدارية والتنظيمية، والمهنية، والتقنية.
- تكشف للمسؤولين عن الجامعات والمؤسسات التعليمية والمركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد عن الصعوبات التي تواجه التدريب عن بعد، وبالتالي وضع الحلول الممكنة للتغلب على تلك المشكلات.
- تقديم مقترحات تعمل على مساعدة الجامعات والمؤسسات التعليمية على تطوير برامجها التدريبية التي تستخدم التدريب عن بعد.

- التأكيد على أهمية التنمية الإدارية التي تقوم بها وزارة التعليم والجامعات السعودية لأعضاء هيئة التدريس.

حدود الدراسة :

الحدود الموضوعية :

تحددت موضوعات الدراسة في متغيرات الدراسة بأبعادها المختلفة والتي تناولت دور التدريب عن بعد في تنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس بالجامعات السعودية من خلال: البعد الإداري والتنظيمي والبعد المهني والبعد التقني.

الحدود المكانية :

تحددت الحدود المكانية في البرامج التدريبية عن بعد التي يقدمها المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد.

الحدود الزمنية :

تم تطبيق الدراسة على أعضاء هيئة التدريس الذين تلقوا برامج تدريبية عن بعد عن طريق المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد خلال العام الدراسي ١٤٣٦/١٤٣٧هـ الموافق ٢٠١٦م، وتم توزيع أدوات الدراسة على عينة الدراسة خلال الفترة من ١ مايو إلى ٣٠ أغسطس ٢٠١٦م.

الحدود البشرية :

أعضاء هيئة التدريس الذين تلقوا برامج تدريبية عن بعد عن طريق المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد.

مصطلحات الدراسة :

التدريب عن بعد: يعرف مدني (٢٠٠٧م، ص١٨) التدريب عن بعد بأنه: "أسلوب من أساليب التدريب معزز باستخدام الوسائط التقنية والتي يمكن عن طريقها تحقيق الاتصال المزدوج بين المدرب والمتدرب عن بعد داخل تنظيم مؤسسي يضمن توفير الاتصال المباشر ويميل ذلك النوع من التعلم إلى تعليم الجماهير على نطاق واسع دون تمييز بينهم".

ويعرف الباحث التدريب عن بعد بأنه: أحد أساليب التدريب الحديثة التي توظف الوسائط التقنية في عملياتها التدريبية وتحقق الاتصال بين المدرب والمتدربين من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات السعودية دون التقيد بالحدود الزمانية والمكانية ويتم ذلك داخل المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد.

القدرة: القدرات هي جمع كلمة قدرة، ويعرف الباحث القدرة بأنها: قدرة عضو هيئة التدريس على أداء واجباته الوظيفية والأكاديمية والمهنية والإدارية وفقاً للمعارف والمهارات والاتجاهات التي اكتسبها من خلال التدريب عن بعد.

قدرات أعضاء هيئة التدريس: ويمكن تعريف قدرات أعضاء هيئة التدريس إجرائياً بأنها: المعارف والمهارات التي يمتلكها عضو هيئة التدريس في البعد الإداري والتنظيمي والبعد الفني والبعد التقني ويمكن أن يكتسبها من خلال التدريب عن بعد.

الإطار النظري:

التدريب عن بعد:

ظهر التدريب عن بعد كأسلوب تدريبي حديث نتيجة للتطور في وسائط التقنية المختلفة، حيث دمج بين أسس ومتطلبات التدريب من ناحية وبين الوسائل التقنية والتكنولوجية المختلفة مع المحافظة على أهمية وجودة وأسس التدريب، وبالتالي تم التغلب على عدد من المشكلات التي واجهت التدريب التقليدي كالحودود الزمنية والمكانية وتوفير التدريب لأكبر عدد ممكن من الموظفين والمستفيدين.

مفهوم التدريب عن بعد (Distance Training):

إن اختلاف وتباين مفهوم التدريب عن بعد يعود لأسباب من أهمها تعددت المدارس والاتجاهات، ومن تلك التعريفات:

عرف المطر في (٢٠٠٥، ص ٣٥) التدريب عن بعد أنه: "أسلوب تدريبي من خلاله يستطيع المتدرب أياً كان موقع عمله الالتحاق بدورة أو برنامج تدريبي بشكل متزامن أو غير متزامن دون الحاجة إلى الحضور الشخصي لمكان انعقادها أو التقيد بعدد المتدربين أو الوقت وذلك عبر وسائط اتصال تقنية حديثة ووسائط أخرى متعددة".

ويعرف الغامدي (٢٠٠٦، ص ١١) التدريب عن بعد بأنه: " العملية التفاعلية التي يتم خلالها نقل التدريب وإدارته عن بعد، بين المدربين والمتدربين، عبر وسائط اتصال مناسبة، بهدف توصيل خدمات التدريب إلى المستفيدين في أماكن تواجدهم".

ويتضح من مفهوم التدريب عن بعد أن الاختلاف بينه وبين التدريب التقليدي هو اختلاف في الأدوات والوسائل التي استطاعت توفير فرص التدريب لأكثر عدد من الموظفين في أي مكان وأي زمان، فهو يوظف وسائط اتصال مناسبة تضمن تحقيق الكفاءة والفعالية من التدريب.

مبادئ التدريب عن بعد:

يوجد عدد من المبادئ الأساسية التي يركز عليها التدريب عن بعد والتي ينبغي أن تراعى عند التخطيط للبرامج التدريبية التي تقدم عن بعد وهي (صيام، ٢٠٠٥، ص ٨):

١. **مبدأ الشمولية (Comprehensiveness):** ويقصد به تنوع وشمولية وترابط البرامج التدريبية، بحيث تراعي جميع المتدربين واحتياجاتهم التدريبية، وتنوع الموضوعات.
٢. **مبدأ الفعالية (Effectiveness):** ويقصد به انتقال كل المعارف والمهارات الموجهة نحو العمل والمكتسبة دون هدر للموارد المالية والبشرية.
٢. **مبدأ الاستمرارية (Continuity):** فالتدريب عن بعد متاح في أي وقت وأي مكان في ضوء احتياجات المنظمات أو الأفراد.
٤. **مبدأ المرونة (Flexibility):** ويقصد بها إعداد البرامج والدورات التدريبية المتنوعة والمتعددة التي تتميز بالمرونة والتطور لمواكبة مستجدات العصر.
٥. **مبدأ الاعتمادية (Accreditation):** حيث يتيح التدريب عن بعد للمتدربين حرية اختيار البرامج التدريبية التي تناسب مع احتياجاتهم الوظيفية وأهدافهم، وتقديم برامج وتخصصات ملبية لاحتياجات كل متدرب.

٦. مبدأ الإتاحة (Accessibility): ويعني أن فرصة الالتحاق بالبرامج التدريبية متوفر لجميع الفئات دون وجود عوائق تحول دون الاستفادة منها.

على الرغم من التطور في استراتيجيات وطرق التدريب وتنوع واختلاف أساليبه، إلا أن هناك أسس ومبادئ يجب توفرها في كل نوع من أنواع التدريب ومنها التدريب عن بعد والذي يتميز بأسس ومبادئ تختلف عن الأنواع الأخرى من التدريب ومنها الاستمرارية والاعتمادية والمرونة والإتاحة، بالإضافة إلى ضمان تحقيق التكامل والشمول في تصميمه والوصول إلى الكفاءة والفعالية المطلوبة منه.

أهداف التدريب عن بعد:

يسعى التدريب عن بعد لتحقيق عددا من الأهداف أهمها: (نشوان، ٢٠٠٤)، (السيد، ٢٠٠٤)

- إتاحة التدريب لأكبر عدد من المتدربين على اختلاف وظائفهم وأعمالهم ومجالاتهم، بحيث يتحقق الغرض من التدريب ألا وهو تنمية وتطوير الموظف والمنظمة.
- إيصال الخدمات التدريبية إلى الفئات الخاصة والتي تمنعهم ظروفهم من الالتحاق بالتدريب التقليدي.
- تنمية قدرات المتدربين على الاعتماد على الذات وتوظيف وسائل الاتصال والتكنولوجيا لخدمة العمليات التدريبية والنمو المهني.
- تخفيف الضغط على التدريب التقليدي والذي لا يستطيع مواكبة النمو الهائل والسريع في مجال المعلومات.
- جعل التدريب أكثر مرونة، وتحريره من القيود الزمانية والمكانية والتي تحد من نمو وانتشار التدريب التقليدي.
- الاستجابة لمتطلبات خطط التنمية من الكوادر البشرية المؤهلة والمدرّبة.
- تحقيق تطلعات وطموحات المملكة العربية السعودية في التحول نحو رؤية ٢٠٣٠.
- الاستفادة من التقدم العلمي والتكنولوجي لخدمة الدورات والبرامج التدريبية في مختلف المؤسسات والمنظمات.

فالتدريب عن بعد يركز في أهدافه على تدريب أكبر عدد وشريحة من الموظفين والمستفيدين، حتى يستطيع تحقيق أهداف المنظمة في تنمية قدرات منسوبيها.

مزايا التدريب عن بعد:

لقد أوردت وزارة التعليم العالي (٢٠٠٦) عدداً من المزايا للتدريب عن بعد من أهمها:

- عدم التقيد بالمكان والزمان بأي شكل من الأشكال؛ وذلك باستخدام الوسائل الحديثة المتنوعة والمختلفة، وهذا ما يجعله متميزاً عن التدريب التقليدي والذي يعتمد على عدد محدود من الوسائل.
- تمكين المتدرب من الاعتماد على ذاته، والاستعانة بمصادر مختلفة تدعم تدريبه؛ ليحقق الفائدة المرجوة من التدريب.
- تنوع طرق التدريب، والتي تتنوع بتنوع الوسائل والأدوات المستخدمة في التدريب عن بعد.
- مراعاة ظروف المتدربين، فهو يسد احتياج المتدربين الذين لا يستطيعون حضور الدورات التدريبية في مكان انعقادها.
- استقطاب كفاءات عالية من الهيئة التدريسية ومن المدربين، فهو يتيح الفرصة لاستضافة مدربين من خارج المؤسسة والاستفادة من خبراتهم.
- قلة التكاليف المالية في التدريب عن بعد مقارنة بتكاليف التدريب التقليدي.
- يتيح التدريب عن بعد تبادل الخبرات بشكل واسع ومرن بين المتدربين.

متطلبات التدريب عن بعد:

من أجل ضمان نجاح تطبيق التدريب عن بعد فلا بد من توفير متطلبات نجاحه وتحقيق أهدافه، فقد أشار كل من (صيام، ٢٠٠٥)، (عبد الكريم، ٢٠٠٦)، (وزارة التعليم العالي، ٢٠٠٦) إلى عدد من المتطلبات هي:

- توفير مبنى خاص بالمؤسسة التي تقدم برامج التدريب عن بعد سواء كانت جامعة أو مركزاً تابعاً لها أو وزارة.
- توفير الطاقم الإداري المؤهل لإدارة المركز.

- تجهيز بنية تحتية لكافة خدمات الاتصالات وشبكات المعلومات بالمؤسسة التدريبية.
- الدعم والمساندة من صانع القرار، لأن التدريب عن بعد له متطلبات تختلف عن متطلبات التدريب التقليدي من حيث الخدمات والتمويل.
- تدريب المدرسين وأعضاء هيئة التدريس على تقنيات التدريب عن بعد.
- توفير آليات ضمان جودة هذا النظام التدريبي وتقويم الأداء ووضع نظم لقياس الأداء وتطوير البرامج.
- الاستعانة بهيئة استشارية متخصصة بالتدريب عن بعد.
- توفير الدعم المالي الكاف لتنفيذ جميع برامج التدريب عن بعد ولتمويل المؤسسات القائمة عليه.

وتتوفر في المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد كل متطلبات ومقومات التعليم عن بعد والتدريب عن بعد من بنية تحتية وتجهيزات تقنية ومتخصصين وموظفين إداريين وهيئة استشارية؛ مما يعني ضمان نجاح برامج التدريب عن بعد التي يقدمها.

معوقات التدريب عن بعد :

يواجه التدريب عن بعد مجموعة من المعوقات التي تحول دون تحقيقه لأهدافه، فقد أشارت مجموعة من الدراسات إلى عدد من المعوقات منها (سالم، ٢٠٠٤)، (الغامدي، ٢٠٠٦)، (وزارة التعليم العالي، ٢٠٠٦):

- ضعف البنية التحتية للاتصالات وشبكة المعلومات، ويعد ذلك من أهم العوائق التي تقف أمام تحقيق التدريب عن بعد لأهدافه.
- قلة توفر كفاءات علمية وفنية متخصصة في مجال التدريب عن بعد ونقص الخبرات.
- ندرة الهيئة الإدارية المدربة على مثل هذا النوع من التدريب.
- ضعف اقتناع أعضاء هيئة التدريس بالجامعات باستخدام وسائل التقنية في التعليم والتدريب.
- ضعف دافعية المتدربين نحو استخدام برامج التدريب عن بعد لعدم فهمهم لمعنى التدريب عن بعد وأهدافه.

- التوجه السلبي نحو استخدام وسائط ووسائل التكنولوجيا في التدريب.
- نقص الكوادر البشرية الفنية المتخصصة في التدريب عن بعد.
- غياب الإطار التشريعي والتنظيمي للتدريب عن بعد.
- ضعف التمويل لبرامج التدريب عن بعد والتي تحتاج إلى دعم وتمويل يساهم في تحقيق أهدافها.

وتوجد بعض الصعوبات المرتبطة بتصميم البرامج وتكاملها وضمان التفاعل بين المتدرب والمتدربين وتحقيق أهداف التدريب المطلوبة؛ مما يكون له تأثير في إيجاد طرق واستراتيجيات تضمن تحقيق الكفاءة والفعالية المطلوبة.

المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد:

برز المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد، ليكون فضاءً رحباً لتشديد مستقبل واعد في تطور التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد في المملكة.

وتسعى وزارة التعليم لتحقيق الرؤية الطموحة بخطى جادة تتمثل فيما أعدته من خطة استراتيجية (آفاق)، وبالعامل على تحقيق التكامل بين القطاعات ذات الصلة، ومواكبة مستجدات العصر، بداية في استثمار التقنية وتطوير التعليم التقليدي، فإن الواقع ومعطياته فرض تحويل المركز إلى منظومة متكاملة في إثراء العملية التعليمية ليكون مجتمعاً معرفياً متكاملًا.

وغاية المركز هي تأسيس نظام تعليمي متكامل يعتمد على التقنيات الحديثة في مجال التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد، في هيئة مركز وطني يحقق التقدم والتميز في العملية التعليمية، ويسعى ليكون بيت خبرة ومرجعية وطنية في مجال اختصاصه.

أهداف المركز:

للمركز أهداف يسعى لتحقيقها وهي (المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد، ٢٠١٦):

- نشر تطبيقات التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد بما يتوافق مع معايير الجودة.
- الإسهام في تقويم مشروعات وبرامج التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد.

- دعم الأبحاث والدراسات في مجالات التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد.
- وضع معايير الجودة النوعية لتصميم المواد التعليمية الرقمية، وإنتاجها، ونشرها.
- تقديم الاستشارات للجهات ذات الصلة في مجالات الاختصاص.
- تشجيع بناء البرمجيات التعليمية وتعميمها لخدمة العملية التعليمية في مؤسسات التعليم الجامعي على القطاعين العام والخاص.
- تشجيع المشروعات المتميزة في مجالات التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد والتنسيق بينها.
- عقد اللقاءات، وتنظيم المؤتمرات، وورش العمل، التي تسهم في تطوير التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد.
- التعاون الدولي مع المنظمات والهيئات العالمية والجهات المماثلة.

خدمات المركز الوطني للتعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد :

يقدم المركز الوطني حلولاً تقنية متنوعة لتسهيل عمليات التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد، يتم تطويرها من أجل تحقيق أهداف الجهات التعليمية والتدريبية، كما يوفر المركز الوطني أفضل الخدمات التقنية التي تتضمن تقديم مجموعة من المنتجات المتوافقة مع الاحتياجات والحلول المناسبة (المركز الوطني للتعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد، ٢٠١٦):

١) نظم ادارة التعلم والتدريب الإلكتروني :

(Learning Management System and Electronic Training)

يقدم المركز الوطني مجموعة خيارات من أنظمة إدارة التعلم والتي تعتبر البوابة الإلكترونية التي تجمع بين المدرب والمتدرب، وتتيح لكل منهما التفاعل مع الآخر - في أي زمان ومن أي مكان بحسب دوره في العملية التعليمية مستفيدين من الأدوات التقنية التعليمية التي يوفرها لهم النظام.

٢) نظم الفصول الافتراضية :

يمكن نظام الفصول الافتراضية من التفاعل المباشر بين المدرب والمتدرب عن طريق شبكة الإنترنت ومن خلال الشاشة أو لوحة عرض تقدم مجموعة من الأدوات

التي تشمل بث الفيديو والتفاعل الصوتي والمحادثات النصية والسبورة الإلكترونية ومجموعة من أدوات التعلم والمشاركة وأدوات الإدارة التعليمية التي تمكّن من تقديم مباشر وتفاعلي وبأساليب مشابهة لما يتم في التعليم والتدريب التقليدي.

٣) التكامل مع أنظمة المؤسسات التعليمية :

يمكن الاستفادة من خبرات المركز الوطني في العمل على التكامل بين الأنظمة الموردة وأنظمة المؤسسة التعليمية مثل الربط مع قواعد البيانات وبرامج ادارة القبول والتسجيل.

٤) خدمات الدعم الفني :

يقدم المركز الوطني خدمات الدعم الفني ويعتبر نظام (سنيد) همزة الوصل النشطة بين المركز الوطني للتعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد، وبين كافة المستفيدين من خدماته، فإن المركز الوطني يتيح للمستفيد عدداً من قنوات التواصل والدعم، مثل: الهاتف الموحد، والبريد الإلكتروني، والبلاغات الإلكترونية (e-Tickets) والخدمة الذاتية عبر الهاتف، وغيرها.

ولقد صُممت البنية التحتية في "سنيد" تصميمًا متطورًا، مهياً للتوسع حيثما امتدت خدمات المركز الوطني، كما تم تزويدها بمستوى عالٍ من الأنظمة الذكية، والتقنيات المعتمدة عالمياً، التي يديرها ويشغلها نخبة من الكفاءات الوطنية المتخصصة، ابتداءً من مستقبلي الاتصالات، ومروراً بالمشرفين، ومراقبي الجودة، وعدد المستشارين في تطبيقات الدعم الفني، ومراكز الاتصال، والجودة، وغيرها.

٥) المحتوى الرقمي :

تعد صناعة المحتوى الرقمي مؤشراً حيوياً على التحول نحو مجتمع المعرفة، حيث إن إنتاج المحتوى الرقمي التعليمي وتنظيمه ومعالجته وإخراجه في قالب يناسب استخدامه في العمليات التعليمية والتدريبية، وإمكانية إعادة استخدامه والمشاركة فيه، خطوة نحو استثمار المعلومة للوصول إلى المجتمع المعرفي.

٦) مركز التميز للمحتوى الرقمي:

يعد مركز التميز للمحتوى الرقمي أحد مشاريع المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد، والتي تُعنى بضبط وتحديد المعايير الواجب توافرها في المنتج الرقمي في جميع مراحل إنتاجه، في سبيل تطوير وتحسين المقررات الإلكترونية؛ ومن هذا المنطلق يقدم مركز التميز الاستشارات والخبرات التي تساند الجامعات في بناء المحتوى الإلكتروني بجودة وفاعلية.

البرامج التدريبية التي يقدمها المركز:

يقدم المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد العديد من البرامج التدريبية المتخصصة عن بعد والتي يتم تطويرها دورياً على أيدي خبراء محليين وعالميين، حيث يقدم أكثر من (٤٠) برنامجاً تدريبياً متميزاً بأحدث الوسائل التدريبية بشكل دوري خلال العام والتي يقدمها نخبة من الخبراء المحليين والعالميين وبالإمكان الاستفادة من خدمات المركز الوطني بالمجالات التالية:

إعداد وتطوير دورات تدريبية متخصصة، وتقديم برامج تدريبية متكاملة حسب احتياج الجهة التعليمية. (المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد، ٢٠١٦م) ويوضح الجدول التالي البرامج التدريبية التي قدمها المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد خلال العام الدراسي ١٤٣٦/١٤٣٧هـ:

جدول (١)

البرامج التدريبية التي قدمها المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد

م	البرنامج التدريبي	التاريخ	مدة البرنامج	الفئة المستهدفة
١	تصميم محتوى تعليمي باستخدام برنامج articulate	الاثنين ١٩/١٠/٢٠١٥م	يومين ٨ ساعات	رجال/نساء
٢	المنصة التعليمية المجانية أكادوكس Acadox	الاثنين ١٩/١٠/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	نساء
٣	استخدامات نماذج قوقل Google في العملية التعليمية	الأحد ٢٥/١٠/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	رجال/نساء
٤	الخرائط الذهنية Mental Map	الاثنين ٢٦/١٠/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	نساء
٥	التيشير تيوب في التعليم Teacher Tube	الاثنين ٢٦/١٠/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	رجال/نساء
٦	توظيف الآيباد IPAD في التعليم والتعلم	الثلاثاء ٢٧/١٠/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٧	إنشاء أنشطة واختبارات Easy generator	الثلاثاء ٢٧/١٠/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٨	المنصة التعليمية ادمودو Edmodo	الأربعاء ٢٨/١٠/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٩	تصميم كتب ومجلات الكترونية تعليمية	الخميس ٢٩/١٠/٢٠١٥م	يوم ٥ ساعات	نساء
١٠	معايير الجودة في تصميم المقررات والمناهج الإلكترونية	الاثنين ٢/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
١١	التخزين السحابي Cloud Storage	الثلاثاء ٣/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	نساء
١٢	التقويم الإلكتروني	الثلاثاء ٣/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
١٣	فصل افتراضي ومحطة بث مباشر باستخدام Hangouts	الأربعاء ٤/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
١٤	التدريس عن طريق اللعب Gamification	الأربعاء ٤/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	نساء
١٥	أساسيات في التدريب والتعليم عبر الانترنت	الخميس ٥/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	نساء
١٦	بيئات التعلم على شبكات البث المباشر	الأحد ٨/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	رجال/نساء
١٧	استخدامات برامج الحاسب التطبيقية في التعليم	الاثنين ٩/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	رجال/نساء
١٨	أدوات قوقل Google في التعليم	الثلاثاء ١٠/١١/٢٠١٥م	يومان ٤ ساعات	رجال/نساء
١٩	تطبيقات تصميم المحتوى للآيباد IPAD في التعليم	الثلاثاء ١٠/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٢٠	تطبيقات الواقع المعزز في العملية التعليمية	الأربعاء ١١/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	نساء
٢١	صناعة الانفوجرافك Infographic التعليمي	الأربعاء ١١/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	نساء

اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو دور التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم

م	البرنامج التدريبي	التاريخ	مدة البرنامج	الفئة المستهدفة
٢٢	التصميم التحفيزي لعناصر التعلم الرقمية e-Learning Objects	الأحد ١٥/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٢٣	تصميم وإنتاج العروض التقديمية الاحترافية باستخدام برنامج Prezi	الاثنين ١٦/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٢٤	كتابك / مجلتك الالكترونية	الثلاثاء ١٧/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال /نساء
٢٥	استخدام الآيباد IPAD في التعليم (المعلم الالكتروني)	الثلاثاء ١٧/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	رجال /نساء
٢٦	استخدام المصادر التعليمية المفتوحة	الأربعاء ١٨/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	رجال/نساء
٢٧	تخطيط وتقييم التعلم القائم على المشاريع	الأربعاء ١٨/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	نساء
٢٨	انشاء الاختبارات الالكترونية على الانترنت	الأحد ٢٢/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٢٩	عمل تسجيل ومونتاج Camtasia Studio	الأحد ٢٢/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٣٠	إنتاج وإدارة المدونات الإلكترونية التعليمية	الاثنين ٢٣/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	نساء
٣١	تطبيقات جوجل Google للمبتدئين	الثلاثاء ٢٤/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٣٢	المنصات التعليمية (ادمودو، سيكولوجي)	الثلاثاء ٢٤/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	رجال/نساء
٣٣	استخدام الآيباد IPAD في التعليم (شرح وتقديم الدروس)	الأحد ٢٩/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	رجال/نساء
٣٤	المبادئ الأساسية في التعلم الإلكتروني (مبتدئ)	الأحد ٢٩/١١/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	رجال/نساء
٣٥	آليات التغذية الراجعة بين الأقران Peer Feedback	الاثنين ٣٠/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٣٦	إعداد المصمم التعليمي	الاثنين ٣٠/١١/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٣٧	تصميم محتوى تعليمي باستخدام برنامج Lecture maker	الثلاثاء ١/١٢/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٣٨	تطوير روايات القصة الرقمية Digital Storytelling	الأربعاء ٢/١٢/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	رجال/نساء
٣٩	تفعيل تطبيقات الآيباد IPAD كوسيلة تعليمية	الأربعاء ٢/١٢/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	نساء
٤٠	تطبيقات جوجل Google للمقدمين	الأحد ٦/١٢/٢٠١٥م	٢ أيام ١٢ ساعة	رجال/نساء
٤١	أدوات واستراتيجيات التقويم البنائي الإلكتروني	الثلاثاء ٨/١٢/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	نساء
٤٢	تطبيقات الأندرويد Android في التعليم	الأربعاء ٩/١٢/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	رجال/نساء
٤٣	الصف المقلوب Flipped Classroom	الأربعاء ٩/١٢/٢٠١٥م	يومان ٨ ساعات	نساء
٤٤	Ever note التعليمي لتدوين الملاحظات	الخميس ١٠/١٢/٢٠١٥م	يوم ٤ ساعات	نساء

المصدر: المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد، <http://www.elc.edu.sa> في ١٠ مايو ٢٠١٦م

يتضح من جدول (١) أن معظم الدورات التدريبية التي يقدمها المركز هي ما بين يوم إلى يومين بحدود أربع ساعات يوميا ، تقدم لأعضاء هيئة التدريس رجالا ونساء ، وهناك دورات مخصصة للنساء ، ويقدمها عدد من الخبراء والمختصين في الموضوعات المختلفة ، ويتضح من الجدول أن الدورات التدريبية متنوعة وحديثة وتواكب مستجدات العصر وتقدم لأعضاء هيئة التدريس في داخل وخارج المملكة .

الدراسات السابقة :

تتوعد وتباينت الدراسات التي تناولت التدريب عن بعد أو التدريب الإلكتروني ، ويعود الاختلاف بينها لاختلاف أهدافها ومنهجيتها وأدواتها ، ومن تلك الدراسات ما يلي:

في جامعة نبراسكا (University of Nebraska, 2005) أجرى معهد التدريس عن بعد الصيفي دراسة بهدف تقييم برنامجا تدريبيا لتطوير قدرات أعضاء هيئة التدريس بالجامعة يتكون من خمسة أسابيع في فترة الصيف بواسطة الخط المباشر ، وقد أنضم إلى البرنامج التدريبي بواسطة تقنيات التعلم عن بعد ١٦٤ أستاذا يمثلون مجتمع الدراسة ، وتوصلت الدراسة إلى النتائج التالية: أن البرنامج قدم لأعضاء هيئة التدريس معلومات جديدة ومفيدة وأن أعضاء هيئة التدريس يوصون زملاءهم بالانضمام إلى هذا البرنامج ، وذكر ٨٣٪ منهم أن الحافز لإنهاء التدريب كان عاليا لديهم خلال مراحل البرنامج .

دراسة بلفقيه (٢٠٠٦م) هدفت إلى التعرف على أسلوب التدريب عن بعد كمدخل لتنمية القوى العاملة وتأهيلها من خلال توضيح أهم مفاهيمه ومقومات تطبيقه مع مناقشة الصعوبات التي يمكن أن تحد من إمكان تطبيق هذا الأسلوب التدريبي بالمملكة ، محاولة للتوصل إلى نموذج عملي للباحثة يعرض خطوات محددة يمكن إتباعها لتطبيق التدريب عن بعد ، واستخدمت الباحثة المنهج الوصفي فطبقت الدراسة على منسوبات جامعة الملك عبد العزيز بجدة اشتملت على الموظفات الإداريات والأكاديميات ممن سبق لهن الاضطلاع بمهام إدارية فتكون مجتمع الدراسة من (٣٨٤) موظفة ، وتوصلت الدراسة لعدد من النتائج منها: وعي غالبية الموظفات بالتطور الحاصل في وسائل الاتصال وأجهزة الحاسب الآلي مما جعل المؤسسة الجامعية تتجه لمثل هذا النوع من

التدريب، بالإضافة إلى النتيجة السلبية التي خرجت بها الدراسة من وجود علاقة سلبية بين العمر وسنوات الخبرة وبين الالتحاق بدورات تدريبية في مجال الإدارة فكلما كان السن أو سنوات الخبرة أقل كان إمكانية الالتحاق ببرامج تدريبية أقل.

أجرى البجادي (٢٠٠٨م) دراسة بهدف التعرف على اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو البرامج التدريبية الخاصة بالتعليم عن بعد عبر الإنترنت، وأوضحت نتائج الدراسة وجود فروق ذات دلالة إحصائية في اتجاهات أعضاء هيئة التدريس تعود لمتغير الجنس لصالح الذكور، و متغير المؤهل العلمي لصالح الأساتذة المشاركين، و متغير مستوى الخبرة في التعليم عن بعد عبر الإنترنت، و مقدار التدريب الذي تعرضوا له، وأن اتجاه أعضاء هيئة التدريس نحو البرامج التدريبية عن بعد باستخدام الإنترنت اتجاه موجب، وأوصت الدراسة بتهيئة البيئة المناسبة للتدريب الإلكتروني، و تكثيف البرامج التدريبية النسائية ودمج الجوانب النظرية بالتطبيقية في برامج التدريب عن بعد.

دراسة ريجنو (Regino, 2009) هدفت إلى وصف الحالة الفعلية لتدريب المعلمين على الإنترنت في التعليم العالي من خلال تصورات المعلمين المدربين على الإنترنت ضمن مجموعة من كليات المجتمع في إحدى مقاطعات ولاية كاليفورنيا، وقد تم إجراء استطلاع على الإنترنت بين هذه المجموعة من أعضاء هيئة التدريس من أجل قياس آرائهم حول جودة تدريب المعلمين على الإنترنت داخل المؤسسات التي يعملون بها وأشارت النتائج إلى أن المعلمين يعتقدون أن التدريب على الإنترنت ذو أهمية عالية في اكتساب المعارف والمهارات اللازمة.

هدفت دراسة السعادات (٢٠٠٩م) إلى التعرف على إمكانية التدريب عن بعد باستخدام تقنيات التعليم عن بعد كما يراه المتدربون في مركز التدريب والإشراف التربوي بمدينة الدمام، وتكونت عينة الدراسة من ١١٩ متدرباً في المركز وجاءت نتائج الدراسة لتظهر أن هناك إمكانية التدريب عن بعد حيث أنه يوفر الكثير من الجهد والوقت والمال ويسائر التطورات المهنية والوظيفية المستمرة كما يمكن المتدرب من اختيار البرنامج الذي يناسب حاجاته واهتماماته.

وهدفت دراسة الشهراني (٢٠٠٩م) إلى التعرف على المطالب الواجب توفرها في عضو هيئة التدريس والبيئة التعليمية عند استخدام التعليم الإلكتروني ودرجة أهمية تلك المطالب، وقد استخدمت الدراسة المنهج الوصفي، وطبقت على عينة قوامها (٢٥٠) من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات السعودية وتوصلت إلى أن جميع المطالب اللازم توفرها في عضو هيئة التدريس وفي البيئة التعليمية تعتبر مطالب هامة لاستخدام التعليم الإلكتروني.

بينما هدفت دراسة التركي (٢٠١٠م) إلى تحديد متطلبات استخدام التعليم الإلكتروني والتعرف على مدى وجود اختلاف في تقدير أهمية هذه المتطلبات يعزى لبعض المتغيرات وذلك في كليات جامعة الملك سعود، واستخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي وطبقت على عينة قوامها (٢٧٨) عضو هيئة تدريس بالجامعة، وكان من أهم نتائجها التوصل إلى أن متطلبات المقرر الإلكتروني، ومتطلبات تدريب أعضاء هيئة التدريس كانت على درجة كبيرة من الأهمية من وجهة نظر العينة.

وهدفت دراسة حسين (٢٠١١م) إلى التعرف على اتجاهات أعضاء هيئة التدريس بالجامعات السعودية نحو استخدام نظام إدارة التعلم الإلكتروني جسور التابع للمركز الوطني للتعلم الإلكتروني، باستخدام المنهج الوصفي التحليلي ومقياس لاستطلاع الرأي وتم تطبيقه على عينة قوامها (٩٠) عضو هيئة تدريس ببعض كليات الجامعات السعودية، وتوصلت إلى نتائج أهمها وجود اتجاهات إيجابية لدى أعضاء هيئة التدريس بالجامعات السعودية نحو نظام إدارة التعلم الإلكتروني جسور رغم عدم تفعيل استخدامه بشكل كاف، وأظهرت عينة الدراسة مدى حاجاتهم للتدريب على استخدام النظام وبخاصة إدارة محتوى التعلم ومشاركة الملفات والمنتديات وبنك الأسئلة، كما توصلت الدراسة إلى عدم وجود فروق في الاتجاهات نحو استخدام النظام بين أعضاء هيئة التدريس بين نوعيات الكليات الإنسانية والعلمية والصحية.

وهدفت دراسة أبو خطوة (٢٠١٢م) إلى تصميم وإنتاج برنامج مقترح للتدريب عن بعد بمساعدة الفصول الافتراضية وقياس أثره في تنمية مهارات التقويم الإلكتروني باستخدام نظام مودل Moodle، والاتجاه نحو التدريب عن بعد لدى أعضاء هيئة التدريس في الجامعة الخليجية، مستخدماً المنهج التجريبي على عينة قوامها (١٨)

عضو هيئة تدريس، وأظهرت نتائجها أن حجم التأثير للبرنامج التدريبي كبير جداً في تنمية الجانب المعرفي والأدائي لمهارات التقويم الإلكتروني، كما أن تأثير البرنامج كبير جداً في تنمية الاتجاه نحو التدريب الإلكتروني.

وهدف دراسة الحبابي (٢٠١٣م) إلى تقييم فعالية التدريب الإلكتروني غير المتزامن في تدريب أعضاء هيئة التدريس من خلال تجربة عمادة التعلم الإلكتروني بجامعة الملك خالد في التدريب الإلكتروني غير المتزامن لأعضاء هيئة التدريس على استخدام أنظمة وأدوات التعلم الإلكتروني، وتوصلت إلى نتائج أهمها أن طريقة التدريب الإلكتروني غير المتزامن فعالة وتحقق الأهداف وملائمة لطبيعة العمل الأكاديمي لعضو هيئة التدريس، كما ساهمت في توضيح مفاهيم التعلم الإلكتروني لأعضاء هيئة التدريس وغيرت كثيراً من قناعاتهم السابقة عن التعلم الإلكتروني.

هدفت الدراسة الموزان (٢٠١٥م) إلى التعرف على مناسبة استراتيجيات التدريب الإلكتروني المتبعة في التدريب على نظام إدارة التعلم الإلكتروني (البلاك بورد - Black board) وأدواته المختلفة من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس بجامعة الأميرة نوره بنت عبد الرحمن، وما اكتسبته من مهارات وقناعات بعد اجتيازها للبرنامج التدريبي، وتكونت عينة الدراسة من (٣٠) من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الأميرة نوره، واستخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، تم استخدام الاستبانة كأداة للدراسة، وتوصلت إلى مجموعة من النتائج أهمها عدم مناسبة استراتيجيات التدريب غير التزامنية المتبعة في البرنامج التدريبي من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس وفقاً للعوامل المرتبطة بها، وتوصلت إلى أن أعضاء هيئة التدريس بحاجة للمزيد من المهارات على توظيف التعليم الإلكتروني إضافة لعدم التمكن من توظيف المهارات المكتسبة من البرنامج في العملية التعليمية حتى بعد اجتياز البرنامج التدريبي، كما أظهرت نتائج الدراسة تكون قناعات إيجابية نحو البرنامج التدريبي بعد اجتيازه على الرغم من عدم التمكن من تفعيله بشكل كاف.

التعليق على الدراسات السابقة :

يتضح من الدراسات السابقة أن التدريب عن بعد سمة من سمات العصر والذي تتبناه مؤسسات عدة لتدريب منسوبيها وموظفيها نتيجة للتطور الحاصل في وسائل الاتصال وأجهزة الحاسبات وكنوع من أنواع تنمية أعضاء هيئة التدريس والموظفين،

وخصوصاً في المؤسسات التعليمية والجامعات، فقد أكدت نتائج الدراسات السابقة أن التدريب عن بعد يتصف بالمرونة ويمكن المتدربين من اختيار الوقت ومكان الدراسة ويغطي مساحات جغرافية واسعة، ويوفر الكثير من الجهد والوقت والمال ويساير التطورات المهنية والوظيفية، وأن اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو التدريب عن بعد كانت إيجابية وحقق لهم عدداً من الفوائد منها تنمية الجانب المعرفي والأدائي لهم، وعلى الرغم من فعالية طريقة التدريب عن بعد غير المتزامنة ومناسبتها لطبيعة العمل الأكاديمي لعضو هيئة التدريس، إلا أن طريق التدريب عن بعد التزامني كان أفضل وأكثر فعالية وحقق نتائج جيدة لأعضاء هيئة التدريس.

وأكدت نتائج الدراسات السابقة على ضرورة توفير المتطلبات اللازمة لنجاح التدريب عن بعد من بنية تحتية متكاملة ووسائل اتصال فعالة وأجهزة حاسب آلي كافية ومتوافقة مع المواصفات المطلوبة، وتمكين أعضاء هيئة التدريس من عمليات التدريب عن بعد.

منهج وإجراءات الدراسة :

منهج الدراسة :

تنتمي الدراسة إلى الدراسات الوصفية التي تستهدف تحليل ودراسة الحقائق المتعلقة بطبيعة المشكلة، حيث اعتمدت الدراسة الحالية على المنهج الوصفي المسحي للإجابة عن أسئلة الدراسة وتحقيق أهدافها. والذي يقصد به ذلك النوع من البحوث الذي يتم بواسطته استجواب جميع أفراد مجتمع الدراسة أو عينة ممثلة لهم؛ وذلك بهدف وصف الظاهرة المدروسة من حيث طبيعتها ودرجة وجودها، دون أن يتجاوز ذلك إلى دراسة العلاقة أو استنتاج الأسباب (العساف، ١٤٢٧هـ).

مجتمع الدراسة :

تكون مجتمع الدراسة من جميع أعضاء هيئة التدريس رجالاً ونساءً الذين التحقوا ببرامج تدريبية عن بعد عن طريق المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد خلال العام الدراسي ١٤٣٦هـ/١٤٣٧هـ والبالغ عددهم (١٠٥٧) عضو هيئة تدريس بالجامعات السعودية، وفق إحصائية المركز الوطني. (المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد، ٢٠١٦).

عينة الدراسة:

تم اختيار عينة عشوائية من مجتمع الدراسة بلغ عددهم (٣٥٠) عضو هيئة تدريس تمثل نسبة ٢٣٪ من مجتمع الدراسة، ونظراً لكبر حجم المجتمع وتنوعه من جامعات سعودية مختلفة، تم اختيار العينة بطريقة عشوائية عن طريق الحاسب الآلي، والتوزيع عن طريق قاعدة البيانات الموجودة في المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد، وتم توزيع أدوات الدراسة عليهم إلكترونياً عن طريق معلوماتهم وبريدهم الإلكتروني المخزنة في قاعدة بيانات المركز.

أدوات الدراسة:

للإجابة على أسئلة الدراسة قام الباحث بتصميم استبانة تكونت من ثلاثة محاور رئيسية:
المحور الأول: اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم، وتكون المحور من ثلاثة أبعاد و(٣٣) عبارة هي:

- **البعد الأول:** الإداري والتنظيمي وتكون من (١١) عبارة.
- **البعد الثاني:** البعد المهني وتكون من (١٢) عبارة.
- **البعد الثالث:** البعد التقني وتكون من (١٠) عبارات.

ولمعرفة اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو دور التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم استخدم الباحث مقياس رباعي متدرج من أربعة نقاط، حيث تم تحديد الدرجات من (١) إلى (٤) لقياس درجة الموافقة لأي عبارة، حيث تشير الدرجة (٤) إلى موافق بشدة، و(٣) إلى موافق، و(٢) إلى غير موافق، و(١) إلى غير موافق بشدة.

المحور الثاني: الصعوبات التي تواجه تنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس باستخدام التدريب عن بعد، عبارة عن سؤال مفتوح موجه لأفراد الدراسة.

المحور الثالث: المقترحات التي تسهم في تنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس باستخدام التدريب عن بعد، عبارة عن سؤال مفتوح موجه لأفراد الدراسة.

صدق أداة الدراسة: للتأكد من صدق أداة الدراسة في محاورها وعباراتها وأنها تقيس ما صممت من أجله، قام الباحث بإجراءات الصدق التالية:

الصدق الظاهري: تم عرض أداة الدراسة على عدد من المتخصصين في مجال الإدارة والتدريب بلغ عددهم (١٣) محكماً علمياً، قاموا بتحكيما لتصبح جاهزة للتطبيق.

صدق الاتساق الداخلي: للتأكد من صدق الاتساق الداخلي للأداة، تم حساب قيمة الصدق الداخلي باستخدام معامل ارتباط بيرسون للمحور الأول الخاص باتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو دور التدريب عن بعد بأبعاده الثلاثة: الإداري والتنظيمي والمهني والتقني، وجاءت قيم معاملات الصدق على النحو التالي:

أولاً: صدق الاتساق الداخلي لمحور اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو (البعد الإداري والتنظيمي):

جدول (٢)

معاملات ارتباط بيرسون لكل عبارة من عبارات البعد الأول (الإداري والتنظيمي) بالدرجة الكلية للمحور

م	العبارة (اكسبني التدريب عن بعد:)	معامل ارتباط بيرسون
١	معارف جديدة في مجال العمل	٠,٩١٤ ×
٢	مهارات جديدة في مجال العمل	٠,٩٠٥ ×
٣	اتجاهات إيجابية نحو العمل	٠,٨٩٤ ×
٤	تحسين أدائي في بيئة العمل	٠,٩١٤ ×
٥	تقليل مشاكل العمل والتخلص منها	٠,٨٧٠ ×
٦	تطوير أدائي الإداري والتنظيمي	٠,٨٧٠ ×
٧	حل مشكلات العمل التي تواجهني صورة أفضل	٠,٩١٣ ×
٨	التكيف مع متطلبات العمل الجديدة	٠,٩٢١ ×
٩	تمية كفاءتي الإنتاجية ضمن مجموعة العمل	٠,٩٠٥ ×
١٠	الانسجام مع المواقف المختلفة في بيئة العمل	٠,٨٩٨ ×
١١	زيادة قدرتي الإبداعية في العمل	٠,٨٥٦ ×

× مستوى الدلالة الإحصائية (٠,٠١)

يتضح من جدول (٢) أن قيم معاملات الارتباط موجبة وعالية ودالة إحصائياً عند مستوى الدلالة (٠,٠١) مما يشير إلى الاتساق الداخلي بين عبارات البعد (الإداري والتنظيمي) والدرجة الكلية للمحور.

ثانياً: صدق الاتساق الداخلي لمحور اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو (البعد المهني):

جدول (٣)

معاملات ارتباط بيرسون لكل عبارة من عبارات البعد الثاني (المهني) بالدرجة الكلية للمحور

م	العبارة (اكسبني التدريب عن بعد :)	معامل ارتباط بيرسون
١	تفعيل عملية التعليم والتعلم	٠,٩٠٤ ×
٢	تصميم سيناريو الدروس بشكل بسيط ومنظم	٠,٩٥٤ ×
٣	تحسين نوعية المواد التعليمية والتدريبية	٠,٨٧٢ ×
٤	مهارات في التعليم والتعلم	٠,٩٥١ ×
٥	توظيف معارف ومهارات التعلم في العملية التعليمية	٠,٩٥١ ×
٦	رفع مستواي الثقافى والمهني	٠,٨٩٦ ×
٧	تنظيم المحتوى التعليمي بشكل منطقي	٠,٩٥٤ ×
٨	تقديم الأنشطة التعليمية بشكل تفاعلي	٠,٩١٧ ×
٩	تطوير أساليب التقويم في العملية التعليمية	٠,٩٥٤ ×
١٠	تصميم عناصر الدرس ومحتوياته باستخدام برامج التصميم	٠,٨٩١ ×
١١	استراتيجيات حديثة في التدريس	٠,٨٥٩ ×
١٢	تقديم التغذية الراجعة بصورة دورية	٠,٨٨٠ ×

× مستوى الدلالة الإحصائية (٠,٠١)

يتضح من جدول (٣) أن قيم معاملات الارتباط موجبة وعالية ودالة إحصائياً عند مستوى الدلالة (٠,٠١) مما يشير إلى الاتساق الداخلي بين عبارات البعد (المهني) والدرجة الكلية للمحور.

ثالثاً: صدق الاتساق الداخلي لمحور اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو (البعد التقني):

جدول (٤)

معاملات ارتباط بيرسون لكل عبارة من عبارات البعد الثالث (التقني) بالدرجة الكلية للمحور

م	العبارة (اكسبني التدريب عن بعد:)	معامل ارتباط بيرسون
١	تبادل المعلومات باستخدام التقنية بغرض التعليم والتدريب	٠,٩٤٣ ×
٢	توظيف التقنية في تصميم الوحدات التعليمية	٠,٩٢٤ ×
٣	كتابة المحتوى التعليمي ليكون على شكل نص مقروء	٠,٩٤١ ×
٤	تطوير المحتوى التعليمي في شكل صوت مسموع	٠,٨٤٧ ×
٥	التعامل مع أنظمة إدارة التعليم والتعلم بفعالية	٠,٨٤٨ ×
٦	توظيف التقنية في إجراءات عمليات الاختبارات والتقييم	٠,٩٢٢ ×
٧	القدرة على تصميم المحتوى التعليمي إلكترونياً	٠,٨٨٠ ×
٨	استخدام التطبيقات الحاسوبية في عمليات التعليم والتعلم	٠,٩١١ ×
٩	تنفيذ الدروس التعليمية باستخدام التقنية	٠,٩٣٨ ×
١٠	توظيف معارف ومهارات التعليم الإلكتروني في العملية التعليمية	٠,٨٩٨ ×

× مستوى الدلالة الإحصائية (٠,٠١)

يتضح من جدول (٤) أن قيم معاملات الارتباط موجبة وعالية ودالة إحصائياً عند مستوى الدلالة (٠,٠١) مما يشير إلى الاتساق الداخلي بين عبارات البعد (التقني) والدرجة الكلية للمحور.

ثبات أداة الدراسة:

تم التأكد من ثبات أداة الدراسة باستخدام معامل الثبات "الفاكرونباخ" ويوضح الجدول (٥) معامل الثبات لكل بعد من أبعاد المحور الأول الخاص باتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم.

جدول (٥)

معامل الثبات لكل بعد من أبعاد محور اتجاهات أعضاء هيئة التدريس مع الثبات الكلي للأداة

م	البعد	معامل الثبات
١	الإداري والتنظيمي	٠,٩٧٥
٢	المهني	٠,٩٨١
٣	التقني	٠,٩٧٢
	الثبات الكلي للأداة	٠,٩٧٦

يتضح من جدول (٥) أن قيم معاملات الثبات لكل بعد من أبعاد اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم مرتفعة، مما يدل على أنها تتمتع بدرجة عالية من الثبات يمكن الاعتماد عليها.

المعالجة الإحصائية: استخدم الباحث لتحليل بيانات الدراسة ومعالجتها إحصائياً البرنامج الإحصائي (spss)، Statistical Package for Social Sciences (الحزم الإحصائية للعلوم الاجتماعية)، ومن ثم استخراج الباحث النتائج وقام بتفسيرها.

تم تفسير البيانات وفقاً لمقياس المتوسط التالي:

- موافق بشدة يكون في الفئة (٣,٢٦ - ٤,٠٠)
- موافق يكون في الفئة (٢,٥١ - ٣,٢٥)
- غير موافق يكون في الفئة (١,٧٦ - ٢,٥٠)
- غير موافق بشدة يكون في الفئة (١,٠٠ - ١,٧٥)

وقد استخدم الباحث الأساليب الإحصائية التالية:

- المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية، والترتيب لاستجابات أفراد مجتمع الدراسة للعبارة حسب قيم المتوسط الحسابي.
- معامل ارتباط بيرسون؛ للتحقق من الاتساق الداخلي لعبارة أداة الدراسة.
- معادلة الفا كرونباخ، للتحقق من ثبات أداة الدراسة.

عرض وتحليل نتائج الدراسة :

فيما يلي عرض لنتائج الإجابة على أسئلة الدراسة، والتي جاءت على النحو التالي:

إجابة السؤال الأول:

للإجابة على السؤال الأول تم إيجاد قيم المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لإجابات عينة الدراسة من أعضاء هيئة التدريس حول اتجاهاتهم نحو التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم بأبعاده الثلاث:

أولاً: لمعرفة اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو البعد الإداري والتنظيمي، تم حساب قيم المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لإجابات عينة الدراسة التي جاءت على النحو التالي:

جدول (٦)

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لاتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو البعد الإداري والتنظيمي

م	العبارة (اكسبني التدريب عن بعد :)	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الترتيب
١	معارف جديدة في مجال العمل	٢,٨٨	٠,٧٨	٢
٢	مهارات جديدة في مجال العمل	٢,٥٦	٠,٦٣	٧
٣	اتجاهات إيجابية نحو العمل	٢,٥٧	٠,٧٣	٦
٤	تحسين أدائي في بيئة العمل	٢,٩١	٠,٧٢	١
٥	تقليل مشاكل العمل والتخلص منها	٢,٣١	٠,٦٠	٩
٦	تطوير أدائي الإداري والتنظيمي	٢,٣٢	٠,٦٢	٨
٧	حل مشكلات العمل التي تواجهني بصورة أفضل	٢,٧٥	٠,٦٧	٣
٨	التكيف مع متطلبات العمل الجديدة	٢,٦٣	٠,٧٨	٥
٩	تنمية كفاءتي الإنتاجية ضمن مجموعة العمل	٢,٦٣	٠,٦٢	٤
١٠	الانسجام مع المواقف المختلفة في بيئة العمل	٢,٢٥	٠,٦٨	١٠
١١	زيادة قدرتي الإبداعية في العمل	٢,١٣	٠,٦٢	١١
	المتوسط الحسابي العام للبعد التقني	٢,٥٤	٠,٦٨	

يتضح من جدول (٦) أن قيمة المتوسط الحسابي العام للبعد الإداري والتنظيمي لمحور اتجاهات أعضاء هيئة التدريس هي (٥٤, ٢) وقيمة الانحراف المعياري هي (٦٨, ٠)، وهذه القيمة تقع في الفئة الثانية من المقياس، والتي تشير إلى درجة "موافق" لعينة الدراسة على البعد الإداري والتنظيمي، مع وجود تشتت متوسط بين إجابات عينة الدراسة، وهذا يدل على أن التدريب عن بعد كان له دور في تحسين أداء أعضاء هيئة التدريس في بيئة العمل، وأكسبهم معارف ومهارات جديدة في مجال العمل، وساهم التدريب عن بعد في حل المشكلات التي تواجه أعضاء هيئة التدريس في بيئة العمل التعليمية، وشجعهم على العمل الجماعي والتعاوني، وكوّن لديهم اتجاهات إيجابية نحو العمل، وتتفق هذه النتيجة مع نتيجة دراسة كل من (جامعة نبراسكا، ٢٠٠٥م) و(البجادي، ٢٠٠٨م) و(أبوخطوة، ٢٠١٣م) والتي أكدت أن التدريب عن بعد قدم معلومات جديدة ومفيدة، وكان اتجاه أعضاء هيئة التدريس نحوه اتجاه إيجابي.

وتشير قيم المتوسط الحسابي والانحراف المعياري لإجابات عينة الدراسة نحو عبارات البعد الإداري والتنظيمي إلى حصول (٧) عبارات على درجة "موافق"، وحصول (٤) عبارات على درجة غير موافق، ويمكن توضيح ذلك على النحو التالي:

- حصلت العبارات (٢، ٣، ٨، ٩، ٧، ١، ٤) توالياً على قيم متوسط حسابي تراوحت بين (٥٦، ٢-٩١، ٢) بدرجة "موافق" وانحراف معياري تراوحت قيمته بين (٦٢، ٠-٧٨، ٠) مما يعني وجود تشتت متوسط حول تلك الإجابات، ويمكن تفسير تلك النتائج إلى أنه يمكن إكساب المتدربين معارف ومهارات جديدة واتجاهات إيجابية باستخدام التدريب عن بعد، وأنه لا يختلف في تحقيق النتائج عن التدريب التقليدي، وأيضاً ساهم التدريب عن بعد في تكيف أعضاء هيئة التدريس مع متطلبات العمل الجديدة وخصوصاً المرتبطة بتفعيل التقنية في العملية التعليمية وبيئة العمل، ولأن التدريب عن بعد يساهم في تنمية قدراتهم على الاعتماد على الذات وتوظيف وسائل الاتصال لخدمة التنمية الإدارية والنمو المهني.

- حصلت العبارات (١١، ١٠، ٥، ٦) توالياً على قيم متوسط حسابي تراوحت بين (١٣، ٢-٣٢، ٢) بدرجة "غير موافق" وانحراف معياري تراوحت قيمته بين (٦٠، ٠ - ٦٨، ٠) مما يعني وجود تشتت متوسط حول تلك الإجابات، ويمكن تفسير حصول

تلك النتائج على عدم الموافقة إلى أن تطوير الأداء في بيئة العمل وتقليل مشاكل العمل مرتبط بمنظومة مؤسسية وإدارية لها الدور الأكبر في تطوير بيئة العمل التعليمية وتطوير أداء أعضاء هيئة التدريس، بالإضافة إلى أن برامج التدريب عن بعد لم تسهم بشكل مباشر في زيادة القدرة الإبداعية لأعضاء هيئة التدريس في بيئة العمل، وقد يكون السبب في ذلك عدم اقتناع أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية باستخدام وسائط التقنية في التدريب عن بعد.

ثانياً: معرفة اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو البعد المهني، تم حساب قيم المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لإجابات عينة الدراسة التي جاءت على النحو التالي:

جدول (٧)

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لاتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو البعد (المهني)

م	العبارة (اكسني التدريب عن بعد :)	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الترتيب
١	تفعيل عملية التعليم والتعلم	٣,١٣	٠,٨١	١
٢	تصميم سيناريو الدروس بشكل بسيط ومنظم	٢,٨١	٠,٦٦	٧
٣	تحسين نوعية المواد التعليمية والتدريبية	٣,٠٠	٠,٦٣	٢
٤	مهارات في التعليم والتعلم	٢,٨٨	٠,٧٢	٤
٥	توظيف معارف ومهارات التعلم في العملية التعليمية	٢,٨٨	٠,٨٢	٥
٦	رفع مستواي التقايف والمهني	٢,٤٤	٠,٨١	١١
٧	تنظيم المحتوى التعليمي بشكل منطقي	٢,٨٣	٠,٦٨	٦
٨	تقديم الأنشطة التعليمية بشكل تفاعلي	٢,٦٩	٠,٧٠	٩
٩	تطوير أساليب التقويم في العملية التعليمية	٢,٧٨	٠,٦٨	٨
١٠	تصميم عناصر الدرس ومحتوياته باستخدام برامج التصميم	٢,٥٠	٠,٧٣	١٠
١١	استراتيجيات حديثة في التدريس	٢,٩٤	٠,٥٧	٣
١٢	تقديم التغذية الراجعة بصورة دورية	٢,٣١	٠,٧٩	١٢
	المتوسط الحسابي العام للبعد التقني	٢,٧٦	٠,٧٢	

يتضح من جدول (٧) أن قيمة المتوسط الحسابي العام للبعد المهني لمحور اتجاهات أعضاء هيئة التدريس هي (٢,٧٦) وقيمة الانحراف المعياري هي (٠,٧٢)، وهذه

القيمة تقع في الفئة الثانية من المقياس، والتي تشير إلى درجة "موافق" لعينة الدراسة على البعد المهني، مع وجود تشتت متوسط بين إجابات عينة الدراسة، وهذا يدل على أن التدريب عن بعد كان له دور كبير في تطوير أداء أعضاء هيئة التدريس مهنيًا ويتضح ذلك من خلال تفعيل عملية التعليم والتعلم، وتحسين نوعية المواد التعليمية والتدريبية، وتوظيف طرق وأساليب حديثة في التدريس، وأكسبهم معارف ومهارات جديدة في العملية التعليمية، وتتفق هذه النتيجة مع نتيجة دراسة كل من (بلفقيه، ٢٠٠٦م) و(التركي، ٢٠١٠م) و(حسين، ٢٠١١م) والتي أكدت أن التدريب عن بعد اسهم في تطوير أدائهم باستخدام وسائل الاتصال والتقنية وتوظيفها في العملية التعليمية، وأن متطلبات التدريب الإلكتروني والتدريب عن بعد مهمة لإكساب المتدربين أهداف التدريب.

وتشير قيم المتوسط الحسابي والانحراف المعياري لإجابات عينة الدراسة نحو عبارات البعد المهني إلى حصول (٩) عبارات على درجة "موافق"، وحصول (٣) عبارات على درجة غير موافق، ويمكن توضيح ذلك على النحو التالي:

- حصلت العبارات (٨، ٩، ٢، ٧، ٥، ٤، ١١، ٣، ١) توالياً على قيم متوسط حسابي تراوحت بين (٦٩، ٢-١٣، ٣) بدرجة "موافق" وانحراف معياري تراوحت قيمته بين (٥٧، ٠-٨١، ٠) مما يعني وجود تشتت متوسط حول تلك الإجابات، ويمكن تفسير تلك النتائج إلى أن التدريب عن بعد حقق الأهداف المطلوبة ومنها تفعيل أعضاء هيئة التدريس لعملية التعليم والتعلم من خلال المعارف والمهارات التي تم اكتسابها، وتحسين المواد التعليمية والتدريبية، وتوظيف استراتيجيات حديثة في التدريس، وتنظيم المحتوى التعليمي بشكل تفاعلي وعلمي، ويعود السبب لما يتميز به التدريب عن بعد من مرونة، واستجابته لخطط التنمية الإدارية في الأجهزة الحكومية.

- حصلت العبارات (١٢، ٦، ١٠) توالياً على قيم متوسط حسابي تراوحت بين (٣١، ٢-٥٠، ٢) بدرجة "غير موافق" وانحراف معياري تراوحت قيمته بين (٧٣، ٠-٨١، ٠) مما يعني وجود تشتت متوسط حول تلك الإجابات، ويمكن تفسير حصول تلك النتائج على عدم الموافقة إلى أن تصميم الدروس عن طريق برامج التصميم يحتاج إلى برامج تدريبية تطبيقية ونوعية طويلة ومستمرة وليست قصيرة، وأيضاً رفع المستوى

الثقافة والمهني لأعضاء هيئة التدريس هو عملية يؤدي الزمن والاستمرار والتكامل بين عدد من الجهات دوراً مهماً وأساسياً في ذلك، وتقديم التغذية الراجعة بصورة مستمرة يحتاج تدريب نوعي وتطبيقي يتميز بالاستمرار والتقييم المباشر، وقد يكون السبب في ذلك نقص الكوادر البشرية الفنية المتخصصة في التدريب عن بعد.

ثالثاً: معرفة اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو البعد التقني، تم حساب قيم المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لإجابات عينة الدراسة التي جاءت على النحو التالي:

جدول (٨)

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لاتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو البعد (التقني)

م	العبارة (اكسبني التدريب عن بعد)	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الترتيب
١	تبادل المعلومات باستخدام التقنية بغرض التعليم والتدريب	٢,٨٩	٠,٧٢	٢
٢	توظيف التقنية في تصميم الوحدات التعليمية	٢,٥٠	٠,٨٢	٨
٣	كتابة المحتوى التعليمي ليكون على شكل نص مقروء	٢,٧٥	٠,٦٨	٦
٤	تطوير المحتوى التعليمي في شكل صوت مسموع	٢,٢٢	٠,٩٦	١٠
٥	التعامل مع أنظمة إدارة التعليم والتعلم بفعالية	٢,٧٨	٠,٥٨	٥
٦	توظيف التقنية في إجراءات عمليات الاختبارات والتقييم	٢,٦٩	٠,٧٩	٧
٧	القدرة على تصميم المحتوى التعليمي إلكترونياً	٢,٤٤	٠,٧٣	٩
٨	استخدام التطبيقات الحاسوبية في عمليات التعليم والتعلم	٢,٩٤	٠,٦٨	١
٩	تنفيذ الدروس التعليمية باستخدام التقنية	٢,٨١	٠,٦٦	٤
١٠	توظيف معارف ومهارات التعليم الإلكتروني في العملية التعليمية	٢,٨٨	٠,٦٢	٣
	المتوسط الحسابي العام للبعد التقني	٢,٦٩	٠,٧٢	

يتضح من جدول (٨) أن قيمة المتوسط الحسابي العام للبعد التقني محور اتجاهات أعضاء هيئة التدريس هي (٢,٦٩) وقيمة الانحراف المعياري هي (٠,٧٢)، وهذه القيمة تقع في الفئة الثانية من المقياس، والتي تشير إلى درجة "موافق" لعينة الدراسة على البعد التقني، مع وجود تشتت متوسط بين إجابات عينة الدراسة، وهذا يدل على أن التدريب عن بعد اكسب المتدربين استخدام تطبيقات الحاسب في عمليات التعليم

والتعلم، وتبادل المعلومات التعليمية بواسطتها، وتوظيف التقنية في العملية التعليمية وفي إجراءات عمليات الاختبارات والتقويم، ويمكن تفسير ذلك بأن هدف ومحتوى البرامج التدريبية صممت وركزت على تفعيل التقنية تعليماً وتعلماً، وتتفق هذه النتيجة مع نتيجة دراسة كل من (الجبالي، ٢٠١٣م) و (الموزان، ٢٠١٥م) واللتان أكدتا أن التدريب الإلكتروني ساهم في توضيح مفاهيم التعليم والتعلم الإلكتروني لأعضاء هيئة التدريس وغيرت كثيراً من قناعاتهم السابقة عن التعليم والتدريب الإلكتروني، وأن أعضاء هيئة التدريس بحاجة إلى المزيد من المهارات على توظيف التعليم الإلكتروني في البيئة التعليمية.

وتشير قيم المتوسط الحسابي والانحراف المعياري لإجابات عينة الدراسة نحو عبارات البعد التقني إلى حصول (٧) عبارات على درجة "موافق"، وحصول (٢) عبارات على درجة غير موافق، ويمكن توضيح ذلك على النحو التالي:

- حصلت العبارات (٦، ٣، ٥، ٩، ١٠، ١، ٨) تالياً على قيم متوسط حسابي تراوحت بين (٦٩، ٢ - ٩٤، ٢) بدرجة "موافق" وانحراف معياري تراوحت قيمته بين (٥٨، ٠ - ٧٩، ٠) مما يعني وجود تشتت متوسط حول تلك الإجابات، ويمكن تفسير تلك النتائج إلى أن تركيز برامج التدريب عن بعد التي يقدمها المركز الوطني على تفعيل وتوظيف التقنية في التعليم والتعلم من حيث الأهداف والمحتوى والتصميم اسهم في تحقيق تلك النتائج، وغير من قناعات واتجاهات أعضاء هيئة التدريس حول استخدام التقنية في العملية التعليمية تغييراً إيجابياً، واكتسبوا المهارات والمعارف اللازمة.

- حصلت العبارات (٤، ٧، ٢) تالياً على قيم متوسط حسابي تراوحت بين (٢٢، ٢ - ٥٠، ٢) بدرجة "غير موافق" وانحراف معياري تراوحت قيمته بين (٧٣، ٠ - ٩٦، ٠) مما يعني وجود تشتت متوسط حول تلك الإجابات، ويمكن تفسير حصول تلك النتائج على عدم الموافقة إلى أن تصميم الوحدات التعليمية باستخدام التقنية يحتاج إلى تدريبات تطبيقية ومستمرة وبشكل تفاعلي ومباشر خصوصاً في بداية مثل تلك البرامج، ويحتاج تحويل المحتوى التعليمي إلى صوت مسموع إلى عمل منهجي وتكاملي لكي يحقق أهداف العملية التعليمية.

إجابة السؤال الثاني:

للإجابة على السؤال الثاني المفتوح والمتعلق بالصعوبات التي تواجه تنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس باستخدام التدريب عن بعد، قام الباحث بتحليل جميع إجابات عينة الدراسة، بحيث أن العبارات التي تكررت ثلاثة مرات فأكثر تم إدراجها ضمن الصعوبات، وتم ترتيب الصعوبات حسب تكرارها في إجابات عينة الدراسة من أعضاء هيئة التدريس، وجاء ترتيب الصعوبات على النحو التالي:

- ضعف التهيئة للبرنامج التدريبي ومتطلباته أو تهيئة المشاركين به.
- قلة الاعتماد هذا النوع من التدريب في الجامعة والمؤسسات التعليمية.
- ضغوط العمل الأكاديمي والإداري لعضو هيئة التدريس.
- ضعف التشجيع والتقدير لمثل هذه الدورات.
- ضعف الإلمام الكاف بالتقنية وعدم القناعة بما تقدم.
- افتقاد التفاعل المطلوب في البرنامج التدريبي.
- غياب الأنشطة التدريبية المعززة للتدريب.
- غياب مراعاة الاحتياجات التدريبية للمتدربين.
- مشاكل الاتصال والتواصل التي تحدث باستمرار أثناء البرنامج التدريبي.
- افتقاد مثل هذا النوع من التدريب لأساليب التقويم المباشرة.
- افتقاد تناسب وقت البرنامج مع ظروف المتدربين.

ويتضح من إجابات عينة الدراسة أن الصعوبات التي تواجه تنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس باستخدام التدريب عن بعد يمكن تقسيمها إلى:

١. صعوبات في التقنية من حيث توفيرها وجودتها وضمان استمرارها وعدم انقطاعها.
٢. صعوبات متعلقة بأعضاء هيئة التدريس من حيث قناعتهم وتفاعلهم ومراعاة ظروفهم.
٢. صعوبات إدارية وتنظيمية من حيث وضع السياسات والإجراءات والتنظيمات التي تشجع على مثل تلك البرامج وتدعمها وتعتمدها.

٤. صعوبات متعلقة بالبرامج التدريبية من حيث شموليتها ومناسبتها وتليبيتها للاحتياجات التدريبية.

إجابة السؤال الثالث:

للإجابة على السؤال الثالث المفتوح والمتعلق بالمقترحات الإجرائية التي تسهم في تفعيل استخدام التدريب عن بعد لتنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية، قام الباحث بتحليل جميع إجابات عينة الدراسة، بحيث أن العبارات التي تكررت ثلاثة مرات فأكثر تم إدراجها ضمن المقترحات، وتم ترتيب المقترحات حسب تكرارها في إجابات عينة الدراسة من أعضاء هيئة التدريس، وجاء ترتيب المقترحات على النحو التالي:

- تبني الجهات الرسمية بشكل واضح التنمية القائمة على التدريب عن بعد.
- التوعية والتثقيف بقيمة هذا النوع من التدريب وتبنيه باعتباره خياراً اقتصادياً واستراتيجياً.
- تشجيع أعضاء هيئة التدريس على استخدام مثل هذا النوع من التدريب.
- الاستمرار في تقديم برامج التدريب عن بعد، وربط البرنامج بالاحتياج التدريبي.
- توفير برامج تدريبية متزامنة وغير متزامنة لتتوافق مع ظروف كل متدرب.
- تصميم البرامج التدريبية بناءً على الاحتياجات التدريبية.
- توفير العوامل التي تساعد على نجاح التدريب عن بعد.
- مراعاة الفروق الفردية بين المتدربين عند تصميم البرامج التدريبية.
- تعزيز وتوفير متطلبات نجاح التدريب عن بعد كأجهزة الحاسبات الحديثة والمتوافقة مع البرنامج وجودة الاتصالات المقدمة.
- المزج بين التدريب التقليدي والتدريب عن بعد.

خلاصة نتائج الدراسة:

توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

(١) أن اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم في البعد (الإداري والتنظيمي) قد أكسبهم:

- تحسين الأداء في بيئة العمل.
- معارف جديدة في مجال العمل.
- حل مشكلات العمل بصورة أفضل.
- تنمية الكفاءة الإنتاجية ضمن مجموعة العمل.
- التكيف مع متطلبات العمل الجديدة.
- اتجاهات إيجابية نحو العمل.
- مهارات جديدة في مجال العمل.
- تطوير الأداء الإداري والتنظيمي.
- تقليل مشاكل العمل والتخلص منها.
- الانسجام مع المواقف المختلفة في بيئة العمل.
- زيادة القدرة الإبداعية في العمل.

(٢) أن اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم في البعد (المهني) قد أكسبهم:

- تفعيل عملية التعليم والتعلم.
- تحسين نوعية المواد التعليمية والتدريبية.
- استراتيجيات حديثة في التدريس.
- مهارات في التعليم والتعلم.
- توظيف معارف ومهارات التعلم في العملية التعليمية.
- تنظيم المحتوى التعليمي بشكل منطقي.
- تصميم سيناريو الدروس بشكل بسيط ومنظم.
- تطوير أساليب التقويم في العملية التعليمية.
- تقديم الأنشطة التعليمية بشكل تفاعلي.
- تصميم عناصر الدرس ومحتوياته باستخدام برامج التصميم.
- رفع المستوى الثقافي والمهني.
- تقديم التغذية الراجعة بصورة دورية.

(٢) أن اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو التدريب عن بعد في تنمية قدراتهم في

البعد (التقني) قد أكسبهم:

- استخدام التطبيقات الحاسوبية في عمليات التعليم والتعلم.
- تبادل المعلومات باستخدام التقنية بغرض التعليم والتدريب.
- توظيف معارف ومهارات التعليم الإلكتروني في العملية التعليمية.
- تنفيذ الدروس التعليمية باستخدام التقنية.
- التعامل مع أنظمة إدارة التعليم والتعلم بفعالية.
- كتابة المحتوى التعليمي ليكون على شكل نص مقروء.
- توظيف التقنية في إجراءات عمليات الاختبارات والتقييم.
- توظيف التقنية في تصميم الوحدات التعليمية.
- القدرة على تصميم المحتوى التعليمي إلكترونياً.
- تطوير المحتوى التعليمي في شكل صوت مسموع.

التوصيات ومقترحات الدراسة :

بناء على النتائج التي توصلت لها الدراسة فإن الباحث وضع عدداً من التوصيات اللازمة لتطوير وتحسين التدريب عن بعد لأعضاء هيئة التدريس ومن أجل التغلب على الصعوبات التي تواجهه:

- تبني الجامعات السعودية لتنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس القائمة على التدريب عن بعد.
- وضع السياسات والإجراءات الإدارية والتنظيمية التي تدعم وتشجع برامج التدريب عن بعد في الجامعات السعودية ومؤسسات التعليم العالي.
- التنوع في تقديم برامج التدريب عن بعد بحيث تكون متزامنة وغير متزامنة لتناسب مع ظروف أعضاء هيئة التدريس وتساهم في تنمية قدراتهم.
- تصميم البرامج التدريبية عن بعد وفقاً للاحتياجات التدريبية لأعضاء هيئة التدريس.
- توفير متطلبات نجاح برامج التدريب عن بعد من بنية تحتية ووسائل اتصال عالية الجودة وحاسبات حديثة ومتوافقة مع البرامج، وتطبيقات حاسوبية سهلة الاستخدام.

- المزج بين التدريب التقليدي والتدريب عن بعد من أجل معالجة القصور الذي قد ينتج عن برامج تنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس.
- التكامل والترابط والتنوع في تصميم البرامج التدريبية لأعضاء هيئة التدريس.
- التوعية والتثقيف بقيمة التدريب عن بعد وباعتباره خياراً اقتصادياً استراتيجياً لتنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس.
- تشجيع ودعم أعضاء هيئة التدريس على الالتحاق ببرامج التدريب عن بعد.
- تصميم الأنشطة التدريبية لبرامج التدريب عن بعد بصورة تضمن التفاعل وتحقيق أهداف تنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس.

الدراسات المستقبلية :

- بناءً على نتائج الدراسة، يقترح الباحث عدداً من الدراسات المستقبلية ذات العلاقة بمتغيرات الدراسة والتي يرى ضرورة القيام بها وهي على النحو التالي:
- إجراء دراسة تقييمية لبرامج التدريب عن بعد لأعضاء هيئة التدريس.
 - إجراء دراسة عن متطلبات نجاح التدريب عن بعد في المؤسسات الحكومية والتعليمية.
 - إجراء دراسة مقارنة بين برامج التدريب عن بعد في المملكة وبعض الدول المتقدمة.

المصادر والمراجع

المراجع العربية :

١. أبوخطوة، السيد عبدالمولى (٢٠١٢م). أثر برنامج تدريب عن بعد بمساعدة الفصول الافتراضية في تنمية مهارات التقويم الإلكتروني والاتجاه نحو التدريب عن بعد لدى أعضاء هيئة التدريس. مجلة عجمان للدراسات والبحوث، ١٣ (١)، ٢٣-٥٦.
٢. البجادي، محمد أحمد (٢٠٠٨م). اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات السعودية نحو البرامج التدريبية الخاصة بالتعليم عن بعد عبر الإنترنت، مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، ١ (١)، ١٤٩-١٧٥.
٣. بلفقيه، مها محمد (٢٠٠٨م). التدريب عن بعد كمدخل لتأهيل وتنمية الموارد البشرية دراسة ميدانية على منسوبات جامعة الملك عبدالعزيز بجدة. رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الاقتصاد والإدارة، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة.
٤. التركي، عثمان تركي (٢٠١٠م). متطلبات استخدام التعليم الإلكتروني في كليات جامعة الملك سعود من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس. مجلة العلوم التربوية والنفسية، ١١ (١)، ١٥١-١٧٤.
٥. تريسي، وليام (٢٠٠٤م). تصميم نظم التدريب والتطوير. ترجمة: أحمد الجبالي، الرياض: معهد الإدارة العامة.
٦. الحبابي، محمد جار الله أحمد (٢٠١٣م). التدريب الإلكتروني لأعضاء هيئة التدريس على استخدام أنظمة التعلم الإلكتروني وأدواتها المختلفة، عرض تجربة مقرر مهارات التعلم الإلكتروني بجامعة الملك خالد. ورقة عمل مقدمة للمؤتمر الدولي الثالث للتعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد المنعقد في الفترة من ٢٢-٢٦ ربيع الأول ١٤٣٤هـ، الرياض.

٧. حسين، هشام بركات بشر (٢٠١١م). اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو استخدام نظام إدارة التعلم الإلكتروني جسور. مجلة القراءة والمعرفة، الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة، جامعة عين شمس، القاهرة.
٨. الخطيب، محمد أحمد (٢٠٠٢م). إدارة الموارد البشرية في عصر العولمة والاقتصاد الإلكتروني. القاهرة: مكتبة عين الشمس.
٩. سالم، أحمد (٢٠٠٤م). تكنولوجيا التعليم والتعليم الإلكتروني. الرياض. مكتبة الرشد.
١٠. السعادات، خليل إبراهيم (٢٠٠٣م). إمكانية استخدام التعليم عن بعد في برامج كليات الدراسات التطبيقية وخدمة المجتمع بجامعة الملك فيصل بالأحساء. مجلة تعليم الجماهير، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ع ٥٠.
١١. السعادات، خليل إبراهيم (٢٠٠٩م). إمكانية التدريب باستخدام تقنيات التعليم عن بعد دراسة ميدانية. دراسة مقدمة للمؤتمر التقني السعودي الخامس، الرياض، خلال الفترة ١١-١٤ يناير.
١٢. السنبل، عبدالعزيز (٢٠٠٣م). استشراف مستقبل التدريب عن بعد في المملكة العربية السعودية. الرياض: مركز بحوث كلية التربية، جامعة الملك سعود.
١٣. السيد، محمد آدم (٢٠٠٤م). تقنيات التدريب عن بعد. بحث مقدم إلى المؤتمر والمعرض التقني الثالث. المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني: الرياض.
١٤. الشهراني، ناصر عبد الله (٢٠٠٩م). مطالب استخدام التعليم الإلكتروني في تدريس العلوم الطبيعية من وجهة نظر المختصين، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
١٥. صيام، محمد وحيد (٢٠٠٥م). التعليم عن بعد كأحد نماذج التعليم العالي وبعض مجالات ضبط الجودة النوعية في أنظمتها. دراسة مقدمة إلى المؤتمر التربوي الخامس "جودة التعليم الجامعي" في الفترة من ١١ إلى ١٣ أبريل ٢٠٠٥م، جامعة البحرين، المنامة.
١٦. عبد الكريم، سعد خليفة (٢٠٠٦م). القضايا النظرية المستجدة في مجالات

- تكنولوجيا التعليم والتعلم عن بعد وكيفية توظيف بعضها في إثراء النظام التعليمي بسلطنة عمان. ورقة عمل مقدمة للمؤتمر الدولي للتعليم عن بعد في الفترة من ٢٧ إلى ٢٩ مارس، مسقط.
١٧. العساف، صالح حمد (١٤٢٧هـ). المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية. الطبعة الرابعة، مكتبة العبيكان، الرياض.
١٨. الغامدي، محمد عبدالله (٢٠٠٦م). فاعلية استخدام البث الفضائي المباشر والموجه في تدريب الطلاب عن بعد في المملكة العربية السعودية. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية: عمان.
١٩. مدني، محمد عطا (٢٠٠٧م). التعلم من بعد أهدافه وأسسّه وتطبيقاته العملية. عمان: دار الميسرة للنشر والتوزيع.
٢٠. المركز الوطني للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد. (٢٠١٦م). <http://www.elc.edu.sa> في ١٠ مايو ٢٠١٦م.
٢١. المطري، سالم (٢٠٠٥م). نموذج مقترح لإنشاء مركز تدريب عن بعد بالمديرية العامة للدفاع المدني في المملكة العربية السعودية. رسالة ماجستير غير منشورة، قسم العلوم الشرطية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية: الرياض.
٢٢. الموزان، أمل علي (٢٠١٥م). واقع التدريب الإلكتروني عن بعد على استخدام أنظمة التعلم الإلكتروني من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس بجامعة الأميرة نوره بنت عبدالرحمن. المجلة الدولية التربوية المتخصصة، ٤ (٨)، ٧٨-٩٩.
٢٣. نشوان، يعقوب حسين (٢٠٠٤م). إدارة التعليم عن بعد والتعليم الجامعي المفتوح. عمان. دار الفرقان.
٢٤. وزارة التعليم العالي (٢٠٠٦م). النظام الأمثل للتعليم الإلكتروني والتعليم عن بعد للتعليم العالي بالمملكة العربية السعودية، الرياض.

References:

1. Dee, J and Daly, C. (2009). Innovative models for organizing faculty development programs pedagogical reflexivity, student learning empathy, and faculty agency, *Human Architecture: Journal of The Sociology of self-Knowledge*, VII (1), 122-.
2. Global e-Training Center (2011). E-Training Advantage, Available, Available online at: <http://www.globaletraining.ca/Advantages/> ,(Retrieved April, 2016)
3. National Center for e-Learning and Distance Education. (2016). <http://www.elc.edu.sa> on 10 May 2016.
4. Nicholson, P (2010). E-training or E-learning? Towards a synthesis for the knowledge-era workplace, Available on line at: <http://www.springerlink.com/content/962w05805001334n/> ,(Retrieved April 2016).
5. Regino, R. (2009). Teacher perceptions of their training to teach online within community colleges in one region in California (Doctoral dissertation Capella University).
6. Tracy, William. (2004). *Design of training and development systems*. Translated by Ahmed Jabali, Riyadh Institute of Public Administration.
7. University of Nebraska. (2005). Summer Institute for online teaching, *Journal of Asynchronous Learning Network*, (9) 2.

المُقارنة بين النموذج اللوغاريتمي
ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية
في معالجة أثر التخمين عند تقدير
المؤشرات الإحصائية للفقرات
والأفراد في اختبار الصواب والخطأ

الدكتور/ محمد موسى الشمراني

الأستاذ المشارك بكلية التربية

بجامعة الطائف

المُلخَص

هدفت الدراسة إلى المقارنة بين النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية قبل تصحيح أثر التخمين وبعد التصحيح لتقديرات المؤشرات الإحصائية لمعالم الفقرات وقدرات الأفراد لاختبار من نوع الصواب والخطأ، واستخدمت الدراسة المنهج الوصفي الارتباطي المقارن لتحقيق أهدافها، وتكوّنت عينة الدراسة من (٦٤٢) طالباً وطالبة، أمّا أداة الدراسة فتكوّنت من اختبار تحصيلي من إعداد الباحث من نوع الصواب والخطأ في مادة مهارات التفكير والتعلم، وتوصّلت نتائج الدراسة إلى تحقق افتراضات نظرية الاستجابة للفقرات في البيانات، كما أن ارتباط معاملات الصعوبة المقدّرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين، وتلك المقدّرة بعد التصحيح من أثر التخمين تختلف عن معامل ارتباط معاملات الصعوبة المقدّرة باستخدام النموذج ثلاثي المعلم ومعاملات الصعوبة المقدّرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين، كما توصّلت الدراسة إلى أن ارتباط معاملات التمييز المقدّرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وتلك المقدّرة بعد التصحيح من أثر التخمين يختلف عن معامل ارتباط معاملات التمييز المقدّرة باستخدام النموذج ثلاثي المعلم ومعاملات التمييز المقدّرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين، كما كان من نتائج الدراسة أن ارتباط قدرات الأفراد المقدّرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وتلك المقدّرة بعد التصحيح من أثر التخمين يختلف عن معامل ارتباط قدرات الأفراد المقدّرة باستخدام النموذج ثلاثي المعلم وقدرات الأفراد المقدّرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين، كما قدّمت الدراسة مجموعة من التوصيات.

الكلمات المفتاحية: التخمين، نظرية الاستجابة للفقرات، النظرية التقليدية.

Abstract

This study aimed at comparing the three-parameter logarithmic model and the classical theory before and after correcting the effect of guessing when estimating the statistics of the individuals and the statistical indicators of the items in the true and false test. To achieve its objectives, the study used the descriptive methodology. The study sample was made of 642 male and female students, while the instrument of the study was made of an achievement test prepared by the researcher of the type of true-false questions in the subject of thinking and learning skills. The findings of the study confirmed the realization of the assumptions of the item response theory of the data, while the correlation of the coefficients of the difficulty that have been estimated using the classical theory before the correction from the guessing effect, and the one estimated after the correction from the guessing effect differ from the correlation coefficients of the difficulty that have been estimated using the three-parameter logarithmic model. The study also found that the correction of the distinction coefficients estimated by using the classical theory before and after the correction of the effect of guessing, differ from the distinction coefficients estimated by using the triple-parameter logarithmic model, and the distinction coefficients using the classical theory before the correction of the effect of guessing. The study also found that the correlation of the abilities of the individuals estimated by using the classical theory before correction from the effect of guessing and those estimated after correction from the effect of guessing differ from the correlation of the abilities of the individuals estimated by using the three-parameter logarithmic model and the distinction coefficients estimated by using the classical theory before the correction from the effect of guessing. The study also presented some recommendations.

Key words: Guessing, Item Response Theory, Classical Theory.

مقدمة :

اهتمَّ علماء القياس بالتَّوصُّل إلى أساليب مُتعدِّدة تهدف إلى قياس مدى تحقُّق الأهداف التعليمية وقياس مُستوى التحصيل المعرفي لدى الأفراد والحكم عليه في ضوء أسس وقواعد مُعيَّنة، ولذلك ظهرت أنماطٌ مُختلفة في بناء الاختبارات التحصيلية في مُحاولة للتَّغلب على مُشكلات القياس أو ما يُعرف بخطأ القياس (مراد وسليمان، ٢٠٠٢). ففي فترة من الفترات اعتمدت الاختبارات في أساليب بنائها وتحليل فقراتها ومُعالجة مُشكلات خطأ القياس على أسس ومبادئ النُّظرية التَّقليدية للاختبارات (Classical Test Theory (CTT) والتي تنطلق من فرض أساسي في بناء الاختبارات من كون توزيع درجات الأفراد يتبع توزيعاً طبيعياً (Normal Distribution)، والذي يتأثر بطبيعة خصائص الأفراد وخصائص عينة الفقرات؛ ولذا تتأثر خصائص فقرات الاختبار بطبيعة خصائص عينة الأفراد والفقرات وفق هذه النظرية. كما ظهر توجه مُعاصر يُسمَّى نظرية الاستجابة للفقرات (Item Response Theory (IRT) تسعى إلى بناء نظام قياس موضوعي يُركِّز على الفقرة ذاتها، وليس الاختبار ككل، وقد عالجت هذه النُّظرية كثيراً من مُشكلات القياس من خلال وجود عدد من النماذج المُختلفة (علام، ٢٠٠٠).

إن التَّخمين يُعدُّ من أهمِّ مصادر مُشكلات القياس التي تبرز في الاختبارات التحصيلية الموضوعية (Wright, 2008)، حيث إن عدم معرفة الطالب بالإجابة الصحيحة قد يعود إلى تخمين الإجابة الصحيحة المعطاة وتكون المشكلة بارزة بشكل أكبر عندما يكون نمط الفقرات من نوع الصُّواب والخطأ، حيث تصل فرصة التَّخمين إلى ٥٠٪، بينما تقل هذه النسبة كلما زادت عدد البدائل (الطريري، ١٩٩٧)، وفي الحدود القصوى قد يتراوح عدد البدائل بين (٢-٨)، وبالتالي تكون فرصة التَّخمين تتراوح نظرياً بين (١٢٥، ٠-٥٠، ٠)، حيث تقل بزيادة عدد البدائل (عودة، ٢٠١٤).

ويؤكِّد سيلكايند (Salkind (2013,p173) أن التَّخمين يُعدُّ من أهمِّ مُشكلات القياس في اختبارات الصُّواب والخطأ، فهناك فرصة (٥٠٪) للحصول على قيم صحيحة عن طريق التَّخمين وحده، إلا أنه يرى على الرغم من ذلك أن هذا لا يقلل من أهمية استخدام الاختبارات من نوع الصُّواب والخطأ في اختبارات التحصيل.

وتباين الآراء حول نمط فقرات الصواب والخطأ، فيرى إيبيل (Ebel,1979) أنها تفوق غيرها من الأسئلة الموضوعية في جميع المزايا، لذا يُستحسن الإكثار من استخدامها، حيث يرى المؤيدون لاستخدام هذا النوع من الاختبارات سهولة إعدادها وقدرتها على قياس كم كبير من محتوى المادة الدراسية خلال وقت الاختبار مقارنةً بغيرها من أنواع الأسئلة الأخرى، كما تمتاز بسهولة تصحيحها وإمكانية تطويعها لقياس أنواع مختلفة من محتوى المواد الدراسية، ويمكن أن تقيس مستويات ذهنية أعلى إذا تمت كتابتها بعناية (الدوسري، ٢٠٠٠).

ويؤكد أيضاً ميلر ولاين وقراونلايند (Miller, Linn and Gronlund (2013,p177) أن من العيوب التي تحد من استخدام هذا النوع من الاختبارات هو قابليتها للتخمين، كما يؤكد عودة (٢٠١٤) أن ما يُعاب على اختبارات الصواب والخطأ أنها أكثر عرضة للتخمين، والذي يُعتبر أحد مصادر الأخطاء (E) في النظرية التقليدية للقياس والقائمة على العلاقة بين الدرجة الحقيقية (T) والدرجة المشاهدة (X)، حيث $T=X+E$ ، ويُعتبر التخمين عاملاً مؤثراً في دقة تقدير الدرجة الحقيقية للفرد، ولذلك تؤكد أدبيات القياس أهمية الحد من تأثير التخمين على دقة القياس. كما يؤكد رايت Wright (٢٠٠٨) أن التخمين يلعب دوراً حاسماً في دقة المؤشرات الإحصائية للفقرات، ففي مؤشر صعوبة الفقرة كلما زادت صعوبة الفقرة زاد احتمال قيام الطلاب بتخمين إجابة الفقرة.

لقد مثلت مشكلة التخمين وتطبيق معادلات تصحيحها مجالاً واسعاً لتباين الآراء حولها، فهناك من يرى تطبيق المعادلات التصحيحية للتخمين، كما في النظرية التقليدية، مثل (Miller et al,2013)، (Salkind,2013)، (الخرشة، ٢٠٠٤)، بينما هناك من يرى الحد منه وليس معالجته (Wright, 2008)، وهناك من يرى أنه يمكن استخدام نظرية الاستجابة للفقرة حيث يمكن استخدام النموذج الثلاثي المعلم والذي يفترض معلمة التخمين لمعالجة مثل هذه المشكلة، مثل (Thissen & Zimowski, 1997)، و (الزبون، ٢٠٠٤)، (عبد الوهاب، ٢٠١٣)، ويؤكد عودة (٢٠١٤) أنه لا يوجد وصفة سحرية لضبط أثر التخمين ولا إلى معرفة حجم التأثير على خصائص الاختبار ودقة القرارات. ولقد عكست نتائج هذه الدراسات أهمية الأخذ في الاعتبار الاهتمام بالتصحيح لأثر التخمين بطرق أكثر عدالة بين الأفراد.

من هذا المنطلق، فإن الدراسة الحالية تحاول أن تتناول هذا الجانب المهم في دقة القياس واتخاذ القرار، وذلك من خلال المقارنة بين النظرية التقليدية والنموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم عند معالجة أثر التخمين عند تقدير إحصاءات الفقرات والأفراد في نوع اختبار الصواب والخطأ.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

تأتي هذه الدراسة في إطار الجهود العلمية للباحثين المهتمين بالقياس، حيث تحاول هذه الدراسة الإجابة عن التساؤل الرئيسي التالي: هل تختلف نتائج النموذج ثلاثي المعلم عند تقدير إحصاءات الفقرات والأفراد مع نتائج النظرية التقليدية بعد إزالة أثر التخمين في اختبار الصواب والخطأ؟ ويتفرع من هذا التساؤل التساؤلات الفرعية التالية:

١. هل تتحقق افتراضات نظرية استجابة الفقرة في بيانات تطبيق اختبار الصواب والخطأ على عينة البحث؟

٢. هل يوجد اختلاف بين معاملي ارتباط كل من معاملات الصعوبة لفقرات الاختبار من نوع الصواب والخطأ عند (تقديرها باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وبعد التصحيح من أثر التخمين)، و(عند تقديرها باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين والمقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم)؟

٣. هل يوجد اختلاف بين معاملي ارتباط معامل التمييز لفقرات الاختبار من نوع الصواب والخطأ (عند تقديرها باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وبعد التصحيح من أثر التخمين)، و(عند تقديرها باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين والمقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم)؟

٤. هل يوجد اختلاف بين معاملي ارتباط تقديرات الطلاب (عند تقديرها بالنظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وبعد التصحيح من أثر التخمين)، و(عند تقديرها باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين والمقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم)؟

المقارنة بين النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية في معالجة أثر التخمين عند تقدير المؤشرات الإحصائية للفقرات والأفراد في اختبار الصواب والخطأ

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة الحالية إلى:

1. المقارنة بين معاملات الارتباط للقيم المقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية قبل تصحيح أثر التخمين وبعد التصحيح لتقديرات معلمة الصعوبة للفقرات.
2. التأكد من مدى وجود اختلاف بين معاملات الارتباط للقيم المقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية قبل تصحيح أثر التخمين وبعد التصحيح لتقديرات معلمة التمييز للفقرات.
3. التحقق من مدى اختلاف معاملات الارتباط للقيم المقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية قبل تصحيح أثر التخمين وبعد التصحيح لتقديرات قدرات الأفراد.

أهمية الدراسة:

1. يمكن أن تساعد نتائج الدراسة الحالية في المساهمة في التغلب على مشكلة التخمين وأثره على تقديرات الأفراد ومعالم فقرات الاختبار من نوع الصواب والخطأ.
2. توضح الدراسة كيفية معالجة أثر التخمين في اختبار الصواب والخطأ باستخدام النظرية التقليدية والنموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم.

حدود الدراسة: تقتصر هذه الدراسة على:

1. الحدود الموضوعية: أثر التخمين على المؤشرات الإحصائية للفقرات والأفراد وفق النموذج الثلاثي المعلم والنظرية التقليدية.
2. الحدود المكانية: طلاب وطالبات السنة التحضيرية بجامعة الطائف بمحافظة الطائف.
3. الحدود الزمانية الفصل الثاني للعام ١٤٣٧/١٤٣٨ هـ.

مصطلحات الدراسة:

نظرية استجابة الفقرة Item Response Theory: تحاول نمذجة العلاقة القائمة

بين مُستوى سمة (Trait Level مُعَيَّنة لدى التي يقيسها اختبار ما، واستجابته لفقرة من فقرات الاختبار، حيث يُمكن وصف الفقرة الاختبارية بطريقة مستقلة عن الأفراد الذين اختبروا بها، ووصف قدرة الفرد بطريقة مُستقلة عن أيِّ عَيِّنة من الفقرات التي اختبر بها (علام، ٢٠٠٥).

النُّموذج اللوغاريتيمي ثلاثي المعلم (Three-Parameter Logistic Model): هو نموذج ثلاثي المعلمة يتضمَّن تقدير معلمة الصُّعوبة والتمييز ومعلمة التَّخمين (Ham-bleton et al,1991).

التَّصحيح لأثر التَّخمين: يُقصد بالتَّصحيح لأثر التَّخمين تعديل درجات الفرد في الاختبار الذي تنهياً فيه الفرصة للفرد أن يُخمن الإجابة (عودة، ٢٠١٠).

اختبار الصُّواب والخطأ True – false Test :

اختبار موضوعي يتألف من عدد من الفقرات بعضها صحيح، وبعضها خاطئ، ولها فقط إجابتان مُحتملتان، يُطلب من الفرد وضع علامة (صح) إذا كانت الإجابة صحيحة، أو (خطأ) إذا كانت الإجابة خاطئة، وتصل نسبة تخمين الفرد إلى (٥٠٪). أن يختار الإجابة الصحيحة دون معرفة علمية (Miller et al,2013).

معلمة الصُّعوبة: نسبة المفحوصين الذين أجابوا إجابة صحيحة عن الفقرة (Crocker & Algina,1986).

معلمة التمييز: نسبة من أجابوا عن الفقرة إجابة صحيحة من أفراد المجموعة العليا أكبر من نسبة من أجابوا عن الفقرة إجابة صحيحة من أفراد المجموعة الدنيا (مراد وسليمان، ٢٠٠٢).

معلمة التَّخمين: هي احتمال إجابة فرد ذي قدرة مُتدنيَّة على فقرة ما إجابة صحيحة.

معلمة القُدرة: مُستوى القدرة أو السُّمة المقيسة لدى الأفراد الذين يجيبون عن فقرات اختبار مُعدُّ لقياس هذه السُّمة (Hambleton et al,1991).

أدبيات الدراسة :

أولاً: الإطار النظري

يُشير ميلر وآخرون Miller et al (٢٠١٣) إلى أن استخدام اختبارات الصواب والخطأ الأكثر شيوعاً عند قياس القدرة على التعرف على صحة البيانات وتعريف المصطلحات، وفي قياس مجموعة واسعة من المعرفة والنواتج التعليمية، ويمتاز هذا النوع من الاختبارات بسهولة البناء وتغطية مجموعة واسعة من المحتوى، كما يمكن قياس عديد من مخرجات التعلم بمزيد من الفعالية، على الرغم من تأثرها بعامل التخمين، وهو ما يؤكد سلكايند Salkind (٢٠١٣) من أهمية هذا النوع من الاختبارات وضرورة معالجة أثر التخمين.

أنواع التخمين: تُشير الأدبيات إلى نوعين من التخمين (أبولبده، ٢٠٠٨)، الأول:

التخمين العشوائي Random guessing، أو ما يُسمى التخمين الأعمى Blind guess-ing، وفي هذا النوع يقوم الفرد باختيار البديل في الإجابة دون التعرف على محتوى السؤال أو الاستفادة من مفاتيح الإجابة أو المساعدات التي قد تساهم في معرفة الإجابة الصحيحة، والثاني: يُسمى التخمين الذكي Intelligent guessing، حيث يقوم الفرد باستبعاد بعض البدائل بناءً على معرفة جزئية لمحتوى السؤال والاستفادة من مفاتيح ومُنبّهات السؤال. ويؤكد عبد الوهاب (٢٠١٣) على اتفاق الباحثين على ضرورة مواجهة التخمين العشوائي مع الاختلاف تجاه التخمين الذكي، حيث نادى البعض بضرورة تعليم وتدريب الطلاب على التعامل مع التخمين كإحدى مهارات الاختبار.

طرق تصحيح أثر التخمين: الطريقة الأولى تُسمى طريقة العقاب، ويقترح

سالكايند (Salkind,2013) استخدام المعادلة (١) $x^* = x - w$ ، لحساب درجة الطالب في الاختبار بعد تصحيح أثر التخمين، كما يمكن استخدام الصيغة التالية:

$$x^* = x - \frac{w}{L-1} \quad (٢)$$

حيث x : الإجابات الصحيحة، w : الإجابات الخاطئة، L : عدد البدائل.

ويُعبأ على هذه الطريقة أنها تبخس قدرة الفرد، لذا اعتبر لتل (Little) عام ١٩٦٢ أن هذه المعادلة متشددة، وأن ما يقوم به الفرد من إجابة لا يمكن أن يكون عشوائياً تماماً

أو تخمينًا ذكيًا تمامًا، وافترض أن التَّخمين تتم مناقشة بين النوعين ويأخذ الصيغة التالية:

$$x^* = x - \frac{w}{2(L-1)} \quad (٣)$$

وقد تكون أنسب إلى تصحيح أثر التَّخمين في الصَّواب والخطأ (عودة، ٢٠١٤).

الطريقة الثانية تُسمَّى طريقة المكافأة لعدم المخاطرة، وهي تُعطي الفرد درجة إضافية لمن لا يقوم بتخمين الإجابة الصحيحة وتأخذ الصيغة التالية:

$$x^* = x + \frac{O}{L} \quad (٤)$$

الإجابات المتروكة، ويُعبأ على هذه الطريقة أنها تُبالغ في قدرة الفرد (Over-) (estimate).

الطريقة الثالثة، تعتمد على الجمع بين الطريقتين؛ العقاب والمكافأة معًا، وتأخذ الصيغة التالية:

$$x^* = x + \frac{O}{L} - \frac{w}{L-1} \quad (٥)$$

وتُشير دراسة (Klaus & Cristian, 2007) إلى أن فرصة التَّخمين تُصبح ذات أثر ضعيف عند استخدام خمسة بدائل فأكثر على مؤشرات الفقرة.

تصحيح أثر التَّخمين لمؤشرات الفقرات (مُعامل الصُّعوبة والتمييز):
يُشير علام (٢٠٠٠، ص ٢٧٠) إلى ضرورة مُراعاة أثر التَّخمين Guessing عند إيجاد مُعامل الصُّعوبة والتمييز لفقرات الصَّواب والخطأ أو الاختيار من مُتعدّد. وكما هو معروف فإن احتمال تخمين الإجابة الصحيحة في اختبار الصَّواب والخطأ ٥٠٪، مما يُؤثر في مُعامل الصُّعوبة ويُمكن استخدام الصيغة التالية لإزالة أثر التَّخمين لمعامل الصُّعوبة:

$$d = \frac{x - \frac{w}{L-1}}{n - n'} \quad (٦)$$

X: عدد الذين أجابوا إجابة صحيحة على الفقرة، W: عدد الذين أجابوا إجابة خاطئة على الفقرة، L: عدد البدائل، n: العدد الكلي للأفراد، n': عدد الأفراد الذين تركوا الفقرة.

كما ينبغي مراعاة قيم معامل الصعوبة للفقرات، سواء تم تصحيحها من أثر التخمين أو لم يتم ذلك، حيث تكون من المستوى الرتبي، وهذا يعدُّ أوجه قصور معامل الصعوبة في إطار النظرية التقليدية، ولذا يُمكن تحويلها إلى درجات معيارية (Z)، أو استخدام التحويل الخطي، أو ما يُعرف بالدرجة المعيارية المعدلة (وتأخذ الصيغة التالية:

$$\Delta = 13 + 4 * z (\gamma)$$

ولحساب معامل التمييز يُمكن استخدام معامل الارتباط الثنائي المتسلسل Biserial correlation، ويتم بين الدرجة للفقرة والدرجة الكلية، ويؤكد علام (٢٠٠٠) أن عامل التخمين يُؤثر في معامل التمييز، كما يُؤثر في معامل الصعوبة، وأن هناك من يرى تصحيح الدرجات من أثر التخمين، إلا أن الدراسات التجريبية أوضحت أن تأثير التصحيح يُعدُّ ضئيلاً عند حساب قيم معامل تمييز الفقرات. كما يتم تصحيح أثر التخمين عند حساب معامل التمييز من خلال حساب معامل الارتباط الثنائي المتسلسل بين الفقرة ومجموع الدرجات الكلية في الاختبار، ولكن بعد تصحيح هذا المجموع من أثر التخمين.

النظرية التقليدية Classical Test Theory: استخدمت النظرية التقليدية للاختبارات في بناء وتصميم الاختبارات خلال القرن الماضي، حيث سيطرت على منهجية القياس. كما يُشير Allen and Yen (٢٠٠٢) إلى أن النظرية التقليدية تعتمد على مجموعة من الافتراضات، فالدرجة المُشاهدة (X) للفرد على اختبار ما تتكوّن من الدرجة الحقيقية (T) ودرجة الخطأ (E). كما أن الوسط الحسابي للأخطاء العشوائية لمجتمع الأفراد يُساوي صفراً، بالإضافة إلى أن معامل الارتباط بين الدرجات الحقيقية ودرجات الخطأ يُساوي صفراً، وكذلك الارتباط بين درجات الخطأ في أي اختبارين منفصلين لنفس الأفراد يُساوي صفراً، وتباين درجات الخطأ لجميع الأفراد

يكون مُتساوياً. كما تشير كروجر والجين Crocker and Algian (١٩٨٦) إلى أن هذه النظرية تعتمد على كون توزيع درجات الأفراد في السمة التي يقيسها الاختبار تتبع توزيعاً طبيعياً، وعلى مبدأ الفروق الفردية؛ لذا تُقارن درجة الفرد فيها بدرجات المجموعات التي ينتمي إليها، لذلك تتأثر الخصائص السيكومترية للاختبار بطبيعة خصائص عينة الأفراد التي يُطبَّق عليها الاختبار وبخصائص عينة الفقرات التي يتألف منها الاختبار. وترى النظرية التقليدية أن درجة الفرد في الاختبار هي دالة خطية مطردة، بمعنى كلما زادت درجة الفرد على الاختبار زاد مقدار وجود السمة لديه.

وقد أشار الباحثون إلى وجود جوانب قصور في النظرية التقليدية قد لا تمكنها من معالجة القضايا المهمة في القياس (Hambleton & Swaminathan, ١٩٨٥)، ومن جوانب القصور:

١. تعتمد خصائص الفقرة مثل الصُّعوبة والتمييز، وخصائص الاختبار على خصائص عينة الأفراد الذين يطبق عليهم الاختبار (Hambleton & Jones, 1993).

٢. لا تأخذ النظرية التقليدية بعين الاعتبار استجابة الفرد على فقرة ما، ولكنها تعتمد إحصائياً على الدرجة الكلية للاختبار.

٣. تختلف معاملات الصُّعوبة أو السهولة والتمييز لفقرات الاختبار باختلاف قدرة أفراد العينة؛ فالفقرة التي يُختبر بها أفراد ذوو قدرات مرتفعة تبدو سهلة، بينما تبدو الفقرة صعبة لذوي القدرات المنخفضة، وإذا كانت العينة متجانسة نسبياً، فإن قيم معاملات التمييز تكون أقل من القيم التي نحصل عليها من عينة غير متجانسة (Hambleton & Swaminathan, 1985).

٤. كما تقوم النظرية التقليدية على افتراض تساوي تباين خطأ القياس بالنسبة لجميع المفحوصين، كذلك تأثر خصائص فقرات الاختبار بقدرة الأفراد.

٥. تختلف نتيجة القياس باختلاف الاختبار المستخدم، حيث تتأثر الدرجة الكلية للفرد في اختبار ما بفقراته، إذ تكون درجة الفرد عندما يختبر بفقرات سهلة

أعلى من الفقرات الصعبة، فلا يُمكن تقدير قدرته فيما تقيسه هذه الفقرات تقديراً دقيقاً (علام، ٢٠٠٠).

نظرية الاستجابة للفقرة Item Response theory: تُعدُّ نظرية الاستجابة للفقرة توسيعاً للنظرية التقليدية، وقد كانت بداية النظرية في عام ١٩٢٥م على يد العالم ثيرستون، ثم تطوّرت بشكل أوضح على يد العالم لورد عام ١٩٥٢، حيث وضع الصيغ بشكل موسّع، كما ساهم برينيوم عام ١٩٦٨ في فهم وقبول النظرية من خلال تطبيقات القياس النفسي، كما وضع العالم راش Rasch خلال الأعوام (١٩٦٠، ١٩٦٦، ١٩٧٧) مجموعة من القوانين والنماذج (Ostini & Nering, 2006). وتعتمد نظرية الاستجابة للفقرة على أن أداء المفحوصين على فقرات الاختبار يستطيع أن يتنبأ بعوامل (Factors) تُدعى السمات (Traits)، أو القدرات (abilities)، كما أن العلاقة بين أداء المفحوصين على المفردات ومجموعة السمات من الممكن أن تُوصف بدالة تزايدية، تُسمى دالة خصائص الفقرة (Hambleton, Swaminathan & Rogers, 1991).

نماذج نظرية الاستجابة للفقرة: يُؤكّد (Hambleton et al., 1991) أن نماذج استجابة الفقرة لا تشبه نموذج النظرية التقليدية، ويُمكن تصنيفها تبعاً للمعالم إلى مجموعة من النماذج، وهي، أولاً: النموذج اللوغاريتمي أحادي المعلم One Parameter Logistic Model، ويُعدُّ هذا النموذج أبسط نماذج نظرية الاستجابة للفقرة، ويُعرف باسم نموذج راش Rasch Model، ويشتمل على معلم واحد يُسمى معلم الصعوبة، ويتطلب هذا النموذج تساوي جميع فقرات الاختبار، ويفترض انعدام التخمين، ويُعدُّ من النماذج واسعة الاستخدام، كما يُعطى بالصيغة التالية (Demars, 2010):

$$P_i(\theta) = \frac{e^{1.7(\theta - b_i)}}{1 + e^{1.7(\theta - b_i)}} \quad (8) \quad , \quad i=1,2,3,\dots,n$$

حيث: $P_i(\theta)$: احتمال أن يجيب فرد قدرته θ إجابة صحيحة عن الفقرة i .

b_i : معلمة صعوبة الفقرة i ، θ : قدرة الفرد، e : الأساس اللوغاريتمي الطبيعي، ويُساوي ٢,٧١٨.

ثانياً: النموذج اللوغاريتمي ثنائي المعلم Two Parameter Logistic Model طُوِّرَ لورد عام ١٩٥٢ النموذج اللوغاريتمي ثنائي المعلم والمعتمد على دالة التوزيع الطبيعي التراكمية، كما ساهم بيرنبوم في عام ١٩٦٨ في تطوير الصيغة الرياضية Hambleton (et al , 1991). ويفترض هذا النموذج أن كل مفردة تُميز بدرجة مختلفة عن الأخرى بالنسبة لمفردات الاختبار جميعها، ومن ثم فإن النموذج ثنائي المعلم يعتمد على معلمة صعوبة الفقرة (bi)، ومعلمة تمييز الفقرة (ai). ويُعطى بالمعادلة (Demars,2010) التالية:

$$P_i(\theta) = \frac{e^{1.7 a_i (\theta - b_i)}}{1 + e^{1.7 a_i (\theta - b_i)}} \quad (9) \quad , i=1,2,3,\dots,n$$

a_i : مُعامل التمييز. ويؤكد هامبلتون وزال (Hambleton & Zaal (1991) أن هذا النموذج يفترض عدم تأثر الإجابات بعامل التخمين، وعليه فإن قيمة (C) تكون مُساوية للصفر.

ثالثاً: النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم Three Parameter Logistic Model في النموذج اللوغاريتمي أحادي المعلم وثنائي المعلم لا يأخذ في الاعتبار احتمال الإجابة الصحيحة للأفراد منخفضي الأداء على فقرات بالتخمين العشوائي، ولذا فإن النموذج الثلاثي المعلم أضاف معلماً ثالثاً يمثل التخمين (علام، ٢٠٠٥). ويشير المعلم الخاص بالتخمين في الإجابة إلى الخط التقاربي الأسفل لمنحنى خاصية المفردة، حيث يعد التخمين من بين العوامل المؤثرة في الاستجابة، فهو يمثل أحد عوامل الأداء في الاختبار، ولذلك يُسمى (C) معلم التخمين في هذا النموذج (Hambleton et al.,1991). ويُعطى بالمعادلة التالية (Demars,2010):

$$P_i(\theta) = C_i + (1 - C_i) \frac{e^{1.7 a_i (\theta - b_i)}}{1 + e^{1.7 a_i (\theta - b_i)}} \quad (10) \quad , i=1,2,3,\dots,n$$

C_i مُعامل التخمين.

ثانياً : الدراسات السابقة

قام الباحث بمراجعة عديد من الدراسات السابقة العربية والأجنبية ذات العلاقة بموضوع البحث، وقد تبين وجود عدد من الدراسات العربية التي تناولت موضوع التخمين وطرق تصحيحه، أمّا الدراسات الأجنبية فقد تناولت جوانب مختلفة، ومن هذه الدراسات، الدراسة التي أجراها سواقد (١٩٨٥) حول استقصاء أثر ثلاث طرق لتصحيح اختبارات الاختيار من متعدد على الخصائص السيكومترية للاختبار وعلى أداء المفحوصين. وقد قارنت الدراسة بين طريقة اختيار مجموعة جزئية من بين مجموعة البدائل الموضوعية للسؤال وطريقة تصحيح الاختبار على أساس مجموع الإجابات الصحيحة وطريقة تصحيح الاختبار باستخدام معادلة للتصحيح لأثر التخمين، وذلك من حيث أثر كل منها على معامل ثبات الاختبار وصدقه وعلى أداء المفحوصين، وقد تكونت عينة الدراسة من (٢٠٧) طالباً وطالبة من طلبة الصف الثالث الإعدادي، كما استخدمت الدراسة اختباراً تحصيلياً تم بناؤه بحيث تكون من (٦٠) فقرة من نوع الاختيار من متعدد ذات (٤) بدائل، وقد أظهرت نتائج الدراسة أن طريقة الاختيار الجزئي يعطي استخداماً معاملات ثبات وصدق أعلى من استخدام الطريقتين الآخرين.

دراسة ثيسين وزيموسكي Thissen & Zimowski (١٩٩٧) التي هدفت إلى المقارنة بين نظرية استجابة الفقرة والنظرية التقليدية في تقدير درجات الطلاب والطالبات لاختبار متعدد المجالات في الفيزياء والكيمياء والأحياء وفي كتابة الكلمات، وقد تكونت العينة من (١٠٠٠) طالب وطالبة من طلاب الدراسات العليا في جامعة كانسس بالولايات المتحدة الأمريكية، وتوصلت الدراسة إلى دقة النظرية الحديثة على النظرية التقليدية في تقدير قدرات الأفراد ومعالم الفقرات.

وفي دراسة قام بها فان Fan (١٩٩٨) هدفت إلى مقارنة إحصائيات الأفراد والمفردات في ضوء النظرية التقليدية بنماذج نظرية استجابة الفقرة نموذج راش والنموذج الثنائي والثلاثي المعلم، وقد توصلت الدراسة إلى اتفاق نتائج النظرية التقليدية ونموذج راش والثنائي المعلم، بينما تختلف عن النتائج المقدرة باستخدام النموذج ثلاثي المعلم والذي يعود إلى أن النموذج الثلاثي المعلم يعالج مشكلة أثر التخمين على تقديرات معالم الأفراد والمفردات.

وفي دراسة ستيج Stage (٢٠٠٢) هدفت الدراسة إلى المقارنة بين قدرة الأفراد وصعوبة الفقرات وفق النظرية التقليدية ونظرية استجابة الفقرة. وتم تطبيق اختبار من اختيار متعدد على عينة من (١٥٠٠) طالباً وطالبة. وقد أظهرت نتائج الدراسة وجود علاقة ارتباطية في تقديرات قيم الصعوبة وقيم القدرة بين كل من الأسلوبين باستخدام معامل ارتباط (بوينت باي سيريال)، كما توصلت نتائج الدراسة إلى وجود تطابق في تقدير مؤشر الصعوبة وفقاً للأسلوبين.

كما قام هوانج Hwang (٢٠٠٢) بدراسة هدفت إلى المقارنة بين النظرية التقليدية ونظرية الاستجابة للفقرة من حيث تقدير معاملات الصعوبة والتمييز ومستويات القدرة. وقد تكونت عينة الدراسة من (٦٠٠) طالباً. وقد استخدم اختبار تحصيلي في الرياضيات يشمل على (١٥) فقرة. وقد توصلت الدراسة إلى أن معاملات الارتباط المرتفعة (معظمها أكبر من ٩٠، ٠)، بينما المؤشرات الإحصائية المستمدة من النظريتين تشير إلى تشابه كبير بينهما. كما كان هناك تشابه واضح بين النظريتين في تقدير معاملات الصعوبة، إلا أن هذا التشابه يقل فيما يتعلق بتقدير معاملات التمييز لفقرات الاختبار.

وفي دراسة سكر ك ديم Çikrikci-dem (٢٠٠٢) التي هدفت إلى دراسة مفردات اختبار مصفوفة رافن باستخدام النظرية التقليدية ونظرية الاستجابة للفقرة، حيث تم تطبيق الاختبار على عينة مكونة من (١١١٨) من طلبة المرحلة الثانوية. وقد أظهرت النتائج وجود علاقة ارتباطية دالة بين معاملات الصعوبة وفق النظرية التقليدية ومعاملات الصعوبة وفق نظرية الاستجابة للمفردة، وكانت أعلاها مع النموذج الثلاثي المعلم. كما أظهرت النتائج وجود علاقة ارتباطية دالة وقوية بين معاملات التمييز وفق النظرية التقليدية والنموذج اللوغاريتمي الثنائي والنموذج الثلاثي المعلم.

دراسة كورفيلي Courville (٢٠٠٤)، وهدفت هذه الدراسة إلى المقارنة بين النظرية التقليدية والنظرية الحديثة، ولتحقيق هذا الهدف طبق اختبار الاستعدادات على عينة مكونة من (٣٢٢) ممن هم في الصف الثاني عشر في الولايات المتحدة الأمريكية. يتكون الاختبار من (٢١٥) فقرة من نوع الاختيار من متعدد. تم تحليل البيانات وفق نظرية الاستجابة للفقرة، والنظرية التقليدية. وقد أظهرت النتائج وجود علاقة ارتباطية بين

تقديرات القدرة وفق النظرية التقليدية ونماذج النظرية الحديثة، كما أظهرت النتائج وجود علاقة ارتباطية دالة وسالبة بين معاملات الصعوبة في النظريتين التقليدية والحديثة ويعود ذلك لاختلاف تدرج معاملات الصعوبة في النظرية التقليدية. كما أظهرت النتائج وجود علاقة ارتباطية دالة وموجبة بين معاملات التمييز في النظرية التقليدية ومعاملات التمييز في النموذج الثنائي والثلاثي المعلم إلا أن تقديرات تمييز الفقرات كانت أكثر استقراراً في النظرية التقليدية مقارنة بتقديرات نماذج الاستجابة للفقرة. وخلصت الدراسة إلى أنه على الرغم من الاختلاف بين الأسلوبين في القياس، إلا أنهما قدما خصائص متشابهة لكل من قدرة الفرد وصعوبة الفقرة.

وفي دراسة أخرى قامت بها الخرشنة (٢٠٠٤) سعت هذه الدراسة إلى المقارنة بين ثلاث طرق لتصحيح أثر التخمين وأثرها على الخطأ المعياري وثبات الاختبار، حيث تم إعداد اختبار تحصيلي يشتمل على (٣٠) فقرة من نوع الاختيار من متعدد، وتكوّنت عينة الدراسة من (١٩٧) طالباً وطالبة، وقد أظهرت نتائج الدراسة إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين معاملات الثبات عند استخدام معادلة التصحيح لأثر التخمين (العقاب والمكافأة)، كما كانت هناك فروق ذات دلالة إحصائية بين الأوساط الحسابية لعلامات المفحوصين لطريقة التصحيح القائمة على المكافأة.

كما أجرى الزبون (٢٠٠٤) دراسة هدفت إلى المقارنة بين أثر ثلاث طرق لتصحيح اختبارات الاختيار من متعدد لضبط أثر التخمين في الخصائص السيكومترية للاختبار والفقرة في ضوء نظرية الاستجابة للفقرة، حيث تم إعداد ثلاث صور متكافئة لاختبار تحصيلي، أعطت لعينة مكونة من (٤٠٦) طلاب وطالبات، وتوصّلت الدراسة إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين معاملات الثبات لصالح استخدام معادلة التصحيح لأثر التخمين. كما وجدت فروق ذات دلالة إحصائية بين معاملات صعوبة الفقرة لصالح التصحيح لأثر التخمين.

وفي دراسة أخرى أجراها بروقر وسوكان (٢٠٠٨) Progar & Socan هدفت إلى المقارنة بين النظرية التقليدية ونماذج نظرية استجابة الفقرة في درجة استقرار إحصائيات الفقرات وقدرات الأفراد عبر مجموعات مختلفة، وقد توصّلت النتائج إلى وجود تشابه كبير في درجة التباين بين معالم الفقرات في ضوء النظرية التقليدية

ونظرية الاستجابة للفقرة، وكذلك وجود تشابه كبير في درجة التباين بين تقديرات الأفراد في ضوء النظريتين، مما يشير إلى استقرار النتائج.

دراسة كاني وجلالي (2009) Kiany & Jalali التي هدفت إلى المقارنة بين النظرية التقليدية ونظرية الاستجابة للفقرة، حيث تم تطبيق اختبار تحصيلي على عينة مكونة من (٢٠٠٠) طالب وطالبة. وقد أظهرت النتائج وجود علاقة ارتباطية دالة بين معاملات الصعوبة في النظرية التقليدية ونماذج نظرية الاستجابة للفقرة وهذه العلاقة بالسالب نظراً لاختلاف نمط التدرج في نظرية الاستجابة للمفردة عن نمط التدرج في نظرية القياس التقليدية. كما أظهرت النتائج وجود علاقة ارتباطية دالة وموجبة بين معاملات التمييز في النظرية التقليدية ونظرية القياس الحديثة النماذج الأحادية والثنائية والثلاثية المعلم.

وفي دراسة أجراها الصمادي (٢٠١٢) هدفت إلى الكشف عن أثر طريقة تصحيح اختبار الصواب والخطأ المتعدد في معاملات الصدق والثبات للاختبار ومعاملات الصعوبة والتمييز ل فقرات الاختبار، حيث تم بناء اختبار تحصيلي تكوّن من (٢٥) فقرة صواب وخطأ متعدد لكل منها أربعة بدائل وطُبّق الاختبار على (١٢٢) طالباً وطالبة وتوصّلت نتائج الدراسة إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين معاملات الصدق والثبات والتمييز، بينما كانت هناك فروق ذات دلالة إحصائية في معاملات صعوبة الفقرات.

كما قامت صمصم (٢٠١٢) بدراسة هدفت إلى المقارنة بين ثلاث طرق لتصحيح اختبارات الاختيار من متعدد لضبط أثر التخمين على مؤشر ثبات الفقرة وصدقها، وهذه الطرق هي الطريقة التقليدية ومعادلة التصحيح لأثر التخمين وطريقة الاختيار الجزئي. وقد تم إعداد اختبار تحصيلي وتكوّنت العينة من (٩٠) طالبة أظهرت نتائج الدراسة وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات مؤشرات ثبات الفقرة لصالح طريقة الاختيار الجزئي، تليها طريقة معادلة التصحيح لأثر التخمين، ثم الطريقة التقليدية، وكذلك يوجد فروق بين متوسطات تمييز الفقرة لصالح طريقة الاختيار الجزئي، تليها طريقة التصحيح لأثر التخمين، ثم الطريقة التقليدية، كما يوجد فروق

في مؤشرات معاملات الصعوبة لصالح الطريقة التقليدية، يليه الاختيار الجزئي، ثم طريقة التصحيح لأثر التخمين.

كما أجرى عبد الوهاب (٢٠١٢) دراسة هدفت إلى المقارنة بين النظرية الكلاسيكية والنموذج ثلاثي البارامتر في معالجة أثر التخمين عند تقديرات إحصائيات المفردات والأفراد في اختبار الاختيار من متعدد، وتكوّنت عينة الدراسة من (١٠١٠) من طلاب الفرقة الرابعة والدبلوم العام في التربية، كما قام الباحث بإعداد اختبار تحصيلي من اختيار متعدد ذات البدائل الأربعة، وقد أوضحت النتائج عدم وجود اختلاف في تقدير إحصائيات الأفراد والمفردات في ضوء النظرية الكلاسيكية قبل وبعد تصحيح أثر التخمين، ولكن وجد اختلاف في ضوء النموذج الثلاثي البارامتر عن النظرية الكلاسيكية، مما يشير إلى اختلاف كل منهما في معالجة أثر التخمين عند تقدير هذه الإحصاءات.

وفي دراسة عبد العزيز ولينج (2013) Abedalaziz and Leng التي تناولت العلاقة الارتباطية بين النظرية التقليدية والنظرية الحديثة في تحليل خصائص المفردات. هدفت هذه الدراسة إلى مقارنة معاملات الصعوبة ومعاملات التمييز لمقياس القدرة الرياضية باستخدام النظرية التقليدية والنظرية الحديثة بنماذجها الأحادي والثنائي والثلاثي المعلم على عينة مكونة من (٦٠٢) طالب وطالبة. وقد أظهرت نتائج الدراسة وجود علاقة سالبة دالة بين معاملات الصعوبة في النظرية التقليدية ومعاملات الصعوبة في النماذج الأحادية والثنائية والثلاثية البارامتر، وكانت أعلاها مع النموذج الثلاثي المعلم. كما أظهرت النتائج وجود علاقة ايجابية ودالة بين معاملات التمييز في النظرية التقليدية ومعاملات التمييز في النماذج الثنائية والثلاثية المعلم.

التعليق على الدراسات السابقة : من خلال عرض الدراسات السابقة وجد الباحث أن بعض الدراسات قد ركزت على المقارنة بين المؤشرات الإحصائية للفقرات وقدرات الأفراد المقدرّة وفق النظرية التقليدية ونظرية استجابة الفقرة، وهناك عدد من الدراسات ركزت على المقارنة بين طرق تصحيح التخمين، لكن وعلى حد علم الباحث لم يجد أي دراسة حاولت المقارنة بين النظرية التقليدية والنموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم في معالجة أثر التخمين لاختبار الصواب والخطأ وأثره على تقدير قدرات الأفراد

ومعالم الفقرات رغم كثرة استخدام مثل هذا النوع من الاختبارات، كما أن الدراسة الحالية تتفق مع الدراسات السابقة في المنهج المستخدم وبعض الأساليب الإحصائية وتختلف في العينة وطبيعة الدراسة.

إجراءات الدراسة:

منهج الدراسة: استخدم الباحث المنهج الوصفي الارتباطي والمقارن لكونه الأنسب لتحقيق أهداف الدراسة.

مجتمع وعينة الدراسة: تكوّن مجتمع الدراسة من جميع طلاب وطالبات السنة التحضيرية الذين يدرسون مقرر مادة مهارات التفكير والتعلم. أما عينة الدراسة فقد تكوّنت من (٦٤٢) طالباً وطالبة تم تطبيق الاختبار التحصيلي عليهم في الفصل الثاني ١٤٣٧/١٤٣٨هـ. وجدول رقم (١) يوضح توزيع عينة الدراسة.

جدول رقم (١)

عينة الدراسة موزعة حسب الجنس

الجنس	التكرار	النسبة المئوية
طلاب	٣١٧	٤٩,٤
طالبات	٣٢٥	٥٠,٦
المجموع	٦٤٢	١٠٠

أداة الدراسة: قام الباحث بإعداد اختبار تحصيلي في مادة مهارات التفكير والتعلم الذي تم تدريسه للطلاب والطالبات في السنة التحضيرية بجامعة الطائف، وذلك من خلال تحديد الغرض من الاختبار، والذي يهدف إلى قياس مستويات والتذكر والفهم والتطبيق وتم تحليل محتوى مقرر مهارات التفكير والتعلم في الفصل الدراسي الثاني للعام ١٤٣٧/١٤٣٨هـ وتحديد الأهداف السلوكية المراد قياسها وتحديد الأوزان النسبية لموضوعات المحتوى، بعد ذلك تم بناء جدول المواصفات للاختبار والذي يتضمّن الموضوعات والأهداف السلوكية، بعد ذلك تمت صياغة الفقرات، حيث تضمّنت (٤٨) فقرة من نوع الصواب والخطأ تم عرضها على مجموعة من السادة المحكمين بكلية التربية بجامعة الطائف، وبعد مراجعة الفقرات بناءً على مقترحات السادة المحكمين

المقارنة بين النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية في معالجة أثر التخمين عند تقدير المؤشرات الإحصائية للفقرات والأفراد في اختبار الصواب والخطأ

تم تعديل بعض الفقرات الاختبار، وتم حذف (٤) فقرات لعدم مطابقتها لمحتوى المقرر، بعد ذلك تم تطبيق الاختبار المكوّن من (٤٤) فقرة على عيّنة استطلاعية من الطلاب والطالبات بلغ عددهم (٤٧) طالباً وطالبة من الدارسين لمقرر مهارات التفكير والتعلم بجامعة الطائف لتحليل فقرات الاختبار والتأكد من سلامة الفقرات ومدى ملاءمتها للتطبيق في الصورة النهائية. كما قام الباحث بعد التطبيق بتصحيح الاختبار تصحيحاً يدوياً، ومن ثم إدخال البيانات في برنامج SPSS، بحيث تعطى القيمة (١) للإجابة الصحيحة والقيمة (٠) للإجابة الخاطئة، ومن ثم تم حساب معاملات الصعوبة والتمييز لفقرات الاختبار والصدق والثبات للاختبار.

تم حساب معاملات الصعوبة والتمييز لفقرات الاختبار كما يوضح ذلك الجدول رقم (٢).

جدول رقم (٢)

معاملات الصعوبة والتمييز لاختبار مهارات التفكير والتعلم على العيّنة الاستطلاعية

رقم العبارة	معامل الصعوبة	معامل التمييز	رقم العبارة	معامل الصعوبة	معامل التمييز	رقم العبارة	معامل الصعوبة	معامل التمييز
١	٠,٥٧	٠,٤٠	١٧	٠,٩١	٠,١٨	٣٣	٠,٩٠	٠,٢٣
٢	٠,٨٥	٠,٣٤	١٨	٠,٩٢	٠,٢١	٣٤	٠,٨٨	٠,٢٧
٣	٠,٤٣	٠,٢٦	١٩	٠,٩١	٠,١٩	٣٥	٠,٧٤	٠,٣٦
٤	٠,٩٣	٠,١٣	٢٠	٠,٦٧	٠,٣٦	٣٦	٠,٨٣	٠,٢٩
٥	٠,٨٩	٠,٢٤	٢١	٠,٧٦	٠,٢٢	٣٧	٠,٦٧	٠,٤١
٦	٠,٨٩	٠,١٧	٢٢	٠,٨٠	٠,٢٤	٣٨	٠,٨٠	٠,٣١
٧	٠,٤٣	٠,٤٥	٢٣	٠,٨٥	٠,١٩	٣٩	٠,٣٧	٠,٢٩
٨	٠,٧٨	٠,٤٨	٢٤	٠,٨٩	٠,٢٧	٤٠	٠,٥٩	٠,٣٩
٩	٠,٩٨	٠,١٤	٢٥	٠,٩٦	٠,٢٤	٤١	٠,٧٢	٠,٣٠
١٠	٠,٩١	٠,١٩	٢٦	٠,٨٩	٠,٢٦	٤٢	٠,٤٣	٠,٣٧
١١	٠,٥٠	٠,٥٧	٢٧	٠,٩٣	٠,٢٣	٤٣	٠,٢٤	٠,٢١
١٢	٠,٣٥	٠,٢٦	٢٨	٠,٩٤	٠,١٨	٤٤	٠,٨٠	٠,٣٥
١٣	٠,٧٨	٠,٣١	٢٩	٠,٩٠	٠,١٥			
١٤	٠,٣٣	٠,٢٢	٣٠	٠,٧٠	٠,٢٨			
١٥	٠,٨٩	٠,١٥	٣١	٠,٧٦	٠,٣٢			
١٦	٠,٨٠	٠,٣٠	٣٢	٠,٧٠	٠,٤٤			

يتضح من الجدول (٢) أن قيم مُعاملات الصُّعوبة لفقرات الاختبار تراوحت بين (٠,٢٤ و٠,٩٦)، بينما تراوحت مُعاملات التمييز بين (٠,١٣ و٠,٥٧)، وهي قيم مناسبة للاختبار.

كما تم حساب صدق وثبات الاختبار كالتالي:

صدق الاختبار: تم حساب صدق الفقرات من خلال حساب مُعامل الارتباط بين درجات كل فقرة والدرجة الكلية.

جدول رقم (٣)

مُعاملات ارتباط الفقرات بالدرجة الكلية

رقم العبارة	مُعامل الارتباط	رقم العبارة	مُعامل الارتباط	رقم العبارة	مُعامل الارتباط
١	٠,٢٧٦	١٧	٠,٢٥٩**	٢٢	٠,٢٤٦
٢	٠,١٣٦	١٨	٠,٢٢٧*	٢٣	٠,٥٤٦**
٣	***٠,٣٧٩	١٩	٠,٥٢١**	٢٤	٠,١٦١
٤	***٠,٤٦٤	٢٠	٠,٢٧٩	٢٥	٠,٣٠٥**
٥	٠,١٧٩	٢١	٠,٤٥٤**	٢٦	٠,٤١٥**
٦	*٠,٣٤٠	٢٢	٠,٠٧٤	٢٧	٠,٠٤٢
٧	***٠,٣٢٣	٢٣	٠,١٧٣	٢٨	٠,٠٣٩
٨	***٠,٤٣٦	٢٤	٠,٥٦٠**	٢٩	٠,٢٢١
٩	٠,٢٨٣	٢٥	٠,٢٢٦	٣٠	٠,٤١١*
١٠	*٠,٣٥٩	٢٦	٠,٤٥٨**	٣١	٠,١٣٠
١١	***٠,٥٣٨	٢٧	٠,٣٧٢**	٣٢	٠,١٥٤
١٢	٠,٢٢٣	٢٨	٠,٤٢٧**		٠,٤٦٧**
١٣	***٠,٤٨١	٢٩	٠,١١٣		
١٤	٠,١٨٨	٣٠	٠,٢٧٨		
١٥	***٠,٤١٤	٣١	٠,٢٩١		
١٦	***٠,٤٥٣	٣٢	٠,٥٩١**		

ويتضح من الجدول رقم (٣) أن قيم معاملات الارتباط لكل فقرة من فقرات الاختبار كانت مناسبة للاختبار.

لحساب ثبات الاختبار تم استخدام طريقة ألفا كرونباخ، حيث بلغت قيمة معامل ثبات الاختبار (٠,٨٣١).

الصورة النهائية للاختبار: مما سبق يتضح أن اختبار مهارات التفكير والتعلم صالح للتطبيق على عينة الدراسة النهائية، حيث يتمتع بدرجة مناسبة من الصدق والثبات، مما يطمئن على استخدام نتائجه والاعتماد عليها للتطبيق النهائي.

التطبيق النهائي للاختبار: بعد أن قام الباحث ببناء الاختبار في الصورة النهائية، تم توفير نسخ كافية من الاختبار ووضع التعليمات والإرشادات المناسبة، ومن ثم تم التطبيق في نهاية الفصل الثاني ١٤٢٧-١٤٢٨هـ، حيث تم التطبيق على عينة من الطلاب والطالبات في السنة التحضيرية، ومن ثم تمت مراجعة أوراق الطلبة جميعها للكشف عن الاستجابات ذات النمطية الواحدة أو غير المستكملة الإجابة، وبناء على ذلك تم استبعاد (٢٦) ورقة إجابة من التحليل.

المعالجة الإحصائية: للإجابة عن أسئلة الدراسة، استخدم الباحث الأساليب الإحصائية التالية:

- التحليل العاملي: للتحقق من أحادية البعد في النظرية الحديثة.
- معامل الارتباط الثنائي المتسلسل: لحساب معامل التمييز.
- معامل ارتباط بيرسون: لدراسة العلاقة ونوعها.
- لمقارنة معاملات الارتباط (Field, 2013, p286-287) تم استخدام اختبار t للمقارنة بين معاملات الارتباط لنفس العينة، والتي تأخذ الصيغة:

$$t = (r_{xy} - r_{zy}) \sqrt{\frac{(n-3)(1+r_{xz})}{2(1-r_{xy}^2 - r_{xz}^2 - r_{zy}^2 + 2r_{xy}r_{xz}r_{zy})}} \quad (11)$$

n : حجم العينة

r_{xy} : معامل الارتباط بين المتغير X والمتغير Y

r_{zy} : مُعامل الارتباط بين المتغير Z والمتغير Y
 r_{xz} : مُعامل الارتباط بين المتغير X والمتغير Z

عرض النتائج ومناقشتها: النتائج المتعلقة بالسؤال الأول: هل تتحقق افتراضات نظرية الاستجابة للفقرة في البيانات عينة البحث؟
 للإجابة على هذا السؤال قام الباحث بالتحقق من افتراضات نظرية الاستجابة للفقرة، وهي:

أولاً: افتراض أحادية البعد: (Unidimensionality)، ويُقصد به أن فقرات الاختبار تقيس سمة أو قدرة واحدة فقط تفسر أداء الفرد على الفقرة، بمعنى أن جميع الفقرات تقيس بُعداً واحداً.

للتحقق من افتراض أحادية البعد لبيانات الاختبار ثنائية التدرج تم إجراء التحليل العاملي من الدرجة الأولى (First Order) للفقرات، وبدوير مائل Rotation Oblique Prom ax وذلك لاستخلاص العوامل المسؤولة عن الأداء في الاختبار، وقد استخرجت قيمة الجذر الكامن (Eigen Value) ونسبة التباين المفسر لكل عامل من العوامل المستخلصة والنسبة التراكمية للتباين المفسر. ويبين الجدول رقم (٤) نتائج التحليل العاملي من الدرجة الأولى.

جدول رقم (٤)

نتائج التحليل العاملي من الدرجة الأولى الاستجابات العينة على الفقرات ثنائية التدرج.

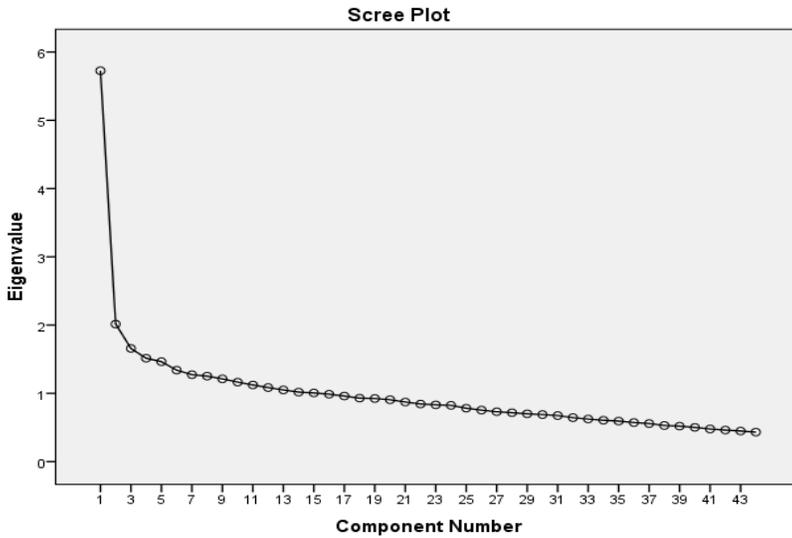
العامل	الجذر الكامن	نسبة التباين المفسر	النسبة التراكمية للتباين المفسر
١	٥,٧٣	١٢,٠١	١٢,٠١
٢	٢,٠١	٤,٥٨	١٧,٥٩
٣	١,٦٦	٣,٧٧	٢١,٣٦
٤	١,٥١	٣,٤٤	٢٤,٨٠
٥	١,٤٦	٣,٣٣	٢٨,١٣
٦	١,٢٤	٣,٠٥	٣١,١٧

المقارنة بين النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية في معالجة أثر التخمين عند تقدير المؤشرات الإحصائية للفقرات والأفراد في اختبار الصواب والخطأ

العامل	الجذر الكامن	نسبة التباين المفسر	النسبة التراكمية للتباين المفسر
٧	١,٢٧	٢,٨٩	٣٤,٠٧
٨	١,٢٥	٢,٨٥	٣٦,٩٢
٩	١,٢١	٢,٧٦	٣٩,٦٧
١٠	١,١٦	٢,٦٥	٤٢,٣٢
١١	١,١٢	٢,٥٥	٤٤,٨٧
١٢	١,٠٨	٢,٤٧	٤٧,٣٤
١٣	١,٠٥	٢,٣٩	٤٩,٧٢
١٤	١,٠٢	٢,٣١	٥٢,٠٤
١٥	١,٠١	٢,٢٩	٥٤,٣٢

يتبين من الجدول رقم (٤) أن نتائج التحليل العاملي من الدرجة الأولى للنموذج ثنائي التدرج بينت وجود (١٥) عاملاً فسرت ما مجموعه (٥٤,٣٢٪) من التباين الكلي. كما تشير نتائج التحليل في الجدول رقم (٤) إلى أن قيمة الجذر الكامن للعامل الأول (٥,٧٣) وهي مرتفعة مقارنة مع بقية العوامل، وأن بقية الجذور الكامنة للعوامل الأخرى منخفضة ومتقاربة، وهذا يُعدُّ مؤشراً على وجود عامل سائد يرجح أحادية البعد لأغراض التحليل باستخدام نماذج الاستجابة للفقرة، أما بالنسبة للتباين الذي فسره كل عامل نجد أن نسبة التباين المفسر بالعامل الأول (١٣,٠١٪) من التباين الكلي، بينما نسبة التباين المفسرة بالعامل الثاني (٤,٥٨٪) من التباين الكلي، ويُلاحظ هنا أن نسبة التباين المفسرة بالعامل الأول عالية بالمقارنة مع نسبة التباين المفسر للعامل الثاني، كما يُلاحظ أن الفروق في نسب التباين المفسرة لكل العوامل المتبقية قليلة ومتقاربة جداً، أي إن هناك تماثلاً نسبياً وشبه استقرار في نسب التباين المفسرة لجميع العوامل باستثناء العامل الأول وهذا يرجح تحقق أحادية البعد في بيانات الاختبار.

وبملاحظة التمثيل البياني Scree plot للعوامل مع الجذور الكامنة لها في الشكل (١) يتبين فيه أن هناك تحولاً في ميل المنحنى عند العامل الثاني ويبقى الميل مُتقارباً لبقية العوامل مما يرجح أيضاً وجود عامل سائد يُمكن أن يستدل منه على أحادية البعد لأغراض تقدير معالم الفقرات والأفراد.



شكل (١): التمثيل البياني لقيم الجذور الكامنة للعوامل من الدرجة الأولى.

ونظراً لتعدد العوامل التي أفرزها التحليل، فقد تم إجراء تحليل عاملي من الدرجة الثانية Second order Factor Analysis لعوامل الدرجة الأولى مع التدوير المتعامد Varimax rotation من أجل اختزال التعدد في العوامل إلى أبسط صورة ممكنة، ولقد أشارت نتائج التحليل العاملي في فقرات نموذج ثنائي التدرج إلى وجود عامل سائد يرجح أحادية البعد. ويبيّن الجدول رقم (٥) نتائج التحليل العاملي من الدرجة الثانية.

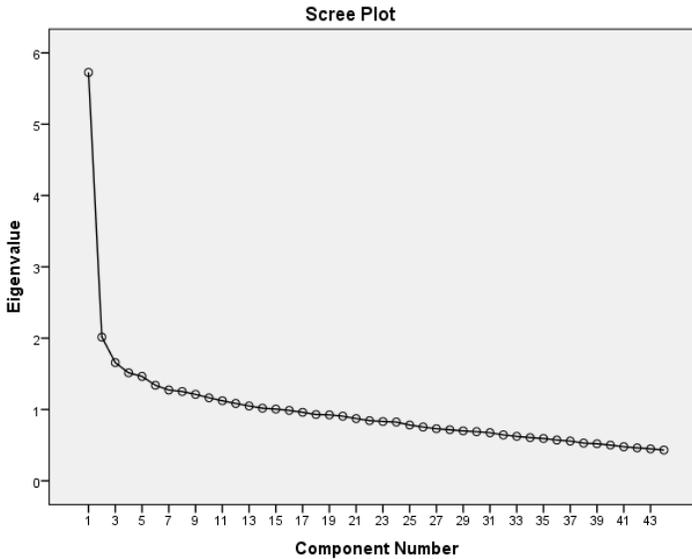
جدول رقم (٥)

نتائج التحليل العاملي من الدرجة الثانية الاستجابات العينة على الفقرات ثنائية التدرج.

العامل	الجذر الكامن	نسبة التباين المفسر	النسبة التراكمية للتباين المفسر
١	٥,٧٢٦	١٣,٠١٤	١٣,٠١٤
٢	٢,٠١٤	٤,٥٧٨	١٧,٥٩٢
٣	١,٦٥٨	٣,٧٦٧	٢١,٣٥٩
٤	١,٥١٤	٣,٤٤٢	٢٤,٨٠١
٥	١,٤٦٤	٣,٣٢٨	٢٨,١٢٩
٦	١,٣٤٠	٣,٠٤٦	٣١,١٧٥

يظهر من الجدول رقم (٥) أن عوامل الدرجة الثانية الستة فسرت ما مجموعه (٣١, ١٧٥) من التباين الكلي، وأن قيمة الجذر الكامن الأول كبيرة بالمُقارنة مع بقية العوامل وأن بقية الجذور الكامنة للعوامل الأخرى منخفضة ومتقاربة وهذا مؤشِّر على وجود عامل سائد يرجح أحادية البُعد.

ويوضح الشكل رقم (٢) التمثيل البياني لقيم الجذور الكامنة المكونة للعوامل المستخلصة في التحليل العاملي من الدرجة الثانية، حيث إن هناك تحولاً في المنحنى يبدأ عند العامل الثاني، ويكون التغيُّر بعده في ميل المنحنى طفيفاً مما يرجح أحادية البُعد.



شكل (٢) التمثيل البياني لقيم الجذور الكامنة للعوامل من الدرجة الثانية

ثانياً: افتراض الاستقلال الموضعي: (Independence Local)

ويُقصد به أن استجابة المفحوص على فقرة ما لا تُؤثر إيجاباً أو سلباً على استجابته على أي فقرة أخرى، بمعنى آخر أن استجابات المفحوص لفقرات الاختبار مستقلة إحصائياً.

نظراً لأن افتراض أحادية البعد يُكافئ افتراض الاستقلال الموضوعي، لذا تم الاكتفاء بالتحقق من افتراض أحادية البعد للاستدلال على تحقق افتراض الاستقلال الموضوعي، فقد أشارت المراجع والدراسات منها (Hambelton & Swaminathan, 1985) أن تحقق افتراض أحادية البعد يُكافئ افتراض الاستقلال الموضوعي Local Independence.

ثالثاً: افتراض سرعة الأداء Speededness:

تأكد الباحث أن المفحوصين الذين يفشلون في الإجابة عن فقرات الاختبار يفشلون بسبب محدودية قدراتهم وليس بسبب أن الوقت غير كاف للوصول إلى الفقرة والإجابة عنها، حيث راعى الباحث إعطاء الوقت الكافي للإجابة عن كل فقرة، بحيث لا تؤثر السرعة في أداء الأفراد.

للإجابة عن السؤال الثاني: هل يوجد اختلاف بين معاملي ارتباط معاملات الصعوبة لفقرات الاختبار من نوع الصواب والخطأ (عند تقديرها باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وبعد التصحيح من أثر التخمين)، و(عند تقديرها باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين ومعامل الصعوبة المقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم)؟

للإجابة عن هذا السؤال قام الباحث بتحويل معاملات الصعوبة والمقدرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين، وكذلك معاملات الصعوبة المقدرة باستخدام النظرية التقليدية بعد التصحيح من أثر التخمين إلى قيم ()، وذلك لتكون القيم في المستوى الفئوي (Interval Scale)، ومن ثم تم استخدام معامل ارتباط بيرسون لحساب العلاقات بين متغيرات معاملات الصعوبة.

المقارنة بين النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية في معالجة أثر التخمين عند تقدير المؤشرات الإحصائية للفقرات والأفراد في اختبار الصواب والخطأ

جدول رقم (٦)

معاملات الصعوبة المقدرة باستخدام النظرية التقليدية قبل تصحيح التخمين وبعد التصحيح والمقدرة باستخدام النموذج ثلاثي المعلم.

م	معامل التمييز قبل تصحيح التخمين (a_1)	تحويل فشر z- Fisher	معامل التمييز بعد تصحيح التخمين (a_2)	تحويل فشر z- Fisher	المعلم ثلاثي (a_3)
١	٠,٦١	٩,٦٣	٠,٤٣	٩,٧١	٠,٣٥
٢	٠,٨٣	١٤,٢٦	٠,٦٥	١٤,٨٨	٠,٥-
٣	٠,٤	٥	٠,٢١	٤,٧٦	١,٥٤
٤	٠,٩٣	١٨,٨٩	٠,٨٧	١٧,٢٤	١,٨-
٥	٠,٨٤	١٥,١١	٠,٦٩	١٥,١٢	٠,٧-
٦	٠,٩	١٧,٦٣	٠,٨١	١٦,٥٣	٠,٧٥-
٧	٠,٥٤	٨,٣٧	٠,٣٧	٨,٠٦	١,١٣
٨	٠,٨	١٣,٢١	٠,٦	١٤,١٧	٠,٤-
٩	٠,٨٨	١٦,٧٩	٠,٧٧	١٦,٠٦	١,١٥-
١٠	٠,٨٤	١٤,٨٩	٠,٦٨	١٥,١٢	٠,٨٨-
١١	٠,٦٦	٧,٣٢	٠,٣٢	١٠,٨٨	٠,٤٤
١٢	٠,٤٦	٨,١٦	٠,٣٦	٦,١٨	١,٢٨
١٣	٠,٧	٩	٠,٤	١١,٨٢	٠,٣٤
١٤	٠,٤٩	٦,٤٧	٠,٢٨	٦,٨٨	١,١٦٣
١٥	٠,٨٨	١٦,٣٧	٠,٧٥	١٦,٠٦	١,٤٣-
١٦	٠,٧١	٩,٢١	٠,٤١	١٢,٠٦	٠,٣١-
١٧	٠,٩٢	١٨,٠٥	٠,٨٣	١٧	٠,٦٤-
١٨	٠,٧٩	١٢,٥٨	٠,٥٧	١٣,٩٤	٠,١٨-
١٩	٠,٨٩	١٦,٧٩	٠,٧٧	١٦,٢٩	٠,٨٩-
٢٠	٠,٧٢	١٠,٠٥	٠,٤٥	١٢,٢٩	٠,٠٥-
٢١	٠,٨	١٣,٢١	٠,٦	١٤,١٨	٠,٢١-
٢٢	٠,٨٥	١٥,١١	٠,٦٩	١٥,٣٥	٠,٦٦-
٢٣	٠,٨	١٣,٤٢	٠,٦١	١٤,١٨	٠,٤٨-
٢٤	٠,٨٧	١٦,١٦	٠,٧٤	١٥,٨٢	١,١٦-
٢٥	٠,٨٥	١٥,٣٢	٠,٧	١٥,٣٥	٠,٩٧-
٢٦	٠,٨٧	١٦,١٦	٠,٧٤	١٥,٨٢	٠,٦٤-

المعلم (a ₃)	المُؤدج ثلاثي	معامل التمييز بعد تصحيح التخمين (a ₂)	تحويل فشر z- Fisher	معامل التمييز قبل تصحيح التخمين (a ₁)	تحويل فشر z- Fisher	م
١, ١٣-	١٧, ٢١	٠, ٧٩	١٦, ٥٢	٠, ٩	١٦, ٥٢	٢٧
١, ٢١-	١٦, ٥٨	٠, ٧٦	١٦, ٠٦	٠, ٨٨	١٦, ٠٦	٢٨
١, ٢٦-	١٧, ٤٢	٠, ٨	١٦, ٥٢	٠, ٩	١٦, ٥٢	٢٩
٠, ٧٢-	١٤, ٦٨	٠, ٦٧	١٤, ٨٨	٠, ٨٢	١٤, ٨٨	٣٠
٢, ٧٦-	١٢, ٥٨	٠, ٥٧	١٣, ٩٤	٠, ٧٩	١٣, ٩٤	٣١
٠, ٣١-	١٣, ٢١	٠, ٦	١٤, ١٨	٠, ٨	١٤, ١٨	٣٢
٠, ٥٩-	١٧, ٤٢	٠, ٨	١٦, ٥٢	٠, ٩	١٦, ٥٢	٣٣
٠, ٩-	١٧, ٢١	٠, ٧٩	١٦, ٢٩	٠, ٨٩	١٦, ٢٩	٣٤
٠, ٢٦	١٠, ٠٥	٠, ٤٥	١٢, ٢٩	٠, ٧٢	١٢, ٢٩	٣٥
٠, ٨٧-	١٦, ٣٧	٠, ٧٥	١٥, ٨٢	٠, ٨٧	١٥, ٨٢	٣٦
٠, ٢١-	١١, ٧٤	٠, ٥٣	١٣, ٢٤	٠, ٧٦	١٣, ٢٤	٣٧
٠, ٦٧-	١٥, ١١	٠, ٦٩	١٥, ٣٥	٠, ٨٥	١٥, ٣٥	٣٨
١, ٦٧	٦, ٨٩	٠, ٢	٧, ٥٨٨	٠, ٥٢	٧, ٥٨٨	٣٩
٠, ٣٦	٦, ٤٧	٠, ٢٨	١٠, ٤١	٠, ٦٤	١٠, ٤١	٤٠
٠, ٣١	٩, ٦٣	٠, ٤٣	١٢, ٠٦	٠, ٧١	١٢, ٠٦	٤١
٠	٧, ١١	٠, ٣١	٢, ٦٥	٠, ٣١	٢, ٦٥	٤٢
٠	٥, ٢١	٠, ٢٢	١	٠, ٢٤	١	٤٣
٠, ٦٤-	١٦, ١٦	٠, ٧٤	١٥, ٨٢	٠, ٨٧	١٥, ٨٢	٤٤
٠, ٣٧-	١٢, ٩١	٠, ٥٩	١٣, ١١	٠, ٧٥	١٣, ١١	المتوسط
٠, ٨٨	٤, ٠٦	٠, ١٩	٣, ٩٩	٠, ١٧	٣, ٩٩	الانحراف المعياري
٢, ٧٦-	٥	٠, ٢١	١	٠, ٢٤	١	أقل قيمة
١, ٦٧	١٨, ٨٩	٠, ٨٧	١٧, ٢٤	٠, ٩٣	١٧, ٢٤	أعلى قيمة

يُتضح من الجدول رقم (٦) أن قيمة مُعامل صعوبة الفقرات المُقدّرة باستخدام النّظرية التّقليدية قبل تصحيح أثر التّخمين تراوحت بين (٠, ٢٤ و ٠, ٩٣) بمتوسط حسابي (٠, ٧٥)، وانحراف معياري (٠, ١٧)، وعند تحويل القيم باستخدام طريقة دلّتا تراوحت القيم بين (١ و ١٧, ٢٤)، وبمتوسط حسابي (١٣, ١١)، وانحراف معياري (٣, ٩٩).

كما كانت قيمة معامل الصعوبة وفق النظرية التقليدية بعد التصحيح من أثر التخمين تتراوح بين (٠, ٢١, ٨٧, ٠)، وبمتوسط حسابي (٠, ٥٩)، وانحراف معياري (٠, ١٩)، وبعد تحويل قيم معامل الصعوبة إلى قيم دللتا تراوحت قيم معامل الصعوبة بين (٥, ٨٩, ١٨)، وبمتوسط حسابي (١٢, ٩١)، وانحراف معياري (٤, ٠٦).

كما كانت قيم معامل الصعوبة للفقرات المقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي الثلاثي المعلم تتراوح بين (-٠, ٧٦, ٢, ٦٧, ١)، وبمتوسط حسابي (-٠, ٣٧)، وانحراف معياري قدره (٠, ٨٨).

ولتحديد قيمة العلاقة واتجاهها تم حساب معاملات الارتباط بين معاملات الصعوبة المقدرة بالنظرية التقليدية قبل تصحيح أثر التخمين وبعد التصحيح كما في الجدول رقم (٧).

جدول رقم (٧)

معاملات الارتباط بين معاملات الصعوبة المقدرة بالنظرية التقليدية قبل تصحيح أثر التخمين وبعد التصحيح والمقدرة بالنموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم.

المتغير	معاملات الصعوبة قبل التصحيح من أثر التخمين	معاملات الصعوبة بعد التصحيح من أثر التخمين	معاملات الصعوبة المقدرة بالنموذج الثلاثي المعلم
معاملات الصعوبة قبل تصحيح أثر التخمين	٠, ٩٩١**		- ٠, ٨٤٢**
معاملات الصعوبة بعد التصحيح من أثر التخمين			- ٠, ٨٤٤**

من جدول رقم (٧) يتضح أن قيمة معامل الارتباط بين معاملات الصعوبة للفقرات (N=44) المقدرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين، وبعد التصحيح من أثر التخمين يساوي (0.991 = r_{b12})، وهو معامل ارتباط طردي قوي جداً ذو دلالة إحصائية عند مستوى دلالة (٠, ٠٠١)، وهذا يعني قوة العلاقة واتجاهها الموجب بين قيم معامل الصعوبة المقدرة بالنظرية التقليدية قبل إزالة أثر التخمين

وبعد إزالة أثر التخمين بالنظرية التقليدية، ويفسر الباحث ذلك بوجود تشابهاً قوياً في قيم معامل الصعوبة قبل إزالة أثر التخمين وبعد إزالة أثر التخمين باستخدام المعادلة رقم (٢) من معادلات تصحيح أثر التخمين وفق النظرية التقليدية وهذا يعني أن هذه المعادلة تعطي قيمةً مشابهة لما قبل التصحيح، لذا كانت قيمة معامل الارتباط قوية جداً وطردية.

وبحساب قيمة معامل الارتباط بين قيم معاملات الصعوبة المقدرة وفق النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين والمقدرة باستخدام النموذج ثلاثي المعلم نجد أن قيمة معامل الارتباط تساوي $(r_{b13} = -0.842)$ وهي قيمة دالة عند مستوى دلالة $(0, 001)$ ، وهي تدل على أن قيمة العلاقة كانت مرتفعة وسالبة، وتدل القيمة السالبة على اختلاف تدرج معامل الصعوبة في النموذج ثلاثي المعلم، والملاحظ أن قيمة معامل الارتباط كانت أقل نسبياً من قيمة معامل الارتباط السابق.

كما يلاحظ أيضاً أن قيمة معامل الارتباط بين معاملات الصعوبة المقدرة باستخدام النظرية التقليدية بعد تصحيح أثر التخمين ومعاملات الصعوبة المقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم يساوي $(r_{b23} = -0.844)$ ، وهي قيمة دالة عند مستوى دلالة $(0, 001)$ ، وهي قيمة مرتفعة وسالبة ولكنها أقل من قيمة معامل الارتباط r_{b12} .

وللمقارنة بين معامل الارتباط (r_{b12}) ، والذي قيمته تساوي $(0, 991)$ ومعامل الارتباط (r_{b13}) والذي قيمته تساوي $(-0, 842)$ ، تم استخدام المعادلة رقم (١١) اختبار (t) لاختبار الفروق بين معاملات الارتباط $(Field, 2013, p286-287)$ ، وقد كانت قيمة t لاختبار الفروق تساوي $(11, 36)$ وهي قيمة دالة عند مستوى دلالة $(0, 01)$ ، وهذا يدل على وجود فروق بين معامل الارتباط (r_{b12}) ، ومعامل الارتباط (r_{b13}) ، وهذا يعني أن معامل ارتباط معاملات الصعوبة المقدرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وتلك المقدرة بعد التصحيح من أثر التخمين يختلف عن معامل ارتباط معاملات الصعوبة المقدرة باستخدام النموذج ثلاثي المعلم ومعاملات الصعوبة المقدرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين، وهذا يشير إلى اختلاف معالجة النموذج الثلاثي المعلم لعامل التخمين عند

المقارنة بين النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية في معالجة أثر التخمين عند تقدير المؤشرات الإحصائية للفقرات والأفراد في اختبار الصواب والخطأ

تقديره لمعامل الصعوبة عن النظرية التقليدية، ويمكن تفسير النتائج في ضوء اختلاف خصائص النظرية التقليدية حيث تتأثر بخصائص العينة والفقرات، بينما تتعامل نظرية الإستجابة للفقرة مع كل فقرة بشكل مستقل وربما يكون هذا سبب الاختلاف بين معاملي الارتباط وهي نتيجة تتفق مع ما توصلت إليه دراسة (Fan, 1998)، و (عبد الوهاب، ٢٠١٣)، و (Thissen & Zimowski, 1997)، و (Kiany & Jalali 2009) في اختلاف النتائج المقدرة لمعامل الصعوبة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم عن المقدرة وفق النظرية التقليدية، والذي يعود إلى أن النموذج اللوغاريتمي الثلاثي المعلم يعالج مشكلة أثر التخمين في تقديرات معالم الفقرات والأفراد بشكل أفضل من معادلات تصحيح أثر التخمين وفق النظرية التقليدية.

للإجابة عن السؤال الثالث: هل يوجد اختلاف بين معاملي ارتباط معاملات التمييز لفقرات الاختبار من نوع الصواب والخطأ (عند تقديرها باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وبعد التصحيح من أثر التخمين)، و (عند تقديرها باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين ومعامل التمييز المقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم)؟

للإجابة عن هذا التساؤل قام الباحث بتحويل قيم معاملات التمييز المقدرة باستخدام النظرية التقليدية قبل تصحيح أثر التخمين وكذلك بعد التصحيح من أثر التخمين إلى قيم (z- Fisher) حتى تكون القيم خطية.

جدول رقم (٨)

معاملات التمييز المقدرة باستخدام النظرية التقليدية قبل تصحيح التخمين وبعد التصحيح والمقدرة باستخدام النموذج ثلاثي المعلم.

م	معامل التمييز قبل تصحيح التخمين (a_1)	تحويل فشر z- Fisher	معامل التمييز بعد تصحيح التخمين (a_2)	تحويل فشر z- Fisher	المعلم ثلاثي (a_3)
١	٠,٤	٠,٤٢	٠,٣٤	٠,٣٥٢	١,٢٤
٢	٠,٢٦	٠,٢٧	٠,٢٠	٠,٢٠٣	١,١٤
٣	٠,٢١	٠,٢١	٠,٢٠	٠,١٩٩	١,٥٧
٤	٠,٦٤	٠,٧٥	٠,٣٤	٠,٣٣٦	١,٣٧

المعلم (a ₃) التموذج ثلاثي	تحويل فشر Z- Fisher	معامل التمييز بعد تصحيح التخمين (a ₂)	تحويل فشر z- Fisher	معامل التمييز قبل تصحيح التخمين (a ₁)	م
١,٥٧	٠,٣٥٤	٠,٣٤	٠,٣٣	٠,٥٠	٥
٢,٤٧	٠,٢٧٥	٠,٢٧	٠,٤٩	٠,٤٥	٦
٢,٤٢	٠,١٩٤	٠,١٩	٠,٢١	٠,٢٠	٧
١,٣١	٠,٣٠٧	٠,٣٠	٠,٤٢	٠,٤٠	٨
١,٥٨	٠,٤١٩	٠,٤٠	٠,٧٣	٠,٦٣	٩
١,٤٧	٠,٤٠٩	٠,٣٩	٠,٦٢	٠,٥٦	١٠
١,٣١	٠,٢٩	٠,٢٨	٠,٣٦	٠,٣٤	١١
٢,٢٣	٠,١٨٤	٠,١٨	٠,٢٣	٠,٢٣	١٢
١,٦٤	٠,٢٣	٠,٢٣	٠,٢٧	٠,٢٦	١٣
٢,١٢	٠,١٩٤	٠,١٩	٠,٢٢	٠,٢٢	١٤
١,٢٩	٠,٤١٩	٠,٤٠	٠,٦١	٠,٥٥	١٥
١,٣٩	٠,٤٣٣	٠,٤١	٠,٥٦	٠,٥١	١٦
٥,٢٤	٠,٤	٠,٣٨	٠,٨٠	٠,٦٦	١٧
١,٢٨	٠,٢٣٤	٠,٢٣	٠,٣٠	٠,٣٠	١٨
٢,٢٥	٠,٤٣٣	٠,٤١	٠,٧٧	٠,٦٥	١٩
١,٣٣	٠,٣٢٩	٠,٣٢	٠,٤١	٠,٣٩	٢٠
٢,١٢	٠,٣٠١	٠,٢٩	٠,٤٠	٠,٣٨	٢١
١,٤	٠,٢٦٢	٠,٢٦	٠,٣٧	٠,٣٦	٢٢
١,١٦	٠,٢٨٨	٠,٢٨	٠,٣٩	٠,٣٧	٢٣
١,٢٩	٠,٣١٤	٠,٣٠	٠,٥١	٠,٤٧	٢٤
١,٣٩	٠,٣٦١	٠,٣٥	٠,٥٥	٠,٥٠	٢٥
١,٨٩	٠,٢٨٨	٠,٢٨	٠,٤٤	٠,٤١	٢٦
٢,١٩	٠,٤٨٥	٠,٤٥	٠,٩٥	٠,٧٤	٢٧
١,٤٩	٠,٣٦١	٠,٣٥	٠,٦٠	٠,٥٤	٢٨
١,٧٥	٠,٤٥	٠,٤٢	٠,٨٦	٠,٧٠	٢٩
٢,٠٩	٠,٤٨	٠,٤٥	٠,٧٦	٠,٦٤	٣٠
٠,١	٠,٠٤٤	٠,٠٤	٠,٠٣	٠,٠٣	٣١
١,٧٣	٠,٣٤١	٠,٣٣	٠,٤٧	٠,٤٤	٣٢
٣,٨٦	٠,٣٣٦	٠,٣٣	٠,٥٩	٠,٥٣	٣٣
١,٩٧	٠,٣٠١	٠,٢٩	٠,٧٣	٠,٦٢	٣٤

المقارنة بين النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية في معالجة أثر التخمين عند تقدير المؤشرات الإحصائية للفقرات والأفراد في اختبار الصواب والخطأ

م	معامل التمييز قبل تصحيح التخمين (a_1)	تحويل فشر z- Fisher	معامل التمييز بعد تصحيح التخمين (a_2)	تحويل فشر z- Fisher	المعلم ثلاثي (a_3)
٣٥	٠,١٩	٠,١٦٨	٠,١٧	٠,١٩	١,١٦
٣٦	٠,٦٤	٠,٤٤	٠,٤٢	٠,٧٦	٢,٠٨
٣٧	٠,٤٨	٠,٣٩٣	٠,٣٧	٠,٥٣	١,٩٣
٣٨	٠,٤٩	٠,٣٥٤	٠,٣٤	٠,٥٣	١,٧٣
٣٩	٠,١٧	٠,١٦٣	٠,١٦	٠,١٧	١,٠٨
٤٠	٠,٣٧	٠,٣٢٥	٠,٣١	٠,٣٩	٢
٤١	٠,٣٢	٠,٢٧٩	٠,٢٧	٠,٣٣	٢,٠٧
٤٢	٠,٠٧-	٠,٠٢٤-	٠,٠٢-	٠,٠٦	١
٤٣	٠,١٥-	٠,٠٨٧-	٠,٠٩-	٠,١٥-	١
٤٤	٠,٤٣	٠,٣١٢	٠,٣٠	٠,٤٧	١,٨٩
المتوسط	٠,٤١	٠,٣٠	٠,٢٩	٠,٤٥	١,٧٤
الانحراف المعياري	٠,٢٠	٠,١٢	٠,١٢	٠,٢٤	٠,٧٩
أقل قيمة	٠,١٥-	٠,٠٩-	٠,٠٩-	٠,١٥-	٠,١
أعلى قيمة	٠,٧٤	٠,٤٩	٠,٤٥	٠,٩٥	٥,٢٤

يتضح من خلال الجدول رقم (٨) أن قيم معامل تمييز الفقرات وفق النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين قد تراوحت قيمته بين (-١٥, ٠,٧٤)، وبمتوسط حسابي (٠,٤١)، وانحراف معياري (٠,٢٠)، كما تم استخدام تحويل فشر (z-Fisher)، وقد تراوحت القيم بين (-١٥, ٠,٩٥)، وبمتوسط حسابي (٠,٤٥)، وانحراف معياري (٠,٢٤).

كما نجد أن قيم معامل تمييز الفقرات المقدرة بالنظرية التقليدية بعد التصحيح من أثر التخمين قد تراوحت بين (-٠,٠٩، ٠,٤٥)، وبمتوسط حسابي (٠,٢٩)، وانحراف معياري (٠,١٢)، وبعد استخدام تحويل فشر تراوحت قيم معاملات التمييز بين (-٠,٠٩، ٠,٤٩)، وبمتوسط حسابي (٠,٣٠)، وانحراف معياري (٠,١٢).

ويلاحظ كذلك أن قيم معاملات التمييز للفقرات وفق النموذج ثلاثي المعلم تراوحت بين (٠,١، ٥,٢٤)، وبمتوسط حسابي (١,٧٤)، وانحراف معياري (٠,٧٩).

جدول رقم (٩)

مُعاملات الارتباط بين مُعاملات التمييز المُقدّرة بالنظرية التقلّيدية قبل تصحيح أثر التّخمين وبعد التّصحيح والمقدّرة بالنموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم.

المتغير	مُعاملات التمييز قبل التّصحيح من أثر التّخمين	مُعاملات التمييز بعد التّصحيح من أثر التّخمين	مُعاملات التمييز المقدّرة بالنموذج الثلاثي المعلم
مُعاملات التمييز قبل تصحيح أثر التّخمين	٠,٩٠٧**	٠,٤٤٢**	
مُعاملات التمييز بعد التّصحيح من أثر التّخمين		٠,٣٦٤**	

من جدول رقم (٩) يتضح أن قيمة مُعامل الارتباط بين مُعاملات التمييز للفقرات (N=44) المقدّرة باستخدام النظرية التقلّيدية قبل التّصحيح من أثر التّخمين، وبعد التّصحيح من أثر التّخمين يساوي ($r_{a12}=0.907$)، وهو مُعامل ارتباط طردي قوي ذو دلالة إحصائية عند مُستوى دلالة (٠,٠٠١)، وهذا يعني أن قيم مُعامل التمييز المقدّرة وفق النظرية التقلّيدية قبل إزالة أثر التّخمين والمقدّرة بعد إزالة أثر التّخمين وفق النظرية التقلّيدية متقاربة بدرجة عالية جداً.

وبحساب قيمة مُعامل الارتباط بين قيم مُعاملات التمييز المقدّرة وفق النظرية التقلّيدية قبل التّصحيح من أثر التّخمين والمقدّرة باستخدام النموذج ثلاثي المعلم نجد أن قيمة مُعامل الارتباط تساوي ($r_{a13}=0.442$)، وهي قيمة دالة عند مُستوى دلالة (٠,٠٠١)، وهي تدل على أن العلاقة متوسطة، ولكنها لا تعني التقارب الكبير بين قيم مُعامل التمييز المقدّرة باستخدام النظرية التقلّيدية قبل إزالة أثر التّخمين وتلك المقدّرة بالنموذج الثلاثي المعلم.

كما نلاحظ أيضاً أن قيمة مُعامل الارتباط بين مُعاملات التمييز المقدّرة باستخدام النظرية التقلّيدية بعد تصحيح أثر التّخمين ومُعاملات التمييز المقدّرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم يساوي ($r_{a23}=0.364$)، وهي قيمة دالة عند مُستوى دلالة (٠,٠٠١)، وهي قيمة ارتباطية منخفضة وموجبة.

وللمُقارنة بين مُعامل الارتباط (r_{a12})، والذي قيمته تساوي (٠,٩٠٧)، ومُعامل الارتباط (r_{a13})، والذي قيمته تساوي (٠,٤٤٢)، تم استخدام معادلة اختبار (t)

المقارنة بين النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية في معالجة أثر التخمين عند تقدير المؤشرات الإحصائية للفقرات والأفراد في اختبار الصواب والخطأ

لاختبار الفروق بين معاملات الارتباط غير المستقلة (Field, 2013, p286-287)، وقد كانت قيمة t لاختبار الفروق تساوي (5, 6)، وهي قيمة دالة عند مستوى دلالة (0, 01)، وهذا يدل على وجود فروق بين معامل الارتباط r_{a12} ، ومعامل الارتباط r_{a13} ، وهذا يعني أن معامل ارتباط معاملات التمييز المقدرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين، وتلك المقدرة بعد التصحيح من أثر التخمين يختلف عن معامل ارتباط معاملات التمييز المقدرة باستخدام النموذج ثلاثي المعلم ومعاملات التمييز المقدرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين، وهذا يعني اختلاف المعالجة بين النموذج الثلاثي المعلم لعامل التخمين عند تقديره لمعامل التمييز عن النظرية التقليدية، وهي تتفق مع نتائج دراسة (Courville, 2004)، و-Kia (ny & Jalali, 2009) والتي أظهرت وجود علاقة ارتباطية دالة وموجبة بين معاملات التمييز في النظرية التقليدية والنموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم.

للإجابة عن السؤال الرابع: هل يوجد اختلاف بين معاملي ارتباط تقديرات الطلاب (عند تقديرها باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وبعد التصحيح من أثر التخمين)، و(عند تقديرها باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين ومعامل ارتباط تقديرات الطلاب المقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم؟).

جدول رقم (١٠)

تقديرات درجات الطلاب وفق النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وبعد التصحيح وباستخدام النموذج اللوغاريتمي الثلاثي المعلم.

الانحراف المعياري	المتوسط	أعلى قيمة	أقل قيمة	نموذج التقديرات
٥,٦٢	٣٣,٢١	٤٦	١٦	التقدير وفق النظرية التقليدية قبل التصحيح لأثر التخمين (θ_1)
٨,٤٢	٢٧,٨١	٤٧	٢	التقدير وفق النظرية التقليدية بعد التصحيح (θ_2)
١,١٦	٠,٠٦-	٣,٦٤	٣,٨١-	التقدير وفق النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم (θ_3)

من الجدول رقم (١٠) نجد أن تقدير درجات الطلاب وفق النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين قد تراوحت بين (١٦ و٤٦)، وبمتوسط حسابي (٢١، ٣٣)، وانحراف معياري (٥، ٦٢).

كما كانت تقديرات الطلاب بعد التصحيح من أثر التخمين وفق النظرية التقليدية تتراوح بين (٢ و٤٧)، وبمتوسط حسابي (٨، ٢٧)، وانحراف معياري (٨، ٤٢).

كما نجد أن تقديرات الطلاب وفق النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم قد تراوحت بين (-٨١، ٣ و٣، ٦٤) بمتوسط حسابي (-٠، ٠٦)، وانحراف معياري (١، ١٦).

جدول رقم (١١)

معاملات الارتباط بين تقديرات الأفراد وفق النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وبعد التصحيح ووفق النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم.

المتغير	تقديرات الأفراد قبل التصحيح من أثر التخمين	تقديرات الأفراد بعد التصحيح من أثر التخمين	تقديرات الأفراد المقدرّة بالمُؤج الثلاثي المعلم
تقديرات الأفراد قبل تصحيح أثر التخمين	٠,٩٩٧**	٠,٩٢١**	
تقديرات الأفراد بعد التصحيح من أثر التخمين		٠,٩٢١**	

من جدول رقم (١١) يتضح أن قيمة مُعامل الارتباط بين قدرات الأفراد المقدرّة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين وبعد التصحيح من أثر التخمين تساوي ($r_{012}=0.997$)، وهو مُعامل ارتباط طردي ذو دلالة إحصائية عند مُستوى دلالة (٠, ٠٠١)، وهذا يعني وجود علاقة طردية قوية جداً، مما يعني أن قيم القدرات المقدرّة وفق النظرية التقليدية قبل إزالة أثر التخمين متقاربة إلى حد كبير مع قيم القدرات المقدرّة وفق النظرية التقليدية بعد إزالة أثر التخمين.

وبحساب قيمة مُعامل الارتباط بين مُعامل ارتباط قدرات الأفراد المقدرّة وفق النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين والمقدرّة باستخدام النموذج ثلاثي

المقارنة بين النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم والنظرية التقليدية في معالجة أثر التخمين عند تقدير المؤشرات الإحصائية للفقرات والأفراد في اختبار الصواب والخطأ

المعلم نجد أن قيمة معامل الارتباط تساوي ($r_{013}=0.921$)، وهي قيمة دالة عند مستوى دلالة (0, 001)، وهي تدل كذلك على أن العلاقة قوية جداً.

كما نلاحظ أيضاً أن قيمة معامل الارتباط بين قدرات الأفراد المقدرة باستخدام النظرية التقليدية بعد تصحيح أثر التخمين وقدرات الأفراد المقدرة باستخدام النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم يساوي ($r_{023}=0.921$)، وهي قيمة دالة عند مستوى دلالة (0, 001)، وهي أيضاً قيمة ارتباطية طردية قوية جداً.

وللمقارنة بين معامل الارتباط (r_{012}) والذي تساوي قيمته (0, 997) ومعامل الارتباط (r_{013}) والذي تساوي قيمته (0, 921) استخدم الباحث معادلة اختبار t لاختبار الفروق بين معاملات الارتباط غير المستقلة (Field, 2013, p286-287)، وقد كانت قيمة t لاختبار الفروق تساوي (50, 5)، وهي قيمة دالة عند مستوى دلالة (0, 01)، وهذا يدل على وجود فروق بين معامل الارتباط r_{012} ، ومعامل الارتباط r_{013} ، وهذا يعني أن ارتباط قدرات الأفراد المقدرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين، وتلك المقدرة بعد التصحيح من أثر التخمين يختلف عن معامل ارتباط قدرات الأفراد المقدرة باستخدام النموذج ثلاثي المعلم وقدرات الأفراد المقدرة باستخدام النظرية التقليدية قبل التصحيح من أثر التخمين، وهذا يعني اختلاف معالجة النموذج الثلاثي المعلم لعامل التخمين عند تقديره لقدرات الأفراد عن النظرية التقليدية إلى حد ما، وهي تتفق مع دراسة (عبد الوهاب، 2012)، و (Fan, 1998)، و (Courville, 2004)، و (Kiany&Jalali, 2009) في معالجة النموذج اللوغاريتمي الثلاثي المعلم لمشكلة أثر التخمين على تقديرات الأفراد.

ولقد تبين من النتائج التي توصلت إليها الدراسة أنه يوجد اختلاف في قيمة معامل الارتباط بين النموذج الثلاثي اللوغاريتمي في معالجة أثر التخمين وبين استخدام طرق النظرية التقليدية عند تقدير معاملات الصعوبة أو معاملات التمييز أو تقدير قدرات الأفراد، وقد يعود هذا إلى تعامل النموذج اللوغاريتمي ثلاثي المعلم مع كل فقرة على حدة عند تقدير إحصاءات الفقرات أو الأفراد وهذا ينسجم مع بعض المواقف الاختبارية، وليس الدرجة الكلية كما في النظرية التقليدية والتي تتأثر كما هو معروف

بخصائص العينة للأفراد والفقرات والتوزيع الطبيعي مما ينعكس على نتائج قيم معاملات الصعوبة والتميز للفقرات وقدرات الأفراد .

التوصيات: تُوصي الدراسة الحالية بناءً على نتائج الدراسة السابقة بما يلي:

١. استخدام النموذج ثلاثي المعلم لمعالجة مشكلة أثر التخمين في اختبارات الصواب والخطأ عند تقدير المؤشرات الإحصائية للفقرات.
٢. كما يمكن استخدام النموذج اللوغاريتمي الثلاثي المعلم لإزالة أثر التخمين عند تقدير قدرات الأفراد في اختبارات الصواب والخطأ.
٣. توظيف برامج نظرية الاستجابة للفقرة في تحليل البيانات.
٤. تدريب العاملين في الميدان التربوي وفي مجال الاختبارات تحديداً على كيفية التعامل مع مشكلة أثر التخمين.

قائمة المراجع

١. أبو لبدة، سبع محمد (٢٠٠٨)، مبادئ القياس النفسي والتقييم التربوي، الأردن: دار الفكر.
٢. الخرشنة، طه (٢٠٠٤)، أثر طرق التصحيح لأثر التخمين على الخطأ المعياري للقياس وثبات الاختبار وشكل التوزيع، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن.
٣. الدوسري، إبراهيم (٢٠٠٠)، الإطار المرجعي للتقويم التربوي، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج.
٤. الزيون، حابس (٢٠٠٤)، أثر استخدام ثلاث طرق للتصحيح لضبط أثر التخمين في الخصائص السيكومترية للاختبارات الاختيار من متعدد في ضوء نظرية استجابة الفقرة، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن.
٥. سواقد، ساري (١٩٨٥)، استقصاء أثر ثلاث طرق لتصحيح اختبارات الاختيار من متعدد على الخصائص السيكومترية للاختبار، وعلى أداء المفحوصين عليه، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، الأردن، مج ١٢، ع ١١، ص ٢٧-٤٢.
٦. الصمادي، مروان (٢٠١٢)، أثر طريقة تصحيح اختبار الصواب - الخطأ المتعدد على الخصائص السيكومترية للاختبار وفقراته، مجلة العلوم التربوية والنفسية، البحرين، مج ١٣، ع ٣، ص ٢٨١-٣٠٦.
٧. صمم، ميساء (٢٠١٢)، أثر طرق التصحيح لضبط التخمين في اختبارات الاختيار من متعدد على كل من مؤشر الفقرة ومؤشر صدقها، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن.
٨. الطريري، عبد الرحمن (١٩٩٧)، القياس النفسي والتربوي، نظريته، أسسه، تطبيقاته، الرياض: مكتبة الرشد.

٩. عبد الوهاب، محمد (٢٠١٣)، المقارنة بين النظرية الكلاسيكية والنموذج ثلاثي البارامتر في معالجة أثر التخمين عند تقدير إحصائيات الأفراد والمفردات في اختبار اختيار من متعدد، المجلة التربوية، الكويت، مج ٢٨، ع ١٠٩، ص ١٢١-١٦٩.
١٠. علام، صلاح الدين محمود (٢٠٠٠)، القياس والتقويم التربوي والنفسي، أساسياته وتطبيقاته وتوجهاته المعاصرة، القاهرة: دار الفكر العربي.
١١. علام، صلاح الدين محمود (٢٠٠٥)، نماذج الاستجابة للمفردة الاختبارية أحادية البعد ومُتعددة الأبعاد وتطبيقاتها في القياس النفسي والتربوي، القاهرة: دار الفكر العربي.
١٢. عودة، أحمد (٢٠١٠)، القياس والتقويم في العملية التدريسية، إربد، دار الأمل.
١٣. عودة، أحمد (٢٠١٤)، تصحيح معاملات صعوبة الفقرات لأثر التخمين في أسئلة الاختيار من متعدد: صورة مُعدلة لمعادلة جيلفورد، مجلة الدراسات التربوية والنفسية، سلطنة عمان، مج ٨، ع ٢٤، ص ٢٤٨-٢٥٧.
١٤. مراد، صلاح وسليمان، أمين (٢٠٠٢)، الاختبارات والمقاييس في العلوم النفسية والتربوية خطوات إعدادها وخصائصها، القاهرة: دار الكتاب الحديث.
15. Abedalaziz, N. & Leng, C. (2013). The Relationship between CTT and IRT Approaches in Analyzing Item Characteristics. Malaysian, *The Malaysian Online Journal of Educational Science*, 1(1).
16. Allen, M. & Yen, W. (2002). *Introduction to Measurement Theory*. Waveland Press, Inc.
17. Baker, F. (1977). Advances in Item Analysis. *Review of Educational Research*, Vol.(47) , No.(1) , PP. 151178-.
18. Çikrikci-dem, N. (2002). A Study of Raven Standard Progressive Matrices Tests Item Measures under classic and Item Response

- models: an empirical comparison. *Journal of faculty Education sciences*, Vol.(35), (1-2).
19. Courville, T. (2004). *An empirical comparison of Item response Theory and classical test Theory Item/ Person Statistics*, Unpublished Doctoral Dissertation, Texas University .
 20. Crocker , L. & Algina, J. (1986). *Introduction to classical and Modern Test Theory*. New York , CBS College Publishing.
 21. Demars, C. (2010). *Item Response Theory*. New York: Oxford University Press.
 22. Ebel, R. (1979). *Essentials of Educational Measurement*. (3rd ed). New Jersey: Englewood Cliffs.
 23. Embretson, S. & Reise, S. (2000). *Item Response Theory for Psychologists*. New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates.
 24. Fan , X. (1998). Item response theory and classical theory: An empirical comparison of their item / person statistics. *Educational and psychological Measurement* ,58(3), p357381-.
 25. Field, A. (2013). *Discovering Statistics using IBM SPSS Statistics*. Los Angeles: Sage.
 26. Hambleton , R. & Swaminathan , H. & Rogers, H. (1991). *Fundamentals of Item Response Theory*. California , New bury Park sage Publications Inc.
 27. Hambleton, R. & Swaminathan, H. (1985). *Item Response Theory: principles and applications*. Boston: Kluwer Neuhoff publishing.
 28. Hambleton, R. K. & Jones , R. W. (1993). Comparison of classical test Theory and Item Response Theory and their Applications to test Development: Issues and Practice, *Journal of Educational*

Measurement, Vol.(12), p38-47.

29. Hambleton, R. K. & Zaal, J. N. (1991) . *Advances in Educational and Psychological testing*. Boston: kluwer Academic Publishers.
30. Hwang, D.Y. (2002). *Classical Test Theory and Item Response Theory: Analytical and Empirical Comparison*. Paper presented at the Annual Meeting of the Southwest Educational Research Association, Austin, TX. (ERIC Document Reproduction Service) No. ED466779.
31. Kiany, G. & Jalali, S. (2009). Theoretical and Practical Comparison of Classical Test Theory and Item-Response Theory. *IJAL*, Vol.(12), No.(1), www.SID.ir
32. Klaus, D. & Christian, H. (2007). Item difficulty of multiple choice tests dependent on different item response formats – An experiment in fundamental research on psychological assessment. *Psychology Science*, Vol.(49), No.(4), p361374-.
33. Miller, M. ; Linn, R. & Gronlund, N. (2013). *Measurement and Assessment in Teaching*. New Jersey: Pearson Education.
34. Ostini, R. & Nering, M. (2006). *Polytomous Item Response Theory Models*. California: Sage Publications, Inc.
35. Progar,S. & Socan, G. (2008). An empirical comparison of Item Response Theory and Classical Test Theory. *Horizons of Psychology*, Vol.(17), No(3), p524-.
36. Salkind, N. (2013). *Tests and Measurement for People Who (Think They) Hate Tests and Measurement*. London: Sage.
37. Stage, C. (2003). Classical Test Theory or Item Response Theory: The Swedish Experience, *Umea University*, pp130-.

38. Thissen, D. & Zimowski, M.(1997). IRT estimation of domain scores. *Journal of Educational Measurement*, Vol. (34), No(3), p179211-.
39. Wright, R.(2008). *Educational Assessment tests and Measurements in the Age of Accountability*. London: Saga.

